التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة سبأ و سورة فاطر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر / قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس والعشرون

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة سبأ وسورة فاطر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السادس والعشرون - سورة سبأ وسورة فاطر / القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة سبأ - تفسير ٢- القرآن - سورة فاطر - تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٨٢١٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٢١٥

ردمك: ٢-٩٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَرِيمِ

(سورة سبأ وسورة فاطر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوي بن عبد القَادِر السَّقَّاف

المجلد السادس والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

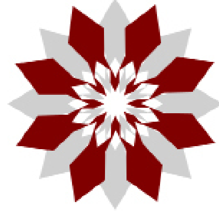
www.dorar.net

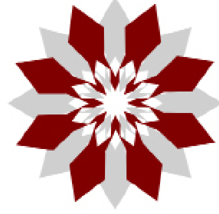
بسم الله الرحمن الرحيم

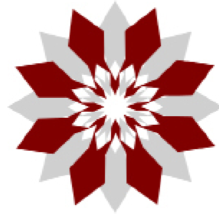


تَفْسِيرُ

سُورَةِ سَبَأٍ







سورةُ سَبَأٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (سَبَأٍ)[(١)].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ سَبَأٍ مَكِّيَّةٌ[(٢)]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[(٣)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ سَبَأٍ:

١- إبطالُ قَواعدِ الشِّركِ، والرَّدُّ على شُبَهِ المشركينَ[(٤)].

٢- بيانُ الحُجَّةِ على التَّوحيدِ، وصِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٥)].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتها سُورةُ سَبَأٍ:

١- الاستِفتاحُ بالحَمدِ لله سُبحانَه المالِكِ لِما في السَّمَواتِ والأرضِ،

---

(١) سُمِّيَت سورةُ (سَبَأٍ) بهذا الاسمِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ سَبأٍ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٣). وقد ورَدتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك؛ منها: ما أخرجه ابنُ الضُّرَيْسِ في ((فضائل القرآن)) (١٧)، عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما. ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٣).

(٢) وقيل: السورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ...﴾ [سبأ: ٦]؛ فمدنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣١).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢).

المحمودِ في الآخِرةِ؛ وبيانُ سَعةِ عِلمِه.

٢- بيانُ تكذيبِ المُشرِكينَ بالقيامةِ والبَعثِ، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِهم الباطِلةِ مع الرَّدِّ عليها.

٣- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السَّلامُ، وابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ قبيلةِ سَبَأٍ، وما آل إليه أمرُهم.

٥- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ له.

٦- ذِكرُ بَعضِ مشاهِدِ يومِ القيامةِ، والحِوارِ الَّذي يَدورُ بيْنَ التَّابِعينَ والمتبوعينَ.

٧- الرَّدُّ على المُترَفينَ الَّذين زَعَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ستنفَعُهم يومَ القيامةِ.

٨- دعوةُ الكافِرينَ إلى التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ في شأنِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٩- تهديدُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في كُفرِهم وعِنادِهم.



الآيتان (١-٢)

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَلِجُ﴾: أي: يَدخُلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[1].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مخبرًا عن نفْسِه الكريمةِ: الحَمدُ للهِ الَّذي له ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وله الحَمدُ في الآخِرةِ؛ فهو المحمودُ أبدًا، وهو الحَكيمُ الخبيرُ الَّذي لا تخفى عليه خافيةٌ، ومِن ذلك أنَّه يعلَمُ ما يدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها، وما يَخرُجُ منها، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يَصعَدُ فيها، وهو الرَّحيمُ بعبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الحمدُ[١] التَّامُّ كلُّه لله وَحْدَه، الَّذي يَملِكُ جَميعَ ما في السَّمواتِ وجميعَ ما في الأرضِ، وهو خالِقُهما ومُدَبِّرُهما والمتصَرِّفُ فيهما[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه الحَمدُ في الآخِرةِ، فهو المحمودُ أبدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال سُبحانَه عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

(١) الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُحمَدُ على ما له مِن الكمالِ الذَّاتيِّ؛ لِما له مِن صفاتِ الكمالِ؛ كالسَّمعِ والبصرِ والعِلمِ والقدرةِ والعَظَمةِ وما أشبَهَها، وهذا لا يكونُ إلَّا لله، ويُحمَدُ على الكمالِ المتعَدِّي للغيرِ بإحسانِه وإنعامِه. واللَّامُ هنا في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحقاقِ -فلا أحدَ يَستحِقُّ أن يُحمَدَ لِذاتِه إلَّا الله- والاختِصاصِ، فالحمدُ المستغرِقُ لكلِّ المحامِدِ لا يكونُ إلَّا لله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣، ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣، ١٤).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتَّعليلِ للحَمدِ؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يدُلُّ على العِلِّيَّةِ، أي: يَحمَدُ اللهُ تعالى نفْسَه؛ لأنَّه مالِكٌ لِما في السَّمواتِ وما في الأرضِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

قال ابنُ جزي: (الحمد في الآخرةِ يحتملُ أنْ يريدَ به الجنسَ، أو يريدَ به قولَه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، أو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦١).

وقال تبارك وتعالى عنهم أيضًا: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نِيطَ حَمدُه في الدُّنيا والآخرةِ بما اقتضَى مَرجِعَ التَّصَرُّفاتِ إليه في الدَّارَينِ؛ أعقَبَ ذلك بصِفَتَيِ الحكيمِ الخبيرِ؛ لأنَّ الَّذي أوجَدَ أحوالَ النَّشأتَينِ هو العَظيمُ الحِكمةِ، الخبيرُ بدقائقِ الأشياءِ وأسرارِها؛ فالحِكمةُ: إتقانُ التَّصَرُّفِ بالإيجادِ وضِدِّه، والخِبرةُ تقتضي العِلمَ بأوائلِ الأُمورِ وعواقِبِها[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

أي: وهو الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، وفي مُلكِه وتدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ وهو الخبيرُ الَّذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، المطَّلِعُ على سرائِرِ الأمورِ وخفاياها[(٢)].

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه أتْبَعَ ما تقدَّمَ مِن حَمدِه على ما هو أهلُه، ببَسطِ شواهِدِ حِكمتِه وعِلمِه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤١).

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها؛ كالمطَرِ، والبُذورِ، والحيوانات، والأمواتِ، والكُنوزِ، وغيرِ ذلك؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ؛ كأنواعِ النَّباتاتِ، والمعادِنِ، والكنوزِ، وغيرِ ذلك، يَعلَمُ عَدَدَه وكيفيَّتَه وصِفاتِه[١].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ؛ كالأمطارِ، والبرَدِ والثُّلوجِ، والصَّواعِقِ، والأرزاقِ، والملائِكةِ؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَصعَدُ ويَدخُلُ في السَّماءِ؛ كالملائكةِ، والأرواحِ، وأعمالِ العِبادِ[٢].

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن جُملةِ أحوالِ ما في الأرضِ أعمالُ النَّاسِ وأحوالُهم مِن عقائدَ وسِيَرٍ، وممَّا يَعرُجُ في السَّماءِ العملُ الصَّالحُ والكَلِمُ الطَّيِّبُ؛ أَتْبَعَ ذلك بقولِه[٣]:

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾.

أي: واللهُ هو الرَّحيمُ بِعبادِه، الغفورُ لِذُنوبِهم؛ فيَستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١-٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

مُؤاخَذتِهم بها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إثباتُ حُكم اللهِ -سُبحانَه وتعالى- الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ، وإثباتُ حِكمتِه المتعلِّقةِ بالكَونِ، والمتعَلِّقةِ بالشَّرعِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ وُجوبُ التَّسليمِ لِقَضائِه الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ؛ بحيثُ لا نُورِدُ أيَّ اعتِراضٍ حتَّى وإن جاء على ما ظاهِرُه خِلافُ الحِكمةِ؛ فإنه يَجِبُ أن نتَّهِمَ عُقولَنا؛ لأنَّه إذا ثبتَ أنَّه عزَّ وجلَّ حَكيمٌ في الحُكمَينِ الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ، لَزِمَ مِن ذلك التَّسليمُ للقَضاءِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ؛ لأنَّه صادِرٌ عن حِكمةٍ، لكنَّ هذه الحِكمةَ قد تخفَى علينا[٢]، فينبغي للمؤمنِ أن يَعلَمَ أنَّ اللهَ سبحانه مالكٌ حكيمٌ لا يعبَثُ، وهذا العِلمُ يوجِبُ نفْيَ الاعتِراضِ على القَدَرِ، والتَّسليمُ هو تكليفُ العقلِ لِيُذعِنَ، وهذا أصلٌ إذا فُهِم حصَل منه السَّلامةُ والتَّسليمُ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ هذا إجمالٌ قُصِدَ منه حثُّ النَّاسِ على طَلَبِ أسبابِ الرَّحمةِ والمَغفِرةِ المرغوبِ فيهما؛ فإنَّ مَن رَغِبَ في تحصيلِ شَيءٍ بحَثَ عن وسائِلِ تحصيلِه، وسعَى إليها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سورةُ (سبأٍ) إحدى سُوَرٍ خَمسٍ مُفتَتَحةٍ بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهي كُلُّها مَكِّيَّةٌ، وقد وُضِعَت في ترتيبِ القُرآنِ: في أوَّلِه، ووَسَطِه، والرُّبُعِ الأخيرِ؛ فكانت أرباعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣٣، ٥١، ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

القُرآنِ مُفتَتَحةً بالحَمدِ لله، كان ذلك بتَوفيقٍ مِن اللهِ، أو توقيفٍ[١].

٢- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يُعَلِّمُنا عزَّ وجلَّ كيفَ نحمَدُه، وكيف نُثْني عليه؛ وهو أهلٌ لأنْ يَمدحَ نفْسَه عزَّ وجلَّ، ويُثْنيَ عليها، وهو في غِنًى عن كَونِه يُظْهِرُ لنا مِن صِفاتِ الكمال ما يُظهِرُ، ولكنْ هذا مِن أجْلِ مصلحتِنا[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقَرَن بيْنَ المُلْكِ والحَمدِ على عاداتِه تعالى في كلامِه؛ فإنَّ اقترانَ أحَدِهما بالآخَرِ له كَمالٌ زائدٌ على الكَمالِ بكُلِّ واحدٍ منهما؛ فله كمالٌ مِن مُلكِه، وكمالٌ مِن حَمدِه، وكمالٌ مِن اقترانِ أحَدِهما بالآخَرِ؛ فإنَّ المُلْكَ بلا حمدٍ يَستلزِمُ نَقصًا، والحَمدَ بلا مُلكٍ يَستلزِمُ عَجزًا، والحمدَ مع المُلكِ غايةُ الكمالِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قَصْرُ الحَمدِ على نَفْسِه تعالى في الآخرةِ أحَقُّ؛ لأنَّ التَّصَرُّفاتِ يومَئذٍ مَقصورةٌ عليه، لا يلتَبِسُ فيها تصَرُّفُ غيرِه بتصَرُّفِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ اقترنتِ الحكمةُ بالخبرةِ -والحكمةُ دائمًا يَقْرِنُها اللهُ عزَّ وجلَّ بالعِزَّةِ وبالعلمِ-؛ وهنا قُرِنَتْ بالعِلمِ الَّذي تتضَمَّنُه الخبرةُ، وإنَّما يَقْرِنُها اللهُ عزَّ وجلَّ بذلك؛ ليَتبيَّنَ أنَّ حكمتَه سُبحانَه وتعالى مَبنيَّةٌ على عِلْمِه، وأنَّه إذا تراءَى لأحدٍ أنَّ هذا الشَّيءَ ليس بحكمةٍ؛ فذلك لِنُقصانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

عِلْمِه، وإلَّا لو كان عندَه عِلمٌ وفَهمٌ لعرَف أنَّ الحكمةَ فيما شَرَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ وفيما قَدَّرَه[1].

٦- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، فعَقَّب الحَمدَ والمُلكَ باسمِ الحكيمِ الخبيرِ الدَّالَّين على كَمالِ الإرادةِ، وأنَّها لا تتعلَّقُ بمُرادٍ إلَّا لحِكمةٍ بالغةٍ، وعلى كَمالِ العِلمِ، وأنَّه كما يتعلَّقُ بظواهِرِ المعلوماتِ، فهو متعلِّقٌ ببواطِنِها الَّتي لا تُدرَكُ إلَّا بخِبْرةٍ؛ فنِسبةُ الحِكمةِ إلى الإرادةِ كنِسبةِ الخِبرةِ إلى العِلمِ؛ فالمرادُ ظاهِرٌ والحِكمةُ باطِنةٌ، والعِلمُ ظاهِرٌ والخِبرةُ باطِنةٌ؛ فكمالُ الإرادةِ أن تكونَ واقِعةً على وَجهِ الحِكمةِ، وكَمالُ العِلمِ أن يكونَ كاشِفًا عن الخِبرةِ؛ فالخِبرةُ باطِنُ العِلمِ وكَمالُه، والحِكمةُ باطِنُ الإرادةِ وكمالُها[2].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾

- افتُتِحَت السُّورةُ بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وفي هذا التَّحميدِ بَراعةُ استِهلالٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ السُّورةَ تَتضمَّنُ من دَلائلِ تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ واتِّصافِه بصِفاتِ العَظَمةِ ما يَقْتضي إنشاءَ الحمْدِ له، والإخبارَ باختِصاصِه به؛ فجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هنا يَجوزُ أنْ تكونَ إخبارًا بأنَّ جِنسَ الحمْدِ مُستحَقٌّ للهِ تعالى؛ فتكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ لامَ المِلْكِ. ويجوزُ أنْ تكونَ إنشاءَ ثَناءٍ على اللهِ على وَجهِ تَعليمِ النَّاسِ أنْ يَخُصُّوه بالحمْدِ؛ فتكونَ اللَّامُ للتَّبيينِ؛ لأنَّ معنى الكلامِ: أحمَدُ اللهَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٦).

- والتَّعبيرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يُفيدُ الاستمرارَ والثُّبوتَ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اقتضاءُ صِلةِ المَوصولِ أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِلكٌ للهِ تعالى يَجعَلُ هذه الصِّلةَ صالحةً لتَكونَ عِلَّةً لإنشاءِ الثَّناءِ عليه؛ لأنَّ مِلْكَه لِمَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ سَببَه إيجادُ تلك المَمْلوكاتِ، وذلك الإيجادُ عمَلٌ جَميلٌ يَستحِقُّ صاحبُه الحمْدَ، وأيضًا هو يَتضمَّنُ نِعَمًا جمَّةً، وهي أيضًا تَقْتضي حمْدَ المُنعِمِ. وفي هذه الصِّلةِ تَعريضٌ بكُفرانِ المشركينَ الَّذين حَمِدوا أشياءَ ليس لها في هذه العوالِمِ أدْنى تَأثيرٍ، ولا لها بما تَحْتوي عليه أدْنى شُعورٍ، ونَسُوا حمْدَ مالِكِها ومالكِ سائرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لَمَّا كانتْ نِعمةُ الآخرةِ مُخبَرًا بها، غيرَ مَرئيَّةٍ لنا في الدُّنيا؛ ذَكَرها لِيُقاسَ نِعَمُها بنِعَمِ الدُّنيا قِياسَ الغائبِ على الشَّاهدِ، وإنِ اختَلَفا في الفَضيلةِ والدَّيمومةِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عَطْفٌ على الصِّلةِ، أي: والَّذي له الحمْدُ في الآخِرةِ، وهذا إنباءٌ بأنَّه مالكُ الأمْرِ كلِّه في الآخِرةِ. وتَقديمُ المَجرورِ؛ لإفادةِ الحَصرِ والاختصاصِ، أي: لا حمْدَ في الآخِرةِ إلَّا له؛ فلا تَتوجَّهُ النُّفوسُ إلى حمْدِ غيرِه؛ لأنَّ النَّاسَ يومَئذٍ في عالَمِ الحقِّ، فلا تَلتبِسُ عليهم الصُّورُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ فيه إطلاقُ الحمْدِ عن ذِكرِ ما يُشعِرُ بالمَحمودِ عليه؛ لِيَعُمَّ النِّعَمَ الأُخرويَّةَ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر: ٧٤]، وما يكونُ ذَريعةً إلى نَيلِها مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾[١] [الأعراف: ٤٣].

- وخُصَّ الحمدُ في الآخرةِ -معَ أنَّه محمودٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى في آيةٍ ثانيةٍ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص: ٧٠]- لأنَّ ظهورَ حمْدِه في الآخرةِ أبيَنُ وأوضَحُ؛ فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِرُ حمْدَ اللهِ سُبحانَه وتعالى ويَكفُرُ به، لكنْ في الآخرةِ لا يمكنُ لأحدٍ إلَّا أنْ يحمَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ القرْنُ بيْنَ الصِّفتينِ هنا؛ لأنَّ كلَّ واحِدةٍ تَدُلُّ على معنًى أصليٍّ ومعنًى لُزوميٍّ، وهما مُختلفانِ؛ فالمعنى الأصليُّ للحَكيمِ: أنَّه مُتقِنُ التَّصرُّفِ والصُّنْعِ؛ لأنَّ الحكيمَ مُشتقٌّ مِن الإحكامِ، وهو الإتقانُ، وهو يَستلزِمُ العِلمَ بحَقائقِ الأشياءِ على ما هي عليه، والخبيرُ: هو العليمُ ببواطنِ الأشياءِ وظَواهرِها بالأَولى بحيث لا يَفوتُه شَيءٌ منها، وهو يَستلزِمُ التَّمكُّنَ مِن تَصريفِها؛ ففي التَّتميمِ[٣] بهَذينِ الوَصفينِ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٦).

قال ابن جُزَي: (﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ الحمدُ الأوَّلُ في الدُّنيا، والثَّاني في الآخرةِ، وعلى هذا حمَلَه الزَّمَخْشَريُّ، ويحتمِلُ عندي أن يكونَ الحمدُ الأوَّلُ للعمومِ والاستِغراقِ، فجُمِع الحمدُ في الدُّنيا والآخرةِ، ثمَّ جُرِّد منه الحمدُ في الآخرةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦١).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٦).

(٣) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ =

قبْلَه استِحقاقُ الَّذين أقْبَلوا في شُؤونِهم على آلهةٍ باطلةٍ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ...﴾ تَفصيلٌ لِبَعضِ ما يُحيطُ به عِلْمُه تعالى مِن الأُمورِ الَّتي نِيطَتْ بها مَصالِحُهم الدُّنيويَّةُ والدِّينيَّةُ[٢]، ومن الأساليبِ البلاغيَّةِ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيلُ، وفائدةُ هذه الطَّريقةِ البلاغيَّةِ هي: أنَّ الشَّيءَ إذا جاء مُجمَلًا تَشَوَّفَتِ النُّفوسُ إلى تفصيلِه؛ فجاء التَّفصيلُ واردًا على نفوسٍ تتطلَّعُ إليه، فإذا وردَ التَّفصيلُ إلى نفوسٍ تتطلَّعُ إليه كان أوقَعَ في النَّفْسِ، وأرسَخَ في القلبِ[٣].

- وخُصَّ بالذِّكرِ في مُتعلَّقِ العِلمِ ما يَلِجُ وما يَخرُجُ مِن الأرضِ دونَ ما يَدِبُّ على سَطْحِها، وما يَنزِلُ وما يَعرُجُ إلى السَّماءِ دونَ ما يَجُولُ في أرجائِها؛ لأنَّ ما ذُكِرَ لا يَخْلو عن أنْ يكونَ دابًّا وجائلًا فيهما، والَّذي يَعلَمُ

= حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسن. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤).

ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها، يَعلَمُ ما يَدِبُّ عليها وما يَزحَفُ فوقَها، والَّذي يَعلَمُ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعرُجُ، يَعلَمُ ما في الأجواءِ والفضاءِ مِن الكائناتِ المرئيَّةِ وغيرِها، ويَعلَمُ سَيْرَ الكواكبِ ونِظامَها. وكَلِمَتا (يَلِج) (ويَخرُجُ) أوضَحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوالِ جَميعِ الموجوداتِ الأرضيَّةِ بالنِّسبةِ إلى اتِّصالِها بالأرضِ، وكَلِمَتا (يَنزِلُ) (ويَعرُج) أوضَحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوالِ المَوجوداتِ السَّماويَّةِ بالنِّسبةِ إلى اتِّصالِها بالسَّماءِ، مِن كَلِماتِ اللُّغةِ الَّتي تَدُلُّ على المعاني المَوضوعةِ للدَّلالةِ عليها دَلالةً مُطابقيَّةً على الحقيقةِ دونَ الكِنايةِ؛ ولذلك لم يَعطِفِ السَّماءَ على الأرضِ في الآيةِ، فلمْ يَقُلْ: يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ والسَّماءِ، وما يَخرُجُ منْهما، ولم يَكتَفِ بإحْدى الجُملتينِ عن الأُخرى[1].

- وقال: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾، ولم يقُلْ: (يَعرُجُ إليها)؛ إشارةً إلى قَبولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، ومَرتبةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ؛ وهذا لأنَّ كَلِمةَ (إلى) للغايةِ، فلو قال: (وما يَعرُجُ إليها)، لفُهِمَ الوقوفُ عندَ السَّمواتِ. فقال: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾؛ ليُفهَمَ نُفوذُها فيها، وصعودُها منها؛ ولهذا قال في الكَلِمِ الطَّيِّبِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ لأنَّ اللهَ هو المنتهَى، ولا مرتبةَ فوقَ الوصولِ إليه، وأمَّا السَّماءُ فهي دنيا، وفوقَها المنتهَى[2]، فقال: (فيها)، ولم يقُلْ: (إليها)؛ لنستفيدَ فائدتينِ: الفائدةُ الأُولَى: العروجُ، أي: الصُّعودُ. الفائدةُ الثانيةُ: الدُّخولُ؛ لأنَّ (في) يُناسِبُها مِن الأفعالِ الدُّخولُ، أمَّا (عَرَج) و(يَعرُجُ) فالَّذي يُناسِبُها (إلى)، لكنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ عدَلَ عن قَولِه: (يَعرُجُ إليها) إلى قَولِه: ﴿يَعۡرُجُ فِيهَا﴾؛ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ، أي: الأشياءُ لا تَصِلُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩١).

السَّماءِ الدُّنيا وتَقِفُ، بل تَعرُجُ في السَّماءِ الدُّنيا حتَّى تَصِلَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فضُمِّنَ «يعرُجُ» معنى «يدخُلُ»[(١)].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فيه تَعريضٌ بالمشركينَ أنْ يَتوبوا عن الشِّركِ، فيُغفَر لهم ما قدَّموهُ[(٢)].

- وقَولُه: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، فالأكثرُ في القرآنِ تقديمُ اسمِه «الغفورِ» على اسمِه «الرَّحيمِ»، أمَّا هنا فقدَّم الرَّحيمَ على الغفورِ في هذا السِّياقِ؛ لِمَا يكونُ في السَّماءِ والأرضِ مِن المصالحِ والمنافعِ، والمصالحُ والمنافعُ مِن آثارِ الرَّحمةِ، ودفْعُ المصائبِ مِن آثارِ المغفرةِ؛ لأنَّ المغفرةَ: مَحْوُ الذَّنبِ الَّذي تَزولُ فيه المكروهاتُ، والرَّحمةُ: حصولُ الخَيرِ[(٣)].

وأيضًا فالرَّحمةُ هنا مُتقدِّمةٌ على المغفرةِ؛ إمَّا بالفَضلِ والكَمالِ، وإمَّا بالطَّبعِ؛ لأنَّها مُنتَظِمةٌ بذِكرِ أوصافِ الخَلقِ مِن المكَلَّفينَ وغَيرِهم مِن الحيوانِ، فالرَّحمةُ تَشمَلُهم، والمغفرةُ تخُصُّهم، والعمومُ بالطَّبعِ قبْلَ الخُصوصِ[(٤)].

وأيضًا قدَّم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في هذا الموضِعِ؛ لتقَدُّمِ صِفةِ العِلمِ، فحَسُنَ ذِكرُ الرَّحيمِ بعدَه؛ لِيَقترِنَ به فيطابِقَ قَولَه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، ثمَّ خَتَم الآيةَ بذِكرِ صِفةِ المغفرةِ؛ لتضَمُّنِها دَفْعَ الشَّرِّ، وتضَمُّنِ ما قبْلَها جَلْبَ الخَيرِ، ولَمَّا كان دفْعُ الشَّرِّ مُقدَّمًا على جَلبِ الخيرِ قُدِّم اسمُ الغَفورِ على الرَّحيمِ حيث وقَعَ، ولَمَّا كان في هذا الموضِعِ تعارُضٌ يقتضي تقديمَ اسمِه

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥).

(٤) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢١٣).

الرَّحيم؛ لأجْلِ ما قبْلَه، قُدِّم على الغَفورِ[١].

وقيل: قدَّم صِفةَ الرَّحمةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ رحمتَه سبَقَتْ غضَبَه، ولأنَّه في سياقِ الحَمدِ، فناسَبَ تقديمَ الوَصفِ النَّاظِرِ إلى التَّكميلِ على الوَصفِ النَّافي للنَّقصِ[٢].



(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٨).

الآيات (٢-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ
عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي
كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ
وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ
٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَعۡزُبُ﴾: أي: يَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[1].

﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾: أي: زِنةُ نملةٍ صغيرةٍ، يُقالُ: هذا على مِثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخفَّةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وقيل: هي ما يَرفَعُه الرِّيحُ مِن التُّرابِ وأجزاءِ الهواءِ في الكوَّةِ[2]، وأصلُ (ذَرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ[3].

﴿سَعَوۡ﴾: السَّعيُ: المشْيُ الشَّديدُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٢) الكوةُ- بفتحِ الكافِ وضمِّها- : الخَرْقُ في الحائطِ ونحوِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

الأمرِ، وشِدَّةِ الحرصِ في العملِ خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقَصدِ إصلاحِه أو إفسادِه[١].

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، والمُعاجَزةُ: مُحاوَلةُ عَجْزِ المغالَبِ؛ يُريدُ كلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عجزَ صاحبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ[٢].

﴿رِّجۡزٍ﴾: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصل (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى ما قاله الكافرونَ في شأنِ القيامةِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ مُنكِرينَ البَعثَ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ! ويأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ورَبِّي عالمِ الغَيبِ لَتأتينَّكم القيامةُ، لا يَغيبُ عنه تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلُّ شَيءٍ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى حِكمتَه في البعثِ وقيامِ السَّاعةِ، فيقولُ: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، أولئك لهم مَغفِرةٌ ورزقٌ حَسَنٌ.

والَّذين سَعَوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى ظانِّينَ أنَّ اللهَ تعالى لا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقَبتِهم: أولئك لهم عَذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ.

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه موقفَ أهلِ العلمِ النَّافعِ ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: ويَرى الَّذين أُوتوا العِلمَ ما أنزَلَه اللهُ إليك -يا محمَّدُ- مِن القُرآنَ هو الحقَّ، وأنَّه يَهدي إلى طَريقِ اللهِ القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عَظَمَتَه، بما وَصَف به نفْسَه، وكان هذا مُوجبًا لتَعظيمِه وتقديسِه، والإيمانِ به؛ ذكَرَ أنَّ مِن أصنافِ النَّاسِ طائفةً لم تَقْدُرْ رَبَّها حَقَّ قَدْرِه، ولم تُعظِّمْه حَقَّ عظَمتِه، بل كفَروا به، وأنكَروا قُدرتَه على إعادةِ الأمواتِ، وقيامِ السَّاعةِ، وعارَضوا بذلك رُسُلَه[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ تكذيبًا وإنكارًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ أبدًا[2]!

﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ستأتيكم القيامةُ، وأُقسِمُ بربِّي لَتأتينَّكم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤). =

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بضَمِّ الميمِ، على أنَّ ﴿عالِمُ﴾ خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، أو مبتدأٌ وخبَرُه ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، والجملةُ إمَّا استِئنافيَّةٌ، وإمَّا حاليَّةٌ مِن (رَبِّي)(١).

٢- قِراءةُ ﴿علَّامِ الْغَيْبِ﴾ بتشديدِ اللَّامِ وكَسرِ الميمِ، صيغةُ مُبالَغةٍ مِن صِفةِ العِلمِ(٢).

٣- قِراءةُ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بكَسرِ الميمِ، على أنَّ ﴿عَٰلِمِ﴾ وصْفٌ لـ (رَبِّي)، أو بدَلٌ منه(٣).

= قال الشنقيطي: (لفظةُ: «بلى» لا تأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ إلَّا لأحدِ معنيَينِ، لا ثالثَ لهما:
الأوَّلُ: أنْ تأتيَ لإبطالِ نَفْيٍ سابقٍ في الكلامِ، فهي نقيضةُ «لا»؛ لأنَّ «لا» لنفيِ الإثباتِ، و «بَلَى» لنَفْيِ النَّفْيِ... كقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾...
الثَّاني: أنْ تكونَ جوابًا لاستفهامٍ مُقترِنٍ بنفيٍ خاصَّةً؛ كقولِه: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٨).

(١) قرأ بها نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، ورُوَيس. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١، ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١، ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١).
قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندَنا أنَّ كُلَّ هذه القراءاتِ الثَّلاثِ قِراءاتٌ مشهورةٌ في قَرَأَةِ الأمصارِ، مُتقارِباتُ المعاني). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠).

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: العالِمِ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، فلا يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ أحدٌ سِواه(١).

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لا يَغيبُ عن اللهِ تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ سواءٌ كانت في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه، وإن تفرَّقَت أجزاؤُهم وتمزَّقَت وتلاشَت بعدَ مَوتِهم(٢).

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: ولا يَغيبُ عن الله تعالى أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلٌّ مَكتوبٌ مُثبَتٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ في غايةِ الإبانةِ والوُضوحِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥).

والذرَّةُ: أصغرُ النَّملِ، وهو المعروفُ، ويُطلقُ على الهباءةِ التي تُرَى في ضوءِ الشَّمسِ كغُبارٍ دقيقٍ جدًّا، وقيل غير هذا، وهي في الجملةِ عبارةٌ عن أقلِّ الأشياءِ وأصغرِها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

ممَّن اختار أن ﴿مُّبِينٖ﴾ أي: بَيِّن: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمعانيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٢).

قال ابنُ جرير في قولِه تعالى: ﴿مُّبِينٖ﴾: (أي: يَبِينُ للنَّاظِرِ فيه أنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه قد أثبَتَه وأحصاه وعَلِمه، فلمْ يَعْزُبْ عنه عِلْمُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١١). =

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عِلمَه بالصَّغائرِ والكبائرِ؛ ذكَرَ أنَّ جمْعَ ذلك وإثباتَه للجزاءِ، فقال(١):

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: لِيُثيبَ(٢) الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ

= وقال ابن عثيمين: (﴿مُّبِينٍ﴾ أي: مُفَصِّلٍ لكلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٢).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (واللاَّمُ من قولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ يصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بقولِه تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بقولِه: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، ويصِحُّ أن تكونَ متعلقةً بما في قولِه: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ من معنى الفعلِ؛ لأنَّ المعنى: إلَّا أثْبَتَّه في كتابٍ مبينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٥).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزجَّاج، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) =

الخالِصةَ للهِ تعالى، الموافِقةَ لِشَرعِه[١].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾.

أي: أولئك لهم مِنَ اللهِ مَغفِرةٌ لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزقٌ حَسَنٌ في كَمِّيَّتِه وكيفيَّتِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ[٣].

وأيضًا لَمَّا كانت أدِلَّةُ السَّاعةِ قد اتَّضَحت، حتَّى لم يَبْقَ مانعٌ مِن التَّصديقِ بها إلَّا العِنادُ، وكان السِّياقُ لتَهديدِ مَن جَحَدها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾[٤].

= (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّاني: العُلَيميُّ، فقال: (اللَّامُ في ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾، أي: لا يغيبُ عنه شَيءٌ؛ لِيَجزيَ المحسِنَ والمسِيءَ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٠١).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٨٥).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٩-٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٢-٤٤، ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- في قَولِه تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ قيل: على معنى: مُثبِّطين ومُبَطِّئين[1].

٢- قِراءةُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قيل: على معنى: مُعانِدينَ. وقيل: على معنى: ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَنا، أي: يَفوتونَنا؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنَّهم لا يُبعَثونَ[2].

ب- في قَولِه تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ[3].

٢- قِراءةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ بالجَرِّ وصْفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ[4].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

أي: والَّذين اجتَهَدوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، وصَدِّ النَّاسِ عنها، وظَنُّوا أنَّهم

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٣) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، ويعقوبُ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، (معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، (معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

يَفوتونَ اللهَ، فلا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقبتِهم: أولئك لهم عذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١].

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنكارَ مَن أنكَرَ البَعثَ، وأنَّهم يَرَونَ ما أنزَل على رَسولِه ليس بحَقٍّ؛ ذكَرَ حالةَ الموفَّقينَ مِن العبادِ -وهم أهلُ العِلمِ- وأنَّهم يَرَونَ ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه من الكِتابِ، وما اشتَمَل عليه مِن الأخبارِ: هو الحَقَّ[٢]؛ فذكَرَ ذلك إعلامًا بأنَّ الَّذي أورثَ الكَفَرةَ التَّكذيبَ: الجَهلُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٣، ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).
ممن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿آيَاتِنَا﴾: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والنسفي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٣).
وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أدلتُنا وحجَجُنا: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٠١).
قال ابنُ عثيمين: (والصوابُ: أنَّ ﴿آيَاتِنَا﴾ هنا أعَمُّ من القرآنِ؛ لأنَّ الساعينَ في آياتِ الله تعالى ليسوا هم مِن هذه الأُمَّةِ فقَطْ، حتى في الأُمَمِ السابِقةِ فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آياتِ الله تعالى... في إبطالِها وصدِّ الناسِ عنها، وعلى هذا فنَقولُ: إنَّ المُرادَ بآياتِ الله تعالى هنا أعمُّ من القرآنِ، يَشمَلُ السَّعيَ في أيِّ آيةٍ مِن آياتِ الله تعالى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨، ٤٤٩).

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾.

أي: ويرى أهلُ العِلمِ[(١)] أنَّ ما أنزَلَ اللهُ إليك -يا مُحمَّدُ- مِنَ القُرآنِ: هو الحَقُّ وحْدَه دونَ ما سِواه[(٢)].

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾.

أي: ويَرَونَ أنَّ القُرآنَ يَهدي مَن اتَّبَعه إلى طريقِ اللهِ المَنيعِ الجَنابِ، المنتَقِمِ مِن أعدائِه، والقاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ فلا يُغالَبُ؛ الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه[(٣)].

---

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾: مؤمنو أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ الله بنِ سَلَامٍ وأصحابِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٤).
وممَّن اختار أنَّهم أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: الشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).
قال ابن عاشور: (والأظهَرُ أنَّ المرادَ مِن الَّذينَ أُوتوا العِلمَ: مَن آمَنوا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ مَكَّةَ؛ لأنَّهم أُوتوا القرآنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).
وقيل: المرادُ: جميعُ المسلِمينَ. وممَّن رجَّح ذلك: القرطبيُّ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٧، ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٥، ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦١، ٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قولِه سُبحانَه في حقِّ الكفَّارِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ أنَّه يَنبغي في الخِطابِ أنْ يكونَ جامعًا بيْنَ أسبابِ الخَوفِ وأسبابِ الرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الخَوفُ فقط فقد يَستولي على القَلبِ القُنوطُ مِن رحمةِ اللهِ، وإذا ذُكِرَ الرَّجاءُ فقط فقد يَستولي عليه الأمنُ مِن مَكرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ التَّحذيرُ مِن سَعيِ الإنسانِ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، والقاعِدةُ في التَّفسيرِ: أنَّه إذا نُهِيَ عن شَيءٍ فهو أمرٌ بضِدِّه؛ فتَكونُ هذه الآيةُ مُتضَمِّنةً للحثِّ على السَّعيِ في آياتِ اللهِ؛ لِتَقريرِها وتَثبيتِها؛ فإنَّنا مأمورونَ بأنْ نسعَى قَدْرَ استطاعتِنا في تثبيتِ آياتِ اللهِ، ونَشْرِها بينَ الأُمَّةِ؛ حتَّى تقومَ المِلَّةُ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ فيه مَنقَبةٌ لأهلِ العِلمِ، وفَضيلةٌ وعَلامةٌ لهم، وأنَّه كُلَّما كان العبدُ أعظَمَ عِلمًا وتَصديقًا بأخبارِ ما جاء به الرَّسولُ، وأعظَمَ مَعرِفةً بحُكمِ أوامِرِه ونواهيه؛ كان مِن أهلِ العِلمِ الَّذين جعَلَهم اللهُ حُجَّةً على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٦).

ما جاء به الرَّسولُ؛ احتَجَّ اللهُ بهم على المكَذِّبينَ المعانِدينَ كما في هذه الآيةِ وغَيرِها[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعجَبَ بعِلمِه؛ فبِناءُ الفِعلِ للمَفعولِ يُشيرُ إلى أنَّهم ما أدركوه بأنفُسِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى مَنَّ عليهم به، فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ يقولَ مُعجبًا بنفسِه: العِلمُ حصَّلْتُه أنا بفَهْمي وحِرْصي ومُثابرتي! وقد أخبَرَ الله تعالى بما صنَع بالَّذي قال عن مالِه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، وأنَّه خَسَف به الأرضَ. وإنَّما على الإنسانِ أنْ يَلجأَ إلى اللهِ تعالى في تحصيلِ العِلمِ، وأنْ يسألَه أنْ يُؤتيَه إيَّاه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هذه إحدَى الآياتِ الثَّلاثِ الَّتي لا رابِعَ لهنَّ ممَّا أمر اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُقسِمَ برَبِّه العظيمِ على وُقوعِ المَعادِ، لَمَّا أنكَرَه مَن أنكَرَه مِن أهلِ الكُفرِ والعِنادِ؛ فإحداهنَّ في سورةِ (يونس): ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والثَّانيةُ هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثَّالثةُ في التَّغابُنِ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٣] [التغابن: ٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إباحةُ القَسَمِ، وقد يجبُ إذا دَعَتِ الحاجةُ إليه؛ نأخُذُه مِن أمرِ اللهِ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُقسِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥).

على قيامِ السَّاعةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ كمالُ رحمةِ اللهِ بعبادِه؛ حيث أخبرَهم بالبَعثِ، وأكَّدَه بالمؤكِّداتِ اللَّفظيَّةِ والمعنَويَّةِ والحِسِّيَّةِ أيضًا؛ لأنَّ الإيمانَ بالبَعثِ هو الَّذي يَحمِلُ الإنسانَ على القيامِ بطاعةِ اللهِ؛ إذْ لو لم يكنْ هناك بَعثٌ ما عَمِلَ الإنسانُ للآخِرةِ أبدًا[٢]!

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ لَقَّنَ اللهُ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوابَ عن قَولِ الكافرينَ بالإبطالِ المُؤكَّدِ، على عادةِ إرشادِ القُرآنِ في انتهازِ الفُرَصِ لِتَبليغِ العقائدِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ مُعَلَّلةٌ، بمعنى: أنَّ لها عِلَّةً؛ يُؤخَذُ مِن اللَّامِ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ للتَّعليلِ، وهذا يُؤيِّدُ مَذهَبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذين يقولون: إنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مقرونةٌ بالحِكمةِ، ومعلومٌ أنَّ الجَهميَّةَ وكذلك بعضُ الأشاعرةِ يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ اللهِ تعالى لحِكمةٍ، ويقولون: إنَّ أفعالَه لمجرَّدِ المشيئةِ! ونقولُ لهم: إنَّ هذا مُصادَمةٌ للنُّصوصِ، ولو تأمَّلْنا القرآنَ لوجَدْنا فيه آلافَ الآياتِ تدُلُّ على إثباتِ الحكمةِ للهِ تعالى[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الفَرقُ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ عندَ الجَمعِ بيْنَهما؛ فإنَّه إذا جُمِعَ بيْنَهما صار الإيمانُ في القلبِ، والعملُ الصَّالحُ في الجوارحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الإيمانَ الَّذي في القَلبِ فقط لا يكفي عن العَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ على قيامِ الوَصفَينِ بالفاعِلِ، وهما الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالحُ[(١)].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه سؤالٌ: ميَّز الرِّزقَ بالوَصفِ بقَولِه: ﴿كَرِيمٞ﴾، ولم يَصِفِ المَغفِرةَ؟

الجوابُ: المَغفِرةُ واحِدةٌ هي للمُؤمِنينَ، والرِّزقُ منه شَجَرةُ الزَّقُّومِ والحَميمُ، ومنه الفَواكِهُ والشَّرابُ الطَّهورُ، فميَّز الرِّزقَ؛ لحُصولِ الانقِسامِ فيه، ولم يميِّزِ المغفِرةَ؛ لعدَمِ الانقِسامِ فيها[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ دليلٌ ظاهرٌ أنَّ الَّذي نراه معارِضًا للنَّقلِ، ويُقَدِّمُ العقلَ عليه ليس مِن الَّذين أُوتوا العِلمَ في شَيءٍ، لا قليلٍ ولا كثيرٍ! وقد شهِد الله سبحانَه بالعِلمِ لمَن يرى أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ هو الحَقُّ لا آراءَ الرِّجالِ[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أنَّ العقلَ الصَّريحَ لا يُخالِفُ السَّمعَ الصَّحيحَ، بل يُصَدِّقُه ويُوافِقُه[(٤)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أنَّ أعلَمَ النَّاسِ مَن كان رأيُه واستِصلاحُه واستِحسانُه وقياسُه مُوافقًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٥) و (٣/ ٨٥١).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٠١).

للنُّصوصِ، كما قال مجاهِدٌ: (أفضلُ العبادةِ الرَّأيُ الحسَنُ، وهو اتِّباعُ السُّنَّةِ)(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أنَّ مَن ابتغى الهدَى مِن غيرِ القرآنِ ضَلَّ؛ لأنَّه إذا كان هو الَّذي يَهدي إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ؛ فإذا ابتغيتَ الهدى مِن غيرِه -المخالِفِ له- فإنَّك لا تُهدى إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ! ولهذا لَمَّا طَلَب أهلُ البدعِ الوُصولَ إلى الخالقِ عن طريقِ غيرِ القرآنِ ضَلُّوا وتاهوا، وبقُوا مُتحيِّرينَ مُضطربينَ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ كان ذِكرُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها مُشعِرًا بحالِ الموتَى عندَ وُلوجِهم القُبورَ، وعندَ بَعْثِهم منها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦]، وكان ذِكرُ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعرُجُ فيها مُومِئًا إلى عُروجِ الأرواحِ عندَ مُفارَقةِ الأجسادِ، ونُزولِ الأرواحِ لِتُرَدَّ إلى الأجسادِ الَّتي تُعادُ يومَ القيامةِ؛ فكان ذلك مع ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] مُناسبةً للتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ إنكارِ المُشركينَ الحشْرَ؛ لأنَّ إبطالَ زَعْمِهم مِن أهمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ؛ فكان التَّخلُّصُ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٤). وأثرُ مجاهدٍ رواه الأصبهاني في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٥، ٦٦).

ﭐلسَّاعَةُ﴾[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ تَعريفُ المُسنَدِ إليه بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الموصولَ صار كالعَلَمِ بالغَلَبةِ على المُشركينَ في اصطِلاحِ القُرآنِ، وتَعارُفِ المسلمينَ، والسَّاعةُ: عَلَمٌ بالغَلَبةِ في القُرآنِ على يَومِ القيامةِ وساعةِ الحشْرِ، وعُبِّرَ عن انتفاءِ وُقوعِها بانتفاءِ إتيانِها على طَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّها لو كانتْ واقعةً لَأتَتْ؛ لأنَّ وُقوعَها هو إتيانُها[(٢)]، وإنَّما عبَّروا عنه بذلك لأنَّهم كانوا يُوعَدون بإتيانِها، ولأنَّ وُجودَ الأُمورِ الزَّمانيَّةِ المُستقبَلةِ -لا سيَّما أجْزاءُ الزَّمانِ- لا يكونُ إلَّا بالإتيانِ والحُضورِ. وقيل: هو استبطاءٌ لإتيانِها الموعودِ بطَريقِ الهُزءِ والسُّخريةِ كقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[(٣)] [الملك: ٢٥].

- قولُه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أكَّدَ ما اقتضاهُ (بلى) مِن إثباتِ إتيانِ السَّاعةِ بالقَسَمِ على ذلك؛ للدَّلالةِ على ثِقةِ المُتكلِّمِ بأنَّها آتيةٌ، وليس ذلك لإقناعِ المخاطَبينَ، وهو تأكيدٌ يُروِّعُ السَّامعينَ المُكذِّبينَ. وعُدِّيَ إتيانُها إلى ضَميرِ المخاطبينَ مِن بيْنِ جَميعِ النَّاسِ دونَ: (لتَأتيَنَّا)، ودونَ أنْ يُجرَّدَ عن التَّعديةِ لِمَفعولٍ؛ لأنَّ المُرادَ إتيانُ السَّاعةِ الَّذي يكونُ عنده عِقابُهم، كما يُقالُ: أتاكُمُ العَدُوُّ، وأتاكَ أتاكَ اللَّاحقونَ؛ فتَعلُّقُه بضَميرِ المُخاطَبينَ قَرينةٌ على أنَّه كِنايةٌ عن إتيانِ مَكروهٍ فيه عَذابٌ[(٤)].

- وقولُه: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ تأكيدٌ لِرَدِّ كَلامِهم على أتمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٩).

وقولُه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ...﴾ إلخ: إمدادٌ للتَّأكيدِ، وتَسديدٌ له إثرَ تَسديدٍ، وكَسرٌ لِسَورةِ نَكيرِهم واستبعادِهم؛ فإنَّ تَعقيبَ القسَمِ بجَلائلِ نُعوتِ المُقسَمِ بهِ على الإطلاقِ يُؤذِنُ بفَخامةِ شَأنِ المُقْسَمِ عليه، وقُوَّةِ ثَباتِه وصِحَّتِه؛ لِمَا أنَّ ذلك في حُكمِ الاستِشهادِ على الأمْرِ، ولا رَيبَ في أنَّ المُستشهَدَ به كلَّما كان أجَلَّ وأعْلَى، كانتِ الشَّهادةُ آكَدَ وأقْوى، والمُستشهَدُ عليه أحقَّ بالثُّبوتِ وأَولى، لا سيَّما إذا خُصَّ بالذِّكرِ مِن النُّعوتِ ما له تَعلُّقٌ خاصٌّ بالمُقسَمِ عليه كما نحنُ فيهِ؛ فإنَّ وَصْفَه بعِلمِ الغَيبِ الَّذي أشهَرُ أفرادِه وأدخَلُها في الخَفاءِ هو المُقسَمُ عليهِ -إتيانُ السَّاعةِ- تَنبيهٌ لهمْ على عِلَّةِ الحُكمِ وكَونِه ممَّا لا يَحومُ حوْلَه شائبةُ رَيبٍ ما. وفائدةُ الأمْرِ بهذه المَرتبةِ مِن اليمينِ ألَّا يَبقَى للمُعاندينَ عُذرٌ ما أصلًا؛ فإنَّهم كانوا يَعرِفون أمانتَه ونَزاهتَه عن وَصْمةِ الكذِبِ فضْلًا عن اليمينِ الفاجرةِ، وإنَّما لم يُصَدِّقوه مُكابَرةً[1].

- وجاء القسَمُ بقولِه: ﴿وَرَبِّى﴾ مُضافًا إلى الرَّسولِ؛ لِيَدُلَّ على شِدَّةِ القَسَمِ؛ إذ لم يَأتِ به في الاسمِ المُشترَكِ بيْنَه وبيْنَ مَن أنكَرَ السَّاعةَ، وهو لَفظُ (اللهِ)[2].

- قولُه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أشارَ بقولِه: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ إلى تَقريبِ إمكانِ الحشْرِ؛ لأنَّ الكافرينَ أحالوهُ بعِلَّةِ أنَّ الأجسادَ تَصيرُ رُفاتًا وتُرابًا، فلا تُمكِنُ إعادتُها؛ فنُبِّهوا إلى أنَّ عِلمَ اللهِ مُحيطٌ بأجزائِها[3].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جُملةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤١).

مُؤَكِّدةٌ لِنَفْيِ العُزوبِ[(١)].

- وقد تَكرَّرَ في القرآنِ إتْباعُ ذِكرِ السَّاعةِ بذِكرِ انفرادِه تعالى بعِلْمِها؛ لأنَّ الكافرينَ بها جَعَلوا مِن عَدَمِ العِلمِ بها دَليلًا سُفسطائيًّا على أنَّها ليستْ بِواقعةٍ؛ ولذلك سمَّاها القرآنُ الواقعةَ في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[(٢)] [الواقعة: ١، ٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال بعْدَه في هذه السُّورةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]؛ فقدَّمَ السَّمواتِ على الأرضِ في المَوضعينِ مِن سُورةِ (سَبأٍ)، وقدَّمَ الأرضَ على السَّماءِ في سُورةِ (يُونسَ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه قدَّمَ ذِكرَ السَّمواتِ على الأرضِ في سُورةِ (سَبأٍ)؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَبنيَّةٌ على مُفتتَحِ السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، فقدَّمَ ذِكرَ السَّمواتِ؛ لأنَّ مُلْكَها أعظَمُ شأنًا وأكبَرُ سُلطانًا، وكذلك الآيةُ الَّتي بعْدَها مِن سُورتِها. وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (يُونسَ) فإنَّها جاءتْ عَقيبَ قولِه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]؛ فكان القصْدُ إلى ذِكرِ عِلمِه بما يَتصرَّفُ فيه العِبادُ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وذلك في الأرضِ، فأتَمَّه بقولِه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٠).

فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فاستوعَبَ جميعَ ما في الأرضِ، ثمَّ أتْبَعَهُ بذِكرِ السَّماءِ؛ لأنَّ الابتداءَ وقَعَ بما يَتعلَّقُ بها، وما يَعمَلُ العِبادُ فيها؛ فلذلك قُدِّمَت الأرضُ عليها[(١)].

- وأيضًا فقد قَدَّمَ سُبحانَه ذِكْرَ السَّمَواتِ على الأرضِ لأنَّ الساعةَ إنَّما تأتي مِن قِبَلِها، وهي غَيْبٌ فيها، ومِن جهتِها تَبتدِئُ وتَنشأُ، ولهذا قَدَّمَ صَعْقَ أهلِ السمواتِ على أهلِ الأرضِ عندَها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وأمَّا تقديمُ الأرضِ على السماءِ في سورةِ (يونسَ): فإنَّه لَمَّا كان السِّياقُ سياقَ تحذيرٍ وتهديدٍ للبشرِ، وإعلامِهم أنه سُبحانَه عالِمٌ بأعمالِهم دقيقِها وجليلِها، وأنَّه لا يَغيبُ عنه منها شَيءٌ؛ اقتضَى ذلك ذكرَ مَحلِّهم -وهو الأرضُ- قبْلَ ذكرِ السَّماءِ[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وبَيانٌ لِمَا يَقْتضي إتيانَها[(٣)]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكمِ؛ لأجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وما فيهِ مِنْ معنى

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٧٤-١٠٧٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١ - ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ والشَّرفِ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُبالَغةٌ في مُعجِزينَ، وهو تَمثيلٌ: شُبِّهت حالُهم في مَكرِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ مَن يَمْشي مَشيًا سَريعًا؛ لِيَسبقَ غيرَه ويُعجِزَه(٢).

- وقُوبلَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بـ (الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا)؛ لأنَّ السَّعيَ في آياتِ اللهِ يُساوي معنى: كَفَروا بها، وبذلك يَشملُ عمَلَ السَّيِّئاتِ، وهو سيِّئةٌ من السَّيِّئاتِ؛ فقد عبَّرَ عنهم بعْدَ ذلك بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ...﴾ [سبأ: ٧] إلخ(٣).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكمِ؛ لأجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ. وما فيهِ منْ معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ دَرجتِهم في سُوءِ الحالِ(٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾

- قولُه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ كلامٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للاستِشهادِ بأُولي العِلم على الجَهَلةِ السَّاعينَ في الآياتِ(١).

وقيل: هو عطْفٌ على ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[سبأ: ٤]، وهو مُقابِلُ جَزاءِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فالمُرادُ بالَّذين سَعَوا في الآياتِ الَّذين كَفَروا، وعُدِلَ عن جَعلِ صِلَةِ اسم الموصول (كَفَرُوا)؛ لِتَصلُحَ الجُملةُ أنْ تكونَ تَمهيدًا لإبطالِ قَولِ المشركينَ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[سبأ: ٨]؛ لأنَّ قولَهم ذلك كِنايةٌ عن بُطلانِ ما جاءهُم به مِن القرآنِ في زَعْمِهم؛ فكان جَديرًا بأنْ يُمهَّدَ لإبطالِه بشَهادةِ أهْلِ العِلم بأنَّ ما جاء به الرَّسولُ هو الحقُّ دونَ غيرِه مِن باطلِ أهْلِ الشِّركِ الجاهلينَ؛ فعَطْفُ هذه الجُملةِ مِن عطْفِ الأغراضِ. وهذه طَريقةٌ في إبطالِ شُبَهِ أهْلِ الضَّلالةِ والملاحدةِ؛ بأنْ يُقدَّمَ قبْلَ ذِكرِ الشُّبهةِ ما يُقابِلُها مِن إبطالِها. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥]؛ فبَعدَ أنْ أُورِدتْ جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ لِمُقابَلةِ جُملةِ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ [سبأ: ٤]، اعتُبرتْ مَقصودًا مِن جِهَةٍ أُخرى، فكانت بحاجةٍ إلى رَدِّ مَضمونِها بجُملةِ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الَّذين سَعَوا في الآياتِ أهْلُ جَهالةٍ، فيكونُ ذِكرُها بعْدَها تَعقيبًا للشُّبهةِ بما يُبطِلُها(٢).

والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، واختيرَ فِعلُ الرُّؤيةِ هنا دونَ (ويَعلَم)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه عِلمٌ يَقينيٌّ بمَنزلةِ العِلم بالمَرئيَّاتِ الَّتي عِلْمُها ضَروريٌّ(٣).

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٤٥).

الرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ، وفي ذلك فضيلةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ للفصْلِ، يُفيدُ حَصْرَ الحقِّ في القُرآنِ حَصرًا إضافيًّا، أي: لا ما يَقولُه المشرِكونَ ممَّا يُعارِضون به القُرآنَ. ويَجوزُ أيضًا أنْ يُفيدَ قَصْرًا حَقيقيًّا ادِّعائيًّا[٢]، أي: قَصْرَ الحقِّيَّةِ المَحضِ عليه؛ لأنَّ غيرَه مِن الكُتبِ خُلِطَ حقُّها بِباطلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٥).

(٢) الحَصرُ أو القَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٥).

- قولُه: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ من عَطْفِ الفِعْلِ على الاسم، والعُدولُ عن الوَصفِ (الهادي إلى صِراطِ العزيز) إلى صِيغَةِ المُضارِع ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لإشعارِها بتَجدُّدِ الهِدايةِ وتكرُّرِها[١].

- وإيثارُ وَصْفي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ دونَ بقيَّةِ الأسماءِ الحُسنى إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنينَ حينَ يُؤمِنون بأنَّ القُرآنَ هو الحقُّ والهِدايةُ، يَستشعِرون مِن الإيمانِ أنَّه صِراطٌ يُبلَغُ به إلى العِزَّةِ؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ويُبلَغُ به إلى الحمْدِ، أي: الخِصالِ المُوجِبةِ للحمْدِ، وهي الكمالاتُ مِن الفضائلِ والفواضلِ[٢]، ولذا أضافَ الصِّراطَ إلى هذا الاسمِ العظيمِ الدَّالِّ على العِزَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّ مَن تَمَسَّك بهذا الصِّراطِ كانت له العِزَّةُ، وإلى اسمِه ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أيضًا إشارةً إلى أنَّ مَن لَزِمَ هذا الصِّراطَ كان في مقامٍ محمودٍ، وأنَّ مَن تمسَّكَ بالقرآنِ فله العِزَّةُ، وله الحمدُ؛ يُحْمَدُ على فعلِه وقولِه وتركِه[٣].

- وقدَّم ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لأنَّ كونَه عزيزًا تامَّ الهَيبةِ شَديدَ الانتِقامِ: يقوِّي جانِبَ الرَّغبةِ؛ لأنَّ رضا الجبَّارِ العزيزِ أعَزُّ وأكرَمُ مِن رضا مَن لا يكونُ كذلك، فالعِزَّةُ كما تخوِّفُ تُرجِّي أيضًا، وكما تُرغِّبُ عن التَّكذيبِ تُرغِّبُ في التَّصديقِ؛ ليَحصُلَ القُربُ مِن العزيزِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦١، ٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٤).

الآيات (٧-٩)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ
جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ
وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ
نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ
مُّنِيبٖ ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُزِّقۡتُمۡ﴾: أي: بَلِيتُم، وتفرَّقت أجسادُكم، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تخرُّقٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿أَفۡتَرَىٰ﴾: الافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، ومِنه قيل: افترَى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستعمَلُ في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلم، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيْتُ الشَّيءَ أفريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتُه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[(٢)].

﴿جِنَّةُۢ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، ومنه المجنونُ؛ لاستتارِ عقلِه، وتَواريه عنه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٦، ٢١٣).

﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: نُغَيِّبْهم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[١].

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٢].

﴿مُّنِيبٖ﴾: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعِ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أخرى[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى ما قاله الكفرةُ فيما بيْنَهم، على سبيلِ الاستهزاءِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في إخبارِه بالبعثِ، واستبعادَهم ذلك، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا: هل ندُلُّكم على رجُلٍ يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّم وبَلِيَت أجسادُكم أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً؟! هل اختلَقَ محمَّدٌ ذلك وكَذَب على اللهِ أم به جُنونٌ؟!

ثمَّ يرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ليس الأمرُ كما زَعَموا، بل هؤلاء الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ في العَذابِ والذَّهابِ البعيدِ عن الحَقِّ.

ثمَّ يقولُ تعالى منبِّهًا لهم على قدرتِه، ومهدِّدًا لهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في ضلالِهم وجهالاتِهم: أفلَمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فإنْ نَشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

السَّماءِ فنُهلِكْهم، إنَّ في ذلك لَدَلالةً لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ تعالى راجِعٍ إليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَجَّب سُبحانَه مِنَ الَّذين كفروا في قَولِهم ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]، المتضَمِّنِ لِتَكذيبِهم، وختَمَ بتصديقِ الَّذين أُوتوا العِلمَ، مُشيرًا إلى أنَّ سببَ تكذيبِ الكفَرةِ الجهلُ، الَّذي سببُه الكِبْرُ؛ عجَّب منهم هنا تعجيبًا آخَرَ أشَدَّ من الأوَّلِ؛ لتصريحِهم بالتَّكذيبِ على وجهٍ عجيبٍ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ الكافرينَ أنكَروا السَّاعةَ، وردَّ عليهم بقولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣]، وبيَّن ما يكونُ بعدَ إتيانِها من جزاءِ المؤمنِ على عمَلِه الصَّالحِ، وجزاءِ السَّاعي في تكذيبِ الآياتِ بالتَّعذيبِ على السَّيِّئاتِ؛ بيَّن حالَ المؤمنِ والكافرِ بعدَ قولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ فقال: المؤمنُ هو الَّذي يقولُ: الَّذي أُنزِل إليك الحقُّ وهو يَهدي. وقال: الكافرُ هو الَّذي يقولُ: هو باطلٌ! ومِن غايةِ اعتِقادِهم وعِنادِهم في إبطالِ ذلك، قالوا على سبيلِ التَّعجُّبِ[2] ما حكاه اللهُ تعالى عنهم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هل نَدُلُّكم -أيُّها النَّاسُ[١]- على رجُلٍ[٢] يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّمْ وتقَطَّعَت أجسادُكم وتفَرَّقَت في قُبورِكم كُلَّ تقطيعٍ وتَفريقٍ: أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً مِن جَديدٍ[٣]؟!

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾.

أي: هل اختلَق محمَّدٌ ذلك الأمرَ فكَذَب على اللهِ في إخبارِه بأنَّه سيَبعثُنا بعدَ مَوتِنا، أم هو امرُؤٌ مَجنونٌ يَهْذي بكَلامٍ لا معنى له[٤]؟!

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَم أولئك المُشرِكونَ؛ فليس هو بمُفتَرٍ على اللهِ تعالى

(١) قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ قَولُهم هذا تقاوُلًا بيْنَهم، أو يقولُه بَعضُهم لبعضٍ، أو يقولُه كُبَراؤهم لعامَّتِهم ودَهْمائِهم؛ ويجوزُ أن يكونَ قَولَ كُفَّارِ مكَّةَ للواردينَ عليهم في الموسِمِ، وهذا الَّذي يُؤْذِنُ به فِعلُ ﴿نَدُلُّكُمْ﴾ من أنَّه خِطابٌ لِمَن لم يَبلُغْهم قَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٧).

(٢) قال البقاعي: (ولَمَّا أخرَجوا الكلامَ مخرجَ الغرائِبِ المُضحِكةِ، لم يَذكُروا اسمَه مع أنَّه أشهرُ الأسماءِ، بل قالوا: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي: ليس هو صبيًّا ولا امرأةً حتَّى تَعذِروه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٢، ٧٣).

في ذلك، وليس بمَجنونٍ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في العذابِ والذَّهابِ البَعيدِ عن الحَقِّ(١).

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّليلَ بكَونِه عالِمَ الغَيبِ، وكَونِه جازيًا على السَّيِّئاتِ والحَسَناتِ؛ ذكَرَ دليلًا آخَرَ، وذكَرَ فيه تهديدًا(٢).

وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ قد أنكَروا السَّاعةَ؛ لِقَطعِهم بأنَّ مَن مُزِّق كُلَّ مُمَزَّقٍ لا يمكِنُ إعادتُه، فقطعوا -جهلًا- بأنَّ الله تعالى لا يقولُ ذلك، فنَسَبوا الصَّادِقَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإخبارِ بذلك إلى أحَدِ أمْرَينِ: تعمُّدِ الكَذِبِ، أو الجُنونِ- شَرَع اللهُ سُبحانَه يدُلُّ على صِدقِه في جميعِ ما أخبَرَ به، فبدأ بإثباتِ قُدرتِه على ذلك(٣).

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾.

أي: أفلمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم(٤) مِنَ السَّماءِ والأرضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٣).

(٤) ممَّن اختار أنَّ المعنى: ألم يَنظُروا إلى السَّماءِ والأرضِ كيف أحاطتْ بهم؟ لأنَّك إن نظَرْتَ عن يمينِك أو شمالِك، أو بيْنَ يدَيك أو خَلْفَك رأيتَ السَّماءَ والأرضَ: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦). =

المحيطتَينِ بهما، وأنَّهم حيثما توجَّهوا فلن يَخرُجوا مِن ملَكوتِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على تَعذيبِهم[(١)]؟!

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

أي: إنْ نشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِن السَّماءِ فنُهلِكْهم بسَبَبِ ظُلمِهم؛ فلْيرتَدِعوا عن التَّكذيبِ بالبَعثِ، ولْيَعلَموا كمالَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٢)].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨).

وقال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ استفهامٌ في معنى التَّقريرِ لهم بإحاطةِ السَّماءِ والأرضِ بهم حيث نظَروا وتوجَّهوا. ومقصودُ ذلك: [تذكيرُهم] بقُدرةِ الله تعالى عليهم، وتخويفُهم مِن سطوتِه وبطشتِه، ألَا تراه يقول: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾؟ وهذا المعنى قولُ قَتادةَ وجُمهورِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٤).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يَستقبِلُه كُلُّ أحدٍ منهم مِن الكائناتِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، وبـ«مَا خَلْفَهم»: ما هو وراءَ كُلِّ أحدٍ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٣).

وقال ابن عثيمين: (يحتمِلُ أن يكون المرادُ فيها المكانَ، ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الزَّمانَ... انظُرْ ما بيْنَ يديك في المكانِ، أو ما بين يديك في الزمانِ، وما خَلْفَك مِن المكانِ أو الزَّمانِ: هل نجا أحدٌ من عذابِ اللهِ؟). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٩).

وقيل: معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ممَّن أهلكهم اللهُ تعالى مِن الأُمَمِ الماضية في أرضِه، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ في سمائِه. قاله أبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤).

قال ابن جُزَي: (والمعنى: ألم يَرَوْا إلى السَّماءِ والأرضِ فيَعلَموا أنَّ الَّذي خلَقَهما قادرٌ على بعث النَّاس بعدَ موتِهم؟ ويحتمِلُ أن يكونَ المعنى تهديدًا لهم، ثمَّ فَسَّره بقولِه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، أي: أفلمْ يَرَوا إلى السَّماءِ والأرضِ أنَّهما مُحيطتان بهم، فيَعلَمونَ أنَّهم لا مَهرَبَ لهم مِن اللهِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

أي: إنَّ في ذلك لَدَلالةً وعَلامةً ظاهِرةً(١) لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ سُبحانَه، راجعٍ إلى مَعرفتِه وتوحيدِه والإقبالِ على طاعتِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أنَّ في السَّماءِ والأرضِ آياتٍ عظيمةً لِمَن نَظَر وتدبَّر، وهذا أثْبَتَه اللهُ تعالى في القرآنِ في مواضعَ كثيرةٍ، كما في قولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، فكلُّ مَن تدبَّرَ ما في السَّماءِ وما في الأرضِ وما بيْنَهما؛ تَبيَّنَ له من آياتِ اللهِ ما يُقوِّي

---

(١) قيل: المشارُ إليه إحاطةُ السَّماءِ والأرضِ بالعبادِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٦).

وقال ابنُ عاشور: (والمشارُ إليه هو ما بيْنَ أيديهم وما خَلْفَهم مِن السَّماءِ والأرضِ، أي: مِن الكائناتِ فيهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٤).

وقال السعدي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وما فيهما مِن المخلوقاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٤).

إيمانَه، ويَزيدُه طمَعًا في فَضْلِ اللهِ تعالى، وخَوْفًا مِن عِقابه[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أنَّ اللهَ يَمُنُّ على العبدِ بظُهورِ الآياتِ له حتَّى يَتبيَّنَ له الحقُّ، وإذا مَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالنَّظَرِ في آياته والتدبُّر؛ ازدادَ بذلك إيمانًا باللهِ، وإيمانًا بما تقتَضيه هذه الآياتُ مِن صِفاتِه؛ فإنَّ كُلَّ آيةٍ تدُلُّ على صِفةٍ مُعَيَّنةٍ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه حَثٌّ بليغٌ على التَّوبةِ والإنابةِ[(٣)]، وأنَّه كُلَّما كان العبدُ أعظَمَ إنابةً إلى اللهِ، كان انتِفاعُه بالآياتِ أعظَمَ؛ لأنَّ المُنيبَ مُقبِلٌ على رَبِّه، قد توجَّهَت إراداتُه وهِمَّتُه لرَبِّه، ورجَعَ إليه في كُلِّ أمرٍ مِن أمورِه، فصار قريبًا مِن رَبِّه، ليس له هَمٌّ إلَّا الاشتِغالُ بمَرضاتِه، فيكونُ نَظَرُه للمَخلوقاتِ نَظَرَ فِكرةٍ وعِبرةٍ، لا نظَرَ غَفلةٍ غيرِ نافِعةٍ[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سُمِّيَ خَلقًا جديدًا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا بُعِث فإنَّه لا يُبعَثُ كحالِه في الدُّنيا، بل يُبعَثُ في حالٍ أشَدَّ وأقوى؛ لأنَّه سيُبعَثُ على أنَّه مُؤبَّدٌ لا يموتُ، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في أوصافِه؛ لأنَّ الصَّحيحَ أنَّ الخَلْقَ هو إعادةُ ما مضَى[(٥)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللهِ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٠).

حتَّى إنَّ الكافِرينَ يَستَقبِحونَه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وُجوبُ النَّظَرِ والاعتبارِ فيما حصَلَ مِنَ الآياتِ في السَّماءِ والأرضِ؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوبيخِ، ولا يُوبَّخون إلَّا على تَركِ واجبٍ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه سؤالٌ: هلَّا ذَكَر الأيمانَ والشَّمائِلَ كما ذكَرَها في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]؟

الجوابُ: أنَّه وُجِدَ هنا ما يُغْني عن ذِكرِهما مِن لَفظِ العُمومِ والسَّماءِ والأرضِ، بخِلافِه ثَمَّ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أنَّ ما يحصُلُ مِنَ الخَسْفِ والزَّلازِلِ والنَّوازِلِ فإنَّه بإذْنِ اللهِ؛ عقوبةً للعِبادِ واعتبارًا؛ خلافًا لِمَن قال: إنَّ هذه أمورٌ طبيعيَّةٌ لا تدُلُّ على غضبِ اللهِ ولا على إنذارِه -كما هو رأيُ مَن لا يؤمنُ باللهِ تعالى-! فالخَسْفُ في الأرضِ عقوبةٌ؛ وما يأتي مِنَ الصَّواعقِ والكوارثِ الأفقيَّةِ فهي أيضًا عقوبةٌ(٤).

٦- في قَولِه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ...﴾ تَنبيهٌ على أنَّه لم يَبْقَ مِن أسبابِ وُقوعِ العذابِ إلَّا تَعلُّقُ مَشيئةِ اللهِ به(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ... ﴾ انتِقالٌ إلى قَولةٍ أُخرى مِن شَناعةِ أهْلِ الشِّركِ مَعطوفةٍ على ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ [سبأ: ٣]. وهذا القولُ قائمٌ مَقامَ الاستدلالِ على قولِهم الأوَّلِ: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ الَّذي هو بمنزلةِ دَعوى، وقولُهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ مُستنَدُ تلك الدَّعوى؛ ولذلك حُكِيَ بمِثلِ الأُسلوبِ الَّذي حُكِيت به الدَّعوى في المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه. وأدْمَجوا في الاستِدلالِ التَّعجُّبَ مِن الَّذي يأْتي بنَقيضِ دَليلِهم، ثمَّ إردافَ ذلك التَّعجُّبِ بالطَّعنِ في المُتعجَّبِ به(١).

- والمُخاطَبُ بقَولِهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ غيرُ مَذكورٍ؛ لأنَّ المقصودَ في الآيةِ الاعتبارُ بشَناعةِ القولِ، ولا غرَضَ يَتعلَّقُ بالمَقولِ لهم(٢).

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العرْضِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨]، وهو عَرْضٌ مُكنًّى به عن التَّعجُّبِ، أي: هلْ نَدُلُّكم على أُعجوبةٍ مِن رَجُلٍ يُنبِّئُكم بهذا النَّبأِ المُحالِ(٣)؟!

- قولُه: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ... ﴾ إنْ كان التَّقاوُلُ بيْنَ المشركينَ بعضِهم لِبَعضٍ؛ فالتَّعبيرُ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بـ﴿رَجُلٖ﴾ مُنكَّرٍ، مع كَونِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَعروفًا بيْنهم ومِن أهْلِ بَلدِهم؛ لأنَّهم قَصَدوا مِن تَنكيرِه أنَّه لا يُعرَفُ؛ تَجاهُلًا وسُخريةً منهم، فأخْرَجوهُ مُخرَجَ التَّحلِّي ببَعضِ الأحاجيِّ الَّتي يُتحاجَى بها للضَّحِكِ والتَّلهِّي، مُتجاهِلينَ به وبأمْرِه. وإنْ كان قولُ المشركينَ مُوجَّهًا إلى الواردينَ مكَّةَ في المَوسمِ؛ كان التَّعبيرُ بـ﴿رَجُلٍ﴾ جَرْيًا على مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ الواردينَ لا يَعرِفون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا دَعوتَه، فيكونُ كقولِ أبي ذَرٍّ قبْلَ إسلامِه لأخيه[1]: (اذهَبْ فاستعْلِمْ لنا خبَرَ هذا الرَّجُلِ الَّذي يَزعُمُ أنَّه نَبيٌّ)[2]. وقيل: نُكِّر للتَّحقيرِ[3].

- وشِبهُ الجُملةِ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ليس ممَّا نَبَّأَ به الرَّجُلُ، وإنَّما هو اعتِراضٌ في كلامِ الحاكينَ؛ تَنبيهًا على استِحالةِ ما يَقولُه هذا الرَّجلُ على أنَّه لازمٌ لإثباتِ الخلْقِ الجديدِ لكلِّ الأمواتِ. وتَقديمُ هذا الاعتِراضِ؛ للاهتمام به؛ لِيَتقرَّرَ في أذهانِ السَّامعينَ؛ لأنَّه مَناطُ الإحالةِ في زَعْمِهم؛ فإنَّ إعادةَ الحياةِ للأمواتِ تكونُ بعْدَ انعدامِ أجزاءِ الأجسادِ، وتكونُ بعْدَ تَفرُّقِها تفرُّقًا قريبًا من العدَمِ، وتكونُ بعدَ تَفرُّقٍ ما، وتكونُ مع بَقاءِ الأجسادِ على حالِها بقاءً مُتفاوتًا في الصَّلابةِ والرُّطوبةِ، وهم أنْكَروا إعادةَ الحياةِ في سائرِ الأحوالِ، ولكنَّهم خَصُّوا في كَلامِهم الإعادةَ بعدَ التَّمزُّقِ كلَّ مُمزَّقٍ -أي: بعدَ اضمحلالِ الأجسادِ أو تَفرُّقِها الشَّديدِ-؛ لِقُوَّةِ استِحالةِ إرجاعِ الحياةِ إليها بعدَئذٍ[4].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عُدِلَ إليه عن الجُملةِ الفِعليَّةِ الدَّالَّةِ

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٥٢٢)، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٩).

على الحُدوثِ مِثلُ (تُبعثون)، أو (تُخلَقون خلْقًا جديدًا)؛ للإشباعِ في الاستِبعادِ والتَّعجُّبِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾

- جُملةُ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ في مَوضعِ صِفةٍ ثانيةٍ لـ ﴿رَجُلٍ﴾، أتَوا بها استفهاميَّةً؛ لِتَشريكِ المخاطَبينَ معهم في تَرديدِ الرَّجُلِ بيْنَ هذينِ الحالَينِ: الكذِبِ، والجُنونِ(٢).

- ولَمَّا كان الكلامُ في البعثِ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ فرَتَّبَ العذابَ على إنكارِ البَعثِ(٣).

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ردٌّ مِن اللهِ تعالى على استِدلالِهم بما أشارَ إلى أنَّهم ضالُّون أو مُضِلُّون، وَواهِمون أو مُوهِمون؛ فأبطَلَ قَولَهم بحَذافِرِه بحَرْفِ الإضرابِ (بل)، ثمَّ بجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾؛ فقابَلَ ما وَصَفوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوَصفَينِ: أنَّهم في العذابِ، وذلك مُقابِلُ قَولِهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ الَّذي يَكذِبُ على اللهِ يُسلِّطُ اللهُ عليه عَذابَه، وأنَّهم في الضَّلالِ البعيدِ، وذلك مُقابِلُ قَولِهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾. وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: بل أنتمْ في العذابِ والضَّلالِ، إلى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾؛ إدماجًا(٤) ....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٢).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ =

لِتَهديدِهم، وتَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وَضْعُ المَوصولِ مَوضعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّ عِلَّةَ ما ارْتَكَبوه واجْتَرَؤوا عليه مِن الشَّناعةِ الفظيعةِ: كُفْرُهم بالآخِرةِ وما فيها مِن فُنونِ العِقابِ، ولولاه لَمَا فَعَلوا ذلك؛ خَوفًا مِن غائلتِه. ووَصْفُ الضَّلالِ بالبُعدِ؛ للمُبالَغةِ[٢].

- وتَقديمُ العذابِ على ما يُوجِبُه ويَستتبِعُه؛ للمُسارعةِ إلى بَيانِ ما يَسوؤُهم، ويَفُتُّ في أعضادِهم، والإشعارِ بغايةِ سُرعةِ تَرتُّبِه عليه، كأنَّه يُسابِقُه فيَسبقُه، وللمُبالَغةِ في استحقاقِهم له[٣]، ولأنَّه لَمَّا كان هذا القَولُ مُسَبَّبًا عن ضَلالِ المُشرِكينَ، وكان ضَلالُهم سببًا لعذابِهم- قدَّم العذابَ؛ لأنَّه المحطُّ، ولِيَرتدِعَ مَن أرادَ اللهُ إيمانَه[٤].

= إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٢).

- وقولُه: ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ إدماجٌ، يَصِفُ به حالَهم في الآخِرةِ مع وَصْفِ حالِهم في الدُّنيا[١].

- قولُه: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: الضَّلالِ الَّذي يَصعُبُ الرُّجوعُ منه إلى الهُدى؛ تشبيهًا بمن ضَلَّ عن مَحجَّةِ[٢] الطَّريقِ بُعدًا مُتناهيًا، فلا يكادُ يُرجى له العَودُ إليها[٣].

٣- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَهويلِ ما اجْتَرؤوا عليه وقالوه مِن تكذيبِ آياتِ اللهِ تعالى، واستِعظامِ ما قالوا في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه مِن العظائمِ المُوجِبةِ لِنُزولِ أشدِّ العِقابِ، وحُلولِ أفظَعِ العذابِ مِن غَيرِ رَيْثٍ وتأخيرٍ[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ ...﴾ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المَقامُ، ولِتَفريعِ ما بعْدَها على قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ ...﴾ [سبأ: ٨] إلخ؛ لأنَّ رُؤيةَ مَخلوقاتِ اللهِ في السَّماءِ والأرضِ مِن شَأنِها أنْ تَهديَهم لو تأمَّلوا حقَّ التَّأمُّلِ. والاستِفهامُ للتَّعجُّبِ الَّذي يُخالِطُه إنكارٌ على انتفاءِ تأمُّلِهم فيما بيْنَ أيْديهم وما خلْفَهم مِن السَّماءِ والأرضِ. والرُّؤيةُ بَصريَّةٌ؛ بقَرينةِ تعدِيَتِها بحرفِ (إلى)؛ فمعنى الاستِفهامِ عن انتفائِها منهم: انتِفاءُ آثارِها مِن الاستِدلالِ بأحوالِ الكائناتِ السَّماويةِ والأرضيَّةِ على إمكانِ البَعثِ؛ فشَبَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٢).

(٢) المَحجَّة: جادَّةُ الطَّريقِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

وُجودَ الرُّؤيةِ بعَدمِها، وعُبِّرَ عنه بحَرْفِ النَّفيِ، والمَقصودُ: حثُّهم على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ لِيَتداركوا عِلمَهم بما أهْمَلوه(١).

- وقيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لتذكيرِهم بما يُعايِنونَ ممَّا يدُلُّ على كمالِ قدرتِه عزَّ وجلَّ، وتنبيهِهم على ما يَحتمِلُ أنْ يقَعَ مِن الأمورِ الهائلةِ في ذلك؛ إزاحةً لاستِحالتِهم الإحياءَ حتَّى جَعَلوه افتراءً وهُزءًا، وتَهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلمْ يَنظُروا إلى ما أحاطَ بجوانِبِهم مِن السَّماءِ والأرضِ، ولم يَتفكَّروا أهُمْ أشَدُّ خلقًا أمْ هي(٢)؟!

- وفي قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ زِيدَ حَرْفُ الفاءِ؛ لأنَّ الاعتبارَ فيها بالمُشاهَدةِ، وخُصَّت بالفاءِ؛ لِشدَّةِ اتِّصالِها بالأوَّلِ؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الَّذين قَسَموا الكلامَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقالوا: محمَّدٌ إمَّا غافلٌ أو كاذبٌ، وإمَّا مَجنونٌ هاذٍ، وهو قولُهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ﴾ [سبأ: ٨]، فقال اللهُ تعالى: بل تَركْتُم القِسمةَ الثَّالثةَ، وهي: وإمَّا صَحيحُ العقلِ صادقٌ(٣).

- وجُملةُ ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ اعتِراضٌ بالتَّهديدِ؛ فمُناسَبةُ التَّعجُّبِ الإنكاريِّ بما يُذكِّرُهم بقُدْرةِ خالقِ تلك المخلوقاتِ العظيمةِ على عِقابِ الَّذين أشْرَكوا معه غيرَه، والَّذين ضيَّقوا واسِعَ قُدْرتِه، وكذَّبوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يَخطُرُ في عُقولِهم؛ ذِكرُ الأُمَمِ الَّتي أصابَها عِقابٌ بشَيءٍ مِن الكائناتِ الأرضيَّةِ كالخَسفِ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

السَّماويَّةِ كإسقاطِ كِسَفٍ مِن الأجرامِ السَّماويَّةِ، مِثلُ ما أصاب قارونَ مِن الخَسْفِ، وما أصاب أهْلَ الأَيْكةِ مِن سُقوطِ الكِسَفِ[١].

- وجُملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ تَعليلٌ للتَّعجُّبِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ باعتبارِ ما يَتضمَّنُه مِن الحثِّ على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ فمَوقعُ حَرفِ التَّوكيدِ هنا لِمُجرَّدِ التَّعليلِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ بالإفرادِ، وقال بعْدَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] بالجمْعِ؛ ووَجْهُه: أنَّ الإشارةَ هنا إلى قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]، ولم يَتقدَّمْ ما حُرِّكوا إلى الاعتبارِ به غيرُ هذا، وقد انضَمَّ ذلك تحتَ (ما) الموصولةِ، ولَفظُها مُفرَدٌ؛ فرُوعِيَ مِن حيث اللَّفظُ، فقيلَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بالإفرادِ. وأمَّا الثَّانيةُ فتقدَّمَ قبْلَها قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ثمَّ قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢]، إلى قولِه: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، ثمَّ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]؛ فذَكَّرَ سُبحانَه بالاعتبارِ بما منَحَ داودَ عليه السَّلامُ مِن تَسبيحِ الجبالِ والطَّيرِ معه، وإلانةِ الحديدِ، وبما سخَّرَ لِسُليمانَ عليه السَّلامُ مِن الرِّيحِ تَحمِلُه وجُنودَه حيث شاء في السُّرعةِ الَّتي أشارَتْ إليها الآيةُ، وإسالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٤).

عَينِ القِطرِ له، وعمَلِ الجِنِّ بيْن يَديْه، ثمَّ ذكَرَ ما كان لِسَبأٍ في مَساكنِهم مِن آيةِ الجنَّتينِ عن يَمينٍ وشِمالٍ، وأكْلِهم منها، وتَنعيمِهم إلى أنْ أعرَضوا، فأرسَلَ عليهم سَيْلَ العَرِمِ، إلى آخرِ قِصَّتِهم؛ فهذه المُعتبراتُ لم تَدخُلْ تحتَ مَوصولٍ، ولا اسمٍ مُفرَدٍ يَضُمُّ جَميعَها، بل ذُكِرَت مُفصَّلةً؛ فقِيل إشارةً إلى جَميعِها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾[١]. وقيل غير ذلك[٢].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥).

الآيتان (١٠-١١)

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوِّبِى﴾: أي: رَجِّعي معه التَّسبيحَ، والتَّأويبُ: التَّسبيحُ والتَّرجيعُ[١].

﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: دُروعًا واسِعةً طويلةً، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكمالِه[٢].

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: أي: في النَّسْجِ؛ فلا تَجعَلِ المساميرَ دِقاقًا فتَقْلَقَ، ولا غِلاظًا فتُكَسِّرَ الحِلَقَ، واجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ ونهايتِه، وأصلُ (سرد): يدُلُّ على التَّوالي والتَّتابُعِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ في نصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه معطوفٌ على محلِّ (جبالُ)؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧) و(٥/ ٦٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥).

منصوبٌ تقديرًا، كأنَّه قال: أنادي الجِبالَ والطَّيرَ. الثَّاني: أنَّه مفعولٌ معه. الثَّالِثُ: أنَّه معطوفٌ على ﴿فَضْلًا﴾ على نِيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: آتَيْناه فضلًا وتسبيحَ الطَّيرِ. الرَّابِعُ: أنَّه منصوبٌ بإضمارِ فِعلٍ، أي: وسَخَّرْنا له الطَّيرَ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عمَّا أنعَم به على عبدِه ورسولِه داودَ عليه السَّلامُ: ولقدْ آتَينا داودَ مِن عِندِنا فَضلًا، فقُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي معه والطَّيرَ، فكان يُسَبِّحُ والجِبالُ والطَّيرُ تُرَدِّدُ تَسبيحَه، وألَنَّا لداودَ الحديدَ، وقُلْنا له: اصنَعْ مِنَ الحديدِ دُروعًا تامَّةً طَويلةً وافيةً، واجعَلْ نسْجَ الدُّروعِ على نَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ، واعمَلوا عملًا صالِحًا، إنِّي بَصيرٌ بما تَعملونَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ -عليهما السَّلامُ- لِما قَبْلَها، هي: أنَّ أولئك الكُفَّارَ أنكروا البَعثَ لاستِحالتِه عندَهم، فأُخبِروا بوقوعِ ما هو مُستحيلٌ في العادةِ ممَّا لا يُمكِنُهم إنكارُه؛ إذ طفَحَت ببعضِه أخبارُهم وشعراؤُهم؛ من تأويبِ الجبالِ والطَّيرِ مع داودَ، وإلانةِ الحديدِ -وهو الجِرْمُ المُستعصي- وتسخيرِ الرِّيحِ لسُلَيمانَ، وإسالةِ النُّحاسِ له كما ألانَ الحديدَ لأبيه، وتسخيرِ الجِنِّ فيما شاء مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ(٢).

---

(١) يُنظَر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى مَن يُنيبُ مِن عبادِه؛ ذكَرَ منهم مَن أناب وأصاب، ومِن جُملتِهم: داودُ، كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وبيَّن ما آتاه اللهُ على إنابته[١].

وأيضًا لَمَّا أشار اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السَّابِقةِ -الَّتي دلَّت على نفوذِ الأمرِ- إلى أنَّه تارةً يَعدِلُ، وتارةً يَتفضَّلُ، وكان الفَضلُ أكثَرَ استِجلابًا لذَوي الهِمَمِ العَليَّةِ والأنفُسِ الأبيَّةِ؛ بدأ به في عبدٍ مِن رُؤوسِ المُنيبينَ، على وَجهٍ دالٍّ على البَعثِ بكَمالِ التَّصرُّفِ في الخافِقَينِ وما فيهما[٢].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾.

أي: ولقد آتَينا داودَ مِن عِندِنا ما فضَّلْناه به على غَيرِه، وخَصَصْناه به مِن بينِ النَّاسِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦).

قال ابنُ عاشور في بيانِ الفضلِ الَّذي آتاه اللهُ داودَ عليه السَّلامُ: (وهو فَضْلُ النُّبُوةِ، وفضلُ المُلكِ، وفضلُ العنايةِ بإصلاحِ الأُمَّةِ، وفضلُ القَضاءِ بالعدلِ، وفضلُ الشَّجاعةِ في الحربِ، وفضلُ سَعةِ النِّعمةِ عليه، وفضلُ إغنائِه عن النَّاسِ بما ألهمَه مِن صُنعِ دُروعِ الحديدِ، وفضلُ إيتائِه الزَّبورَ، وإيتائِه حُسْنَ الصَّوتِ، وطولَ العُمُرِ في الصَّلاحِ، وغَيرُ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ ذَكَر جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه آتى داودَ منه فضلًا تَفَضَّل به عليه، وبَيَّن هذا الفضلَ الَّذي تَفَضَّل به على داودَ في آياتٍ أُخَرَ؛ كقولِه تعالَى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقولِه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقولِه تعالَى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ =

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾.

أي: قُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي مع داودَ، والطَّيرَ أيضًا إذا سَبَّح داودُ رَبَّه؛ فكان يُسَبِّحُ والجبالُ والطَّيرُ تُرَدِّدُ تَسبيحَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ * وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾.

أي: وألَنَّا لداودَ مَعدِنَ الحديدِ الصُّلبِ، فهو يتصَرَّفُ فيه بسُهولةٍ[٢].

﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾.

﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾.

= ﴿ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٢٥]، وقوله تعالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقوله تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقوله تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٨، ٨٩).

قال ابنُ جرير: (ذُكِرَ أنَّ الحديدَ كان في يَدِه كالطِّينِ المبلولِ يُصَرِّفُه في يدِه كيف يَشاءُ، بغيرِ إدخالِ نارٍ، ولا ضَرْبٍ بحديدٍ!). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢).

أي: وأمَرْنا داودَ فقُلْنا له: اصنَعْ مِن الحديدِ دُروعًا تامَّةً كاملةً، طويلةً وافيةً(١).

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾.

أي: واجعَلْ نَسْجَ الدُّروعِ على مِقدارٍ مَحدودٍ، ونَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٩، ٩٠).

قال ابنُ تيميَّة: (السَّابغاتُ: هي الدُّروعُ الكاملةُ الَّتي تكونُ لها أيدٍ وأفخاذٌ). ((قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي وسلاحه ودوابه)) (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٤١٠) و (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩١).

قال ابن عاشور: (والسَّردُ: صُنعُ دِرعِ الحديدِ، أي: تركيبُ حِلَقِها ومساميرِها الَّتي تَشُدُّ شُقَقَ الدِّرعِ بَعضَها ببعضٍ، فهي للحديدِ كالخياطةِ للثَّوبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

قيل: معنى الآيةِ: عدِّل المسمارَ في الحَلْقةِ، ولا تُصَغِّرْه فيَقلَقَ، ولا تُعَظِّمْه فتَنفصِمَ الحَلْقةُ، قاله مجاهدٌ.

وقيل: المعنى: لا تجعَلْ حِلَقَه واسعةً، فلا تَقي صاحبَها، قاله قتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩١).

قال الشنقيطي: (اجْعَلِ المساميرَ والحِلَقَ في نَسجِ الدُّروعِ بأقدارٍ مُتناسِبةٍ متلائمةٍ؛ لأنَّ المِسمارَ إن كان أكبرَ مِن الحلْقةِ جدًّا كَسَرَها، وإذا كان أصغرَ منها جدًّا لم يَشُدَّها كما ينبغي، فإذا كانت المساميرُ والحِلَقُ بأقدارٍ مُتناسِبةٍ كانت الدُّروعُ مَشدودةً كما ينبغي، ترُدُّ وقعَ السِّلاحِ مِن السُّيوفِ والسِّهامِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٦٩).

وقال الرسعني: (والمعنى: اجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٨).

وقال البقاعي: (والظَّاهرُ أنَّه لم يكُنْ في حِلَقِها مَساميرُ؛ لعدمِ الحاجةِ بإلانةِ الحديدِ إليها، وإلَّا لم يكُنْ بيْنَه وبينَ غيرِه فَرقٌ، ولا كان للإلانةِ فائدةٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٥٩).

وقيل: المعنى: لا تصرِفْ جميعَ أوقاتِك إليه، بل مِقدارَ ما يحصلُ به القوتُ، وأمَّا الباقي فاصرِفْه إلى العبادة. ذكر هذا المعنى: الرازيُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا سخَّرَ اللهُ له ما استصْعَبَ على غيرِه؛ أتْبَعَه بأمْرِه بالشُّكرِ بأنْ يَعمَلَ صالحًا[1].

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

أي: واعمَلوا عَمَلًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه[2].

= قال أبو السعود: (وهو الأنسَبُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥).

وقال الرازي: (وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: الزَّردِ؛ إشارةً إلى أنَّه غيرُ مأمورٍ به أمرَ إيجابٍ، إنَّما هو اكتسابٌ، والكَسبُ يكونُ بقدر الحاجةِ، وباقي الأيام واللَّيالي للعبادةِ، فقَدِّرْ في ذلك العملِ، ولا تَشغَلْ جميعَ أوقاتِك بالكَسبِ، بل حصِّل به القوتَ فحَسْبُ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، أي: لستُم مخلوقينَ إلَّا للعملِ الصَّالحِ، فاعمَلوا ذلك وأكثِروا منه، والكَسبُ قَدِّروا فيه). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

ممَّن اختار أنَّ هذا خِطابٌ لداودَ وأهلِه: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٦).

وقيل: هو خِطابٌ لداودَ ولِمَن أطاعه. وممَّن قال به: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦١). =

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنِّي بصيرٌ بما تَعمَلونَه مِن أعمالٍ، لا يخفَى علَيَّ شَيءٌ منها[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ...﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على تعلُّم أهلِ الفَضلِ الصَّنائِعَ، وأنَّ التَّحَرُّفَ بها لا يَنقُصُ مِن مناصِبِهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم وفَضائِلِهم؛ إذ يَحصُلُ لهم التَّواضُعُ في أنفُسِهم، والاستِغناءُ عن غيرِهم، وكَسْبُ الحلالِ الخَليِّ عن الامتنان، وفي الصَّحيحِ[2] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما أكَل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا مِن أن يأكُلَ مِن عمَلِ يدِه، وإنَّ نبيَّ الله داودَ كان يأكُلُ مِن عَمَلِ يَدِه))[3]. فالآيةُ فيها دَليلٌ على الاكتِسابِ بعَمَلِ اليدِ[4].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ دليلٌ على التَّثبُّتِ في العَمَلِ، وتقديرِه وإحكامِه[5].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أنَّه يجِبُ على مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه نِعمةً أن يَقومَ بشُكرِها بالعَمَلِ الصَّالِحِ[6].

= وقيل: خاطبه بلفظ الجماعةِ. وقيل: إنَّه أراد به داودَ وقومَه. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٢).

(٢) أخرجه البُخاري (٢٠٧٢) من حديثِ المِقْدامِ بنِ مَعدِ يْكَرِبَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ...﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى نِعمتَه على داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ؛ احتِجاجًا على ما مَنَح محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لا تَستَبعِدوا هذا؛ فقد تفضَّلْنا على عَبيدِنا قديمًا بكذا وكذا(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أنَّ الجمادَ يُدرِكُ خِطابَ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ ووجْهُ ذلك: لولا أنَّه يُدرِكُ لَكان توجيهُ الخطابِ إليه عَبَثًا، واللهُ سُبحانَه وتعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ في أقوالِه وأفعالِه، ويدُلُّ على أنَّه يُدرِكُ ذلك أنَّها أوَّبَتْ مع داودَ ورَجَّعَتْ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ جعَل الجبالَ بمنزلةِ العُقَلاءِ الَّذين إذا أمَرَهم أطاعوا وأذعَنوا، وإذا دعاهم سَمِعوا وأجابوا؛ إشعارًا بأنَّه ما مِن حيوانٍ وجمادٍ وناطقٍ وصامتٍ إلَّا وهو مُنقادٌ لِمَشيئته تعالى، غيرُ مُمتنعٍ على إرادتِه؛ ودَلالةً على عزَّةِ الرُّبوبيَّةِ، وكبرياءِ الأُلوهيَّةِ؛ حيثُ نادى الجِبالَ وأمَرَها(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ دليلٌ على إباحةِ لُبْسِ الدُّرُوعِ، وأنَّها لا تكون مؤَثِّرةً في التَّوكُّلِ، والفِرارِ مِن الأجَلِ! وتكونُ حِرزًا بينَ لابِسِها وبينَ ما يتَّقيه مِن الطَّعْنِ والجَرْحِ؛ وجُنَّةً مِن وصولِ المكارِهِ إلى المكانِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

والتَّوكُّلُ قائمٌ على حالِه[١].

٥- لا بُدَّ في الخَلقِ والأمرِ مِن العَدلِ؛ فلا بُدَّ مِن التَّسويةِ بينَ المتماثِلَين، فإذا فُضِّل أحدُهما فسَدَ المصنوعُ، كما في مصنوعاتِ العبادِ؛ إذا بَنَوا بنيانًا فلا بدَّ مِن التَّسويةِ بينَ الحيطانِ؛ إذ لو رُفِعَ حائطٌ على حائطٍ رَفعًا كثيرًا، فَسَد، وكذلك إذا صُنِعَت ملابِسُ للآدميِّينَ فلا بدَّ من أن تكونَ مُقدَّرةً على أبدانِهم لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ، وكذلك ما يُصنَعُ مِن الطَّعامِ لا بُدَّ أن تكونَ أخلاطُه على وجهِ الاعتدالِ، والنَّارُ الَّتي تَطبُخُه كذلك، وكذلك السُّفُنُ المصنوعةُ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى لداود: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾، أي: لا تُدِقَّ المِسمارَ فيَقلَقَ، ولا تُغلِظْه فيَفصِمَ، واجعَلْه بقَدَرٍ، فإذا كان هذا في مصنوعاتِ العبادِ وهي جزءٌ من مصنوعاتِ الرَّبِّ، فكيف بمخلوقاتِه العظيمةِ الَّتي لا صُنعَ فيها للعبادِ؛ كخَلقِ الإنسانِ وسائرِ البهائِم، وخَلقِ النَّباتِ، وخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ والملائكةِ؟! فالفَلَكُ الَّذي خَلَقه وجعَلَه مستديرًا ما له من فُروجٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ * ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]؛ فهو سُبحانَه سَوَّاها كما سوَّى الشَّمسَ والقمَرَ وغيرَ ذلك مِن المخلوقاتِ، فعَدَل بيْنَ أجزائِها. فالعَدلُ والتَّسويةُ لازِمٌ لجَميعِ المخلوقاتِ والمصنوعاتِ، فمتى لم تُصنَعْ بالعَدلِ والتَّسويةِ بين المتماثِلَين، وقع فيها الفَسادُ[٢].

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ في ذِكرِ فَضلِه عِبرةٌ للنَّاسِ بحُسنِ عِنايةِ اللهِ بالمُنيبينَ؛ تَعريضًا بضِدِّ ذلك للَّذين لم يَعتبِروا بآياتِ اللهِ، وفي هذا إيماءٌ إلى بِشارةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه بعدَ تَكذيبِ قَومِه وضِيقِ حالِه منهم؛ سَيَؤولُ شَأنُه إلى عِزَّةٍ عَظيمةٍ، وتأسيسِ مُلكِ أُمَّةٍ عظيمةٍ، كما آلَتْ حالُ داودَ[١].

- وتَنكيرُ ﴿فَضْلًا﴾؛ للتَّفخيمِ، وقولُه: ﴿مِنَّا﴾؛ لِتأكيدِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بفَخامتِه الإضافيَّةِ. وتَقديمُه على المَفعولِ الصَّريحِ؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر، تَبْقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً له، فإذا ورَدَها يَتمكَّنُ عندَها فضْلَ تَمكُّنٍ[٢].

- وجُملةُ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: وقُلْنا: يا جِبالُ. وفِعلُ القولِ المَحذوفِ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لِجُملةِ ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وفي هذا الأُسلوبِ الَّذي نُظِمَت عليه الآيةُ مِن الفَخامةِ وجَلالةِ الخالقِ، وعِظَمِ شأْنِ داودَ، مع وَفرةِ المعاني، وإيجازِ الألفاظِ، وإفادةِ معنَى المعيَّةِ بالواوِ دونَ ما لو كانتْ حَرْفَ عطْفٍ- ما لا يخفَى[٣].

- قيل: خصَّ الجبالَ والطَّيرَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الصُّخورَ للجمودِ، والطَّيرَ للنُّفورِ، وكِلاهما تُستبعَدُ منها الموافقةُ، فإذا وافَقه هذه الأشياءُ، فغيرُها أَولى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٨٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

- قولُه: ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لِظُهورِه مِن المَقامِ؛ إذ شاع وَصْفُ الدُّروعِ بالسَّابغاتِ والسَّوابغِ حتَّى استَغْنَوا عندَ ذِكرِ هذا الوَصفِ عن ذِكرِ المَوصوفِ(١). وأيضًا مِن أجْلِ العنايةِ بفائدةِ هذه الدُّرُوعِ؛ وهي أنْ تكونَ سابغةً تامَّةً(٢).

- وضَميرُ (اعْمَلُوا) لِداودَ وآلِه، أو له وحْدَه على وَجهِ التَّعظيمِ(٣).

- وقولُه: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ، أو لِوُجوبِ الامتثالِ به(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

الآيات (١٢-١٤)

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾: أي: تسيرُ بالغَداةِ مَسيرةَ شهرٍ، والغَداةُ: أوَّلُ النَّهارِ، ويُستعمَلُ الغُدُوُّ في المَسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن لَيلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ(١).

﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أي: تسيرُ بالعَشيِّ مَسيرةَ شهرٍ، والرَّواحُ: العَشِيُّ، وهو من الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، ويُستعمَلُ الرَّواحُ في المسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن ليلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ، وسُمِّي العَشيُّ بذلك لِرَوْحِ الرِّيحِ؛ فإنَّها في الأغلَبِ تَهُبُّ بعدَ الزَّوالِ(٢).

﴿ٱلْقِطْرِ﴾: أي: النُّحاسِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير االقرطبي)) (١٤/ ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

﴿يَزِغْ﴾: أي: يَعدِلْ ويَخرُجْ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ[(١)].

﴿مَّحَارِيبَ﴾: جمعُ مِحرابٍ، والمحرابُ: الغرفةُ، و: المسجدُ، و: كُلُّ موضعٍ مُرتفعٍ، والمِحرابُ أيضًا: مُقَدَّمُ المجلِسِ وأشرفُه[(٢)].

﴿وَجِفَانٍ﴾: أي: قِصاعٍ كِبارٍ، وأصلُ (جفن): يدُلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بشَيءٍ ويَحويه[(٣)].

﴿كَالْجَوَابِ﴾: الجَوابي جمعُ جابيةٍ، والجابيةُ: الحَوضُ الضَّخمُ الَّذي يُجبَى فيه الماءُ، أي: يُجمَعُ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[(٤)].

﴿وَقُدُورٍ﴾: جمعُ قِدْرٍ: وهي اسمٌ لِما يُطبَخُ فيه اللَّحمُ[(٥)].

﴿رَّاسِيَاتٍ﴾: أي: ثَوابِتَ في أماكنِها، تُترَكُ لعِظَمِها ولا تُنقَلُ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثباتٍ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٠٤، ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((مقاييس =

﴿دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: الأَرَضةُ، وهي: سُوسٌ يَنخِرُ الخَشَبَ، وأصل (دبب): يدُلُّ على حَرَكةٍ[١].

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: أي: عَصاه، وأصلُ (نسأ): يدُلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ؛ لأنَّ العصا يُبعَدُ بها الشَّيءُ ويُدفَعُ[٢].

﴿خَرَّ﴾: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُ (خر): يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما أنعَم به على سُلَيمانَ عليه السَّلامُ بعدَ أن ذكَر ما أنعَم به على أبيه، فيقولُ: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تَجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتَجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وأجرَينا له عينَ النُّحاسِ، وسَخَّرْنا له مِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بينَ يَدَيه فيما يأمُرُه به، ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ نُذِقْه من عذابِ النَّارِ؛ يعمَلُ هؤلاء الجِنُّ لِسُلَيمانَ ما يشاءُ مِن محاريبَ، وتماثيلَ، وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكَبيرةِ التي يُجمَعُ فيها الماءُ، وقُدورٍ ثابتةٍ في مواضِعِها.

وقُلْنا لداودَ وأهلِه: اعمَلوا يا آلَ داودَ بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه، وقليلٌ

= اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

مِن العِبادِ مَن يَشكُرُ اللهَ على نِعَمِه.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى كيفيَّةَ موتِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: فلمَّا جاء سُلَيمانَ الموتُ ما عرَفَ الجنُّ مَوتَه إلَّا حينَ أكَلَتِ الأَرَضةُ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها، فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ على الأرضِ ظهَر أمرُ الجنِّ وانكشَف للنَّاس أنَّهم لا يَعلَمونَ الغَيبَ؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لَعَلِموا موتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُهينِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أراد مِن آياتِ داودَ عليه السَّلامُ؛ أتْبَعَه ابنَه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ؛ لِمُشاركتِه له في الإنابةِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَضْلَه على داودَ عليه السَّلامُ؛ ذكَرَ فَضلَه على ابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ(٢).

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ(٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾.

أي: وأجرَينا لسُلَيمانَ عَينَ النُّحاسِ[1].

﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ومِن الجِنِّ مَن يَعمَلُ بيْنَ يَدَيْ سُلَيمانَ فيما يأمُرُه به، وذلك بأمرِ اللهِ وتَسخيرِهم له[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ * فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٨].

﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

= (٦/ ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٩).

قال ابن عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ يعني: يدَيْ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، يعني: أمامَه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى ﴿يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: يخدُمُه ويُطيعُه. يُقالُ: أنا بينَ يديك، أي: مُطيعٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾... والإذْنُ هنا كَونيٌّ، يعني: أنَّ الله تعالى سَخَّر الجِنَّ؛ ليَعمَلوا بين يدَيْ سُليمانَ عليه السَّلامُ بإذنِه: بأمْرِه الكَونيِّ، [و] قد يقالُ: إنَّه إذنٌ شَرعيٌّ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

أي: ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمْرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ، نُعَذِّبْه بالنَّارِ[(١)].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبر اللهُ تعالى أنَّه سخَّر لسُلَيمانَ الجِنَّ؛ ذكَرَ حالَهم في أعمالِهم؛ دَلالةً على أنَّه سُبحانَه يتصرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ وما فيهما بما يشاءُ[(٢)].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾.

أي: يَعمَلُ الجِنُّ لسُلَيمانَ ما يشاءُ أن يَعمَلوه له مِن محاريبَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

قيل: المرادُ أنَّهم يُعَذَّبونَ في النَّارِ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ ونَسَبه إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧١).

وقيل: المرادُ تعذيبُهم في الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

قال ابن عطية: (المحاريبُ: الأبنيةُ العاليةُ الشَّريفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩).

وقال ابن الجوزي: (﴿مَّحَٰرِيبَ﴾ وفيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها المساجدُ، قاله مجاهدٌ وابنُ قُتَيْبةَ. والثَّاني: القصورُ، قاله عطيةُ. والثَّالثُ: المساجدُ والقصورُ، قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٢) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧).

تنبيه: قال ابن عاشور: (أمَّا إطلاقُ المحرابِ على الموضِعِ مِن المسجِدِ الَّذي يقِفُ فيه الإمامُ الَّذي يَؤُمُّ النَّاسَ، يُجعَلُ مِثلَ كوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، واصلةٍ إلى أرضِ المسجِدِ في حائطِ القِبلةِ، =

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾.

أي: ويَعمَلون له ما يشاءُ مِن تماثيلَ[(١)].

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾.

أي: وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكبيرةِ والبِرَكِ الواسِعةِ الَّتي يُجمَعُ فيها الماءُ[(٢)].

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

أي: وقُدورٍ ثوابِتَ في مواضِعِها[(٣)].

= يَقِفُ الإمامُ تحتَه: فتَسميةُ ذلك محرابًا تَسميةٌ حديثةٌ، ولم أقِفْ على تعيينِ الزَّمَنِ الَّذي ابتُدئَ فيه إطلاقُ اسم المحرابِ على هذا الموقِفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠). ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢).
قال القرطبي في معنى التِّمثالِ أنَّه: (كلُّ ما صُوِّر على مِثلِ صورةٍ مِن حيوانٍ أو غيرِ حيوانٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).
قال ابن جُزَي: (﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ قيل: إنَّها كانت على غيرِ صُوَرِ الحَيوانِ. وقيل: على صورِ الحيوانِ، وكان ذلك جائزًا عندَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢).
وقال ابنُ عثيمين: (لا يَلزَمُ أن يكونَ المرادُ بالتَّماثيلِ هي صُوَرَ الحيوانِ، فمِن الجائزِ أنْ ينحِتوا... له أشياءَ على صورِ شجرٍ، ويقال: إنَّ هذا تمثالٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣). =

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

أي: وقُلْنا لداودَ ووَلَدِه وأهلِه: اعمَلوا -يا آلَ داودَ- بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه عليكم(١).

كما حكَى الله تعالى قَولَ سُلَيمانَ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

أي: والمُكثِرونَ مِن شُكرِ الله على نِعَمِه قَليلٌ(٢).

= وفي علَّةِ ثبوتِها في مكانِها قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ أثافيَّها [أي: الأحجارَ الَّتي تُوضعُ عليها القدورُ] منها، قاله ابنُ عباس. والثَّاني: أنها لا تُنزَلُ لِعِظَمِها، قاله ابنُ قتيبة، وابنُ جرير، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

قال ابن عثيمين: (قال العلماءُ: الرَّاسي الثَّابتُ، وإنَّما كانت راسِيةً في الأرضِ لِكِبَرِها، فهي لِكِبَرِها لا يَستَطيعُ أحَدٌ أن يَتَناوَلَها ويَقلِبَها، والعادةُ أنَّ القُدورَ مَنقولةٌ مَقلَّبةٌ، لكنَّ هذه لكِبَرِها وسَعَتِها راسِيةٌ لا تَتَحرَّكُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤).

وقال ابن عاشور: (الرَّاسياتُ: الثَّابتاتُ في الأرضِ التي لا تُنزَلُ مِن فوقِ أثافيِّها؛ لتداوُلِ الطَّبخ فيها صباحَ مَساءَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

قال ابنُ عثيمينَ: (المرادُ بالعبوديَّةِ هنا: العامَّةُ الشَّاملةُ للكافرينَ والمؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عَظَمةَ سُلَيمانَ، وتَسخيرَ الرِّيحِ والجِنِّ له؛ بيَّن أنَّه لم يَنْجُ مِن الموتِ، وأنَّه قضَى عليه الموتَ؛ تنبيهًا للخَلقِ على أنَّ الموتَ لا بُدَّ منه، ولو نجا منه أحدٌ لكان سُلَيمانُ أَولى بالنَّجاةِ منه[١].

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

أي: فلمَّا جاء سُلَيمانَ أجَلُه الَّذي قضاه اللهُ عليه، ما دَلَّ الجِنَّ على مَوتِه إلَّا الأَرَضةُ حينَ أكلتْ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها وقْتَ مَوتِه[٢].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

أي: فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ مَيِّتًا حينَ ضَعُفَت عصاه فسَقَطَت بفِعلِ الأَرَضةِ، ظهَر أمرُ الجِنِّ وانكشَف للنَّاسِ أنَّهم لا يَعلَمونَ الغَيبَ كما كانوا يَتوهَّمونَ أو يُوهِمونَ النَّاسَ بذلك؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لعَلِموا مَوتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُؤلِمِ المُذِلِّ الَّذي كانوا مُسَخَّرينَ فيه لسُلَيمانَ وهم يَحسَبونَه حَيًّا[٣]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٨، ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٩، ٢٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٩، ٤٩٠)، =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى -عَقِبَ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾-: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال -عقِبَ

= ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَبَيَّنت الجنُّ للنَّاسِ وانكَشَف لهم أمرُهم وظهَرَ، وعلِموا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ: يحيى بنُ سلام، والنَّحَّاسُ، والسمرقندي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والرَّسْعَنيُّ -ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٥٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: علِمَتِ الجنُّ وأيقنَتْ، وتَبَيَّن لهم الأمرُ بأنَّهم لا يعلمونَ الغَيبَ: البَغَويُّ، والرازي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢١).

وقال ابن كثير: (تبيَّنَتِ الجنُّ والإنسُ أيضًا أنَّ الجنَّ لا يَعلمون الغَيبَ، كما كانوا يَتوهَّمون ويُوهِمون النَّاسَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١).

وقال البقاعي: (﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: عَلِمَتْ عِلمًا بيِّنًا لا يَقدِرون معه على تدبيجٍ وتدليسٍ، وانفضح أمرُهم وظهَرَ ظُهورًا تامًّا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٧١).

وقال ابن عطية: (﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بإسنادِ الفعلِ إليها، أي: بانَ أمْرُها، كأنَّه قال: افتضحَتِ الجنُّ، أي: للإنسِ. هذا تأويلٌ. ويحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بمعنى: عَلِمَت الجنُّ وتحقَّقَتْ، ويريدُ بالجنِّ: جمهورَهم والفَعَلةَ منهم والخَدَمةَ، ويريدُ بالضَّميرِ في ﴿كَانُواْ﴾: رؤساءَهم وكِبارَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين يَدَّعون عِلمَ الغَيبِ لأتْباعِهم مِن الجنِّ والإنسِ، ويُوهِمونهم ذلك، قاله قَتادةُ، فيَتيقَّنُ الأتْباعُ أنَّ الرُّؤساءَ لو كانوا عالِمينَ الغيبَ ما لَبِثوا. و﴿أَن﴾ على التَّأويلِ الأوَّلِ بدَلٌ مِن ﴿ٱلْجِنُّ﴾، وعلى التَّأويلِ الثَّاني مفعولةٌ مَحْضةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٢).

ما يَعمَلُه الجِنُّ-: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ إشارةً إلى أنَّ الإنسانَ لا يَستغرِقُ في الدُّنيا، ولا يَلتفِتُ إلى زَخارِفِها، وأنَّه يجِبُ أنْ يَعمَلَ صالحًا[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ فيه وُجوب الشُّكرِ[2]، والأمرُ في الأصلِ للوجوبِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ، كما يكونُ بالقولِ وبالنِّيَّةِ، كما قيل:

أفادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثلاثةً ... يدي، ولِساني، والضَّميرَ المُحَجَّبَا[4]

ولا يختَصُّ الشُّكرُ باللِّسانِ[5]، ولَمَّا قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى تورَّمَتْ قَدَماه، قيل له: ((أتَكَلَّفُ هذا، وقد غفَرَ الله لك ما تقدَّم مِن ذَنْبِك وما تأخَّر؟ فقال: أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟!))[6]، فجعَلَ الاجتهادَ والنَّصَبَ في قيامِ اللَّيلِ مِن جُملةِ الشُّكرِ[7].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ المرادُ بهذه الجملةِ الحثُّ على الشكرِ[8].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٦) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٧) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ إثباتُ وُجودِ الجِنِّ، وهذا ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المُسلِمين؛ ولهذا مَن أنكرَ وُجودَ الجِنِّ فقد كَذَّبَ القُرآنَ، ويُحكَمُ بكُفرِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أنَّ الجِنَّ قد يُشاهَدونَ، فإنَّ الظَّاهِرَ أنَّهم يُشاهَدونَ وهم يَعملونَ بينَ يدَيْ سُلَيمانَ عليه السلامُ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ الجِنَّ مُكَلَّفُونَ، بمعنى أنَّهم إذا خالَفوا عُذِّبُوا(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ استجازَ سُلَيمانُ عليه السَّلامُ عمَلَ التَّصاوير؟

الجوابُ: أنَّه يجوزُ أن تكونَ غيرَ صُوَرِ الحيوانِ، كصُوَرِ الأشجارِ ونَحوِها؛ لأنَّ التِّمثالَ: كُلُّ ما صُورتُه على مِثلِ صُورةِ غَيرِه، مِن حيوانٍ وغيرِ حَيوانٍ، أو بصُوَرٍ محذوفةِ الرُّؤوسِ(٤).

وعلى فرضِ كَوْنِ ذلك كان جائزًا في شريعتِهم فإنَّه نُسِخَ في شَرعِنا، فليس في الآيةِ حجَّةٌ في جوازِ التَّصوير(٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ بيانُ كرمِ سُلَيمانَ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

الجِفَانَ -الَّتي يُوضَع فيها الطَّعامُ- كالجَوابي: كالأحواضِ الكبيرةِ، والقُدورَ الَّتي يُطبَخ فيه الطَّعامُ راسياتٌ لكِبَرِها[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ أنَّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبٌ لِفَخذٍ كاملٍ مِن بني إسرائيلَ، كما يُقال: بنو تميمٍ، بنو زُهرةَ، وما أشبَهَ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إنَّما قال تعالى: ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ بصيغةِ المبالَغة (فَعُول)؛ دونَ «شاكرٍ»؛ لأنَّ الشَّاكِرينَ غيرُ قليلينَ، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ مَن يقَعُ منه مُطلَقُ الشُّكرِ كَثيرٌ، وأقلُّ ذلك حالَ الاضطرارِ، وأمَّا المبالِغونَ في الشُّكرِ فقليلونَ[٣]. وقيل: الآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ خَفَّف الأمرَ على عبادِه؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فُهِمَ منه أنَّ الشُّكرَ واجِبٌ، لكِنْ شُكرُ نِعَمِه كما ينبغي لا يُمكِنُ؛ لأنَّ الشُّكرَ بالتَّوفيقِ، وهو نعمةٌ تحتاجُ إلى شُكرٍ آخَرَ، وهو بتوفيقٍ آخَرَ؛ فدائمًا تكونُ نِعمةُ اللهِ بعدَ الشُّكرِ خاليةً عن الشُّكرِ، فقال تعالى: إنْ كنتُم لا تَقدِرونَ على الشُّكرِ التَّامِّ فليس عليكم في ذلك حرَجٌ؛ فإنَّ عبادي قليلٌ منهم الشَّكورُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

وقال أيضًا: (ويقوِّي قولَنا أنَّه تعالى أدخل الكُلَّ في قَولِه: ﴿عِبَادِيَ﴾ مع الإضافةِ إلى نفْسِه، و«عبادي» بلفظِ الإضافةِ إلى نفْسِ المتكَلِّمِ لم ترِدْ في القرآنِ إلَّا في حَقِّ النَّاجينَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. فإنْ قيلَ: على ما ذكرتُم: شُكرُ اللهِ بتمامِه لا يُمكِنُ، وقَولُه: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ في عبادِه مَن هو شاكِرٌ لأنعُمِه! نقولُ: الشُّكرُ بقَدرِ الطَّاقةِ البَشَريَّةِ هو الواقِعُ وقليلٌ فاعِلُه، وأمَّا الشُّكرُ الَّذي يناسِبُ نِعَمَ الله فلا قُدرةَ عليه، ولا يُكَلِّفُ اللهُ =

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أنَّ الشَّيءَ قد يكونُ حقيرًا لكنْ يترتَّبُ عليه أمرٌ عظيمٌ! فكيفيَّةُ دفنِ الموتَى ما عُرِفتْ إلَّا بدلالةِ الغُرابِ، وأيضًا المباني الهندسيَّةُ عُرِفَتْ مِن صنيعِ النَّحْلِ، وأيضًا ما أحدَثَه النَّاسُ مِن الآلاتِ، كالطَّائراتِ وغيرِها، فالأشياءُ الحقيرةُ قد تكونُ مفيدةً للإنسانِ فائدةً عظيمةً، ويترتَّبُ عليها أمورٌ خطيرةٌ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ إضافةَ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلومِ شَرعًا أو حِسًّا جائزةٌ؛ فالله تعالى أضافَ الدَّلالةَ إلى دابَّةِ الأرضِ مع أنَّ الدَّابَّةَ ما أكلَتِ العصا لأجْلِ أنْ تدُلَّ الجنَّ على مَوتِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، لكنَّها سَبَبٌ، أمَّا الممنوعُ فهو إضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه مع اللهِ تعالى مَقرونًا بالواوِ، أو إضافةُ الشَّيءِ إلى سببٍ غيرِ معلومٍ سَببيَّتُه لا مِن الشَّرعِ ولا مِن الحِسِّ؛ لأنَّ هذا يكونُ مِن بابِ الأوهامِ والتَّخيُّلاتِ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ إضافةُ الشَّيءِ إلى مَن لم يَقُمْ به باختيارِه؛ فالخرورُ قد يُضافُ إلى الفاعلِ بالاختيارِ، وقد يُضافُ إلى الفاعلِ بغيرِ الاختيارِ؛ فتقولُ: «خَرَّ الماءُ»، وتقولُ: «خَرَّ ميتًا»، وقال اللهُ: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [مريم: ٥٨]؛ و﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٩] هذا بالاختيارِ(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أنَّ الجنَّ ذوو عقولٍ، فقد أعطاهم اللهُ

= نفْسًا إلَّا وُسْعَها، أو نقولُ: الشَّاكرُ التَّامُّ ليس إلَّا مَن رَضيَ اللهُ عنه، وقال له: يا عبدي، ما أتيتَ به مِن الشُّكرِ القَليلِ قَبِلْتُه منك، وكتبتُ لك أنَّك شاكرٌ لأنعُمي بأسْرِها، وهذا القَبولُ نِعمةٌ عظيمةٌ لا أكلِّفُك شُكرَها). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٤).

تعالى عقولًا يَهتدون بها إلى مصالحِ دينِهم ودنياهم[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ هذا إبطالٌ لاعتقادِ العامَّةِ يومَئذٍ وما يَعتَقِدُه المُشرِكون أنَّ الجِنَّ يَعلَمونَ الغَيبَ؛ فلذلك كان المُشرِكونَ يَستَعلِمونَ المُغَيَّباتِ مِن الكُهَّانِ، ويَزعُمونَ أنَّ لكُلِّ كاهنٍ جِنِّيًّا يأتيه بأخبارِ الغَيبِ، ويُسَمُّونَه رَئِيًّا؛ إذ لو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لَكان أن يَعلَموا وفاةَ سُلَيمانَ أهْوَنَ عليهم[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنَّ الأمورَ الحِسِّيَّةَ الواقِعةَ أدِلَّةٌ بُرهانيَّةٌ، وهذه الفائدةُ معناها الاستِدلالُ بالأمورِ الحِسِّيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى استدَلَّ على كَونِهم لا يَعلَمونَ الغيبَ بأنَّهم بَقُوا مُعَذَّبينَ بما يَعمَلونَه مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ؛ فلك أن تستَدِلَّ على الأمورِ المعقولةِ بالأمورِ المحسوسةِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنَّ العذابَ قد يُطلَقُ على ما ليس بعُقوبةٍ؛ فإنَّ سُلَيمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يَجعَلْهم يَعمَلونَ له ما يَشاءُ عُقوبةً لهم، ولكِنَّه تكليفٌ، كما في قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ السَّفَرَ قِطعةٌ مِن العَذابِ))[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة سبأ)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة سبأ)) (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ عَطْفُ فَضيلةِ سُليمانَ على فَضيلةِ داودَ؛ للاعتبارِ بما أُوتيَهُ سُليمانُ مِن فَضلِ كَرامةً لأبيهِ على إنابتِه، ولِسُليمانَ على نَشأتِه الصَّالحةِ عندَ أبيهِ؛ فالعَطفُ على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠]، والمُناسَبةُ مِثلُ مُناسَبةِ ذِكرِ داودَ؛ فإنَّ سُليمانَ كان مَوصوفًا بالإنابةِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾[١] [ص: ٣٤].

- وأُطلِقَ الغُدُوُّ على الانصرافِ والانطلاقِ مِن المكانِ؛ تَشبيهًا بخُروجِ الماشيةِ للرَّعيِ في الصَّباحِ، وهو وَقتُ خُروجِها، أو تَشبيهًا بغُدُوِّ النَّاسِ في الصَّباحِ. وأُطلِقَ الرَّواحُ على الرُّجوعِ مِن النَّهْمةِ (الحاجةِ) الَّتي يخرجُ لها؛ لأنَّ عُرْفَهم أنَّ رَواحَ الماشيةِ يكونُ في المساءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾؛ فقولُه: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مُبتدأٌ، وقولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ خَبرٌ، و(مِن) في قولِه: (مِنَ الْجِنِّ) بيانٌ لإبهامِ (مَن)، قُدِّمَ على المُبيَّنِ؛ للاهتمامِ به؛ لِغَرابتِه[٣].

- قولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بلفظِ الربِّ، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٩).

ولم يقُلْ: (عن أمرِ ربِّه)؛ لأنَّ (الرَّبَّ) لفظٌ ينبئُ عن الرَّحمةِ، فعندَما كانت الإشارةُ إلى حِفظِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، قال: ﴿رَبِّهِۦ﴾، وعندَما كانت الإشارةُ إلى تعذيبِهم قال: ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، بلفظِ التَّعظيمِ الموجِبِ لزيادةِ الخَوفِ[1].

- قولُه: ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذابُ السَّعيرِ: عذابُ النارِ، وهو تَشبيهٌ، أي: عذابًا كعَذابِ السَّعيرِ، أي: كعَذابِ جهنَّمَ، وأمَّا عذابُ جهنَّمَ فإنَّما يكونُ حقيقةً يومَ الحسابِ[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال في (الأنبياءِ): ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال هناك وهاهنا في الرِّيحِ: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الأنبياء: ٨١] [سبأ: ١٢]؛ ووَجْهُه: أنَّ الجبالَ لَمَّا سبَّحت، شَرُفَتْ بذِكرِ اللهِ؛ فلمْ يُضِفْها إلى داودَ بلامِ المِلكِ، بلْ جعَلَها معه كالمُصاحِبِ، والرِّيحُ لم يَذكُرْ فيها أنَّها سبَّحت، فجعَلَها كالمَملوكةِ له. وفيه وَجْهٌ آخَرُ -على القولِ بأنَّ ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ معناه: سِيري-: أنَّ الجبَلَ في السَّيرِ ليس أصلًا، بلْ هو يَتحرَّكُ معه تَبَعًا، والرِّيحُ لا تَتحرَّكُ مع سُليمانَ، بلْ تُحرِّكُ سُليمانَ مع نفْسِها، فلمْ يَقُلْ: الرِّيحُ مع سُليمانَ، بل سُليمانُ كان مع الرِّيحِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

- قولُه: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تَفصيلٌ لِما ذُكِرَ من عَمَلِهم، وقولُه: ﴿مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٧، ١٩٨).

﴿مَّحَٰرِيبَ ...﴾ إلخ، بَيانٌ لـ ﴿مَا يَشَآءُ﴾[(١)].

- وقُدِّمَت المَحاريبُ على التَّماثيلِ؛ لأنَّ النُّقوشَ تكونُ في الأبنيةِ، وقُدِّمَت الجِفانُ على القُدورِ؛ لأنَّ القُدورَ آلةُ الطَّبخِ، والجِفانُ آلةُ الأكْلِ، والطَّبخُ قبْلَ الأكلِ. لمَّا بيَّنَ الأبنيةَ المَلَكيَّةَ، أراد بيانَ عَظمةِ السِّماطِ الَّذي يُمَدُّ في تلك الدُّورِ، وأشار إلى الجِفانِ؛ لأنَّها تكونُ فيها، وأمَّا القُدورُ فلا تكونُ فيها، ولا تُحضَرُ هناك، ولهذا قال: ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾. ولمَّا بيَّن حالَ الجِفانِ، سَرى الذِّهنُ إلى عظَمةِ ما يُطبَخُ فيه؛ فذَكَرَ القُدورَ للمُناسَبةِ. وذكَرَ في حقِّ داودَ اشتغالَه بآلةِ الحرْبِ؛ لاحتياجه إلى قِتالِ الأعداءِ، وفي حقِّ سُليمانَ المَحاريبَ والتَّماثيلَ؛ لأنَّه كان مَلِكًا ابنَ مِلكٍ، قد وطَّدَ له أبوهُ المُلكَ، فكانت حالُه حالةَ سِلمٍ؛ إذ لم يكُنْ أحدٌ يَقدِرُ على مُحارَبتِه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلنا: اعْمَلوا يا آلَ داودَ. ومَفعولُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿شُكۡرٗا﴾، وتَقديرُه: اعْمَلوا صالحًا[(٣)].

- قولُه: ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ دلَّ على مَزيدِ قربِهم بحذفِ أداةِ النِّداءِ، وعلى شرَفِهم بالتَّعبيرِ بـ (الآلِ)[(٤)].

- قولُه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ تَذييلٌ. وفيه حَثٌّ على الاهتمامِ بالعمَلِ الصَّالحِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ...﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، أي: دام عمَلُهم له حتَّى مات، فلمَّا قَضَينا عليه الموتَ... إلى آخِرِه. ولا شكَّ أنَّ ذلك لم يَطُلْ وَقتُه؛ لأنَّ مِثلَه في عَظَمةِ مُلكِه لا بُدَّ أنْ يَفتقِدَه أتْباعُه؛ فجُملةُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ...﴾ جَوابُ (لَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)، وضَميرُ ﴿دَلَّهُمْ﴾ يَعودُ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، أي: أهلَ بلاطِه. وجُملةُ ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ...﴾[1].

- قولُه تعالى: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ فخَّمَها بهذه الإضافةِ الَّتي من معناها أنَّه لا دابَّةَ للأرضِ غيرُها؛ لِما أفادَتْه مِن العِلمِ، ولأنَّها -لِكَونِها تأكُلُ مِن كُلِّ شَيءٍ مِن أجزاءِ الأرضِ؛ من الخَشَبِ، والحجَرِ، والتُّرابِ، والثِّيابِ، وغيرِ ذلك- أحقُّ الدَّوابِّ بهذا الاسمِ، ويَزيدُ ذلك حُسنًا أنَّ مَصدرَ فِعلِها (أَرْضٌ) بالفتحِ والإسكانِ، فيصيرُ مِن قبيلِ التَّوريةِ، ليَشتَدَّ التَّشَوُّفُ إلى تفسيرِها[2].

- قولُه: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: عَلِمَ المُدَّعون عِلمَ الغيبِ منهم عَجْزَهم، وأنَّهم لا يَعلَمون الغيبَ وإنْ كانوا عالِمينَ قبْلَ ذلك بحالِهم، وإنَّما أُريدَ التَّهكُّمُ بهمْ كما تَتهكَّمُ بمُدَّعي الباطلِ إذا بَطَلَت حُجَّتُه، وظهَرَ إبطالُه بقولِكَ: هلْ تَبيَّنْتَ أنَّك مُبطِلٌ[3]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٢).

الآيات (١٥-١٩)

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ
بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى
ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿آيَةٌ﴾: أي: عَلامةٌ وحجَّةٌ ودلالةٌ، يُقالُ: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه، وتُطلَقُ أيضًا على العَجيبةِ[١].

﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: العَرِمُ: مِن العَرامةِ: وهي الشِّدَّةُ والكَثرةُ، يعني: السَّيلَ الغالبَ الشَّديدَ؛ أو يكونُ العَرِمُ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، وقيل: العَرِمُ: هو ما بُنِيَ ليُمسِكَ الماءَ[٢]، وأصلُ (عرم): يدُلُّ على شِدَّةٍ وحِدَّةٍ؛ لأنَّ الماءَ إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢) و(١٩/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكَونيَّةِ القدَريَّة، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامة، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياته، جاعلًا لها علامات على كمالِ قُدرته، وأنَّه الرَّبُّ وحْدَه، المعبودُ وحْدَه،... الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ؛ كآياتِ هذا القرآنِ العظيم). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) والمعنى على ذلك: أرسَلْنا السَّيلَ الَّذي كان مخزونًا في السَّدِّ.

حُبِسَ كان له عُرامٌ مِن كَثرتِه[١].

﴿أُكُلٍ﴾: أي: ثَمَرٍ[٢].

﴿خَمْطٍ﴾: أي: شَجرِ الأراكِ، ويُطلَقُ الخَمطُ على الشَّيءِ المُرِّ[٣].

﴿وَأَثْلٍ﴾: الأَثْلُ: شَجَرٌ عَظيمٌ يُشبِهُ الطَّرفاءَ، وأصلُ (أثل): يدُلُّ على أصلِ الشَّيءِ[٤].

﴿سِدْرٍ﴾: السِّدْرُ: شَجَرُ النَّبْقِ، وهو قليلُ الغَناءِ عندَ الأكلِ[٥].

﴿أَحَادِيثَ﴾: أي: أخبارًا وعِبَرًا يُتَمَثَّلُ بهم في الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلْتُه حديثًا في الخَيرِ. وأصلُ (حدث): كَوْنُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ﴾: أي: فرَّقْناهم في البلادِ كلَّ تفريقٍ، أي: غايةَ ما يكونُ من التَّفريقِ، وتبديدِ الشَّملِ، وقَطَّعْناهم في البلادِ كلَّ مُقَطَّعٍ، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تَخرُّقٍ في شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ واضِحةٌ: بُستانانِ عَظيمانِ عن أيمانِهم وشَمائِلِهم، وقُلْنا لهم: كُلوا مِن رِزقِ رَبِّكم، واشكُروا له على نِعَمِه، هذه بلدةٌ طَيِّبةٌ، وربُّكم ربٌّ غَفورٌ، فأعرَضوا عن طاعةِ اللهِ وشُكرِه وتَوحيدِه، فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ، فدمَّرَ بُستانَيْهم، وبَدَّلْناهم بهما بُستانَينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ، وأَثْلٌ، وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدرِ! ذلك الَّذي فعَلْناه بهم هو جزاءٌ لهم بسَبَبِ كُفرِهم، وما نُجازي جزاءَ العُقوبةِ إلَّا الكَفورَ.

وكنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبَأٍ مِن قبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ المُبارَكةِ قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً ظاهِرةً لا تَخفى، وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيرًا يَسيرًا مُقَدَّرًا، وقُلْنا لهم: سِيروا في هذه القُرى الَّتي بيْنَكم وبيْن الشَّامِ لَياليَ وأيامًا آمِنينَ، فقالوا: ربَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم نِعَمَ رَبِّهم، فجعَلْناهم أحاديثَ يتحَدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وما عاقَبْناهم به، ومَضرِبًا للمَثَلِ في التَّشَتُّتِ والتفَرُّقِ، وتفَرَّقوا في نواحي الأرضِ بعدَ جَدْبِ أرضِهم! إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).
قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (ولذلك قالت العربُ للقوم إذا أخَذوا في وُجوهٍ مُختلِفةٍ: تفرَّقوا أيْدِيَ سَبَا، «وأيدي» بمعنى: مذاهِبَ وطُرقٍ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣٥٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ الشَّاكِرينَ لنِعَمِه، بذِكْرِ داودَ وسُلَيمانَ؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ بأنعُمِه، بحكايةِ أهلِ سَبَأٍ[١].

وأيضًا جَرَّ خبَرُ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ إلى ذِكرِ سَبأٍ؛ لِمَا بيْنَ مُلكِ سُليمانَ وبيْن مَملكةِ سَبأٍ مِن الاتِّصالِ؛ بسَببِ قِصَّةِ «بِلْقيسَ»، ولأنَّ في حالِ أهلِ سَبأٍ مُضادَّةً لأحوالِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ كان هذانِ مَثَلًا في إسباغِ النِّعمةِ على الشَّاكرينَ، وكان أولئك مَثَلًا لسَلبِ النِّعمةِ عن الكافرينَ[٢].

وأيضًا لَمَّا فَرَغ التَّمثيلُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ رجَعَ التَّمثيلُ للمُشرِكينَ -أي: لحالِهم- بسبَأٍ، وما كان مِن هلاكِهم بالكُفرِ والعُتُوِّ[٣].

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾.

أي: لقد كان لأهلِ سَبأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ بيِّنةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

وسبأٌ قبيلةٌ معروفةٌ في اليمَنِ، سمِّيت باسمِ جدٍّ لهم مِن العربِ، ومسكنُهم بلدةٌ يُقالُ لها: «مَأْرِبُ»، وكانت بِلْقيسُ منهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) =

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

أي: تلك الآيةُ هي جنَّتانِ عَظيمتانِ[(١)] عن أيمانِهم وشمائِلِهم[(٢)].

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾.

= (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٦).

وذكَر السَّمْعانيُّ أنَّ أكثرَ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ (سَبَأ) اسمُ رجُلٍ، ونُسِبت القبيلةُ إليه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٤).

قال الماوَرْدي: (وفي الآيةِ الَّتي لِسَبأٍ في مساكنِهم قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه لم يكُنْ في قريتِهم بَعوضةٌ قَطُّ، ولا ذُبابةٌ، ولا بُرْغُوثٌ، ولا حيَّةٌ، ولا عقربٌ، وإنَّ الرَّكْبَ لَيَأْتون في ثيابِهم القُمَّلُ والدَّوابُّ فتموتُ تلك الدَّوابُّ. قاله عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدٍ.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ هي الجنَّتانِ كانت المرأةُ تمشي فيهما وعلى رأسِها مِكتَلٌ فيَمتلئُ، وما مسَّتْه بيَدِها. قاله قَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٤٣).

وقيل: لم يجعَلِ اللهُ تعالى الجنَّتَينِ في أنفُسِهما آيةً، وإنَّما جَعَل قِصَّتَهما وتخريبَهما وإبدالَهما عنهما بخَمْطٍ وأَثْلٍ؛ بسببِ إعراضِهم عن شكر اللهِ- آيةً وعِبرةً لهم؛ لِيَعتَبِروا ويتَّعظوا فلا يَعودوا إلى ما كانوا عليه مِن الكُفرِ وغَمْطِ النِّعَمِ. ويجوزُ أن تجعَلَهما آيةً، أي: علامةً دالَّةً على اللهِ، وعلى قُدرتِه، وإحسانِه ووُجوبِ شُكرِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥).

(١) قيل: المرادُ أنَّهما بُستانانِ كانا بيْنَ جبلَينِ عن يمينِ مَن أتاهما وشِمالِه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧).

وقيل: لم يُرِدْ بُستانينِ اثنينِ فحَسْبُ، وإنَّما أراد جماعتينِ مِن البَساتينِ: جماعةً عن يمينِ بلدِهم، وأُخرَى عن شِمالِها، وكُلُّ واحدةٍ مِن الجماعتَينِ في تَقارُبِها وتَضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٨).

وقال الرَّسْعَنيُّ عن هذا القولِ: (هو قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٨).

أي: وقُلْنا لهم[١]: كُلوا مِمَّا رزَقَكم ربُّكم، واعمَلوا لله تعالى وَحْدَه وأطيعوه؛ شُكرًا له على ما أنعَمَ به عليكم[٢].

﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بشُكرِه؛ بيَّن ما يوجِبُ الشُّكرَ المأمورَ به[٣].

وأيضًا لَمَّا بيَّن حالَهم في مساكِنِهم وبساتينِهم وأكْلِهم؛ أتمَّ بيانَ النِّعمةِ[٤]، فقال:

﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾.

أي: هذه بَلدةٌ طَيِّبةٌ[٥]، والمُنعِمُ بها رَبٌّ غفورٌ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها[٦].

﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾.

---

(١) قال القرطبي: (أي: قيلَ لهم: كُلوا، ولم يكُنْ ثَمَّ أمرٌ، ولكِنَّهم تمكَّنوا مِن تلك النِّعَم. وقيل: قالت الرُّسُلُ لهم: قد أباح اللهُ تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النِّعَمَ؛ فاشكروه بالطَّاعةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٥) قال ابنُ عطية: (طَيِّبةٌ: معناه: كريمةُ التُّربةِ، حَسَنةُ الهواءِ، رَغدةٌ مِن النِّعَمِ، سليمةٌ مِن الهَوامِّ والمضارِّ. هذه عباراتُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٣، ٤١٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما كان مِن جانِبِه تعالى مِن الإحسانِ إليهم؛ ذكَرَ ما كان مِن جانِبِهم في مُقابَلتِه[١].

﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾.

أي: فأعرَضَ أهلُ سَبَأٍ عن توحيدِ اللهِ وطاعتِه وشُكرِه، فعَبَدوا غيرَه، وعَصَوا أمْرَه، وخالَفوا رسُلَه[٢].

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾.

أي: فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ[٣]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

(٣) قال ابن عاشور: (و﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ وصفًا مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والكثرةُ، فتكون إضافةُ «السَّيلِ» إلى العَرِمِ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، فتكون الإضافةُ مِن إضافةِ المسمَّى إلى الاسمِ، أي: السَّيلُ العَرِمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩).

ممَّن ذهب في الجملةِ إلى القولِ الأوَّلِ، وأنَّه من إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والقوَّةُ: البقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥١، ٢٥٢).

وقيل: العَرِمِ: اسمٌ للوادي. وممَّن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعطاءٌ. يُنظر: =

فدمَّرَ جَنَّتَيهم[١].

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

أي: وجعَلْنا لهم مكانَ الجنَّتينِ اللَّتَينِ كانت فيهما الثِّمارُ النَّضيجةُ، والمناظِرُ الحَسَنةُ البَهيجةُ: جنَّتينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ[٢] وأثْلٌ، وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدْرِ[٣].

= ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

وقيل: هو المُسَنَّاةُ أو السِّكْرُ الذي يَحبِسُ ماءَ السَّدِّ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عَمرُو بنُ شُرَحْبيلَ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

قال القرطبي: (المُسَنَّاةُ هي الَّتي يُسَمِّيها أهلُ مِصرَ الجسرَ؛ فكانوا يفتَحونَها إذا شاؤوا، فإذا رُوِيَت جنَّتاهم سَدُّوها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٦).

وقيل: العَرِمُ: ماءٌ أحمَرُ أرسَلَه اللهُ في السَّدِّ، فشَقَّه وهدَمَه، وحفَرَ الواديَ، فارتفعَتَا عن الجَنْبَينِ، وغاب عنهما الماءُ فيَبِسَتا، ولم يكُنِ الماءُ الأحمرُ مِن السَّدِّ، ولكِنْ كان عذابًا أرسله اللهُ عليهم مِن حيثُ شاء. وممَّن قال بهذا المعنى: مجاهِدٌ في روايةٍ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٢) قيل: المرادُ بالخَمطِ: الأراكُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ كثير، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ، وعِكْرِمةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥، ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

قال الزمخشري: (والأثْلُ والسِّدْرُ: معطوفانِ على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾؛ لأنَّ الأثْلَ =

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾.

أي: ذلك الَّذي فعَلْناه بأولئك القَومِ هو جزاءٌ مِنَّا لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم[١].

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

أي: وما نُجازي ذلك الجَزاءَ -جزاءَ العقوبةِ- إلَّا شَديدَ الكُفرِ لنِعَمِ اللهِ[٢].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تَكمِلةُ القِصَّةِ بذِكرِ نِعمةٍ بعدَ نِعمةٍ؛ فإنَّ ما تقدَّمَ: لِنعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ، وطِيبِ الإقامةِ، وما هنا: لِنعمةِ الأمنِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وعُمرانِ بلادِهم[٣].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾.

أي: وكُنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبَأٍ مِن قَبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ

= لا أُكُلَ له). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

قال الرسعني: (والمعنى: وهل نُجازي مِثلَ هذا الجزاءِ [الفظيع]، أو: وهل يُجازى بكُلِّ عَمَلِه إلَّا الكفورُ؛ فإنَّ المؤمِنَ يكفَّرُ عنه ذنوبُه أو مُعظَمُها بطاعتِه، والكافر يُجازى بجميعِ سيِّئاتِه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤).

المُبارَكةِ[(١)] قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً، وهي بيِّنةٌ لا تخفَى؛ لِظُهورِها، فلا يحتاجونَ في طريقِهم لحَملِ زادٍ[(٢)].

﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾.

أي: وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيْرًا مُقَدَّرًا[(٣)].

---

(١) قال ابنُ عطيةَ: (القُرَى التي بُورِك فيها هي بلادُ الشَّامِ بإجماعٍ مِن المفسرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١).

قال السمعاني: (ومعنى القُرى الظَّاهرةِ أي: المتَّصِلة، وقيل: ظاهِرة يعني: [للرَّائي]، على معنى أنَّهم كانوا إذا نزَلوا بقريةٍ رَأَوْا قريةً أُخرَى). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٨).

وقال ابنُ عاشور: (ووَصفُ ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ أنَّها مُتقارِبةٌ؛ بحيث يظهرُ بعضُها لبعضٍ ويَتراءى بعضُها مِن بعضٍ. وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي تظهرُ للسَّائرِ مِن بُعد، بأن كانت القُرى مَبنيَّةً على الآكام والظِّرابِ يُشاهِدُها المسافِرُ فلا يَضِلُّ طريقَها. وقال ابُن عطيَّةَ: «الَّذي يَظهرُ لي أنَّ معنى ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ أنَّها خارجةٌ عن المدُنِ، فهي في ظواهِرِ المدُنِ»، ومنه قولُهم: نزَلْنا بظاهِرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ، أي: خارجًا عنها. فقولُه: ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ كتَسميةِ النَّاسِ إيَّاها بالباديةِ وبالضَّاحيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

قيل: المرادُ: أنَّ أبعادَ تلك القُرى والمسافاتِ بيْنَها: على تقديرٍ وتعادُلٍ؛ بحيث يَقيلُ الغادي في قريةٍ، ويَبيتُ الرَّائحُ في قريةٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٦).
=

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

أي: وقُلْنا لأهلِ سَبَأٍ: سِيروا في هذه القُرى الظَّاهِرةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَ الشَّامِ لَيالِيَ وأيَّامًا آمِنينَ فيها مِن جَميعِ آفاتِ السَّفَرِ[1].

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقضى الخبَرُ عن الأوصافِ الَّتي تَستدعي غايةَ الشُّكرِ؛ لِما فيها مِن الألطافِ- دَلَّ على بَطَرِهم للنِّعمةِ بها، بأنَّهم جعَلوها سببًا للتَّضَجُّرِ والمَلالِ[2].

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

أي: فقالوا: يا رَبَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، فيَكونَ بيْنَنا وبيْنَ الشَّامِ فَلَواتٌ[3]!

= قال ابن عثيمين: (ولا شكَّ أنَّ تقديرَ السَّيرِ على هذا الوَجهِ أنَّه مِن نعمةِ الله على النَّاسِ؛ فإنَّ الخطوطَ الطَّويلةَ الَّتي ليست بها مُدُنٌ، تكونُ في الغالبِ طُرقًا مُهلِكةً مُخيفةً، لكِنْ إذا كانت متواصِلةً صارت أيسَرَ للسَّالكِ، وأشدَّ طُمأنينةً، بل وأقرَبَ للسَّيرِ؛ لأنَّك إذا مَشَيت من قريةٍ إلى أخرى تُحِسُّ أنَّك قطعْتَ مَرحلةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (المعنى: باعِدْ بينَ السَّفَرِ والسَّفَرِ مِن أسفارِنا، ومعنى ذلك: إبعادُ المراحلِ؛ لأنَّ كلَّ مرحلةٍ تُعتبَرُ سَفَرًا، أي: باعِدْ بينَ مراحِلِ أسفارِنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

وذكر الماوَرْديُّ في هذه الآيةِ ثلاثةَ تأويلاتٍ: (أحدُها: أنَّهم قالوا ذلك؛ لأنَّهم مَلُّوا النِّعَمَ كما =

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ وبنِعمتِه[1].

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾.

أي: فجعَلْناهم أحاديثَ يتحدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وشأنِ ما جرى لهم مِنَ العُقوبةِ والهلاكِ، ويَضرِبونَ بهم المَثَلَ في التَّشتُّتِ والتَّفرُّقِ[2].

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

أي: وقَطَّعْناهم في الأرضِ، فتفَرَّقوا في نواحٍ كثيرةٍ[3].

= ملَّ بنو اسرائيل المَنَّ والسَّلْوى. قاله الحسَنُ.

الثَّاني: أنَّهم قالوا: لو كانت ثمارُنا أبعَدَ مِمَّا هي كانت أشهى في النُّفوسِ وأحلى. قاله ابن عيسى. وهو قريبٌ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه بطَرٌ، فصار نوعًا مِن المَللِ.

الثَّالثُ: معناه: زِدْ في عمارتِنا حتَّى تبعُدَ فيه أسفارُنا. حكاه النَّقَّاشُ. وهذا القولُ منهم طلبًا للزِّيادةِ والكثرةِ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٤٥).

وممَّن قال بنحوِ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٢).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الأظهرَ أن يكونَ هذا القولُ قالوه جوابًا عن مَواعظِ أنبيائهم والصَّالحينَ منهم حين يَنهَوْنَهم عن الشِّركِ، فهُم يَعِظونهم بأنَّ الله أنعَمَ عليهم بتلك الرَّفاهيةِ، وهم يُجيبونَ بهذا القَولِ؛ إفحامًا لدُعاةِ الخَيرِ منهم، على نحوِ قولِ كُفَّارِ قُرَيشٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]! يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[1] لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ بَيِّنةً لكُلِّ عَظيمِ الصَّبرِ، عَظيمِ الشُّكرِ لله تعالى[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ: آيةٌ للمُعتبرين مِن أهلِ المعاصي؛ فإنَّ فيها تحذيرًا لهم مِن أنْ تَزولَ نعمةُ اللهِ تعالى عليهم؛ بسَبَبِ معاصيهم، وآيةٌ للطائعينَ حيثُ يَعتبرونَ بها بأنَّهم ما داموا على طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ نعمةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى تُدَرُّ عليهم[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإجحافَ في إيفاءِ النِّعمةِ حَقَّها مِن الشُّكرِ: يُعَرِّضُ بها للزَّوالِ، وانقلابِ الأحوالِ[4].

= كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨، ١٧٩).

قال ابن عاشور: (وأشارَتِ الآيةُ إلى التَّفَرُّقِ الشَّهيرِ الَّذي أُصيبَتْ به قبيلةُ سَبَأٍ إذْ حَمَلَهم خرابُ السَّدِّ وقُحولةُ الأرضِ إلى مُفارقةِ تلك الأوطانِ مُفارَقةً وَتَفْريقًا ضَرَبتْ به العربُ المَثَلَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨).

(١) قيل: اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى تمزيقِهم كُلَّ مُمَزَّقٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

وقيل: المرادُ: قِصَّةُ سَبَأٍ على وجهِ العُمومِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ في انعكاسِ حالِهم مِنَ الرَّفاهة إلى الشَّظَفِ آيةٌ على تقلُّبِ الأحوالِ، وتغيُّرِ العالَمِ؛ وآيةٌ على صِفاتِ الأفعالِ لله تعالى؛ مِن خَلْقٍ ورَزْقٍ، وإحياءٍ وإماتةٍ، وفي ذلك آيةٌ مِن عدَمِ الاطمِئنانِ لدَوامِ حالٍ في الخَيرِ والشَّرِّ[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ تأمينَ الطَّريقِ، وتيسيرَ المواصَلاتِ، وتقريبَ البُلدانِ؛ لتيسيرِ تبادُلِ المنافِعِ، واجتلابِ الأرزاقِ مِن هنا ومن هناك: نِعمةٌ إلهيَّةٌ، ومَقصدٌ شَرعيٌّ يُحِبُّه اللهُ لِمَن يحِبُّ أن يَرحمَه من عبادِه؛ من أجْلِ ذلك كان حَقًّا على وُلاةِ أمورِ الأمَّةِ أن يَسعَوا جُهدَهم في تأمينِ البلادِ، وحِراسةِ السُّبُلِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وتقريرِ الأمنِ في سائرِ نواحي البِلادِ؛ جليلِها وصغيرِها، بمُختَلِفِ الوسائِلِ، وكان ذلك مِن أهَمِّ ما تُنفَقُ فيه أموالُ المُسلِمينَ، وما يَبذُلُ فيه أهلُ الخَيرِ من المُوسِرينَ أموالَهم؛ عَونًا على ذلك[٢].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه أنَّ بَطَرَهم لتلك النِّعمةِ حتَّى ملُّوها ودَعَوا بإزالتِها -على أحدِ الأقوالِ-: دليلٌ على أنَّ الإنسانَ ما دام حيًّا فهو في نِعمةٍ يجِبُ عليه شُكرُها كائنةً ما كانت، وإن كان يراها بليَّةً؛ لأنَّه لما طُبِعَ عليه مِن القَلَقِ كثيرًا ما يرى النِّعمَ نِقمًا، واللَّذَّةَ ألَمًا[٣]!

٦- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أشار بصيغةِ المُبالَغةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٨).

إلى أنَّ مَن ليس في طَبعِه الصَّبرُ، فاتَه الشُّكرُ[(١)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جمعَ بيْنَ (صبَّارٍ) و(شكورٍ) في الوَصفِ؛ لإفادةِ أنَّ واجِبَ المؤمِنِ التَّخلُّقُ بالخُلُقَينِ، وهما: الصَّبرُ على المكارهِ، والشُّكرُ على النِّعَمِ؛ فالصَّبَّارُ يَعتبِرُ مِن تلك الأحوالِ، فيَعلَمُ أنَّ الصَّبرَ على المَكارهِ خيرٌ مِن الجَزعِ، ويرتكِبُ أخفَّ الضَّررَينِ، ولا يَستخِفُّه الجَزَعُ فيُلْقي بنَفْسِه إلى الأخطارِ، ولا يَنظُرُ في العواقبِ! والشَّكورُ يَعتبِرُ بما أُعطِيَ مِن النِّعمِ، فيَزدادُ شُكرًا للهِ تعالى، ولا يَبطَرُ النِّعمةَ ولا يَطْغى فيُعاقَبَ بسَلْبِها كما سُلِبَت عنهم، ومِن وراءِ ذلك أنْ يَحرِمَهم اللهُ التَّوفيقَ، وأنْ يَقذِفَ بهم الخِذْلانُ في بُنَيَّاتِ الطَّريقِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ مادَّةُ الشُّكرِ تتعدَّى إلى النِّعمةِ تارةً، وإلى المُنعِمِ أُخرى؛ فإن عُدِّيَت إلى النِّعمةِ تعَدَّت إليها بنَفْسِها دونَ حَرفِ الجَرِّ، كقَولِه تعالى: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وإنْ عُدِّيَت إلى المُنعِمِ تعَدَّت إليه بحَرفِ الجَرِّ الَّذي هو اللَّامُ، كقولك: نحمَدُ اللهَ ونَشكُرُ له، ولم تأتِ في القُرآنِ مُعدَّاةً إلَّا باللَّام، كما في الآيةِ هنا، وقَولِه: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقَولِه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقَولِه: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]... إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، وهذه هي اللُّغةُ الفُصحى، وتعديتُها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

وبُنَيَّاتُ الطَّريقِ هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تَتَشعَّبُ مِن الجادَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

للمَفعولِ بدونِ اللَّامِ لُغةٌ لا لَحنٌ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ عُقوبةُ المُعرِضينَ بما تَقْتَضيه حكمةُ اللهِ سُبحانه وتعالى، وقد قال اللهُ سُبحانَه وتعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فالعُقوباتُ دائمًا تكونُ مِن جنسِ العمَلِ؛ فهؤلاء لَمَّا بَطِروا نعمةَ اللهِ تعالى وكفَروا به -بسبب هذه الجَنَّاتِ- أُبدِلوا بجنَّاتٍ سيِّئةٍ بالنِّسبةِ لِمَا نُعِّموا به من قَبلُ[(٢)].

٣- قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ لا يُجازي أحدًا بعُقوبةٍ إلَّا بفِعلِه[(٣)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ يدُلُّ على خُصوصِ الجزاءِ بالمُبالِغينَ في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِ الجزاءِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة: ٧]؟

الجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى ما نُجازي هذا الجَزاءَ الشَّديدَ المُستأصِلَ إلَّا المبالغَ في الكُفرانِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ ما يُفعَلُ بغيرِ الكافرِ مِن الجزاءِ ليس عِقابًا في الحقيقةِ؛ لأنَّه تطهيرٌ وتَمحيصٌ.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه لا يُجازَى بجميعِ الأعمالِ مع المناقَشةِ التَّامَّةِ إلَّا الكافرُ، ويدُلُّ لهذا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن نُوقِشَ الحِسابَ فقد هَلَك))،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٩).

فلمَّا سألَتْه عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها عن قَولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، قال لها: ((ذلكِ العَرضُ))[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا مِنَ النِّعَم، واللهُ تعالى قد شَرَع في بيانِ تبديلِ نِعَمِهم بقَولِه: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾، فكيف عاد مرَّةً أُخرى إلى بيانِ النِّعمةِ بعدَ النِّقمةِ؟

الجوابُ: أنَّه ذكَرَ حالَ نَفْسِ بلَدِهم، وبيَّن تبديلَ ذلك بالخَمْطِ والأَثْلِ، ثمَّ ذكَرَ حالَ خارجِ بلَدِهم، وذكَرَ عِمارتَها بكَثرةِ القُرى، ثمَّ ذكرَ تبديلَه ذلك بالمفاوِزِ والبَيادي والبَراري، بقَولِهم: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وقد فعَلَ ذلك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أنَّ الطُّرُقَ إذا كانت بيْنَ قرًى متجاوِرةٍ فهي آمَنُ، وأقرَبُ إلى السَّلامةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أنَّ تقديرَ السَّيرِ أنشَطُ للمسافِرِ وأسهلُ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٩٣).

والحديث أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

قال ابن عاشور: (والمعنى: ما يُجازى ذلك الجزاءَ إلَّا الكَفورُ؛ لأنَّ ذلك الجزاءَ عَظيمٌ في نوعِه... فلا يُتوهَّمُ أنَّ هذا يقتضي أنَّ غيرَ الكَفورِ لا يُجازى على فِعلِه، ولا أنَّ الثَّوابَ لا يُسمَّى جزاءً، ولا أنَّ العاصيَ المؤمِنَ لا يُجازى على معصيتِه؛ لأنَّ تلك التَّوهُّماتِ كُلَّها مُندَفِعةٌ بما في اسمِ الإشارةِ مِن بيانِ نوعِ الجزاءِ؛ فإنَّ الاستئصالَ ونحوَه لا يجري على المؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٣).

له؛ لأنَّه إذا كان بيْنَ القرى تبايُنٌ بعيدٌ تَعِبَ المسافرُ ومَلَّ، لكنْ إذا صار يَقطَعُها مرحلةً مرحلةً؛ صار ذلك أنشَطَ له وأهْوَنَ عليه، ومِن هذا تجزئةُ القرآنِ ومسائلِ العِلمِ والكتبِ المُصَنَّفةِ حتَّى يقطعَها الإنسانُ مرحلةً مرحلةً؛ فيكونَ ذلك أسهَلَ عليه، ورُبَّما نأخُذُ منه فائدةً لِمَن أراد حِفْظَ القرآنِ أنْ يَتحفَّظَه شيئًا فشيئًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الأمنَ في الأوطانِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ[٢].

٩- إنَّما غلَّبت العربُ اللياليَ على الأيامِ في التاريخِ، فقيل: كتبت لخمسٍ بقينَ. وأنت في اليوم؛ لأنَّ ليلةَ الشَّهرِ سبَقت يومَه، ولم يلِدْها وولَدَتْه، ولأنَّ الأهِلَّةَ للَّيالي دونَ الأيامِ، وفيها دخولُ الشَّهرِ؛ ولذلك ما ذكَرهما الله تعالى إلَّا وقدَّم اللياليَ على الأيامِ؛ قال تعالى: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [فاطر: ١٣]، والعربُ تستعمِلُ الليلَ في الأشياءِ التي يشارِكُها فيها النَّهارُ دونَ النَّهارِ، وإن كانت لا تتمُّ إلَّا به؛ قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾[٣] [الأعراف: ١٤٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ظُلمَ النَّفسِ يكونُ بالكُفرِ والشِّركِ[٤]؛ فقد قال الله تعالى قبْلَ ذلك: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ [سبأ: ١٧].

١١- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص: ٤٦٩)، وفيه وجهٌ آخرُ مذكورٌ (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞ﴾ بيانٌ لأخبارِ بَعضِ الكافرينَ بنِعَمِ اللهِ تعالى إثْرَ بيانِ أحوالِ الشَّاكرينَ لها[2]. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ ﴿لَقَدۡ﴾؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ بالتَّعريضِ بهذه القِصَّةِ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لِعَدَمِ اتِّعاظِهم بحالِ قَومٍ مِن أهْلِ بِلادِهم[3].

- وفي قولِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ﴾ وَحَّدَ لَفظَ (الآيةِ) مع أنَّ الجَنَّتينِ آيتانِ؛ لِتَماثُلِهما في الدَّلالةِ، واتِّحادِ جِهَتِهما، كقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾[4] [المؤمنون: ٥٠].

- وفي قولِه: ﴿جَنَّتَانِ﴾ تشبيهٌ بَليغٌ، أي: في مَساكنِهم شَبيهُ جنَّتينِ في أنَّه مُغترَسُ أشجارٍ ذاتِ ثَمرٍ مُتَّصِلٍ بَعضُها ببَعضٍ، مِثلُ ما يُعرَفُ مِن حالِ الجنَّاتِ. وتَثنيةُ جنَّتينِ باعتبارِ أنَّ ما على يَمينِ السَّائرِ كَجَنَّةٍ، وما على يَسارِه كجنَّةٍ. وقيل: كان لكلِّ رجُلٍ منهم في مَسكنِه -أي: دارِه- جنَّتانِ: جنَّةٌ عن يَمينِ المَسكنِ، وجنَّةٌ عن شِمالِه، فيَكونُ معنى التَّركيبِ على التَّوزيعِ، أي: لكلِّ مَسكنٍ جنَّتانِ، وهذا مُناسبٌ لقولِه: ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ دونَ أنْ يقولَ: في بِلادِهم، أو دِيارِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّ مَدينتَهم -وهي مَأرِبُ- كانت

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥، ٤٦٦).

مَحفوفةً على يَمينِها وشِمالِها بغابةٍ مِن الجنَّاتِ يَصطافُّون فيها ويَستثمِرونها، وهذا يُناسِبُ قولَه بعْدُ: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ لأنَّ ظاهرَه أنَّ المُبدَلَ به جنَّتانِ اثنتانِ، إلَّا أنْ تَجعَلَه على التَّوزيعِ مِن مُقابَلةِ المُتعدِّدِ بالمُتعدِّدِ. وفي جَعلِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ في نَظمِ الكلامِ بَدلًا عن (آية) كِنايةٌ عن طِيبِ تُربةِ بِلادِهم(١).

- قولُه: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ حِكايةً لِمَا قِيلَ لهم على لِسانِ نبيِّهم؛ تَكْميلًا للنِّعمةِ، وتَذكيرًا لِحُقوقِها. أو لِمَا نطَقَ به لِسانُ الحالِ. أو بَيانٌ لِكَونِهم أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك(٢).

- جُملةُ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ مُستأنَفةٌ للدَّلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ(٣).

- وتَنكيرُ ﴿بَلْدَةٌ﴾ للتَّعظيمِ، وعُدِلَ عن إضافةِ (بَلْدة) إلى ضَميرِهم؛ لِتَكونَ الجُملةُ خَفيفةً على اللِّسانِ، فتكونَ بمَنزلةِ المَثلِ. وتَنكيرُ (رَبٌّ) للتَّعظيمِ، والعُدولُ عن إضافةِ (ربّ) لِضَميرِ المُخاطَبينَ إلى تَنكيرِ (ربّ)، وتَقديرِ لامِ الاختِصاصِ؛ لِقَصدِ تَشريفِهم بهذا الاختصاصِ، ولِتَكونَ الجُملةُ على وِزانِ الَّتي قبْلَها؛ طَلبًا للتَّخفيفِ، ولِتَحصُلَ المُزاوَجةُ بيْن الفِقْرتينِ، فتَسيرَا مَسيرَ المَثَلِ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

- قولُه ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ... ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ١٥]، وقعَ اعتِراضًا بيْنَ أجزاءِ القِصَّةِ الَّتي بَقِيَّتُها قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ...﴾ [سبأ: ١٨] إلخ، وهو اعتِراضٌ بالفاءِ، والإعراضُ يَقْتضي سَبْقَ دَعوةِ رَسولٍ أو نَبيٍّ، والمعنى: أعْرَضوا عن الاستِجابةِ لدَعوةِ التَّوحيدِ بالعَودِ إلى عِبادةِ الشَّمْسِ بعْدَ أنْ أقْلَعُوا في زَمنِ سُليمانَ عليه السَّلامُ وبِلقيسَ(١).

- و(الإرسالُ) في قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾: الإطلاقُ، وهو ضِدُّ الحبْسِ، وتَعديتُه بحَرْفِ (على) يُؤذِنُ بأنَّه إرسالُ نِقمةٍ؛ فإنَّ سَيلَ العَرِمِ كان مَحبوسًا بالسَّدِّ في مَأرِبَ، فكانوا يُرسِلون منه بمِقدارِ ما يَسقُون جَنَّاتِهم. و(التَّبديلُ) في قولِه: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾ تَعويضُ شَيءٍ بآخَرَ؛ فالمعنى: أعطَيْناهم أشجارَ خَمْطٍ وأثْلٍ وسِدْرٍ عِوَضًا عن جنَّتَيهم، أي: صارتْ بِلادُهم قاحلةً ليس فيها إلَّا شَجرُ العِضاهِ(٢) والباديةِ، وفيما بيْنَ هذينِ الحالينِ أحوالٌ عظيمةٌ انتابَتْهم، فقاسَوُا العطَشَ وفِقْدانَ الثِّمارِ حتَّى اضْطُرُّوا إلى مُفارَقةِ تلك الدِّيارِ؛ فلمَّا كانتْ هذه النِّهايةُ دالَّةً على تلك الأحوالِ، طُوِيَ ذِكرُ ما قبْلَها، واقتُصِرَ على ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ ...﴾(٣).

- وإطلاقُ اسمِ ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ على هذه المَنابتِ مُشاكَلةٌ للتَّهكُّمِ؛ لأنَّها صارتْ قاحلةً ليس فيها إلَّا شَجرُ العِضاهِ والباديةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

(٢) العِضاهُ: كلُّ شجرٍ يَعْظُمُ وله شوكٌ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩، ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١، ١٧٢)، =

- قَولُه: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ السِّدرُ: أكثَرُ الأشجارِ ظِلًّا وأنفَعُها؛ لأنَّه يُغسَلُ بوَرَقِه مع الماءِ فيُنظِّفُ، وفيه رائحةٌ حَسنةٌ؛ ولذلك وُصِفَ هنا بالقليلِ؛ لإفادةِ أنَّ مُعظَمَ شَجرِهم لا فائدةَ منه، وزِيدَ تَقليلُه قِلَّةً بذِكرِ كَلمةِ (شَيءٍ) المُؤْذِنةِ في ذاتِها بالقِلَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ فهو مِن تَمامِ الاعتراضِ، واسمُ الإشارةِ مِن البَيانِ بطَريقِ الإشارةِ، أي: جَزَيْناهم الجزاءَ المُشارَ إليه، وهو ما تَقدَّمَ مِن التَّبديلِ بجَنَّتَيهم جنَّتينِ أُخريَينِ. وتَقديمُه على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بشِدَّةِ ذلك الجزاءِ وتَعظيمِه[2]، وأنَّه مما يُهتَمُّ غايةَ الاهتمامِ بتعرُّفِه[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ رُتبتِه في الفَظاعةِ[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ...﴾ تَذييلٌ، وهو قِسْمانِ؛ الأوَّلُ: ما جَرى مَجرى المَثلِ، والثَّاني: ما لم يَخرُجْ مَخرَجَ المَثلِ؛ وهو أنْ تكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ مُتوقِّفةً على الأُولى في إفادةِ المُرادِ، أيْ: وهلْ يُجازى ذلك الجزاءَ المَخصوصَ؟! ومَضمونُ الجُملةِ الأُولى أنَّ آلَ سَبأٍ جَزاهم اللهُ تعالى بكُفرِهم، ومَضمونُ الثَّانيةِ أنَّ ذلك العِقابَ المخصوصَ لا يقَعُ إلَّا للكَفورِ،

= ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١، ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨).

وفَرْقٌ بيْنَ قولِنا: جَزيتُه بسَببِ كذا، وبيْنَ قَولِنا: ولا يُجزى ذلك الجزاءَ إلَّا مَن كان بذلك السَّببِ، ولِتَغايُرِهما يصِحُّ أنْ يُجعَلَ الثَّاني عِلَّةً للأوَّلِ، ولكنَّ اختلافَ مَفهومِهما لا يُنافي تأْكيدَ أحدِهما بالآخَرِ؛ لِلُزومِ معنًى[(١)].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفي[(٢)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ حِكايةٌ لِمَا أُوتوا من النِّعَمِ الباديةِ في مَسايرِهم ومَتاجِرِهم، وما فَعَلوا بها مِن الكُفرانِ، وما حاقَ بهم بسَببِ ذلك؛ تَكملةً لِقِصَّةِ سَبأٍ بذِكرِ نِعمةٍ بعْدَ نِعمةٍ، وبَيانٌ لِعاقبتِهم، وإنَّما لم يُذكَرِ الكلُّ معًا؛ لِمَا في التَّثنيةِ والتَّكريرِ مِن زِيادةِ تَنبيهٍ وتَذكيرٍ[(٣)].

- ومعنى ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ أنَّها خارجةٌ عن المُدُنِ -على قولٍ-؛ فهي في ظَواهرِ المُدنِ، ومنه قولُهم: نَزَلْنا بظاهرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ، أي: خارِجًا عنها؛ فقولُه: ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ كتَسميةِ النَّاسِ إيَّاها بالباديةِ وبالضَّاحيةِ، فيكونُ في قولِه: ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ على ذلك كِنايةٌ عن وَفرةِ المُدنِ، حتَّى إنَّ القُرى كلَّها ظاهرةٌ منها[(٤)].

- قولُه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فيه تَقديمُ اللَّيالي على الأيَّامِ؛ للاهتمامِ بها في مَقامِ الامتِنانِ؛ لأنَّ المسافرينَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منْهم إليه في النَّهارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ تَعترِضُهم فيه القُطَّاعُ والسِّباعُ[(٥)]؛ فقدَّمَ ما هو

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

أدلُّ على الأمْنِ وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّةِ بقولِه: ﴿لَيَالِيَ﴾، وأشارَ إلى كَثرةِ الظِّلالِ والرُّطوبةِ والاعتدالِ الَّذي يُمكِنُ معه السَّيرُ في جَميعِ النَّهارِ بقولِه: ﴿وَأَيَّامًا﴾، أي: في أيِّ وَقتٍ شِئتُم(١).

- وفي تَنكيرِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلْماعٌ إلى قِصَرِ أسفارِهم؛ فقد كانتْ قَصيرةً؛ لأنَّهم يرتَعون في بُحْبُوحةٍ مِن العَيشِ، ورَغَدٍ منه، لا يَحتاجُون إلى مُواصَلةِ الكَدِّ، وتَجشُّمِ عَناءِ الأسفارِ للحُصولِ على ما يُرفِّهُ عَيْشَهم(٢).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

- الفاءُ في: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا﴾ لِتَعقيبِ قَولِهم هذا إثْرَ إتمامِ النِّعمةِ عليهم باقترابِ المُدُنِ، وتَيسيرِ الأسفارِ، فلمَّا تمَّتِ النِّعمةُ بَطِروها، فحلَّتْ بهم أسبابُ سَلْبِها عنهم(٣).

- قولُه: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ التَّمزيقُ: تَقطيعُ الثَّوبِ قِطَعًا، وهو هنا تَشبيهٌ لِتفريقِ جامعةِ القومِ شَذَرَ مَذَرَ بتَمزيقِ الثَّوبِ قِطَعًا(٤). وفي عِبارةِ التَّمزيقِ الخاصِّ بتَفريقِ المُتَّصلِ وخَرْقِه، مِن تَهويلِ الأمْرِ والدَّلالةِ على شِدَّةِ التَّأثيرِ والإيلامِ؛ ما لا يَخْفى، أي: مَزَّقناهم تَمزيقًا لا غايةَ وراءَهُ بحيثُ يُضرَبُ به الأمثالُ في كلِّ فُرقةٍ ليس بعْدَها وِصالٌ(٥).

- وجاء نظْمُ الكلامِ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٩).

لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ[١]؛ فالمُسَبَّبُ على الكُفرِ هو استِئصالُهم، وهو مَدلولُ قولِه: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾، والمُسبَّبُ على كُفرانِ نِعمةِ تَقارُبِ البلادِ هو تَمزيقُهم كلَّ مُمزَّقٍ، أي: تَفريقُهم[٢].

- وفِعلُ الجَعلِ يَقْتضي تَغييرًا، ولَمَّا عُلِّقَ بذَواتِهم انقَلَبَت مِن ذواتٍ مُشاهَدةٍ إلى كَونِها أخبارًا مَسموعةً، والمعنى: أنَّهم هَلَكوا وتَحدَّثَ النَّاسُ بهم. أو أُرِيدَ: فجعَلْناهم أحاديثَ اعتبارٍ ومَوعظةٍ، أي: فأصَبْناهم بأمْرٍ غَريبٍ مِن

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شيئانِ أو أشياءُ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يُذكَرَ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِنَ المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقلِ السَّامع ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.

فاللَّفُ يُشار به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ فجُملةُ: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

شأْنِه أنْ يَتحَدَّثَ به النَّاسُ؛ فيكونُ ﴿أَحَادِيثَ﴾ مَوصوفًا بصِفَةٍ مُقدَّرةٍ دلَّ عليها السِّياقُ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ تَذييلٌ، وافتِتاحُها بأداةِ التَّوكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ، ويَظهَرُ أنَّ هذا التَّذييلَ تَنْهيةٌ للقِصَّةِ، وأنَّ ما بعْدَ هذه الجُملةِ مُتعلِّقٌ بالغرَضِ الأوَّلِ المُتعلِّقِ بأقوالِ المشركينَ، والمُنتقَلِ منه إلى العِبرةِ بداودَ وسُليمانَ، والمُمثِّلِ لحالِ المُشركينَ فيه بحالِ أهْلِ سَبأٍ. وجمَعَ (الآياتِ)؛ لأنَّ في تلك القصَّةِ عِدَّةَ آياتٍ وعِبَرٍ[2].

- وتَخصيصُ الصَّبَّارِ الشَّكورِ بذلك؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[3]، فآياتُ الرَّبِّ إنَّما يَنتفِعُ بها أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥).

الآيات (٢٠-٢٣)

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ظَهِيرٖ﴾: أي: مُعينٍ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[١].

﴿فُزِّعَ﴾: أي: أُزِيلَ الفَزَعُ، وأصلُ (فزع): يدُلُّ على ذُعرٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد تحقَّقَ فيهم ظنُّ إبليسَ فاتَّبَعوه إلَّا فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ، وما كان لإبليسَ عليهم قُدرةٌ وتسَلُّطٌ إلَّا لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بالآخرةِ ممَّن هو شاكٌّ فيها، عِلمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، وربُّك -يا محمَّدُ- على كلِّ شَيءٍ حَفيظٌ.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: ادعُوا هؤلاء الَّذين تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ وَزنَ ذَرَّةٍ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، وليس لِمَعبوداتِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ أو الأرضِ، وليس لله مِن هذه الآلهةِ المزعومةِ أيُّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠١).

مُعاوِنٍ يَستَعينُ به سُبحانَه وتعالى، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً؟!

ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عندَه تعالى يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أذِنَ له اللهُ أن يَشفَعَ، حتَّى إذا أُزيلَ الفَزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ منها، تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، قالت الملائِكةُ: قال اللهُ الحقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ -جَلَّت قُدرتُه- قَصَصَ سَبَأٍ، وما كان مِن أمْرِهم في اتِّباعِ الهَوى والشَّيطانِ؛ أردَفَ ذلك الإخبارَ بأنَّهم صدَّقوا ظَنَّ إبليسَ فيهم وفي أمثالِهم ممَّن ركَنوا إلى الغَوايةِ والضَّلالِ؛ إذ تسَلَّط عليهم وانقادوا إلى وَسوستِه[(١)].

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾.

أي: ولقد تحقَّقَ عليهم[(٢)] ....

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢).

(٢) قال الواحدي: (واختلَف المفسِّرون في هذه الآيةِ؛ فمَذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: [أنَّ الكنايةَ] في قولِه: ﴿ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ ﴾ عن أهلِ سبأٍ، وقال في قوله: ﴿ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: يريدُ: قليلًا مِن الَّذين صَدَّقوا الأنبياءَ وآمَنوا بالله، وعلى هذا فالاستثناءُ مِن سبَأٍ، وهم مَنْ آمَنَ منهم. ومذهَبُ مُجاهِدٍ أنَّ الكنايةَ: عن النَّاسِ كُلِّهم؛ قال: صَدَّق ظَنَّه على النَّاسِ كُلِّهم إلَّا مَن أطاع اللهَ. وهو ظاهِرُ مذهَبِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٥٣).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: أهلُ سَبَأٍ-: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والبغوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٢/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٠٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الرازيُّ، والنيسابوري، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. =

ما ظنَّه إبليسُ فيهم، باتِّباعِهم إيَّاه[١].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: إلَّا فريقًا مِن[٢] ....

= يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

قال السعدي: (قال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على جنسِ النَّاسِ، فتكونُ الآيةُ عامَّةً في كلِّ مَنِ اتَّبَعَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

وقال الإيجي: (كلامُ السَّلَفِ دالٌّ على أنَّ ضميرَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني آدَمَ، لا لأهلِ سَبَأٍ خاصَّةً). ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ الَّذين قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[سبأ: ٧]. فالضَّميرُ في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إلى الَّذينَ كفروا مِن قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ ...﴾. واستظهَر هذا القولَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢، ١٨٣).

والمرادُ بظنِّ إبليسَ: هو ما حكاه اللهُ تعالى عنه في عدَّةِ مواضعَ؛ كقَوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٦٢].

وقوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٦، ١٧].

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٠).

قال ابنُ عطية: (ومعنى الآيةِ أنَّ ما قال إبليسُ من أنَّه سيَفتِنُ بني آدمَ ويُغويهم، وما قال من أنَّ الله لا يجِدُ أكثرَهم شاكرينَ، وغيرَ ذلك: كان ظنًّا منه، فصدَق فيهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧).

(٢) قيل: ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لبيانِ الجنسِ، لا للتَّبعيضِ، أي: فريقًا هم المؤمنون؛ لأنَّ التَّبعيضَ يقتضي أنَّ فريقًا مِن المؤمنينَ اتَّبَعوا إبليسَ. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: =

المُخلصينَ لله تعالى، الثَّابتينَ على توحيدِه وطاعتِه[(١)].

كما قال سُبحانَه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ رُبَّما أوهم أنَّ لإبليسَ

= ابنُ عطية، وابنُ عادل، والإيجي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: هي للتَّبعيضِ، فيُرادُ به بعضُ المؤمنينَ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

قيل: وذلك لأنَّ كثيرًا مِن المؤمنينَ مَن يُذنِبُ وينقادُ لإبليسَ في بعضِ المعاصي، أي: ما سَلِم مِن المؤمنينَ أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

قال ابن عثيمين: (إذا جعَلْنا الضَّميرَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائدًا على الكُفَّار الَّذين اتَّبَعوا إبليسَ فإنَّ الاستِثناءَ هنا يجبُ أن يكونَ مُنقطِعًا، وإن جَعَلْناه عامًّا لبني آدَمَ أو جنسِ هذه القَبيلةِ «سَبَأٍ» صار الاستثناءُ مُتَّصِلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

وقال الشنقيطي: (عِبادُ الله المُخلَصونَ هم المُرادون بالاستِثناءِ في قَولِه في بني إسرائيلَ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقوله في سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم الَّذين احترَزَ منهم بقولِه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٧٧).

أمرًا بنَفْسِه؛ فنفاه هنا، فقال(١):

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾.

أي: وما كان لإبليسَ على أتْباعِه تسَلُّطٌ واستيلاءٌ إلَّا لِنَعلَمَ المؤمِنينَ بالآخرةِ مِنَ الشَّاكِّينَ فيها؛ عِلمًا وُجوديًّا ظاهريًّا يَترتَّبُ عليه الجزاءُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٣-١٥٦).

قال الشوكاني: (والاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢١] منقَطِعٌ، والمعنى: لا سُلطانَ له عليهم، ولكِنِ ابتلَيْناهم بوَسوسته؛ لِنَعلَمَ. وقيل: هو متَّصِلٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ العامِّ، أي: ما كان له عليهم تسَلُّطٌ بحالٍ مِن الأحوالِ ولا لعِلَّةٍ مِن العِلَلِ إلَّا لِيَتميَّزَ مَن يؤمِنُ ومَن لا يؤمِنُ؛ لأنَّه سبحانه قد عَلِمَ ذلك عِلمًا أزَليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧١).

وقال ابنُ قُتَيْبةَ: (عِلمُ الله تعالى نوعانِ؛ أحدُهما: عِلمُ ما يكونُ مِن إيمانِ المؤمِنينَ، وكُفرِ الكافرينَ، وذُنوبِ العاصِين، وطاعاتِ المُطيعينَ؛ قبْلَ أن تكونَ، وهذا عِلمٌ لا تجِبُ به حُجَّةٌ، ولا تقَعُ عليه مَثوبةٌ ولا عقوبةٌ. والآخَرُ: عِلمُ هذه الأمورِ ظاهرةً موجودةً، فيَحِقُّ القولُ، ويقعُ بوقوعِها الجزاءُ، فأراد جلَّ وعزَّ: ما سلَّطْناه عليهم إلَّا لِنَعْلَمَ إيمانَ المؤمنينَ ظاهِرًا موجودًا، وكُفرَ الكافرين ظاهِرًا موجودًا). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

ونقَل الواحديُّ كلامَ ابنِ قُتَيْبةَ هذا، ثمَّ قال: (وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ، ومقاتلٍ، والكلبيِّ، وجميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أي: وربُّك -يا محمَّدُ- على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه رَقيبٌ ومُطَّلِعٌ؛ فلا يخفى عليه شَيءٌ مِن أمورِهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وسيُجازي عِبادَه بما عَمِلوه من خيرٍ وشَرٍّ(١).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ الشَّاكِرينَ وحالَ الكافِرينَ، وذَكَّرَهم بمَن مضَى؛ عاد إلى خِطابِهم(٢).

وأيضًا كانت قِصَّةُ سَبأٍ قد ضُرِبت مَثَلًا وعِبرةً للمُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ، وكان في أحوالِهم مَثيلٌ لأحوالِ المُشرِكينَ في أمْنِ بلادِهم، وتيسيرِ أرزاقِهم، وتأمينِ سُبُلِهم في أسفارِهم، ثمَّ فيما قابَلوا به نِعمةَ اللهِ بالإشراكِ به، وكُفرانِ نِعمتِه، وإفحامِهم دُعاةَ الخَيرِ المُلهَمينَ مِن لَدُنْه إلى دَعوتِهم، فلمَّا تقضَّى خبَرُهم انتُقِل منه إلى تطبيقِ العِبرةِ على مَن قَصَد اعتبارَهم انتِقالًا مُناسبتُه بيِّنةٌ، وهو أيضًا عَودٌ إلى إبطالِ أقوالِ المُشركينَ، وسِيقَ لهم مِنَ الكَلامِ ما فيه توقيفٌ على أخطائِهم، وأيضًا فلمَّا جرى مِن استِهواءِ الشَّيطانِ أهلَ سَبَأٍ فاتَّبَعوه، وكان الشَّيطانُ مَصدَرَ الضَّلالِ وعُنصُرَ الإشراكِ- أعقَبَ ذِكرَه بذِكرِ فُروعِه وأوليائِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥).

وأيضًا لَمَّا أثبَت سُبحانَه لنَفْسِه ولِذَاتِه الأقدَسِ من المُلْكِ في السَّمَواتِ والأرضِ وغَيرِهما ما مَرَّ ذِكرُه، واستدَلَّ عليه مِن الأدِلَّةِ الَّتي لا يُمكِنُ التَّصويبُ إليها بطَعنٍ، وكان المقصودُ الأعظَمُ التَّوحيدَ؛ فإنَّه أصلٌ يَنبني عليه كُلُّ خَيرٍ- قال[1]:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: ادعُوا مَعبودِيكم الَّذين تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفَعوكم أو يَضُرُّوكم بشَيءٍ؛ فإنَّهم لن يَقدِروا على ذلك، فهم لا يَملِكونَ وَزنَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً[2]؟!

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

أي: وليس لِمَعبوداتِكم أيُّ شراكةٍ مع اللهِ في أيِّ شَيءٍ مِنَ السَّمواتِ أو الأرضِ[3].

﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

أي: وليس لله مِن تلك الآلهةِ المَزعومةِ أيُّ مُعاوِنٍ يُساعِدُه على شَيءٍ ممَّا يُريدُه سُبحانَه[4].

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد بَقِيَ مِن أقسامِ النَّفعِ: الشَّفاعةُ، وكان المقصودُ منها أثَرَها لا عَيْنَها؛ نفاه بقَولِه[١]:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

أي: ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عِندَ اللهِ يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أَذِنَ له أن يَشفَعَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥ - ٨٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾.

أي: حتَّى إذا كُشِفَ الفزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ عنها، تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، فقالوا: ماذا قال ربُّكم[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٤).

قال ابن تيميَّةَ: (قد يقالُ: التَّقديرُ: لا تَنفعُ الشَّفاعةُ عندَه إلَّا لِمَن أذِنَ له أن يُشفَعَ فيه، فيُؤذَنُ لغيرِه أن يَشفعَ فيه، فيكونُ الإذنُ للطَّائفتَين، والنَّفعُ للمَشفوعِ له، كأحدِ الوجهَين، أو: ولا تنفَعُ إلَّا لِمن أذِنَ له مَن هؤلاء وهؤلاء، فكما أنَّ الإذْنَ للطَّائِفتَينِ فالنَّفعُ أيضًا للطَّائفتَين؛ فالشَّافِعُ يَنتفِعُ بالشَّفاعةِ، وقد يكونُ انتِفاعُه بها أعظَمَ مِن انتفاعِ المشفوعِ له). ((الحسنة والسيئة)) (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٤، ٥١٥).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعودُ على الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، وابنُ حجر. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٥)، ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢١٤) و(٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٥٦).

قال ابنُ جُزَي: (تظاهرت الأحاديثُ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله تعالى عليه وآلِه وسلَّم أنَّ هذه الآيةَ في الملائكةِ عليهم السَّلامُ؛ فإنَّهم إذا سَمِعوا الوَحْيَ إلى جبريلَ يَفزَعونَ لذلك فزَعًا عظيمًا، فإذا زال الفزَعُ عن قلوبِهم قال بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولون: قال الحَقَّ. ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ زال عنها الفزَعُ، والضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ وفي ﴿قَالُواْ﴾ للملائكةِ. فإن قيل: كيف ذلك ولم يَتقدَّمْ لهم ذِكرٌ يعودُ الضَّميرُ عليه؟ فالجوابُ: أنَّه قد وقعت إليهم إشارةٌ بقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ بعضَ العَرَبِ كانوا يَعبُدونَ الملائكةَ، ويقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ الله، فذِكْرُ الشَّفاعةِ يقتضي ذِكرَ الشَّافِعينَ، فعاد الضَّميرُ على الشُّفَعاءِ الَّذين دَلَّ عليهم لفظُ الشَّفاعةِ. فإن قيل: بِمَ اتَّصل قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولأيِّ شَيءٍ وقَعت «حتَّى» غائيَّةً؟ فالجوابُ: أنَّه اتَّصل بما فُهِمَ مِن الكلامِ مِن أنَّ ثَمَّ انتظارًا للإذْنْ، وفزَعًا وتوقُّفًا حتَّى يَزولَ الفزَعُ بالإذنِ في الشَّفاعةِ، ويَقرُبُ هذا في المعنى مِن قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]، ولم يَفهَمْ بَعضُ النَّاسِ اتِّصالَ هذه الآيةِ بما قَبْلَها، فاضطربوا فيها، حتَّى قال بعضُهم: هي في الكُفَّارِ بعدَ الموتِ، ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: رأَوُا الحقيقةَ، فقيل لهم: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولونَ: قال الحَقَّ، فيُقِرُّونَ حيثُ لا يَنفَعُهم الإقرارُ! والصَّحيحُ أنَّها في الملائكةِ؛ لوُرودِ ذلك في الحديثِ، ولأنَّ القَصدَ الرَّدُّ على الكُفَّارِ الَّذين عَبَدوا الملائكةَ، فذَكَر شِدَّةَ خَوفِ الملائكةِ مِن اللهِ، وتعظيمِهم له). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يَعودُ إلى ما دَلَّ عليه «له» في ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ فإنَّ الملائكةَ يدخُلون في قَولِه: ﴿لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، ودَلَّ عليه قَولُه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فإنَّ الملائكةَ تدخُلُ في ذلك؛ فسَلَبهم المُلْكَ والشَّركةَ والمعاونةَ والشَّفاعةَ إلَّا بإذنِه، ثمَّ بيَّن ذلك حتَّى إنَّه إذا تكَلَّم لا يَثبُتونَ لكَلامِه ولا يَستقِرُّونَ، بل يَفزَعونَ ولا يَفهَمونَ! ثمَّ إذا أُزيلَ عنهم الفزَعُ يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ =

= ﴿ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]، وذلك أنَّ ما بعدَ «حتَّى» هنا جملةٌ تامَّةٌ، وهو قَولُه: ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، والعامِلُ في «إذا» هو قَولُه ﴿قَالُوا۟ مَاذَا﴾ و«إذا»: ظَرفٌ لِما يُستقبَلُ مِن الزَّمانِ، مُتضَمِّنٌ معنى الشَّرطِ، أي: لَمَّا زال الفزَعُ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ٤٦٠).

وقال ابنُ حجر: (وأظنُّ البخاريَّ أشار ... إلى ترجيح قَولِ مَن قال: إنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ للملائكةِ، وأنَّ فاعِلَ الشَّفاعة في قَولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ [سبأ: ٢٣] هم الملائكةُ؛ بدليلِ قَولِه بعدَ وَصفِ الملائكةِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]). ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٥٥).

وقيل: المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: الشَّافِعونَ، والمشفوعُ لهم. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٤٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلتَ: بِمَ اتَّصل قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولأيِّ شَيءٍ وقَعَت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةً؟ قلتُ: بما فُهِمَ مِن هذا الكلام، مِن أنَّ ثَمَّ انتظارًا للإذنِ وتوقُّعًا وتمهُّلًا وفَزَعًا مِن الرَّاجينَ للشَّفاعةِ والشُّفَعاءِ: هل يُؤْذَنُ لهم أو لا يؤذَنُ؟ وأنَّه لا يُطلَقُ الإذْنُ إلَّا بعدَ مَلِيٍّ مِن الزَّمانِ، وطولٍ مِن التَّرَبُّصِ، ومِثلُ هذه الحالِ دلَّ عليها قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٧، ٣٨]، كأنَّه قيل: يَتربَّصون ويَتوقَّفون مَلِيًّا فَزِعينَ وَهِلينَ، حتَّى إذا فُزِّع عن قلوبِهم -أي: كُشِفَ الفَزَعُ عن قلوبِ الشَّافعينَ والمشفوعِ لهم بكلمةٍ يتكلَّمُ بها ربُّ العِزَّةِ في إطلاقِ الإذنِ- تباشَروا بذلك، وسأل بعضُهم بعضًا: ماذا قال رَبُّكم؟ قالُوا: قال الحقَّ، أي: القولَ الحَقَّ، وهو الإذْنُ بالشَّفاعةِ لِمَن ارتضى). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠).

وقيل: المرادُ: المشفوعُ لهم. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعودُ على المشركينَ، وفي معنى الكلامِ على ذلك قولان:
أحدُهما: أنَّ المعنى: حتَّى إذا كُشِف الفزَعُ عن قلوبِ المشركينَ عندَ الموتِ -إقامةً للحُجَّةِ =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ * وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوانٍ[1]، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا لِلَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ؛ ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ

= عليهم- قالت لهم الملائكةُ: ماذا قال ربُّكم في الدُّنيا؟ قالوا: الحقَّ، فأقَرُّوا حينَ لم يَنفَعْهم الإقرارُ. قاله الحسَنُ، وابنُ زَيدٍ.

والثَّاني: حتَّى إذا كُشِفَ الغِطاءُ عن قُلوبِهم يومَ القيامةِ، قيل لهم: ماذا قال ربُّكم. قاله مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٧).

قال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ الضَّميرَ في هذا الموضِعِ يعود إلى المشركين؛ لأنَّهم مذكورون في اللَّفظِ، والقاعدةُ في الضَّمائرِ: أن تَعودَ إلى أقرَبِ مذكورٍ، ويكونُ المعنى: إذا كان يومُ القيامةِ وفُزِّع عن قلوبِ المشركينَ -أي: زال الفزَعُ- وسُئلوا حينَ رجعَتْ إليهم عقولُهم عن حالِهم في الدُّنيا، وتكذيبِهم للحَقِّ الَّذي جاءت به الرُّسُلُ: أنَّهم يُقِرُّون أنَّ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ: باطلٌ، وأنَّ ما قال اللهُ وأخبرَتْ به عنه رُسُلُه: هو الحقُّ، فبدَا لهم ما كانوا يُخْفُونَ مِن قبْلُ، وعَلِموا أنَّ الحقَّ لله، واعترَفوا بذُنوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

وقال أبو حيَّان: (وأقرَبُها عندي أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ عائدًا على مَن عاد عليه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠] و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٠] و﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ [سبأ: ٢١]، وتكونَ الجملةُ بعدَ ذلك اعتراضًا، وقولُه: ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكةُ، لأولئك المتَّبعينَ الشَّاكِّينَ يَسألونهم سؤالَ توبيخ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ على لسانِ مَن بُعِث إليكم بعدَ أن كُشِف الغِطاءُ عن قلوبِهم، فيُقِرُّون إذْ ذاك أنَّ الَّذي قاله وجاءت به أنبياؤه: هو الحقُّ لا الباطِلُ الَّذي كنَّا فيه مِن اتِّباعِ إبليسَ، وشَكِّنا في البعثِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٦).

(١) الصَّفْوانُ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

بَعضٍ -ووصَف سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَّفَها، وبدَّدَ بيْنَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرك الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يَومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ))(١).

﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ: قال اللهُ القولَ الحَقَّ(٢)، وهو العَليُّ بذاتِه وصفاتِه، وقَهرِه لكُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ومِن عُلُوِّه أنَّ حُكمَه يعلو وتُذعِنُ له جميعُ الخلائِقِ؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم، ومِن عُلُوِّه أنَّه لا يقولُ غيرَ الحَقِّ؛ وهو الكبيرُ الَّذي لا شَيءَ أكبَرُ منه، ولا يُعارِضُه أحدٌ في شَيءٍ مِن حُكمِه؛ فله أن يَحكُمَ في عبادِه بما يشاءُ، ويَفعَلُ ما يُريدُ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) قيل: المرادُ بالقَولِ الحَقِّ هنا هو: الإذنُ بالشَّفاعةِ. وممَّن نصَّ على هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٤٤).

وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ كَلِمةَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وقعت حكايةً لِمَقولِ الله بوَصفٍ يجمعُ متنوِّعَ أقوالِ الله تعالى حينَئذٍ؛ مِن قَبولِ شفاعةٍ في بَعضِ المشفوعِ فيهم، ومِن حِرمانٍ لغَيرِهم؛ كما يقالُ: ماذا قال القاضي للخَصمِ؟ فيُقالُ: قال الفَصْلَ. وممَّن استظهَر هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٩، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

قال ابن عثيمين: (الكبيرُ... معناه: ذو الكبرياءِ، ومعناه: أنَّ الله تعالى لا يُماثِلُه شَيءٌ في ذاتِه). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ فيه تَنبيهُ المؤمنينَ إلى مَكايِدِ الشَّيطانِ وسُوءِ عاقبةِ أتْباعِه؛ لِيَحذَروه ويَستَيقِظوا لكَيدِه، فلا يَقَعوا في شَرَكِ وَسوَستِه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أنَّ إبليسَ يُوصَفُ بالصِّدقِ، ويُوصَفُ بالكَذِبِ، وأمَّا الوَصفُ اللَّازمُ له فهو الكَذِبُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ولكنْ قد يَصدُقُ كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((صَدَقَك وهو كَذوبٌ))(٢).

٢- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أنَّ الشَّيطانَ إمامٌ لكلِّ ضالٍّ، فكلُّ الضَّالِّينَ إمامُهم الشَّيطانُ، وهم مُتَّبِعون له(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أكثَرَ النَّاسِ هم أهلُ النَّارِ، وهم الَّذين اتَّبَعوا الشَّيطانَ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّ الإيمانَ حاجزٌ عن

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١).

والحديث أخرجه معلَّقًا البخاريُّ (٢٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مطولًا. ويُنظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٣/ ٢٩٥-٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٦٥).

اتِّباعِ الشَّيطانِ، ومُوجِبٌ لاتِّباعِ هَدْيِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، وقولُه تعالى حاكيًا عن الشَّيطانِ مُقَرِّرًا له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] قد دلَّا على نَفيِ سُلطانِ الشَّيطانِ عليهم، فكيفَ أثبَت للشيطانِ على أوليائِه سلطانًا في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] ففيه التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، ونَظيرُه الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؟

والجوابُ: أنَّ السُّلطانَ الَّذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الَّذي نفاه؛ وذلك مِن وجهَينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ الثَّابتَ هو سُلطانُ التَّمكُّنِ منهم، وتلاعُبِه بهم، وسَوقِه إيَّاهم كيفَ أراد، بتمكينِهم إيَّاه مِن ذلك بطاعتِه ومُوالاتِه، والسُّلطانَ الَّذي نفاه سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكُنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يَتسلَّطُ بها، غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القُرآنِ.

الثاني: أنَّ اللهَ لم يَجعلْ له عليهم سُلطانًا ابتِداءً الْبَتَّةَ، ولكنْ هم سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في جُملةِ جُندِه وحِزبِه، فلمْ يَتسلَّطْ عليهم بقُوَّتِه؛ فإنَّ كَيْدَه ضَعيفٌ، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤، ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥).

٦- في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ نفَى سُبحانَه عمَّا سِواه كلَّ ما يتعلَّقُ به المُشرِكونَ؛ فنفَى أن يكونَ لغيرِه مُلكٌ أو قِسْطٌ مِن المُلكِ، أو يكونَ عَونًا للهِ، ولم يَبْقَ إلَّا الشَّفاعةُ؛ فبَيَّنَ أنَّها لا تَنفَعُ إلَّا لِمَن أذِنَ له الرَّبُّ، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] [البقرة: ٢٥٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هذه أنواعُ التَّعلُّقاتِ الَّتي يتعلَّقُ بها المُشرِكونَ بأندادِهم وأوثانِهم مِنَ البَشَرِ والشَّجَرِ وغيرِهم؛ قَطَعها اللهُ، وبيَّن بُطلانَها تبيينًا حاسمًا لموادِّ الشِّركِ، قاطِعًا لأُصولِه؛ لأنَّ المُشرِكَ إنَّما يدعو ويعبُدُ غيرَ اللهِ؛ لِما يرجو منه مِنَ النَّفعِ، فهذا الرَّجاءُ هو الذي أوجبَ له الشِّركَ، فإذا كان مَن يدعوه مِن دونِ اللهِ لا مالِكًا للنَّفعِ والضُّرِّ، ولا شريكًا للمالِكِ، ولا عَونًا وظهيرًا للمالِكِ، ولا يَقدِرُ أن يشفَعَ بدونِ إذْنِ المالكِ: كان هذا الدُّعاءُ وهذه العِبادةُ ضلالًا في العَقلِ، باطِلةً في الشَّرعِ، بل يَنعكِسُ على المُشرِكِ مَطلوبُه ومقصودُه؛ فإنَّه يُريدُ منها النَّفعَ؛ فبيَّنَ اللهُ بُطلانَه وعَدَمَه[2].

٨- قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، جمَعَت هذه الآيةُ نَفْيَ جَميعِ أصنافِ التَّصرُّفِ عن آلهةِ المُشركينَ، كما جمَعَت نَفْيَ أصنافِ الآلهةِ المَعبودةِ عندَ العرَبِ؛ لأنَّ مِن العرَبِ صابئةً يَعبُدون الكواكبَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨). ويُنظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦١).

وهي في زَعمِهم مُستقِرَّةٌ في السَّمواتِ تُدبِّرُ أُمورَ أهْلِ الأرضِ؛ فأبطَلَ هذا الزَّعمَ قولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فأمَّا في السَّمواتِ فباعترافِهم أنَّ الكواكبَ لا تَتصرَّفُ في السَّمواتِ، وإنَّما تَصرُّفُها في الأرضِ، وأمَّا في الأرضِ فبِقولِه: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ومِن العرَبِ عَبَدةُ أصنامٍ يَزعُمون أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في الإلهيَّةِ، فنَفى ذلك بقولِه: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ومنهم مَن يَزعُمون أنَّ الأصنامَ جَعَلها اللهُ شُفعاءَ لأهلِ الأرضِ، فنَفى ذلك بقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ الآيةَ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ بإذنِ اللهِ تعالى، ولو كانتِ الشَّفاعةُ لا تَنفعُ مُطلَقًا ما صحَّ الاستثناءُ، ولو كانت تَنفَعُ مُطلقًا ما صحَّ النَّفيُ؛ إذَنْ فهي تَنفَعُ بإذنِ اللهِ تعالى[2].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ نَفْيٌ لأن يكونَ شَفيعٌ عندَه -تعالى- يَضطرُّه إلى قَبولِ الشَّفاعةِ فيمَنْ يَشفَعُ له؛ لتعظيمٍ أو حياءٍ، وصرَّح بالمتعلَّقِ هنا؛ ردًّا على قَولِ المُشرِكينَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فنُفِيَت شفاعتُهم في عُمومِ نَفيِ كُلِّ شَفاعةٍ نافِعةٍ عندَ اللهِ إلَّا شَفاعةَ مَن أذِنَ اللهُ أن يَشفَعَ، وفي هذا إبطالُ شفاعةِ أصنامِهم؛ لأنَّهم زَعَموا لهم شَفاعةً لازِمةً مِن صِفاتِ آلهتِهم؛ لأنَّ أوصافَ الإلهِ يجِبُ أن تكونَ ذاتيَّةً، فلمَّا نفى اللهُ كُلَّ شَفاعةٍ لم يَأذَنْ فيها للشَّافِعِ، انتفَتِ الشَّفاعةُ المزعومةُ لأصنامِهم، وبهذا يَندفِعُ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّ قولَه: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ لا يُبطِلُ شَفاعةَ الأصنامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٧).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يدُلُّ على العَظَمةِ، وهو أنَّه لا افتيات عليه تعالى بوجهٍ مِن أحدٍ ما، بل لا بُدَّ أن يَنُصَّ هو سبحانَه على الإذنِ، وإلَّا فلا استطاعةَ عليه أصلًا[١]؛ ففي الآيةِ عَظَمةُ اللهِ تعالى وقوَّةُ سلطانِه، ووجهُ ذلك: أنَّ الشَّفاعةَ لا تكونُ إلَّا بإذنِه، بخِلافِ المخلوقينَ؛ فمهما عَظُم مُلْكُهم فإنَّه يَدخُلُ الشَّافعُ على المَلِكِ والسلطانِ، ويَشْفَعُ بدونِ إذنِه[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ ليس ككَلامِ المخلوقينَ، بل هو أعظَمُ؛ لأنَّ السَّامِعَ له يُصعَقُ إلَّا أنْ يُثبِّتَه اللهُ تعالى[٣]، وذلك على تفسيرِ الآيةِ بأنَّ الملائكةَ إذا تكلَّم الله تعالى بالوَحْيِ صَعِقوا، فإذا صَعِقوا فُزِّع عن قلوبِهم.

١٣- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ فيه حُجَّةٌ على إبطالِ الشِّركِ، خُصوصًا مَن تعلَّقَ على الصَّالحينَ، وبُرهانٌ عَظيمٌ على وُجوبِ التَّوحيدِ؛ فقد دَلَّ على كبرياءِ الرَّبِّ وعَظَمتِه الَّتي تتضاءلُ وتضمَحِلُّ عندَها عَظَمةُ المخلوقاتِ العظيمةِ، وتخضَعُ له الملائكةُ والعالَمُ العُلويُّ والسُّفليُّ، ولا تَثبُتُ أفئدتُهم عندَما يَسمَعونَ كَلامَه، أو تتبدَّى لهم بعضُ عَظَمتِه ومَجدِه؛ فالمخلوقاتُ بأَسْرِها خاضِعةٌ لجَلالِه، مُعترِفةٌ بعَظَمتِه ومَجدِه، خاضِعةٌ له، خائفةٌ منه؛ فمَن كان هذا شأنَه فهو الرَّبُّ الَّذي لا يَستَحِقُّ العبادةَ والحَمدَ والثَّناءَ والشُّكرَ والتَّعظيمَ والتَّألُّهَ إلَّا هو، ومَن سِواه ليس له مِن هذا الحَقِّ شَيءٌ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أنَّ للمَلائكةِ عُقولًا وفَهمًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((القول السديد شرح كتاب التوحيد)) للسعدي (ص: ٦٨).

وإدراكًا وقُلوبًا، وأنَّهم يَتكلَّمون، وأنَّهم أجسامٌ، لا قُوًى مَعنويَّة كما قال الزَّائِغونَ(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والجَهميَّةِ فيما يَجحَدونَ مِن إثباتِ الكَلامِ للهِ، وما يُنكِرونَ مِن الصِّفات(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] التَّصريحُ بالعُلُوِّ المُطْلَقِ الدَّالِّ على جميعِ مراتبِ العُلُوِّ -ذاتًا وقَدْرًا وشَرَفًا-(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ [سبأ: ٧] الآيةَ، وما بيْنَهما مِن الأخبارِ المَسوقةِ للاعتبارِ واقعٌ مَوقِعَ الاستِطرادِ والاعتِراضِ؛ فيكونُ ضَميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ إلخ، على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل: إنَّ ضَميرَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدٌ إلى سَبأٍ المُتحدَّثِ عنهم. ولكنْ قولُه تعالى بعْدَ ذلك: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢] الآياتِ، هو عَودٌ إلى مُحاجَّةِ المشركينَ المُنتقَلِ منها بذِكرِ قصَّةِ داودَ وسُليمانَ وأهلِ سَبأٍ. وصُلوحيَّةُ الآيةِ للمَحملَينِ ناشئةٌ مِن مَوقعِها، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ المُستفادةِ مِن تَرتيبِ مَواقعِ الآيةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٣)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

- وفي قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ صِدقَ الظَّنِّ المُفرَّعَ عنه اتِّباعُهم يَقْتضي أنَّه دَعاهم إلى شَيءٍ ظانًّا استِجابةَ دَعوتِه إيَّاهم[١].

- والتعبيرُ بحَرْفِ الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ عمَلَ إبليسَ كان مِن جِنسِ التَّغلُّبِ والاستعلاءِ عليهم[٢].

- وقولُه: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ تَفريعٌ وتَعقيبٌ على فِعلِ ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، أي: تَحقَّقَ ظَنُّه حينَ انفَعَلوا لِفعلِ وَسوستِه، فبادَروا إلى العملِ بما دَعاهم إليه مِن الإشراكِ والكُفرانِ[٣].

- وقلَّلَ المؤمنينَ بقولِه: ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾؛ لأنَّهم قليلٌ بالإضافةِ إلى الكفَّارِ، والتَّعريفُ في المؤمنينَ للاستغراقِ. أو إلَّا فريقًا مِن فِرَقِ المؤمنينَ لم يتَّبِعوه، وهمُ المُخلَصون[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ...﴾ فِعلُ ﴿كَانَ﴾ في النَّفيِ مع ﴿مِّن﴾ الَّتي تُفِيدُ الاستغراقَ في النَّفيِ؛ يُفيدُ انتفاءَ السُّلطانِ، أي: الملكِ والتَّصريفِ للشَّيطانِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

اقتُصِرَ مِن عِلَلِ تَمكينِ الشَّيطانِ على تَمييزِ مَن يُؤمِنُ بالآخِرةِ ومَن لا يُؤمِنُ بها؛ لِمُراعاةِ أحوالِ الَّذين سِيقَت إليهم الموعظةُ بأهلِ سَبأٍ، وهم كفَّارُ قُريشٍ؛ لأنَّ جُحودَهم الآخرةَ قَرينٌ للشِّركِ، ومُساوٍ له؛ فإنَّهم لو آمَنوا بالآخرةِ لآمَنوا بربِّها، وهو الرَّبُّ الواحدُ الَّذي لا شَريكَ له، وإلَّا فإنَّ عِلَلَ جَعلِ الشَّيطانِ للوَسوسةِ كَثيرةٌ مَرجِعُها إلى تَمييزِ الكُفَّارِ مِن المؤمنينَ، والمُتَّقينَ مِن المُعرِضينَ. وكُنِّيَ بـ(نَعلَم) عن إظهارِ التَّمييزِ بيْنَ الحالَينِ؛ لأنَّ الظُّهورَ يُلازِمُ العِلمَ في العُرفِ[1]. وقيل: ضُمِّنَتْ (نَعْلَم) معنى (نُمَيِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يعني: إلَّا لِنُمَيِّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ ممَّن هو منها في شكٍّ[2].

- وخُولِفَ في النَّظمِ بيْنَ الصِّلتينِ؛ فجاءَتْ جُملةُ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فِعليَّةً، وجاءَتْ جُملةُ ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ اسميَّةً؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخِرةِ طارئٌ على كُفرِهم السَّابقِ، ومُتجدِّدٌ ومُتزايدٌ آنًا فآنًا؛ فكان مُقْتضى الحالِ إيرادَ الفِعلِ في صِلَةِ أصحابِه، وأمَّا شَكُّهم في الآخِرةِ فبِخلافِ ذلك؛ هو أمْرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، فاجتُلِبَت لأصحابِه الجُملةُ الاسميَّةُ[3].

- وجِيءَ في جُملةِ ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بنُفوسِهم، ويَتعلَّق قولُه: ﴿مِنۡهَا﴾ بقولِه: ﴿شَكّٖ﴾[4].

- وجُملةُ ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ تذييلٌ، وصِيغةُ (فَعيلٍ) تدُلُّ على قُوَّةِ الفِعلِ، وأفادَ عُمومُ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أنَّه لا يَخرُجُ عن عِلمِه شَيءٌ مِن الكائناتِ؛ فتَنزَّلَ هذا التَّذييلُ مَنزلةَ الاحتِراسِ عن غيرِ المعنى الكِنائيِّ مِن قولِه: ﴿لِنَعۡلَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٥).

مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ ﴾، أي: لِيَظهَرَ ذلك لكلِّ أحدٍ، فتقومَ الحُجَّةُ لهم وعليهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾

افتُتِحَ الكلامُ بأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم ما هو مُتتابِعٌ في بَقيَّةِ هذه الآياتِ المُتتابِعةِ بكَلمةِ ﴿ قُلِ ﴾؛ فأُمِرَ بالقَولِ تَجديدًا لِمَعنى التَّبليغِ الَّذي هو مُهِمَّةُ كلِّ القُرآنِ[٢].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّخطئةِ والتَّوبيخِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زَعَمْتُموهمْ أربابًا، فحُذِفَ مَفعولَا الزَّعمِ؛ أمَّا الأوَّلُ فحُذِفَ لأنَّه ضَميرٌ مُتَّصلٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ؛ قصْدًا لِتَخفيفِ الصِّلةِ بمُتعلِّقاتِها، وأمَّا الثَّاني فحَذْفُه لِدَلالةِ صِفَتِه عليه، وهي ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقيل: حُذِف مَفْعولَا (زعم)؛ تنبيهًا على استهجانِ ذلك واستبشاعِه[٥].

- وجُملةُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ حالِهم، وهي مُبيِّنةٌ لِمَا في جُملةِ ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ مِن التَّخطئةِ[٦].

- قولُه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦).

مِن شِرۡكٖ﴾ إعادةُ حرفِ النَّفيِ: تأكيدٌ له؛ للاهتمامِ به، وقد نُفِيَ أنْ يكونَ لآلهتِهم مُلكٌ مُستقِلٌّ، وأُتبِعَ بنَفْيِ أنْ يكونَ لهم شِركٌ في شَيءٍ مِن السَّماءِ والأرضِ، أي: شِركٌ مع اللهِ، فلمْ يُذكَرْ مُتعلَّقُ الشِّركِ إيجازًا؛ لأنَّه مَحلُّ الوِفاقِ، ثمَّ نُفِيَ أنْ يكونَ منهم ظَهيرٌ، أي: مُعينٌ للهِ تعالى، وهنا تَعيَّنَ التَّصريحُ بالمُتعلَّقِ؛ رَدًّا على المشركينَ؛ إذ زَعَموا أنَّ آلهتَهم تُقرِّبُ إليه وتُبعِدُ عنه، ثمَّ أُتبِعَ ذلك بنَفْيِ أنْ يكونَ شَفيعٌ عندَ اللهِ يَضطَرُّه إلى قَبولِ الشَّفاعةِ فيمَن يَشفَعُ له؛ لِتَعظيمٍ أو حَياءٍ[1].

- وذِكْرُ السَّمواتِ والأرضِ للتَّعميمِ عُرفًا، أو لأنَّ آلهتَهم بَعضُها سَماويَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبَعضُها أرضيَّةٌ كالأصنامِ، أو لأنَّ الاسبابَ القريبةَ للخيرِ سَماويَّةٌ وأرضيَّةٌ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال في سُورةِ (الإسراءِ): ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[الإسراء: ٥٦]؛ فأظهَرَ اسمَ اللهِ تعالى هنا في قولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وأضْمَرَه في سُورةِ (الإسراءِ) في قولِه: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾؛ ووَجْهُه: أنَّه إنَّما اختيرَ الإضمارُ في سُورةِ (الإسراءِ)؛ لِقُوَّةِ الذِّكرِ قبْلُ؛ فقدْ تكرَّرَ في عشَرةِ مَواضِعَ مُضمَرًا ومُظهَرًا؛ لقولِه: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾؛ فـ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ واحدٌ، وفي ﴿أَعۡلَمُ﴾ ضَميرُه، و﴿إِن يَشَأۡ﴾ فيه ضَميرُه، وفي قولِه: ﴿يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ ضَميرُه، وقولُه: ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ﴾ فيه ضَميرٌ فاعلٌ، وقولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ النُّونُ والألِفُ فيه ذِكرٌ له تعالى، و﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ اسمانِ، ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١).

ﭐلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ قولُه: (نا) اسمُه، وكذلك ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾؛ فكان الإضمارُ تِلوَ الإضماراتِ أَولى بهذا المكانِ؛ فلذلك جاءَ ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾. وأمَّا في سُورةِ (سَبأٍ)؛ فإنَّ الَّذي تقدَّمه: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾، فالذِّكرُ تَقدَّمَ في ثلاثةِ مَواضعَ، وهناك في أكثَرِ من عَشَرةِ مَواضعَ، فحَسُنَ الإظهارُ هنا، وقَوِيَ الإضمارُ هناك؛ فلذلك اختَلَفا(١).

ووجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا قرُبَ مرجِعُه هنا في سُورةِ (الإسراءِ)، وهو الرَّبُّ في قولِه المُتقدِّمِ ذِكْرُه في الآيةِ الأُولى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ ﴾؛ عُبِّرَ عنه مُضمَرًا مُناسَبةً، ولم يكُنْ ليُناسِبَ الظَّاهِرُ هنا، ولَمَّا بَعُدَ مرجِعُ الضَّميرِ في سُورةِ (سبَأٍ) لو أُتِيَ به، أُتِيَ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ فآيةُ (سبَأٍ) تقدَّمَ قبْلَها قولُه تَعالى مُخبِرًا عن الكافرينَ: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠]، ثمَّ قال بعدَ آيةٍ من تَمامِ الآيةِ الَّتي قبْلَها: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فجِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ ليَكونَ أبعَدَ على إيهامِ عَودةِ الضَّميرِ ورُجوعِه إلى المُتَّبَعِ لهم في الآيةِ المُتقدِّمةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ جاء نَظْمُ هذه الآيةِ بَديعًا من وَفرةِ المعنى؛ فإنَّ النَّفعَ يَجيءُ بمعنى حُصولِ المَقصودِ من العمَلِ ونَجاحِه، ويَجيءُ بمعنى المُساعِدِ المُلائمِ؛ فالنَّفعُ بالمعنى الأوَّلِ في الآيةِ يُفيدُ القَبولَ مِن الشَّافعِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٧٧-١٠٧٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

لِشَفاعتِه، وبالمعنى الثَّاني يُفيدُ انتفاعَ المَشفوعِ له بالشَّفاعةِ، أي: حُصولَ النَّفعِ له بانقشاعِ ضُرِّ المُؤاخَذةِ بذَنْبٍ. فلمَّا عُبِّرَ في هذه الآيةِ بلَفظِ (الشَّفاعةِ) الصَّالحِ لِأنْ يُعتبَرَ مُضافًا إلى الفاعلِ أو إلى المفعولِ، احتمَلَ النَّفعُ أنْ يكونَ نفْعَ الفاعلِ، أي: قَبولَ شَفاعتِه، ونفْعَ المفعولِ، أي: قَبولَ شَفاعةِ مَن شفَعَ فيه، وتَعديةُ فِعلِ الشَّفاعةِ باللَّامِ دونَ (في)، ودونَ تَعديتِه بنفْسِه؛ زاد صُلوحيَّتَه للمَعْنَيينِ؛ لأنَّ الشَّفاعةَ تَقْتضي شافعًا ومَشفوعًا فيه، فكان بذلك أوفَرَ معنًى[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ...﴾ صُرِّحَ بالمُتعلَّقِ هنا أيضًا؛ ردًّا على قَولِ المشركينَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ فنُفِيَت شَفاعتُهم في عُمومِ نَفْيِ كلِّ شَفاعةٍ نافعةٍ عندَ اللهِ إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ اللهُ أنْ يَشفَعَ. وفي هذا إبطالُ شَفاعةِ أصنامِهم؛ لأنَّهم زَعَموا لهمْ شفاعةً لازِمةً من صِفاتِ آلهتِهم، فلمَّا نَفى اللهُ كلَّ شَفاعةٍ لم يَأذَنْ فيها للشَّافعِ، انتفَت الشَّفاعةُ المَزعومةُ لأصنامِهم[٢]. وإنَّما عُلِّقَ النَّفيُ بنَفعِها لا بوُقوعِها؛ تَصريحًا بنَفْيِ ما هو غرَضُهم من وُقوعِها[٣].

- قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ احتمَلَتِ اللَّامُ أنْ تكونَ داخلةً على الشَّافعِ، وأنَّ (مَن) المَجرورةَ باللَّامِ صادقةٌ على الشَّافعِ، أي: لا تُقبَلُ شَفاعةٌ إلَّا شفاعةٌ كائنةٌ لِمَن أذِنَ اللهُ له، أي: أذِنَ له بأنْ يَشفَعَ؛ فاللَّامُ للمِلكِ، كقولِك: الكرَمُ لِزَيدٍ، أي: هو كريمٌ؛ فيكون في معنى قولِه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]. وأنْ تكونَ اللَّامُ داخلةً على المَشفوعِ فيه، و(مَن) صادِقةً على مَشفوعٍ فيه، أي: إلَّا شَفاعةٌ لِمَشفوعٍ أذِنَ اللهُ الشَّافعينَ أنْ يَشفَعوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١).

له، أي: لأجْلِه؛ فاللَّامُ للعِلَّةِ، كقولِك: قمْتُ لِزَيدٍ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وإنَّما جِيءَ بنَظْمِ هذه الآيةِ على غَيرِ ما نُظِمَت عليه غيرُها؛ لأنَّ المقصودَ هنا إبطالُ رَجائِهم أنْ تَشفَعَ لهم آلِهَتُهم عندَ اللهِ، فيَنتفِعوا بشَفاعتِها؛ لأنَّ أوَّلَ الآيةِ تَوبيخٌ وتَعجيزٌ لهم في دَعوتِهم الآلهةَ المَزعومةَ، فاقتضَتْ إبطالَ الدَّعوةِ والمَدْعُوِّ[1].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ...﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لِمَا أفهَمَه قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ مِن أنَّ هنالك إذنًا يَصدُرُ لناسٍ مِن الأخيارِ بأنْ يَشفَعوا، كما جاء تَفصيلُ بعضِ هذه الشَّفاعةِ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ، وأنَّ الذين يَرجُون أنْ يُشفَّعَ فيهم يَنتظِرونَ ممَّن هو أهلٌ لِأنْ يَشفَعَ، وهمْ في فَزَعٍ مِن الإشفاقِ ألَّا يُؤذَنَ بالشَّفاعةِ فيهم، فإذا أذِنَ اللهُ لِمَن شاءَ أنْ يَشفَعَ، زال الفزَعُ عن قُلوبِهم واستَبْشَروا؛ إذ إنَّه فُزِّعَ عن قُلوبِ الَّذين قُبِلَت الشَّفاعةُ فيهم، أي: وأيِسَ المَحرُومون مِن قَبولِ الشَّفاعةِ فيهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-. وهذا مِن الحذْفِ المُسمَّى بالاكتِفاءِ؛ اكتفاءً بذِكرِ الشَّيءِ عن ذِكرِ نَظيرِه أو ضِدِّه، وحسَّنَه هنا: أنَّه اقتصارٌ على ما يَسُرُّ المؤمنينَ الَّذين لم يَتَّخِذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ[2].

- وقد طُويَت جُمَلٌ مِن وَراءِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا لِمَن أذِنَ له، ويومَئذٍ يَبْقَى النَّاسُ مُرتقبينَ الإذْنَ لِمَن يَشفَعُ، فَزِعينَ مِن ألَّا يُؤذَنَ لأحدٍ زمنًا يَنْتهي بوَقتِ زَوالِ الفزَعِ عن قُلوبِهم حينَ يُؤذَنُ للشَّافعينَ بأنْ يَشْفَعوا -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهو إيجازُ حَذْفٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي =

- وبُنِيَ ﴿فُزِّعَ﴾ للمَجهولِ؛ لِتَعظيمِ ذلك التَّفزيعِ بأنَّه صادرٌ مِن جانبٍ عظيمٍ؛ ففيه جانبُ الآذِنِ فيه، وجانبُ المبلِّغِ له، وهو الملَكُ[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ تَتِمَّةُ جَوابِ المُجيبينَ، عَطَفوا تَعظيمَ اللهِ بذِكرِ صِفتَينِ مِن صِفاتِ جَلالِه؛ وهما: صِفةُ العَليِّ، وصِفةُ الكبيرِ. وتَخصيصُ هاتَينِ الصِّفتَينِ؛ لِمُناسَبةِ مَقامِ الجوابِ، أي: قد قَضى بالحقِّ لكلِّ أحدٍ بما يَستحِقُّه؛ فإنَّه لا يَخْفى عليه حالُ أحدٍ، ولا يَعُوقُه عن إيصالِه إلى حَقِّه عائقٌ، ولا يَجوزُ دونَه حائلٌ[2].

- وفي قولِهم: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ اعترافٌ بِغايةِ عَظَمةِ جَنابِ العِزَّةِ عزَّ وجلَّ، وقُصورِ شأْنِ كلِّ مَن سِواهُ، أي: هو المُنفرِدُ بالعُلوِّ والكِبرياءِ، ليس لأحدٍ مِن أشرافِ الخلائقِ أنْ يَتكلَّمَ إلَّا بإذْنِه[3].



= السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢).

الآيات (٢٤-٣٠)

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَجْرَمْنَا ﴾: أي: اكتَسَبْنا، والجُرْمُ: الذَّنبُ العظيمُ، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ؛ لأنَّ الذَّنْبَ كَسْبٌ، والكَسبَ اقتِطاعٌ[1].

﴿ يَفْتَحُ ﴾: أي: يَحكُمُ ويَقضي، ويُسَمَّى الحاكِمُ فتَّاحًا، والفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[2].

﴿ كَآفَّةً ﴾: أي: عامَّةً، وهو اسْمٌ للجملةِ، من الكَفِّ، كأنَّهم كفُّوا باجتماعِهم عن أن يخرُجَ مِنْهُم أحدٌ، ومعنى كافَّةً: الإحاطةُ، ويُقالُ للجماعةِ: الكافَّةُ، وقيل: أي: تَكُفُّهم وتَردَعُهم، وقيل: أي: كافًّا لهم عن المعاصي، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ، وأصلُ الكَفِّ: المنعُ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ والأرضِ؟ قُلِ: اللهُ وَحْدَه، فلِمَ تَعبُدونَ معه مَنْ لا يَرزُقُكم شَيئًا؟! وإنَّ أحَدَ الفَريقينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرَ في ضلالٍ مُبينٍ.

قُلْ لهم -يا محمَّدُ: لا تُسأَلونَ عن ذُنوبِنا، ولا نُسأَلُ عن أعمالِكم. قُلْ: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم.

قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: أرُوني الَّذين صَيَّرتُموهم شُرَكاءَ لله، كلَّا! فليس الأمرُ كما زعَمتُم، بل هو اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ الغالِبُ القاهِرُ، الحكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى وظيفةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ولقد أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ أجمعينَ مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ.

ويَعرِضُ شُبهةً مِن شُبهاتِ المشركينَ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: ويقولُ المُشرِكونَ: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كُنتُم صادِقينَ؟ قُلْ لهم -يا محمَّدُ: لكم ميعادُ يومٍ يَجيئُكم في وقتِه، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ

= (١/ ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٦٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٣)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن دَمْغِ المشركينَ بضَعفِ آلهتِهم، وانتفاءِ جَدواها عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، إلى إلْزامِهم بُطلانَ عِبادتِها بأنَّها لا تَستحِقُّ العِبادةَ؛ لأنَّ مُستحِقَّ العِبادةِ هو الَّذي يَرزُقُ عِبادَه؛ فإنَّ العِبادةَ شُكرٌ، ولا يَستحِقُّ الشُّكرَ إلَّا المُنعِمُ[1].

وأيضًا لَمَّا سلَبَ اللهُ تعالى عن شركائِهم أنْ يَملِكوا شيئًا مِن الأكوانِ، وأثبَتَ جميعَ الملكِ له وحْدَه؛ أمَره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُقرِّرَهم بما يَلزَمُ منه ذلك، فقال[2]:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ بإنزالِه المطَرَ، وتسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ وغيرَها؛ لِمَنافِعِكم، ويَرزُقُكم مِنَ الأرضِ بإخراجِه منها أنواعَ النَّباتِ والثِّمارِ، والمياهِ والمعادِنِ، وغَيرِها ممَّا فيه مَصالِحُكم[3]؟

﴿قُلِ اللَّهُ﴾.

أي: قُلِ: اللهُ وحْدَه مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمواتِ والأرضِ، فهو إذَنْ مَن يجبُ أن يُعبَدَ وحْدَه؛ فلِمَ تَعبُدونَ معه مَن لا يَرزُقُكم شَيئًا[4]؟!

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٧، ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٨).

أي: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحدٍ؛ فأحدُ الفريقَينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرُ ضالٌّ ضلالًا مُبينًا[١].

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُسألونَ عن ذُنوبِنا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولا نُسأَلُ نحن عن أعمالِكم[٣].

ثمَّ حذَّرهم وأنذَرهم عاقبةَ أمرِهم؛ إذْ أمَر رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهم[٤]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

قال الخازنُ: (هذا ليس على طريقِ الشَّكِّ، بل على جهةِ الإلزامِ والإنصافِ في الحِجاجِ، كما يقولُ القائلُ: أحَدُنا كاذِبٌ، وهو يعلَمُ أنَّه صادقٌ، وصاحِبَه كاذِبٌ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَنِ اتَّبَعه: على الهُدى، ومَن خالفَه: في ضلالٍ، فكذَّبهم مِن غيرِ أن يُصَرِّحَ بالتَّكذيبِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُّبِينٍ﴾ أي: واضح في نفْسِه، داعٍ لكلِّ أحدٍ إلى معرفةِ أنَّه ضلالٌ، إلَّا مَن كان مُنغمِسًا فيه، مظروفًا له؛ فإنَّه لا يُحِسُّ بنفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٨١).

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها أكَّدَتْ ما يُوجِبُ النَّظَرَ والتَّفكُّرَ؛ فإنَّ مجرَّدَ الخطأِ والضَّلالِ واجبُ الاجتِنابِ، فكيف إذا كان يومَ عَرْضٍ وحسابٍ، وثوابٍ وعذابٍ[1]؟!

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، فيَتبيَّنُ المُهتدي مِنَّا والضَّالُّ، ويُثيبُ اللهُ المُستَحِقَّ للثَّوابِ، ويُعاقِبُ المُستَحِقَّ للعِقابِ[2].

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه بالعَدلِ والحَقِّ، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم؛ فلا تخفَى عليه منهم خافيةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

قيل: يجمَعُ اللهُ ويفتحُ بيْنَهم يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ويحتمِلُ أنَّ الجَمعَ أعمُّ مِن ذلك... فيُمكِنُ أن يُرادَ بقَولِه تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في الدُّنيا في القتالِ، وفي الآخرةِ للفَصلِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُشرِكون قد أنكروا البَعثَ، ودَلَّ على قُدرتِه تعالى عليه بما نَصَب مِنَ الأدِلَّةِ الَّتي شاهَدوها مِن أفعاله بالبَصَرِ أو البصيرةِ، إيجادًا وإعدامًا، وأقام الحُجَّةَ على صِحَّةِ الدَّعوةِ، وبُطلانِ ما هم عليه، ثمَّ تهدَّدَهم بالفَصلِ يومَ الجَمعِ، وختَمَ بصِفةِ العِلمِ المحيطِ المُستلزِمِ للقُدرةِ الشَّامِلةِ، وكانت القُدرةُ لا تكونُ شامِلةً إلَّا عندَ الوحدانيَّةِ- أمَرَه بما يوجِبُ لهم القطعَ بوحدانيَّته، وشُمولِ قُدرتِه[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه لا يُعبَدُ غَيرُه لِدَفعِ الضَّررِ؛ إذ لا دافِعَ للضَّررِ غَيرُه، بقَولِه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ...﴾ [سبأ: ٢٢]، وبيَّن أنَّه لا يُعبَدُ غَيرُ الله لتوقُّعِ المنفعةِ، بقَولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٤]- بيَّن هاهنا أنَّه لا يُعبَدُ أحَدٌ لاستِحقاقِه العِبادةَ غيرُ اللهِ، فقال[2]:

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أرونيَ الَّذين صيَّرتُموهم لله شُرَكاءَ في العبادةِ بزَعمِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾... الرُّؤيةُ هنا رؤيةُ قَلبٍ، فشُركاء: مفعولٌ ثالثٌ، والمعنى: أروني بالدَّليلِ والحُجَّةِ مَن هم له شُركاءُ عندَكم، وكيف وَجْهُ الشَّرِكةِ؟ وقيل: هي رؤيةُ بصَرٍ، وشركاء: حالٌ مِن المفعولِ في ألحقتم، كأنَّه قال: أين الَّذين تعبدونَ من دونِه؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٦).
=

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا؛ فليس الأمرُ كما زَعمتُم مِن أنَّ لله شُركاءَ، بل هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ في انتِقامِه ممَّن أشرك به، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، الممتنعُ عليه كلُّ عيبٍ ونقصٍ، وهو الحَكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه وتدبيرِ خَلقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، فكيف يكونُ له شريكٌ مَن هو متَّصِفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ المنافيَتَينِ لذلك[1]؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨﴾.

= وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ قلبيَّةٌ أيضًا: ابنُ عطية، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ: الشنقيطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ لِأنَّهم إنْ أرَوْه إيَّاها تَبَيَّن برؤيتها أنَّها جمادٌ لا يَنفعُ ولا يَضُرُّ، واتَّضح بُعْدُها عن صِفاتِ الألوهيَّة، فظَهَر لكلِّ عاقلٍ برؤيتِها بطلانُ عبادةِ ما لا ينفعُ ولا يضُرُّ، فإحضارُها والكلامُ فيها وهي مشاهَدةٌ أبلَغُ مِن الكلامِ فيها غائبةً، معَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم يَعرِفُها... والأظهرُ في قوله: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ﴾ في هذه الآيةِ: هو ما ذكَرْنا مِن أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ؛ وعليه فقولُه: ﴿شُرَكَآءَ﴾ حالٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧، ٥١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى مسألةَ التَّوحيدِ؛ شرَعَ في الرِّسالةِ، فقال[1]:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾.

أي: أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ أجمَعينَ[2] مِنَ العَرَبِ وغَيرِهم، مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك وخالَفَك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) ممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ بمعنى: عامَّةً للنَّاسِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٢).

وقيل: معنى ﴿ كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾: تَكُفُّهم عمَّا هم عليه مِن الكفرِ، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٩).

قال البِقاعي: (﴿إِلَّا كَآفَّةٗ ﴾ أي: إرسالًا عامًّا شاملًا لكُلِّ ما شَمِله إيجادُنا، تَكُفُّهم عمَّا لعلَّهم أن ينتَشِروا إليه مِن متابعةِ [الأهواءِ]، وتمنَعُهم عن أن يخرُجَ عنها منهم أحدٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٠٤).

وقيل: معناه: أنَّك رسولُ الله إلى جميعِ النَّاسِ وتضمُّهم ، ومنه كَفُّ الثَّوبِ؛ لأنَّه ضمُّ طرَفيه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: نفْيُ عِلمِهم بأنَّ محمَّدًا مرسَلٌ إلى جميعِ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٢٧).

وقيل: المرادُ: نفْيُ عِلمِهم بأنَّه نبيٌّ. وممَّن قال بهذا: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٣).

قال ابن عثيمين عن هذا القولِ: (... فيه نظَرٌ؛ لأنَّ الرِّسالةَ بلغَتْ أكثَرَ النَّاسِ، وستَبلُغُ النَّاسَ جميعًا حتَّى تقومَ عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤). =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٢ - ٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[1]، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، فأيُّما رجُلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت ليَ المغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[2].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعظَمِ ما أنكَرُوه ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِيامةُ

= وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَين -الأول والثاني-: البِقاعي، فقال: (أي ليس لهم قابليَّةُ العِلمِ فيَعلموا أنَّك رسولُ الله، فضلًا عن أنَّ إرسالَك عامٌّ، بل هم كالأنعام). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٠٦).

وقيل: المرادُ: نفْيُ عِلمِهم بحكمةِ إرسالِ الرَّسولِ، الَّتي هي التَّبشيرُ والإنذارُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(١) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: نصَرني ربِّي على أعدائي بخَوفِهم مِنِّي في قَدرِ مَسيرةِ شَهرٍ بيْني وبيْنَهم مِن قُدَّامٍ أو وراءٍ، فإذا كان بيْنَه وبيْنَهم مسيرةُ شَهرٍ هابوا وفَزِعوا منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

والبعثُ؛ عقَّبَ إبطالَ قَولِهم في إنكارِ الرِّسالةِ بإبطالِ قَولِهم في إنكارِ البعثِ(١).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ مِن جَهلِهم: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كنتم صادِقينَ في دَعواكم(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكينَ لَمَّا طَلَبوا الاستِعجالَ، بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه لا استِعجالَ فيه كما لا إمهالَ، وهذا يُفيدُ عِظَمَ الأمرِ، وخَطَرَ الخَطْبِ؛ وذلك لأنَّ الأمرَ الحَقيرَ إذا طلبَه طالِبٌ من غيرِه، لا يؤخِّرُه ولا يُوقِفُه على وَقتٍ، بخِلافِ الأمرِ الخَطيرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قال الألوسي: (قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ بطريقِ الاستِهزاءِ، يَعْنونَ المُبشَّرَ به، والمُنذَرَ عنه، أو المَوعودَ بقولِه تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣١٨).

وقيل: المرادُ بالوعدِ: العذابُ. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٦).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ويقولُ هؤلاء المشركونَ باللهِ إذا سمِعوا وعيدَ اللهِ الكفَّارَ، وما هو فاعلٌ بهم في مَعادِهم ممَّا أنزَل الله في كتابِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ جائيًا، وفي أيِّ وقتٍ هو كائنٌ؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

وأيضًا لَمَّا تبيَّنَ مِن سُؤالِ المُشرِكينَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أنَّه لم يكُنْ للاستِرشادِ، وأنَّهم بالَغوا به في التَّكذيبِ والاستِهزاءِ بعدَ الإبلاغِ في إقامةِ الأدِلَّةِ- أمَرَه بأن يُجيبَهم بما يَصلُحُ للمُعانِدِ مِن صادعِ التَّهديدِ[١].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ٣٠﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لكم ميعادُ يومٍ[٢] يَجيئُكم في وَقتِه المحدَّدِ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا إرشادٌ مِن الله لِرَسولِه إلى المناظَراتِ الجاريةِ في العُلومِ وغَيرِها؛ وذلك لأنَّ أحَدَ المتناظِرَينِ إذا قال للآخَرِ: (هذا الَّذي تقولُه خطأٌ، وأنت فيه مخطئٌ) يُغضِبُه، وعندَ الغَضَبِ لا يبقَى سَدادُ الفِكرِ، وعندَ اختلالِه لا مَطمَعَ في الفَهمِ، فيَفوتُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٧).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يومُ القيامةِ والبعثُ: الواحديُّ، والبغوي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦).

وقيل: وقتُ حضورِ الموتِ، أي: لكم قبْلَ يوم القيامةِ وقتٌ مُعَيَّنٌ تَموتون فيه، فتَعلَمون حقيقةَ قَوْلي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١).

قال السَّمْعانيُّ: (وقولُه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد فُسِّر هذا بيومِ البَعثِ، وقد فُسِّر بيومِ المَوتِ، وكِلاهما صحيحٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٤).

وقال ابنُ عثيمين: (فيه احتِمالٌ آخَرُ: أنَّه يومُ القيامةِ، ويومُ مَوتِهم أيضًا؛ فإنَّ يومَ مَوتِهم يُشاهِدونَ العذابَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

الغَرَضُ؛ وأمَّا إذا قال له: إنَّ أحَدَنا لا يُشَكُّ في أنَّه مخطئٌ، والتَّمادي في الباطلِ قَبيحٌ، والرُّجوعُ إلى الحَقِّ أحسَنُ الأخلاقِ، فنَجتهِدُ ونُبصِرُ أيُّنا على الخطأِ لِيَحترِزَ؛ فإنَّه يجتهِدُ ذلك الخَصمُ في النَّظرِ، ويَترُكُ التَّعصُّبَ، وذلك لا يوجِبُ نقصًا في المنزلةِ؛ لأنَّه أوهَمَ بأنَّه في قَولِه شاكٌّ، ويدُلُّ عليه قَولُ الله تعالى لِنَبيِّه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾، مع أنَّه لا يَشُكُّ في أنَّه هو الهادي، وهو المُهتدي، وهم الضَّالُّونَ والمُضِلُّونَ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذه الجملةُ تضمَّنَت الإنصافَ واللُّطفَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ[2]، والتَّلطُّفَ مع الخَصمِ، والتَّنزُّلَ معه؛ للوُصولِ إلى الإقرارِ بالحقِّ[3]؛ فأوَّلًا: وصَفْنا عمَلَنا بأنَّه إجرامٌ. وثانيًا: وصَفْناه بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على الوُقوعِ: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾. وفي الخَصمِ قُلْنا أوَّلًا: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وليس (عمَّا تُجرِمون)! وكلُّ هذا مِن بابِ التَّلطُّفِ، واللهُ يَعلَمُ مَنِ المجرمُ مِن غيرِه، لكنْ لأجْلِ أنْ نُقيمَ الحُجَّةَ على هؤلاء بأنَّنا عامَلْناهم بأكمَلِ العدلِ والإنصافِ، بل بما ظاهِرُه الغَضاضةُ علينا. وثانيًا: أنَّه قال تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يَقُلْ: عمَّا عَمِلتُم، ومعلومٌ أنَّ الماضيَ مُحَقَّقُ الوُقوعِ، والمضارِعَ قد يقعُ وقد لا يقعُ، فـ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: ما عَمِلْتم[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ إثباتُ السُّؤالِ عن العملِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ أفاد أنَّ كلَّ إنسانٍ مَسؤولٌ عن عملِه، ولو كان السُّؤالُ منتفيًا مطلقًا ما صحَّ أنْ يُقالَ: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾! وقد قال اللهُ تبارك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٨).

وتعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقال: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وما دامَ الإنسانُ يُؤْمِنُ بذلك -بأنَّه سيُسأَلُ عن عملِه- فسوف يَحْرِصُ غايةَ الحرصِ على أنْ يكونَ عمَلُه موافقًا لشرعِ اللهِ تعالى(١).

٤- مِن آدابِ المناظَرةِ سلوكُ التَّحدِّي فيما يُعلَمُ امتناعُه مِن الخَصمِ؛ لأنَّك إذا تَحدَّيتَه في أمرٍ لا يمكنُه، وظهَرَ عجْزُه، تَبيَّنَ بُطلانُ دَعْواه، بخِلافِ ما إذا تَحدَّيتَه بأمرٍ يمكِنُه أنْ يفعَلَه، يقولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يعني: أعْلِموني ماذا خَلَقوا؟ ماذا نَفَعوا؟ الجوابُ: لم يَخلقوا شيئًا، ولم ينفعوا شيئًا، ولم يَدفعوا ضررًا(٢).

٥- في قولِه: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ...﴾ قاعدةٌ شَريفةٌ وأدَبٌ جَميلٌ في آدابِ المُجادَلةِ، وقَمْعِ شُبهةِ الخَصمِ الألَدِّ الأبِيِّ؛ فإنَّه يَنْبغي أنْ يُرْخى عِنانُ الكلامِ معه أوَّلًا، ويُجارَى معه على سَنَنٍ يَبعَثُه على التَّفكُّرِ والنَّظرِ في أحوالِ نفْسِه؛ لِيَعثُرَ حيثُ يُرادُ تَبكيتُه عندَ إيرادِ الحُجَّةِ البالغةِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾ أنَّه ينبغي أنْ يُستدَلَّ بالأوضحِ والأبْيَنِ في بابِ المناظرةِ؛ فإنَّ الرِّزقَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أمرٌ معلومٌ، لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يقولَ عن نفْسِه: إنَّه يُنزِلُ المطرَ، أو إنَّه يُنبِتُ النَّباتَ! وهذه طريقةُ القرآنِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ هذا احتِجاجٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨١).

بالدَّليلِ النَّظَريِّ؛ لأنَّ الاعتِرافَ بأنَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ يَستلزِمُ انفرادَه بإلَهيَّتِه؛ إذ لا يَجوزُ أنْ يَنفرِدَ ببَعضِ صِفاتِ الإلهيَّةِ ويُشارَكَ في بَعضٍ آخَرَ؛ فإنَّ الإلهيَّةَ حَقيقةٌ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ والتَّبعيضَ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ جوازُ مُحاجَّةِ الخَصمِ بما يُعرَفُ عندَ علماءِ المناظرةِ والجَدَلِ بالسَّبْرِ والتَّقسيمِ[2]، فإذا تَتبَّعْنا الحالَ وجَدْنا أنَّ حالَ كلٍّ مِنَّا لا تخرُجُ عن حالَينِ: إمَّا هدًى؛ وإمَّا ضلالٌ، وهي إمَّا لنا؛ وإمَّا لكم، وليس هناك شَيءٌ ثالثٌ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه لا يُوجَدُ مَنزِلةٌ بين مَنزِلتَينِ، كما تذهبُ إليه المُعتَزِلةُ في فاعِلِ الكبيرةِ: أنَّه خَرَجَ مِن الإيمانِ، ولم يَدْخُلْ في الكُفرِ[4]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وَصَفَ الضَّلالَ بالمُبينِ، ولم يَصِفِ الهُدى؛ لأنَّ الهدى هو الصِّراطُ المُستقيمُ المُوصِلُ إلى الحَقِّ، والضَّلالُ خِلافُه، لكِنَّ المستقيمَ واحِدٌ، وما هو غيرُه كُلُّه ضَلالٌ، وبَعضُه بيِّنٌ مِن بَعضٍ؛ فميَّزَ البَعضَ عن البَعضِ بالوَصفِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه، وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ من غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا اللَّونُ من الكلامِ يُسمَّى الكلامَ المنصِفَ الَّذي كلُّ مَن سمِعَه مِن مُوالٍ أو مُنافٍ قال لِمَن خُوطِبَ به: قد أنصَفَك صاحِبُك! وهو: ألَّا يَترُكَ المجادِلُ لخَصمِه مُوجِبَ تغيُّظٍ واحتِدادٍ في الجِدالِ؛ لجَرَيانِه على سَنَنِ الإنصافِ المُسكِتِ للخَصمِ الألَدِّ، ويُسمَّى في علمِ المناظرَةِ: إرخاءَ العِنانِ للمُناظِرِ، ومع ذلك فقرينةُ إلزامِهم الحُجَّةَ قرينةٌ واضحةٌ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾ تهديدُ المُناظَرِ بالجزاءِ المجزومِ به؛ لأنَّ هذا يتضمَّنُ التَّهديدَ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ إذا فَتَحَ بيْنَهم فسيَكونُ الحقُّ مع المسلِمينَ، وبهذا عرَفْنا التَّرديدَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّ الَّذين على الهُدى هم المُسلِمونَ، وأنَّ أولئك على الضَّلالِ؛ لأنَّه لو قال قائِلٌ: الآيةُ فيها ترديدٌ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وما عرَفْنا مَن الَّذي على الهدى! الجوابُ: هم الَّذين يَفتَحُ اللهُ تعالى عليهم، ويَنصُرُهم على أعدائِهم بالحَقِّ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ إثباتُ ما قَرَّره أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ اسمَ اللهِ تعالى إذا كان مُتعدِّيًا لم يَتِمَّ الإيمانُ به إلَّا بالإيمانِ بكَونِه اسمًا، وبما تضَمَّنَه مِن صفةٍ، وبما تضَمَّنه من أثَرٍ وحُكمٍ؛ لِقَولِه: ﴿يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾؛ فدلَّ على أنَّ أسماءَ اللهِ عزَّ وجلَّ المُتعدِّيَةَ تتضمَّنُ الأحكامَ والآثارَ المترتِّبَةَ على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) ٢٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى قَولِه: ﴿أَرُونِيَ﴾، وكان يَراهم ويَعرِفُهم؟

الجوابُ: أراد بذلك أن يُريَهم الخطَأَ العظيمَ في إلحاقِ الشُّرَكاءِ باللهِ، وأن يُقايِسَ على أعيُنِهم بيْنَه وبينَ أصنامِهم؛ ليُطلِعَهم على إحالةِ القياسِ إليه، والإشراكِ به[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ إثباتُ أفعالِ اللهِ تعالى الاختياريَّةِ؛ لأنَّ هذا فِعلٌ مِن الأفعالِ المتعلِّقةِ بمشيئتِه سُبحانه وتعالى[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على الخَلْقِ، فلم يَبْقَ لأحدٍ حُجَّةٌ على اللهِ بعدَ الرُّسُلِ، ويُؤخَذُ منها عُذرُ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ؛ لأنَّ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ لم تتحصَّلْ له بِشارةٌ ولا نِذارةٌ[(٣)].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على فضلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الأنبياءِ بعمومِ الرِّسالةِ للإنسِ والجنِّ[(٤)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ في هذه الآيةِ إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مُنْكِريها مِن العربِ، وإثباتُ عُمومِها على مُنْكِريها مِن اليهودِ؛ فإنَّ ﴿كَافَّةً﴾ مِن ألْفاظِ العُمومِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٨).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الأكثريَّةَ لا يلزَمُ أنْ يكونَ الصَّوابُ معها! لأنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ؛ فهُم في جهلٍ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف انطبَقَ هذا جوابًا عن سؤالِهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟

الجوابُ: أنَّهم ما سألوا عن ذلك وهم مُنكِرونَ له إلَّا تعنُّتًا لا استِرشادًا، فجاء الجوابُ على طريقِ التَّهديدِ مُطابقًا لمجيءِ السُّؤالِ على سبيلِ الإنكارِ والتَّعَنُّتِ، وأنَّهم مُرصَدونَ بيومٍ يفاجِئُهم، فلا يَستَطيعونَ تأخُّرًا عنه، ولا تقدُّمًا عليه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أُعيدَ الأمْرُ بالقولِ ﴿قُلۡ﴾؛ لِزيادةِ الاهتِمامِ بالمَقولِ؛ فإنَّ أصلَ الأمرِ بالقولِ في مَقامِ التَّصدِّي للتَّبليغِ دالٌّ على الاهتمامِ، وإعادةُ ذلك الأمْرِ زِيادةٌ في الاهتمامِ[٣].

- و﴿مَن﴾ استِفهامٌ؛ للتَّنبيهِ على الخطأ؛ ولذلك أُعقِبَ بالجوابِ مِن طَرَفِ السَّائلِ بقولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ لِتَحقُّقِ أنَّهم لا يُنكِرون ذلك الجوابَ، أو للإشعارِ بأنَّهم مُقِرُّون به بقُلوبِهم، إلَّا أنَّهم رُبَّما أبَوا أنْ يَتكلَّموا به؛ لأنَّ الَّذي تَمكَّنَ في صُدورِهم مِن العِنادِ وحُبِّ الشِّركِ قد ألْجَم أفواهَهم عن النُّطقِ بالحقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

مع عِلْمِهم بصِحَّتِه، ولأنَّهم إنْ تَفَوَّهوا بأنَّ اللهَ رازِقُهم لَزِمَهم أنْ يُقالَ لهم: فما لَكمْ لا تَعبُدون مَن يَرزُقُكم، وتُؤْثِرون عليه مَن لا يَقدِرُ على الرِّزقِ[1]؟!

- وقولُه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عُطِفَ على الاستِفهامِ إبرازُ المَقصدِ بطَريقةٍ خَفيَّةٍ، تُوقِعُ الخَصمَ في شَرَكِ المَغْلوبيَّةِ؛ وذلك بتَرديدِ حالتَيِ الفَريقَينِ بيْنَ حالةِ هُدًى وحالةِ ضَلالٍ؛ لأنَّ حالةَ كلِّ فَريقٍ لَمَّا كانت على الضِّدِّ مِن حالِ الفَريقِ الآخَرِ بيْن مُوافقةِ الحقِّ وعَدمِها؛ تَعيَّنَ أنَّ أمْرَ الضَّلالِ والهُدى دائرٌ بيْن الحالتَينِ لا يَعدُوانِهما؛ ولذلك جِيءَ بحَرْفِ ﴿أَوۡ﴾ المُفيدِ للتَّرديدِ المُنتزَعِ مِن الشَّكِّ[2].

- ومِن اللَّطائفِ البلاغيَّةِ في قولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه اشتمَلَ على إيماءٍ إلى تَرجيحِ أحدِ الجانبَينِ في أحَدِ الاحتمالَينِ بطَريقِ مُقابَلةِ الجانبَينِ في تَرتيبِ الحالتَينِ باللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ[3]، وهو أصْلُ اللَّفِّ؛ فإنَّه ذكَرَ ضَميرَ جانبِ المُتكلِّمِ وجَماعتِه وجانبِ المُخاطَبينَ، ثمَّ ذكَرَ حالَ الهُدى وحالَ الضَّلالِ على تَرتيبِ ذِكرِ الجانبينِ؛ فأشار إلى أنَّ الأوَّلِينَ مُوجَّهون إلى الهُدى، والآخِرينَ مُوجَّهون إلى الضَّلالِ المُبينِ، لا سيَّما بعْدَ قَرينةِ الاستِفهامِ، وهذا أيضًا مِن التَّعريضِ، وهو أوقَعُ مِن التَّصريحِ، لا سيَّما في استنزالِ طائرِ الخَصمِ. وفيه أيضًا تَجاهُلُ العارفِ؛ فقد الْتأَمَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٢، ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٩٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١١٦).

هذه الجُملةِ ثلاثةُ مُحسِّناتٍ مِن البَديعِ، ونُكتةٌ مِن البَيانِ؛ فاشتملتْ على أربعِ خُصوصيَّاتٍ[١].

- وخُولِفَ بيْن حَرفَيِ الجرِّ الدَّاخلَينِ على الحقِّ والضَّلالِ ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ فجِيءَ في جانبِ الحقِّ بحرْف (علَى)؛ للإشعارِ بكَونِ السَّالكِ على هذا الصِّراطِ على هُدًى لِما فيه مِن استِعلائِه وعُلُوِّه بالحقِّ والهُدى، مع ثباته عليه، واستِقامتِه إليه، فكان في الإتيانِ بأداةِ (على) ما يدُلُّ على عُلوِّه وثُبوتِه واستِقامتِه، وهذا بخِلافِ الضَّلالِ؛ فإنَّه جيءَ فيه بأداةِ (في) الدَّالَّةِ على انغِماسِ صاحِبِه، وانقِماعِه وتدسُّسِه فيه، فـ(في) للظَّرفيَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الظَّرفَ محيطٌ بالمظروفِ؛ فالضَّلالُ محيطٌ به قد أعمى بصيرتَه، فطريقُ الحقِّ تأخُذُ عُلُوًّا صاعِدةً بصاحِبِها إلى العليِّ الكبيرِ، وطريقُ الضَّلالِ تأخُذُ سُفْلًا، هاويةً بسالِكِها في أسفَلِ سافِلينَ، فالَّذي على هُدًى هو على جادَّةٍ بيِّنةٍ، عُلْيَا واضِحةٍ، وصاحبُ الضَّلالِ مُنْغَمِسٌ في ضلالِه تائهٌ حائرٌ، ليس له حقٌّ مِن العلوِّ، بل هو مغمورٌ بالجهلِ بكلِّ جانبٍ[٢].

- وقدَّم الهدَى على الضَّلالِ؛ لأنَّه كان وصْفَ المؤمنينَ المذكورينَ بقولِه: (إنَّا)، وهو مقدَّمٌ في الذِّكرِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ﴾ أُعيدَ الأمْرُ بأنْ يقولَ لهم مَقالًا آخَرَ إعادةً؛ لِزيادةِ الاهتِمامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

واستِدعاءً لأسماعِ المُخاطَبينَ بالإصغاءِ إليه، ولَمَّا كان هذا القولُ يَتضمَّنُ بَيانًا للقولِ الَّذي قَبْلَه، فُصِلَت جُملةُ الأمْرِ بالقولِ عن أُخْتِها؛ إذ لا يُعطَفُ البَيانُ على المُبيَّنِ بحَرْفِ النَّسقِ؛ فإنَّه لَمَّا ردَّدَ أمْرَ الفريقَينِ بيْن أنْ يكونَ أحدُهما على هُدًى والآخَرُ في ضَلالٍ، وكان الضَّلالُ يأتي بالإجرامِ؛ اتَّسعَ في المُحاجَّةِ فقيل لهم: إذا نحنُ أجْرَمْنا فأنتم غيرُ مُؤاخَذينَ بجُرْمِنا، وإذا عَمِلْتُم عمَلًا فنحن غيرُ مُؤاخَذينَ به. وأيضًا فُصِلَت؛ لتَكونَ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها؛ لِيَخُصَّها السَّامعُ بالتَّأمُّلِ في مَدلولِها، فيجوزُ أنْ تُعتبَرَ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي مع ذلك اعتراضٌ بَيِّنٌ أثناءَ الاحتجاجِ(١).

- قولُه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ إسنادُ الإجرامِ إلى جانبِ المُتكلِّمِ ومَن معه مَبْنيٌّ على زَعْمِ المُخاطَبينَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، كان المُشركون يُؤنِّبون المؤمنينَ بأنَّهم خاطِئون في تَجنُّبِ عِبادةِ أصنامِ قَومِهم. وهذه نُكتةُ صَوغِه في صِيغةِ الماضي؛ لأنَّه مُتحقِّقٌ على زَعمِ المُشركينَ. وصِيغَ ما يَعمَلُ المُشركونَ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ لأنَّهم يَنتظِرون منهم عمَلًا؛ تَعريضًا بأنَّهم يَأتُون عمَلًا غيرَ ما عَمِلوه، أي: يُؤمِنون باللهِ بعدَ كُفرِهم. وهذا ضَرْبٌ مِن المُتارَكةِ والمُوادَعةِ؛ لِيَخْلُوا بأنفُسِهم فيَنظُروا في أمْرِهم، ولا يُلْهِيهم جِدالُ المؤمنينَ عن استِعراضِ أنفُسِهم ومُحاسَبتِها. وفيه زِيادةُ إنصافٍ؛ إذ فرَضَ المؤمنونَ الإجرامَ في جانبِ أنفُسِهم، وأسنَدُوا العمَلَ على إطلاقِه في جانبِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ النَّظَرَ والتَّدبُّرَ بعدَ ذلك يَكشِفُ عن كُنْهِ كِلَا العَمَلَينِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فلمْ يَذكُرْ هنا (كُنتم) كما قالَه في غَيرِه؛ وذلك لأنَّ قولَه هنا: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقَعَ في مُقابَلةِ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ في قولِه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾، أي: أذنَبْنا، وضَميرُ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُرادُ غيرُه، وغيرُه صَدَر منه ذنْبٌ؛ فعُبِّرَ عنه بالماضي. والمُخاطَبُ في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الكُفَّارُ، وكُفرُهم واقعٌ في الحالِ، وفي المُستقبَلِ ظاهرًا، فعُبِّرَ عنه بالمُضارِعِ، فلا يُناسِبُه (كُنتم)، مع أنَّ الخِطابَ في ذلك واقعٌ في الدُّنيا، والخِطابُ في غَيرِه -نحو: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]- واقعٌ في الآخرةِ؛ فناسَبه التَّعبيرُ بـ﴿كُنتُمْ﴾[(١)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (قُل)؛ لزِيادةِ الاهتمام بهذه المُحاجَّاتِ؛ لِتكونَ كلُّ مُجادَلةٍ مُستقِلَّةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ فتكون هذه الجُملةُ استئنافًا ابتدائيًّا. وأيضًا فهذه الآيةُ بمَنزِلةِ البَيانِ للَّتي قبْلَها؛ لأنَّ نفْيَ سُؤالِ كلِّ فَريقٍ عن عمَلِ غيرِه يَقْتضي أنَّ هنالك سُؤالًا عن عمَلِ نفْسِه، فبَيَّنَ أنَّ الَّذي يَسأَلُ النَّاسَ عن أعمالِهم هو اللهُ تعالى يومَ القيامةِ الَّذي همْ مُنكِروه؛ فما ظَنُّك بحالِهم يومَ تَحقُّقِ ما أنكَرُوه؟! وهنا تَدرَّجَ الجَدلُ مِن الإيماءِ إلى الإشارةِ القَريبةِ مِن التَّصريحِ؛ لِمَا في إثباتِ يومِ الحِسابِ والسُّؤالِ مِن المُصارَحةِ بأنَّهم الضَّالُّون. ويُسمَّى هذا التَّدرُّجُ عند أهلِ الجَدلِ بالتَّرقِّي[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٥).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَذييلٌ بوَصفِه تعالى بكَثرةِ الحُكْمِ وقُوَّتِه وإحاطةِ العِلمِ، وبذلك كان تَذييلًا لجُملةِ ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المُتضَمِّنةِ حُكمًا جُزْئيًّا؛ فذُيِّلَ بوَصفٍ كُلِّيٍّ. وإنَّما أُتبِعَ الفتَّاحُ بـ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ حُكمَه عَدْلٌ مَحضٌ؛ لأنَّه عليمٌ لا تَحُفُّ بحُكمِه أسبابُ الخَطأِ والجَورِ النَّاشئةُ عن الجَهلِ والعَجزِ، واتِّباعُ الضَّعفِ النَّفسانيِّ النَّاشئُ عن الجَهلِ بالأحوالِ والعَواقبِ[1].

- قولُه: ﴿ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صِيغَتَا مُبالَغةٍ، وهذا فيه تَهديدٌ وتَوبيخٌ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بالقَولِ لِمَزيدِ الاهتمامِ، وهو رُجوعٌ إلى طريقِ الاحتجاجِ على بُطلانِ الشِّركِ، فهو كالنَّتيجةِ لِجُملةِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ٢٤]. والأمرُ في قولِه: ﴿أَرُونِيَ﴾ مُستعمَلٌ في تَعجيزِ المُشركينَ عن إبْداءِ حُجَّةٍ لإشراكِهم، وهو انتقالٌ مِن الاحتجاجِ على بُطلانِ إلَهيَّةِ الأصنامِ بدَليلِ النَّظرِ في قولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ إلى إبطالِ ذلك بدَليلِ البَداهةِ[3]. وقد سُلِكَ مِن طُرُقِ الجَدلِ طَريقُ الاستِفسارِ، والمُصطلَحُ عليه عندَ أهْلِ الجَدلِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨).

(٣) البَداهة: هي المعرفةُ الحاصلةُ ابتداءً في النَّفْسِ، لا بسببِ الفِكرِ؛ كعِلمِك بأنَّ الواحدَ نصفُ الاثنَينِ. والبديهيُّ أخصُّ مِن الضَّروريِّ؛ لأنَّه ما لا يتوقَّفُ حصولُه على نظرٍ وكسبٍ. والمقصودُ هنا: أنَّ انتفاءَ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ بديهيٌّ، ولا يحتاجُ إلى أكثَرَ مِن رؤيةِ حالِها؛ فإنَّ كلَّ مَن يشاهِدُها بادئَ مرَّةٍ يَتبيَّنُ له أنَّها خليَّةٌ عن صِفاتِ الإلهيَّةِ؛ إذ يرى حجارةً لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تَفْقَهُ. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٣-٤٤، ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ١٩٣).

يكونَ الاستِفسارُ مُقدَّمًا على طَرائقِ المُناظَرةِ[١]، وإنَّما أُخِّرَ هنا؛ لأنَّه كان مُفْضيًا إلى إبطالِ دَعوَى الخَصمِ بحَذافيرِها، فأُرِيدَ تأْخيرُه؛ لئلَّا يَفُوتَ افتضاحُ الخَصمِ بالأدلَّةِ السَّابقةِ تَبْسيطًا لِبساطِ المُجادَلةِ؛ حتَّى يكونَ كلُّ دَليلٍ مُناديًا على غَلطِ الخُصومِ وباطِلِهم. وافتِضاحُ الخَطأِ مِن مَقاصِدِ المُناظِرِ الَّذي قامَتْ حُجَّتُه[٢].

- والتَّعبيرُ عن المَرْئيِّ بطَريقِ المَوصوليةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ لِتَنبيهِ المُخاطَبينَ على خَطئِهم في جَعْلِهم إيَّاهم شُركاءَ للهِ تعالى في الرُّبوبيَّةِ. وفي جَعْلِ الصِّلةِ ﴿أَلۡحَقۡتُم﴾ إيماءٌ إلى أنَّ تلك الأصنامَ لم تكُنْ مَوصوفةً بالإلهيَّةِ وَصفًا ذاتيًّا حقًّا، ولكنَّ المشركينَ ألْحَقوها باللهِ تعالى؛ فتلك خُلعةٌ خَلَعَها عليهم أصحابُ الأهواءِ، وتلك حالةٌ تُخالِفُ صِفةَ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ الإلهيَّةَ صِفةٌ ذاتيَّةٌ قَديمةٌ[٣].

- قولُه: ﴿كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لَمَّا أعرَضَ عن الخَوضِ في آثارِ الإراءةِ، عُلِمَ أنَّهم مُفتضَحون عندَ تلك الإراءةِ، فقُدِّرَتْ حاصلةً، وأُعقِبَ طَلَبُ تَحصيلِها بإثباتِ أثَرِها، وهو الرَّدعُ عن اعتقادِ إلهيَّتِها، وإبطالُها عنْهم بإثباتِها للهِ تعالى وَحْدَه؛ فلذلك جُمِعَ بيْنَ حَرفيِ الرَّدْعِ والإبطالِ، ثمَّ الانتقالِ إلى تَعيينِ الإلهِ الحقِّ. والجُملةُ بعْدَه تَفسيرٌ لِمَعنى الشَّأنِ، و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ خبرانِ، أي: بلِ الشَّأنُ المُهِمُّ اللهُ العزيزُ الحكيمُ لا آلهتُكم؛ ففي الجُملةِ قَصرُ العِزَّةِ

---

(١) يُنظر: ((شرح مختصر الروضة)) للصرصري (٣/ ٤٥٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٠٤)، ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة العراقي (ص: ٦٢٧)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٥٤٦، ٣٦٨٤)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ١٥٨، ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحُكم على اللهِ تعالى؛ كِنايةً عن قَصْرِ الإلهيَّةِ عليه تعالى قَصْرَ إفرادٍ[(١)]، وهذا إثباتٌ لافتِقارِ أصنامِهم، وانتفاءِ العِلمِ عنها[(٢)].

- و﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لهم عن مَذهبِهم بعدَ ما كسَرَه بإبطالِ المُقايَسةِ، وقد نبَّه على تَفاحُشِ غَلَطِهم، وأن لم يَقدُروا اللهَ حقَّ قَدْرِه بقولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ كأنَّه قال: أيْنَ الَّذين ألحَقْتُم به شُركاءَ مِن هذه الصِّفاتِ؟ و﴿هُوَ﴾ راجعٌ إلى اللهِ وَحْدَه، أو ضميرُ الشَّأنِ[(٣)].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ انتقالٌ مِن إبطالِ ضَلالِ المشرِكينَ في أمْرِ الرُّبوبيَّةِ إلى إبطالِ ضَلالِهم في شأنِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وغُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن

---

(١) تقدم تعريف القصر وأقسامه (ص: ٤٣).

ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ أيضًا إلى ثلاثةِ أقسام: قَصْرُ إفراد، وقَصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ الشَّرِكَةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقِدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحييُّ المميتُ دونَ اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢، ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٩٣).

الأمْرِ بمُحاجَّةِ المشركينَ إلى الإخبارِ برِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَشريفًا له بتَوجيهِ هذا الإخبارِ بالنِّعمةِ العظيمةِ إليه، ويَحصُلُ إبطالُ مَزاعمِ المُشركينَ بطَريقِ التَّعريضِ[١].

- قولُه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي: وما أرسَلْناك للنَّاسِ إلَّا كافَّةً؛ فقُدِّمَ الحالُ ﴿ كَآفَّةً ﴾ على صاحِبِه ﴿لِّلنَّاسِ﴾؛ للاهتمامِ بها؛ لأنَّها تَجمَعُ الَّذين كَفَروا برِسالَتِه كلَّهم[٢].

- وأفادَ تَركيبُ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ قَصْرَ حالةِ عُمومِ الرِّسالةِ على كافِ الخِطابِ في قولِه: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[٣]، أي: دونَ تَخصيصِ إرسالِك بأهْلِ مكَّةِ، أو بالعرَبِ، أو بمَن يَجيئُك يَطلُبُ الإيمانَ والإرشادَ، فالرِّسالةُ عامَّةٌ للنَّاسِ، مُحيطةٌ بهم؛ لأنَّها إذا شَمِلَتهم فقد كَفَتْهم أنْ يَخرُجَ منها أحدٌ منهم، ويَقْتضي ذلك إثباتَ رِسالتِه بدَلالةِ الاقتضاءِ؛ إذ لا يَصدُقُ ذلك القَصرُ إلَّا إذا ثبَتَ أصْلُ رِسالتِه؛ فاقْتَضَى ذلك الرَّدَّ على المُنكِرين كلِّهم، سواءٌ مَن أنكَرَ رِسالتَه مِن أصْلِها، ومَن أنكَرَ عُمومَها، وزعَمَ تَخصيصَها[٤]. وقيل: إنَّ حالَ الإرسالِ مَحصورٌ في العُمومِ؛ للغَرَضِ الَّذي ذُكِرَ مِن التَّدرُّجِ لِحَمْلِ المَشاقِّ، لا في النَّاسِ؛ فإنَّه لو أُرِيدَ ذلك لَقُدِّموا فقِيل: (إلَّا للنَّاسِ كافَّةً)[٥].

- ومَوقعُ الاستِدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ رفْعُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٤).

يُتوهَّمُ مِن اغترارِ المُغترِّينَ بكَثرةِ عدَدِ المُنكِرين رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ كَثرتَهم تَغُرُّ المُتأمِّلَ؛ لأنَّهم لا يَعلَمون[(١)].

- ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: لا يَعلَمون ما بَشَّرْت به المؤمنينَ، وما أنْذَرْتَ به الكافرينَ، أي: يَحسَبون البِشارةَ والنِّذارةَ غيرَ صادقتَينِ، على قولٍ في التَّفسيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مُنزَّلًا مَنزلةَ اللَّازمِ، مَقصودًا منه نَفْيُ صِفةِ العِلمِ عنهم، أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ جاهِلون قَدْرَ البِشارةِ والنِّذارةِ[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- صِيغةُ المُضارِعِ في (يَقُولُونَ) تُفيدُ التَّعجُّبَ مِن مَقالتِهم، مع إفادتِها تَكرُّرَ ذلك القولِ منهم وتَجدُّدَه. واسمُ الإشارةِ في ﴿هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؛ للاستِخفافِ والتَّحقيرِ[(٣)].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ جُملةٌ مَسوقةٌ مَساقَ الجوابِ عن مَقالتِهم؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ في القُرآنِ[(٤)]. وهذا الجَوابُ جَرَى على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ، أي: أنَّ الأهمَّ للعُقلاءِ أنْ تَتوجَّهَ هِمَمُهم إلى تَحقُّقِ وُقوعِ الوَعدِ في الوقتِ الَّذي عيَّنَه اللهُ له، وأنَّه لا يُؤخِّرُه شَيءٌ ولا يُقدِّمُه، وحسَّنَ هذا الأُسلوبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ سُؤالَهم إنَّما أرادوا به الكِنايةَ عن انتفاءِ وُقوعِه. وفي هذا الجَوابِ تَعريضٌ بالتَّهديدِ، فكان مُطابِقًا للمَقصودِ مِن الاستفهامِ، ولذلك زِيدَ في الجوابِ كَلمةُ ﴿لَّكُم﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا المِيعادَ مُنصرِفٌ إليهم ابتداءً(١).

- وفي هذا الجوابِ مِن المُبالَغةِ في التَّهديدِ ما لا يَخْفى؛ حيثُ جُعِلَ الاستئخارُ في الاستحالةِ كالاستقدامِ المُمتنعِ عقْلًا. ويجوزُ أنْ يكونَ نفْيُ الاستئخارِ والاستقدامِ غيرَ مُقيَّدٍ بالمُفاجأةِ، فيكونَ وصْفُ المِيعادِ بذلك لِتَحقيقِه وتَقريرِه(٢).

- وخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ في الجوابِ مِن الإتيانِ بضَميرِ الوَعدِ الواقعِ في كَلامِهم إلى الإتيانِ باسمٍ ظاهرٍ، وهو ﴿مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾؛ لِمَا في هذا الاسمِ النَّكرةِ مِن الإبهامِ الَّذي يُوجِّهُ نُفوسَ السَّامعينَ إلى كلِّ وَجهٍ مُمكِنٍ في مَحمَلِ ذلك، وهو أنْ يكونَ يومَ البعثِ أو يومًا آخَرَ يَحِلُّ فيه عذابٌ على أئمَّةِ الكُفرِ وزُعماءِ المشركينَ، وهو يومُ بَدْرٍ، ولعلَّ الَّذين قُتِلوا يومَئذٍ هم أصحابُ مَقالةِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. وأفاد تَنكيرُ ﴿يَوۡمٖ﴾ تَهويلًا وتَعظيمًا؛ بقَرينةِ المَقامِ(٣).

- والاستِئخارُ والاستقدامُ مُبالَغةٌ في التَّأَخُّرِ والتَّقدُّمِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، وقُدِّمَ الاستئخارُ على الاستِقدامِ إيماءً إلى أنَّه مِيعادُ بأْسٍ وعَذابٍ عليهم من

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣ - ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٠).

شأْنِه أنْ يَتمنَّوا تأخُّرَه، ويكونُ ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ تَتميمًا[١]؛ لِتَحقُّقِه عندَ وَقتِه المُعيَّنِ في عِلمِ اللهِ[٢].

- والسَّاعةُ: حِصَّةٌ مِن الزَّمنِ، وتَنكيرُها للتَّقليلِ بمَعونةِ المَقامِ[٣].



(١) تقدم تعريفه (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣١-٣٣)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ مَوْقُوفُونَ ﴾: أي: محبوسونَ للحسابِ يومَ القيامةِ، وأصل (وقف): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ في شَيءٍ(١).

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: يَتلاوَمون؛ يُحاوِرُ بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتكرارٍ(٢).

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وأصلُ (ندد): يدُلُّ على شُرودٍ وفِراقٍ(٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨).

﴿مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: مَكْرُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ، والمكرُ: الاحتيالُ والخِداعُ، وصَرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ[1].

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيَجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنقِ، أو حَلْقةٌ مِن حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعُنقِ تُناطُ بها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشَّيءِ وتوسُّطُه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى حاكيًا بعضَ الأقوالِ الباطلةِ للمشركينَ: وقال الَّذين كَفَروا: لن نُؤمِنَ بهذا القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بالَّذي أُنزِلَ قبْلَه مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى أحوالَهم السَّيِّئةَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ولو تَرى إذ المُشرِكونَ يومَ القيامةِ مَحبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ يُخاصِمُ بَعضُهم بعضًا؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا؛ يقولُ المُستَضعَفونَ مِنَ المُشرِكينَ لِرُؤساءِهم وكُبَرائِهم: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ. قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم: أنحن مَنَعْناكم عن قَبولِ الحَقِّ بعدَما جاءكم؟! بل كنتُم مُجرِمينَ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

قال الفَرَّاءُ: (المكرُ ليس لِلَّيل ولا للنَّهار، إنَّما المعنى: بل مكرُكم باللَّيلِ والنَّهار. وقد يجوزُ أن نُضيفَ الفعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، ويكونا كالفاعِلين؛ لأنَّ العرب تقولُ: نهارُك صائمٌ، ولَيْلُك نائمٌ، ثمَّ تُضيفُ الفِعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو في المعنى للآدميِّينَ، كما تقولُ: نامَ لَيْلُك، وعزَمَ الأمرُ، إنَّما عزَمه القومُ. فهذا مما يُعرَفُ معناه فتَتَّسِعُ به العربُ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

وقال المُستَضعَفونَ لرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما زَعمتُم، وإنَّما صَدَّنا خِداعُكم لنا بتَزيينِ الباطِلِ، وتَقبيحِ الحَقِّ لَيلًا ونهارًا؛ إذ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له نُظراءَ وشُرَكاءَ، وأسَرُّوا جميعًا النَّدَمَ والحَسرةَ حينَ رأوُا العذابَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ، لا يُجزَونَ إلَّا جزاءَ عمَلِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأمورَ الثَّلاثةَ: مِن التَّوحيدِ، والرِّسالةِ، والحَشرِ؛ وكانوا بالكُلِّ كافِرينَ- بيَّنَ كُفرَهم العامَّ، بقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الكُلِّ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه بملازمتِهم للاستِهزاءِ بهذا الإنذارِ على أنَّهم غَيرُ مُنفَكِّينَ عن مذاهِبِ الكُفَّارِ- ذكَرَ تصريحَهم بذلك وحالَهم في بعضِ الأوقاتِ المُنطَبِقةِ عليها الآيةُ السَّالِفةُ في قَولِه[2]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

أي: وقال الَّذين كَفَروا[3]: لن نُؤمِنَ بهذا القرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٣) قيل: المرادُ بهم: مُشرِكو العرَبِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، والشوكاني، =

بينَ يدَيه(١).

= والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٣).

وقيل: كُفَّارُ قُرَيشٍ. وممَّن قال به: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).

قال ابنُ عثيمين: (لا ينبغي أن نخصِّصَ ما عمَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فالصَّوابُ: وقال الَّذين كفَروا مِن أهلِ مكَّةَ وغَيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

قال القرطبي: (قيل: إنَّ أهلَ الكتابِ قالوا للمُشرِكينَ: صِفةُ محمَّدٍ في كتابِنا فسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتابِ، قال المُشرِكون: لن نؤمِنَ بهذا القرآنِ ولا بالَّذي أُنزِلَ قبْلَه مِن التَّوراةِ والإنجيلِ، بل نكفُرُ بالجميعِ، وكانوا قبْلَ ذلك يُراجِعونَ أهلَ الكتابِ، ويَحتجُّونَ بقَولِهم! فظهَرَ بهذا تناقُضُهم، وقِلَّةُ عِلْمِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

واختلَف المفسِّرون في معنى ما بين يَدَيِ القرآن، فقيل: هو ما تقدَّمَه مِن الكُتبِ السَّابقةِ؛ كالتَّوراةِ والإنجيلِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن الجوزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٣).

وقيل: ما بيْنَ يَدَيه، أي: ما أخبَرَ به مِن أمورِ المَعادِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: الكُتبُ الَّتي سبَقَت القرآنَ كالتَّوراةِ والإنجيلِ، أو ما أخبَرَ به القرآنُ ممَّا يأتي بعدَه.

قال: (والمَعنَيانِ صَحيحانِ، وإذا كانت الآيةُ تَحتَمِلُ مَعنيَيْنِ صَحيحينِ لا يَتَنافَيانِ، وجَبَ حَمْلُها على الجميعِ؛ لأنَّ القُرآنَ شامِلٌ وواسِعٌ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٢).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ ميعادَ المُستعجِلينَ بالعذابِ لا بُدَّ مِن وُقوعِه عند حُلولِ أجَلِه؛ ذكَرَ هنا حالَهم في ذلك اليومِ[١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

أي: ولو ترى[٢] المُشرِكينَ يومَ القيامةِ وهم محبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ، يحاوِرُ بَعضُهم بَعضًا باللَّومِ والخِصامِ والعِتابِ، بعدَ أن كانوا في الدُّنيا أخِلَّاءَ مُتحابِّينَ مُتناصِرينَ؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا عجيبًا[٣]!

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: يَقولُ الأتْباعُ المُشرِكونَ -الَّذين كانوا في الدُّنيا مُستَضعَفينَ- لِرُؤَسائِهم وكُبَرائِهم المتبوعينَ: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٨٠).

(٢) قيل: الخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).
وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يَصلُحُ لتلَقِّي الخِطابِ ممَّن تَبلُغُه هذه الآيةُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦). =

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾.

أي: قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم المُستَضعَفينَ: أنحن مَنَعْناكم وصرَفْناكم عن قَبولِ الحَقِّ بعدَما جاءَكم مِن عندِ اللهِ[1]؟!

﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فنحنُ لم نُكرِهْكم على الكُفرِ، وإنَّما كُنتُم في الدُّنيا عريقينَ في الإجرامِ، باختيارِكم الكُفرَ وإيثارِه على الإيمانِ[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَر رؤساؤُهم أنَّهم السببُ في كفرِهم، وأثبَتوا بقولِهم: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ أنَّ كفرَهم هو مِن قِبَلِ أنفسِهم، قابَلوا إضرابًا بإضرابٍ[3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

= قال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ المرادَ بقولِهم: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ بالمعنى اللَّقبيِّ الَّذي اشتهر به المسلِمون؛ فلذلك لا يُقدَّرُ لـ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ متعلَّقٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٢).

أي: وقال الأتْباعُ المُستَضعَفونَ لِرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما ذكَرتُم، وإنَّما احتيالُكم وخِداعُكم لنا، ومُلازمتُكم تزيينَ الباطِلِ وتقبيحَ الحَقِّ ليلًا ونهارًا: هو ما صَدَّنا عن الهدى، ونفَّرَنا عن الحَقِّ[١].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

أي: حينَ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له أمثالًا وأشباهًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ[٢].

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

أي: وأسَرَّ جميعُ المُشرِكينَ -مِن الأتْباعِ المُستَضعَفينَ والمتبوعينَ المُستَكبِرينَ- في أنفُسِهم شِدَّةَ النَّدَمِ حينَ رأوْا عذابَ النَّارِ، فزال عنهم ما احتَجَّ به بعضُهم على بعضٍ لِيَنجوَ مِن العذابِ، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ له، وتمنَّوا أنْ لو كانوا على الحَقِّ، وأنَّهم ترَكوا الباطِلَ الَّذي أوصَلَهم إلى عذابِ اللهِ تعالى[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٤- ٢١٧).

ممن اختار أنَّ الضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ عامٌّ في جميع مَن تقدَّم ذكرُه مِن الفريقين: المستضعفين والمستكبرين: ابن عطية، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٩).

وقال الواحدي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ يونسَ (الآية ٥٤): (﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أخفَى الرؤساءُ الندامةَ مِن السفلةِ الذين أضلُّوهم، أي: كتَموهم ذلك ولم يُطلِعوهم عليه، هذا قولُ عامةِ المفسرينَ، وأصحابِ المعاني). ((البسيط)) (١١/ ٢٢٤). =

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ جميعًا مِن الأتْباعِ والمتبوعينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: لا يُجزَى الكافِرونَ إلَّا بحَسَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن أعمالٍ خَبيثةٍ(٢).

= وقيل: أسرُّوا أي: أظْهروا، وأنَّه مِن الأضدادِ، يكونُ بمعنى الإخفاءِ والإبداءِ. وممن اختاره: ابنُ قتيبةَ، والثعلبي، ومكي، والبغوي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٢).

وقد ردَّه ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٢٠).

قيل: المرادُ بالغُلِّ: تقييدُ اليدين معًا وتعليقُهما في العُنُقِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٧).

قال القاسمي عن الأغلالِ: (هي السَّلاسلُ الَّتي تجمَعُ أيديَهم مع أعناقِهم). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٠).

وذكر ابن عاشور أنَّ الغُلَّ دائرةٌ مِن حديدٍ أو جلدٍ على سَعَةِ الرَّقبةِ تُوضَعُ في رقبةِ المأسورِ ونحوِه ويُشَدُّ إليها بسِلْسِلةٍ أو سَيْرٍ مِن جلدٍ أو حبلٍ، وقال: (وجعلُ الأغلالِ في الأعناقِ شعارٌ على أنَّهم يُساقون إلى ما يحاوِلونَ الفِرارَ والانفلاتَ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ ويُحيلُ بعضُهم على بعضٍ الجُرمَ، وهكذا أصحابُ الزلَّاتِ الأخِلَّاءُ في الفسادِ، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[الزخرف: ٦٧]، وكذلك الجوارحُ والأعضاءُ غدًا يشهدُ بعضُها على بعضٍ، فمَن عَمِلَ بالمعاصي أخرَجَ اللهُ عليه كُلَّ مَن هو أطوَعُ له، ولكنَّهم لا يعلمونَ ذلك، ولو علِموا لاعتبَروا، ولو اعتبَروا لَتابوا ووُفِّقوا، ولكنْ لِيَقْضيَ الله أمرًا كان مفعولًا[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ اقتصَرَ على حِكايةِ مَقالةِ الكافرينَ دونَ تَعقيبٍ بما يُبطِلُها؛ إيماءً إلى أنَّ بُطلانَها بادٍ لكُلِّ مَن يَسمَعُها؛ حيثُ جمَعَت التَّكذيبَ بجَميعِ الكُتُبِ والشَّرائِعِ، وهذا بهتانٌ واضِحٌ[(٢)].

= (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال الشوكاني: (﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلونه من الشِّركِ باللهِ، أو إلَّا بما كانوا يَعملونَ على حذفِ الخافضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٨).

وقال ابن كثير: (﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: إنَّما نُجازيكم بأعمالِكم كلٌّ بحَسَبِه؛ للقادةِ عذابٌ بحسَبِهم، وللأتباعِ بحسَبِهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ كَونَه مُماثِلًا في المقدارِ أمرٌ لا يعلَمُه إلَّا مُقَدِّرُ الحقائقِ والنِّيَّات، وأمَّا كونُه وِفاقًا في النَّوعِ فلأنَّ وَضْعَ الأغلالِ في الأعناقِ مَنعٌ مِن حرِّيَّةِ التَّصرُّفِ في أنفُسِهم؛ فناسَبَ نوعُه أن يكونَ جزاءً على ما عبَّدوا به أنفُسَهم لأصنامِهم... وما تقَبَّلوه مِن استِعبادِ زُعَمائِهم وكُبَرائِهم إيَّاهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعدَ قولِه سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أنَّ الكفرَ ظُلْمٌ، ويُؤَيِّدُ ذلك قولُه تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بدأ الأتْباعُ بتوبيخِ مُضِلِّيهم؛ إذ زالت عنهم رئاسَتُهم، ولم يُمكِنْهم أن يُنكِروا أنَّهم ما جاءهم رَسولٌ، بل هم مُقِرُّونَ[2]، ولأنَّ المُضِلَّ أَولَى بالتَّوبيخِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: إخبارٌ مِن اللهِ وتحذيرٌ بأنَّ المَتبوعينَ والتَّابِعينَ اشترَكوا في العذابِ، ولم يُغْنِ عنهم تقليدُهم شَيئًا[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ دليلٌ على أنَّ الرؤساءَ مِن أهلِ الضَّلالِ يَدْعُون لَيلًا ونهارًا -لا يَسْأَمُونَ- لباطِلِهم، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وغالبُ دعاةِ الخَيرِ معَ الأسفِ ليس عندَهم اليقظةُ لِمَكْرِ هؤلاء الماكرينَ الخادعينَ، يأخُذونَ بالظَّاهرِ؛ ولا يَعلمونَ أنَّ هؤلاء الخبثاءَ شرٌّ مِن الَّذين يَتظاهَرونَ بالسوءِ، فينبغي الانتباهُ لدعوةِ أهلِ الباطلِ والشَّرِّ والفسادِ[5]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ هؤلاءِ الرُّؤساءَ قد فرَضوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥١، ٥٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

سيطرتَهم وسلطانَهم على هؤلاءِ الأتْباع فرضًا لا مَحيدَ لهم عنه، فهم عندَما يَدْعونهم لا يقولونَ مثلًا: إنَّ الكفرَ حسَنٌ؛ وإنَّ اتِّخاذَ الشُّركاءِ حسَنٌ! وما أشبَهَ ذلك، بل يقولون: اكْفُروا! فيأْمُرونهم بذلك، والأمرُ هو طلبُ الفعلِ على وجهِ الاستعلاءِ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ نَدِمَ كُلٌّ منهم غايةَ النَّدَمِ سِرًّا في أنفُسِهم؛ لخَوفِهم مِنَ الفَضيحةِ في إقرارِهم على أنفُسِهم، وفي بعضِ مواقِفِ القيامةِ وعندَ دُخولِهم النَّارَ يُظهِرونَ ذلك النَّدَمَ جَهرًا ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١][٢]، والنَّدَمُ عندَ رؤيةِ العذابِ لا ينفعُ، فلم يَنتفِعوا بإظهارِ النَّدامةِ، ولا بإسرارِها في نفوسِهم أيضًا، أمَّا النَّدمُ قبْلَ رؤيةِ العذابِ فهو توبةٌ، إذا أصلَحَ العملَ تاب اللهُ عليه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَظلِمُ أحدًا[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذا انتقالٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

ذِكرِ طَعنِ المُشركينَ في القُرآنِ، وهي مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [سبأ: ٢٩]. وجِيءَ بحَرْفِ ﴿لَن﴾؛ لِتَأكيدِ نَفْيِ إيمانِهم بالكُتُبِ المُنزَّلةِ على التَّأبيدِ؛ تأييسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ مِن الطَّمعِ في إيمانِهم به[1].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ مُشارٌ به إلى حاضرٍ في الأذهانِ؛ لأنَّ الخَوضَ في القُرآنِ شائعٌ بيْنَ النَّاسِ مِن مُؤيِّدٍ ومُنكِرٍ؛ فكأنَّه مُشاهَدٌ[2]، وقيل: هذه الإشارةُ للقريبِ؛ تَحقيرًا له[3].

- وأُردِفَت حِكاياتُ أقوالِهم وكُفرانِهم بعْدَ استيفاءِ أصنافِها بذِكرِ جَزائِهم، وتَصويرِ فَظاعَتِه، بما في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ...﴾ مِن الإبهامِ المُفيدِ للتَّهويلِ، والمُناسَبةُ ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [سبأ: ٢٩]؛ فإنَّه بعدَ أنْ ألْقَمَهم الحَجَرَ بقولِه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ [سبأ: ٣٠] إلخ، أتْبَعَه بتَصويرِ حالِهم فيه، والخِطابُ في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ لكلِّ مَن يَصلُحُ لِتلقِّي الخِطابِ ممَّن تَبلُغُه هذه الآيةُ -على أحدِ القولينِ-، أي: ولو يَرى الرَّائي هذا الوقتَ، وجوابُ (لو) مَحذوفٌ للتَّهويلِ، وهو حَذْفٌ شائعٌ، وتَقديرُه: لَرأيتَ أمْرًا عَجبًا[4].

- والإتيانُ بالجُملةِ الَّتي أُضِيفَ إليها الظَّرفُ اسميَّةً ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾؛ لإفادةِ طُولِ وُقوفِهم بيْنَ يَدَيِ اللهِ طولًا يَستوجِبُ الضَّجَرَ، ويَملأُ القُلوبَ رُعبًا[5].

- في قَولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾ حسُنَ الإظهارُ في موضعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٤).

الإضمارِ، فقد قال: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ ولم يَقُلْ: (ولو ترَى إذْ هم مَوقوفونَ)؛ إرادةً للعمومِ، بحيث يَشملُ هؤلاء المذكورينَ وغيرَهم، وللتَّسجيلِ عليهم بما يقتضيه وَصْفُ الظُّلْم، إذْ إنَّه لو قيل: «ولو ترَى إذْ هم مَوقوفونَ» ما استَفَدْنا أنَّ هؤلاءِ كانوا ظالمينَ، فلمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سَجَّل عليهم أنَّه ظُلْمٌ[١].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿يَرْجِعُ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ المُجرِمين، وأنَّهم مَوقوفون عندَ ربِّهم، راجِعون بعضُهم إلى بعضٍ[٢].

- قولُه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذه الجُملةُ وما ذُكِرَ بعْدَها مِن الجُمَلِ المَحكيَّةِ بأفعالِ القولِ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾[٣]. ومِن الفصاحةِ والبلاغةِ ذِكْرُ القولِ مجمَلًا ثم يُفَصَّلُ؛ فإنَّه إذا ذُكِر الأمرُ مجمَلًا تَشوَّفَت النَّفْسُ إلى معناه والتَّفصيلِ فيه؛ حتَّى يَرِدَ إليها وهي مشتاقةٌ إليه[٤].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ فيها لاستِحضارِ حالةِ القولِ؛ لأنَّها حالةٌ غريبةٌ؛ لِمَا فيها مِن جُرأةِ المُستضعَفينَ على المُستكبِرين، ومِن تَنبُّهِ هؤلاء مِن غَفلَتِهم عمَّا كان المُستكبِرون يُغْرُونهم به حتَّى أوقَعُوهم في هذا المأزِقِ[٥].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للعَدِّ والحِسبانِ، أي: الَّذين يَعُدُّهم النَّاسُ ضُعفاءَ لا يُؤبَهُ بهم، وإنَّما يَعُدُّهم النَّاسُ كذلك؛ لأنَّهم كذلك، ويُعلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).

أنَّهم يَستضعِفون أنفُسَهم بالأوْلَى؛ لأنَّهم أعلَمُ بما في أنفُسِهم. وقُوبِلَ الَّذين استُضْعِفوا بالَّذين استَكْبَروا، أي: عَدُّوا أنفُسَهم كُبراءَ، وهمْ ما عَدُّوا أنفُسَهم كُبراءَ إلَّا لِمَا يَقْتضي استِكبارَهم؛ لأنَّهم لو لم يَكونوا كذلك لَوُصِفوا بالغُرورِ والإعجابِ الكاذِبِ؛ ولهذا عُبِّرَ في جانبِ الَّذين استُضْعِفوا بالفِعلِ المَبنيِّ للمَجهولِ ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، وفي جانبِ الَّذين استَكْبَروا بالفِعلِ المَبنيِّ للمعلومِ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾[1].

- وحَرفُ (لولا) يُؤذِنُ بتَعليقِ حُصولِ جَوابِه على وُجودِ شرطِه، وقد جاء في هذه الآيةِ رَبْطُ التَّعليقِ بضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ فاقْتَضى أنَّ المُستضعَفينَ ادَّعَوْا أنَّ وُجودَ المستكبِرين مانعٌ لهم أنْ يَكونوا مُؤمِنينَ، فاقْتَضى أنَّ جميعَ أحوالِ المُستكبِرين كانت تُدَنْدِنُ حوْلَ مَنْعِهم مِن الإيمانِ، فكأنَّ وُجودَهم لا أثَرَ له إلَّا في ذلك مِن انقطاعِهم للسَّعيِ في ذلك المنْعِ، وهو ما دلَّ عليه قولُهم فيما بعْدُ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٣٣]، مِن فَرْطِ إلْحاحِهم عليهم بذلك، وتَكريرِه في مُعظمِ الأوقاتِ، فكأنَّه استَغْرَقَ وُجودَهم؛ لأنَّ الوجودَ كَونٌ في أزْمنةٍ، فكان قولُهم هنا: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ مُبالَغةً في شِدَّةِ حِرصِهم على كُفرِهم. وهذا وَجهٌ وَجيهٌ في الاعتبارِ البلاغيِّ، فمُقْتضى الحالِ مِن هذه الآيةِ هو حَذْفُ المُشبَّهِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ ...﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).

استِئنافٌ مَبْنِيٌّ على سُؤالٍ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال الَّذين استَكبَروا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾؛ فجاءت هَمزةُ الاستفهامِ للإنكارِ[(١)].

- وجُرِّدَ الفِعلُ ﴿قَالَ﴾ عن العاطفِ؛ لأنَّه جاء على طَريقةِ المُجاوَبةِ، والشَّأنُ فيه حِكايةُ القولِ بدُونِ عطْفٍ[(٢)].

- وأُتِيَ بالمُسنَدِ إليه ﴿أَنَحْنُ﴾ قبْلَ المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾ في سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ الَّذي هو في قوَّةِ النَّفيِ؛ لِيُفيدَ تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالخبَرِ الفِعليِّ على طَريقةِ: ما أنا قلْتُ هذا؛ لأنَّ الغرَضَ إنكارُ أنْ يَكونوا هُمُ الصَّادِّينَ لهم عن الإيمانِ، وإثباتُ أنَّهم هُمُ الَّذين صَدُّوا بأنفُسِهم عنه؛ حيثُ أعرَضوا عن الهُدى وآثَروا التَّقليدَ عليه، وأنَّهم أُتُوا مِن قِبَلِ اختيارِهم[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ...﴾ لم تَجْرِ حِكايةُ هذا القولِ على طَريقةِ حِكايةِ المُقاوَلاتِ الَّتي تُحْكى بدونِ عطْفٍ على حُسنِ الاستعمالِ في حِكايةِ المُقاوَلاتِ؛ فجِيءَ بحَرْفِ العطْفِ في حِكايةِ هذه المَقالةِ، مع أنَّ المُستضعَفينَ جاوَبوا بها قولَ الَّذين استكْبَروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ [سبأ: ٣٢] الآيةَ؛ لِنُكتةٍ دَقيقةٍ، وهي التَّنبيهُ على أنَّ مَقالةَ المُستضعَفينَ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

هي في المَعنى تَكملةٌ لِمَقالَتِهم المَحكيَّةِ بقولِه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]؛ تنبيهًا على أنَّ مَقالتَهم تَلقَّفَها الَّذين استَكْبَروا، فابتَدَرُوها بالجوابِ بحيثُ لو انتَظَروا تَمامَ كَلامِهم وأبْلَعُوهم رِيقَهم، لَحصَلَ ما فيه إبطالُ كَلامِهم، ولكنَّهم قاطَعوا كَلامَهم مِن فَرْطِ الجَزَعِ أنْ يُؤاخَذوا بما يَقولُه المُستضعَفون، وحُكِيَ قولُهم هذا بفِعلِ الماضي ﴿وَقَالَ﴾؛ لِمُزاوَجةِ كَلامِ الَّذين استَكْبَروا؛ لأنَّ قولَ الَّذين استُضْعِفوا هذا بعدَ أنْ كان تَكملةً لِقَولِهم الَّذي قاطَعَه المُستكبِرون، انقلَبَ جَوابًا عن تَبرُّؤِ المُستكبِرينَ مِن أنْ يَكونوا صَدُّوا المُستضعَفينَ عن الهُدى؛ فصار لِقَولِ المُستضعَفينَ مَوقعانِ يَقْتضي أحدُ الموقعَينِ عطْفَه بالواوِ، ويَقتضي الموقعُ الآخَرُ قَرْنَه بحرْفِ ﴿بَلْ﴾، وبزيادةِ ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وأصلُ الكلامِ: يقولُ الَّذين استُضْعِفوا للَّذين استَكْبَروا: لولا أنتُم لَكنَّا مُؤمِنين؛ إذ تَأمُرونَنا باللَّيلِ والنَّهارِ أنْ نَكفُرَ باللهِ... إلخ، فلمَّا قاطَعَه المُستكبِرون بكَلامِهم أُقحِمَ في كَلامِ المُستضعَفين حَرفُ ﴿بَلْ﴾؛ إبطالًا لِقولِ المُستكبِرين: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، وبذلك أفاد تَكملةَ الكلامِ السَّابقِ، والجوابَ عن تَبرُّؤِ المُستكبِرينَ، ولو لم يُعطَفْ بالواوِ لَمَا أفاد إلَّا أنَّه جوابٌ عن كَلامِ المُستكبِرين فقطْ، وهذا مِن أبدَعِ الإيجازِ[١].

- و﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ إبطالًا لِمُقتضى القَصرِ في قَولِهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]؛ فإنَّه واقعٌ في حيِّزِ نَفْيٍ؛ لأنَّ الاستِفهامَ الإنكاريَّ له مَعنى النَّفيِ[٢].

- وارتفَعَ ﴿مَكْرُ﴾ على الابتداءِ، والخبَرُ مَحذوفٌ دلَّ عليه مُقابَلةُ هذا الكلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٨).

بكلامِ المُستكبِرينَ؛ إذ هو جوابٌ عنه؛ فالتَّقديرُ: بلْ مَكرُكم صَدَّنا، فيُفيدُ القَصْرَ، أي: ما صَدَّنا إلَّا مَكرُكم، وهو نَقضٌ تامٌّ لِقولِهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]، وقولِهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، والمرادُ: أنَّهم مُلازِمونَ للمَكرِ ليلًا ونهارًا، وهو كِنايةٌ عن دَوامِ الإلحاحِ عليهم في التَّمسُّكِ بالشِّركِ[1].

- قولُه: ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قولُه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم هؤلاء الَّذين جَرَتْ عليهم الضَّمائرُ المُتقدِّمةُ. والإتيانُ بالاسمِ الظَّاهِرِ دونَ أن يقولَ: (في أعناقِهم)، وكونُه مَوصولًا؛ للتَّنويهِ بذَمِّهم، وللدَّلالةِ على ما استَحقُّوا به الأغلالَ، وللإيماءِ إلى أنَّ ذلك جَزاءُ الكُفرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بجُملةِ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، كأنَّ سائلًا استعظَمَ هذا العذابَ، وهو تَعريضٌ بهم. والاستفهامُ بـ (هل) مُستعمَلٌ في الإنكارِ، باعتبارِ ما يَعقُبُه مِن الاستثناءِ[3].

- وجُعِلَ جَزاءُ الكافرينَ هو ما كانوا يَعمَلونه على مَعنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: مِثلُ ما كانوا يَعمَلون، وهذه المُماثَلةُ كِنايةٌ عن المُعادَلةِ فيما يُجازَوْنَه بمُساواةِ الجَزاءِ للأعمالِ الَّتي جُوزُوا عليها حتَّى كأنَّه نفْسُها، كقولِه تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[4] [النبأ: ٢٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠، ٢١١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١١).

الآيات (٣٤-٣٩)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤
وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ
إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧
وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ
ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: أي: المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[١].

﴿يَبۡسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ ويُكَثِّرُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[٢].

﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، ويُقَتِّرُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[٣].

﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: أي: قُرْبى ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

قُرْبٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلضِّعۡفِ﴾: أي: التَّضعيفِ والزِّيادة، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه[٢].

﴿ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾: أي: المنازلِ الرَّفيعةِ والعاليةِ في الجنَّةِ، والغَرْفُ: رفْعُ الشَّيءِ وتَناوُلُه[٣].

﴿يُخۡلِفُهُۥ﴾: أي: يُعطيكم خلَفَه وبدَلَه، وأصلُه: مجيءُ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى موقفَ المُترَفينَ مِن رُسلِ اللهِ، وما كانوا يَتذَرَّعونَ به للبقاءِ على كفرِهم، فيقولُ: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال المُترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به، وقالوا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، ولكِنَّ أكثَرَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧).

النَّاسِ لا يَعلَمونَ، وما أموالُكم ولا أولادُكم هي الَّتي تُدنيكم مِنَّا قُربةً ومَنزِلةً إلَّا مَن آمَن وعَمِل صالِحًا، فيُضاعِفُ اللهُ لهم جَزاءَه، وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ آمِنونَ.

والَّذين يَجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها: أولئك مُحضَرونَ في العَذابِ.

قل -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، وما أنفَقْتُم مِن شَيءٍ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم، واللهُ هو خَيرُ الرَّازِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ قَولَ المُشركينَ لِرَسولِه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ: ٣١] بعدَ أنْ طال به الأمَدُ في دعوتِهم حتَّى لَحِقَه مِن ذلك الغَمُّ الكثيرُ- سَلَّاه على ما ابتُلِيَ به مِن مُخالَفةِ مُترَفي قَومِه له، وعداوتِهم إيَّاه: بالتَّأسِّي بمَن قَبْلَه مِن الرُّسُلِ؛ فهو ليس بِدْعًا مِن بيْنِهم؛ فما مِن نبيٍّ بُعِث في قريةٍ إلَّا كذَّبَه مُترَفوها، واتَّبَعه ضُعَفاؤُها[١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾.

أي: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال الأغنياءُ المترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به[٢]!

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وقالوا أيضًا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ؛ فلو لم يكُنْ راضيًا عنَّا وعن دينِنا وأعمالِنا، لَما أحسَنَ إلينا وبسَطَ لنا الرِّزقَ(١)!

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم؛ فهو المتصَرِّفُ في تدبيرِ خَلقِه بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ(٢).

ثمَّ صرَّح بإبطالِ ما قالوه، وأكْذَبهم فيه(٣)، فقال:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾.

أي: وليستْ أموالُكم ولا أولادُكم بالَّتي تُقرِّبُ إلى اللهِ قُرْبَى، ولا تَزيدُكم عِندَنا رِفعةً ودَرَجةً؛ فليست بدَليلٍ على محبَّتِنا لكم، واعتِنائِنا بكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣، ٢١٤).

قيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يَعلَمون بأنَّ اللهَ يوسِّعُ الرِّزقَ ويُضَيِّقُه بحسَبِ مشيئتِه وحِكمتِه؛ فبَسْطُه لا يدُلُّ على محبَّةِ الله لعبدِه، ولا تضييقُه دالٌّ على بُغضِه له. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[١].

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

أي: لكنِ المؤمِنونَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ يُقَرِّبُهم عِندَنا إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ؛ فيُضاعِفُ اللهُ لهم جزاءَهم[٢].

﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

أي: وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ، آمِنونَ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى[٣].

= القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال القرطبي: (﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قال مجاهدٌ: أي: قُربَى. والزُّلْفَةُ: القربةُ. وقال الأخفشُ: أي: إزلافًا، وهو اسمُ المصدرِ، فيكونُ موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنَّه قال: بالَّتي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تقريبًا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

ممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ هنا منقطِعٌ: القرطبيُّ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن اختار أنَّ الاستثناءَ هنا مُتَّصِلٌ: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٧).

قال السمعاني: (وقولُه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنَّ هذا استثناءٌ مُنقطِعٌ، ومعناه: لَكِن [مَن] آمَن وعمِل صالحًا.

والقولُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فأولئك تُقَرِّبُهم أموالُهم وأولادُهم إلى طاعةِ الله. وهذا أظهرُ القولينِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال ابن عثيمين: (مَن دخَل الجنَّةَ فهو آمِنٌ مِن كُلِّ مَخوفٍ: آمِنٌ مِن الموتِ، ومِن المرضِ، =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّة لَيتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم كما تتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ[١] من الأُفُقِ مِنَ المَشرقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك منازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غيرُهم؟! قال بلى والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأشعريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائِمًا والنَّاسُ نيامٌ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾.

= ومن انقِطاعِ النَّعيمِ، ومِن فسادِ الثِّمارِ، ومِن كُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٤).

(١) الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ: أي: الكوكَبَ الشَّديدَ الإضاءةِ، الباقيَ في الأُفقِ بعدَ انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) واللَّفظُ له.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦١٥) واللفظ له، والطبراني (١٤/ ٨٠) (١٤٦٨٧)، والحاكم (٢٧٠). صحَّحه على شرط الشيخينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، والبُوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٣٢) وقال: (وله شاهِدٌ)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٦١٧): (حسَنٌ صحيحٌ).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جَزاءَ مَن آمَن؛ ذكَرَ عِقابَ مَن كَفَر؛ لِيَظهَرَ تَبايُنُ الجَزاءَينِ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾.

أي: والَّذين يَجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا بأنفُسِهم ويُعجِزونَنا[٢]: أولئك سيُحضَرونَ العذابَ في جهنَّمَ، ويُعذَّبونَ فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (جرَى الكلامُ على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ وعكسِه...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٢) قيل: معنى ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾: أنَّهم يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا بأنفُسِهم ويُعجِزونَنا فلا نَقدِرُ على مُعاقَبَتِهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والخازنُ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٣).

قال ابن عاشور: (و﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ مُغالِبينَ طَالِبينَ العَجْزَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ أي: طالبينَ تعجيزَها، أي: تعجيزَ الآتينَ بها عن إنفاذِ مُراداتِهم بها، بما يُلقونَه من الشُّبَهِ، فيُضِلُّونَ غيرَهم بما أوسَعْنا عليهم وأعزَزْناهم به مِن الأموالِ والأولادِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٥-٢٣٨).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالعذابِ: عذابُ جهنَّمَ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٢).

وقال ابن عثيمين: (رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّهم في العذابِ مُحضَرون حتَّى في الدُّنيا، ويكونُ المرادُ بالعذابِ هنا العذابَ القَلبيَّ؛ لأنَّ الكافِرَ مهما نُعِّم في الدُّنيا فإنَّه في ألمٍ وعذابٍ في قَلبِه؛ لأنَّ =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان افتِخارُ الكافِرينَ بكَثرةِ الأموالِ والأولادِ؛ أُخبِروا أنَّ ذلك جارٍ على ما شاء اللهُ، لا أنَّه على حَسَبِ الاستحقاقِ ولا التَّكرِمةِ ولا الهَوانِ(١).

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه(٢)، ويُضَيِّقُه

= الكافِرَ لا يَشبَعُ مِن الدُّنيا، فهو في حُزنٍ خَوفًا مِن ذَهابِ الموجودِ، وفي همٍّ طلبًا لوجودِ المفقودِ؛ لأنَّه يريدُ أن تنموَ له الدُّنيا وتَزدهِرَ، ويخشى أيضًا مِن أن تفوتَ، بخِلافِ المؤمنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٨).

وقال السمعاني: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ أي: مُدْخَلونَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٥).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿عِبَادِهِۦ﴾ هنا: عمومُ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٩، ٢٤٠).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ العبوديَّةَ هنا هي العبوديَّةُ العامَّةُ؛ لأنَّه يُشاهَدُ أنَّ المؤمنينَ والكافرينَ على السَّواءِ في ذلك؛ فمِنهم مَن يَبسُطُ الله له الرِّزقَ، ومِنهم مَن يُضيِّقُه له. =

على مَن يشاءُ مِنهم؛ بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه[١].

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾.

أي: وما أنفَقْتُم من نَفَقةٍ في الخَيرِ والبِرِّ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم ما أنفَقْتُم، فيُعَوِّضُكم بدَلَه[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنفِقْ أُنفِقْ عليك))[٣].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما نقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ))[٤].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن يوم يُصبِحُ العِبادُ فيه إلَّا مَلَكانِ يَنزِلانِ، فيقولُ أحَدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا،

= وقيل: المرادُ بهم: المؤمنون. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤١-٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ إخلافَ الرِّزقِ يقعُ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٣).

قال ابن عثيمين: (اللهُ عزَّ وجَلَّ يُعطيك بدلًا عنه بالكَمِّيَّةِ؛ إذا أنفَقْتَ عَشَرةً أعطاك عشَرةً، أو بالكيفيَّةِ؛ بمعنى: أنَّ الباقيَ يُنزِلُ اللهُ سبحانه وتعالى به البَرَكةَ حتَّى يكونَ مقابلًا لِما أنفَقْتَ مَضمومًا إليه. والظَّاهرُ أنَّه يَشملُ الأمْرَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

ويقولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أعطِ مُمسِكًا تَلَفًا))[1].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ هو خيرُ مَن يَرزُقُ عبادَه، ويُعطيهم مِن خزائِنِه الَّتي لا تَفنى[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّرَفِ؛ حيث كان التَّرَفُ سَبَبًا للشَّرِّ والبَلاءِ والكُفرِ، وقد كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَنهى عن كثرةِ الإرفاهِ[3]، ويأمُرُ بالاحتِفاءِ أحيانًا[4]؛ فهو لا يَنهى عن الرَّفاهيةِ مُطلقًا، ولكنْ عن كَثرتِها، ويأمُرُ بالاحتفاءِ، أي: أنْ نَمشيَ حُفاةً أحيانًا[5].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه أنَّ الرِّزقَ في الدُّنيا لا تدُلُّ سَعَتُه وضِيقُه على حالِ المحِقِّ والمُبطِلِ؛ فكم مِن موسِرٍ شَقيٍّ، ومُعسِرٍ تَقيٍّ؛ فقِلَّةُ الرِّزقِ وضَنكُ العَيشِ، وكَثرةُ المالِ وخِصبُ العَيشِ: بالمشيئةِ مِن غيرِ اختِصاصٍ بالفاسِقِ والصَّالحِ[6].

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٣) الإرفاهُ: الإفراطُ في التَّنَعُّمِ مِن التَّدهينِ والتَّرجيلِ، ومنه أُخِذَت الرَّفاهيةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٨٢٧).

(٤) يُنظر ما أخرجه أبو داود (٤١٦٠)، وأحمد (٢٣٩٦٩) من حديث فَضالةَ بن عُبَيد رضي الله عنه. ذكر ثبوتَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (١/ ١٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤١٦٠)، وجوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٤/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أنَّ الأرزاقَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويترتَّبُ على هذا فائدةٌ: وهي أنْ نَطْلُبَ الرِّزقَ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الَّذي يَبْسُطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُ، ويَتفرَّعُ على ذلك: ألَّا نَطلُبَ رزقَ اللهِ سُبحانَه وتعالى بمعاصيه؛ لأنَّ طَلَبَ رزقِ اللهِ بمعاصيه مُنافٍ للأدبِ، كيف تَطلُبُ الرِّزقَ ممَّن بيدِه الرِّزقُ بمعصيتِه؟! ولهذا حَذَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن ذلك، فقال: ((أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا الله، وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ؛ فإنَّ نفْسًا لن تموتَ حتَّى تَستوفيَ رِزْقَها، وإنْ أبطَأَ عنها، فاتَّقوا اللهَ، وأجمِلوا في الطَّلَبِ))[١]، يعني: اطلُبوا الرِّزقَ طلبًا جميلًا -وهو ما وافقَ الشَّرعَ-، وعلى هذا فطلَبُ الرِّزقِ بالغشِّ والكذِبِ والظُّلْمِ طلَبٌ غيرُ مشروعٍ؛ بل وينافي الأدبَ مع اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تَستلزِمُ القُرْبَ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِن النَّاسِ مَن يكونُ كثيرَ المالِ والولدِ وهو مِن أبْعَدِ النَّاسِ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى! ومِن النَّاسِ مَن يكونُ قليلَ المالِ والولدِ وهو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى[٣]! إنَّما الَّذي يُقرِّبُ مِن اللهِ زُلْفى: الإيمانُ بما جاء به المرسَلونَ، والعملُ الصَّالحُ الَّذي هو مِن لَوازمِ الإيمانِ؛ لذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣١٠٩)، والحاكم (٢١٣٥).

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، وحسَّنه ابنُ عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤٤). والحديثُ رُويَ مِن طرقٍ أخرى.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ الحَثُّ على الإنفاقِ، فمَن أنفَق في الخيرِ فالخَلَفُ مضمونٌ له[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ دلَّ بإفرادِ النِّذارةِ عن البِشارةِ أنَّ غالِبَ الأُمَمِ الماضيةِ مِن أهلِ النِّذارةِ؛ لِتَظهَرَ مزيَّةُ هذه الأمَّةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله سُبحانَه[٣].

٣- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأكثَرُ النَّاسِ تَلتبِسُ عليهم الأُمورُ فيَخلِطون بيْنَها، ولا يَضعون في مَواضعِها زَيْنَها وشَيْنَها، وقد أفاد هذا أنَّ حالَهم غيرُ دالٍّ على رِضا اللهِ عنهم ولا على عَدَمِه، وهذا الإبطالُ هو ما يُسمَّى في عِلمِ المُناظَرةِ نقْضًا إجماليًّا[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أنَّ الجزاءَ على الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ مُضاعَفٌ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ فالباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا﴾ باءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٢، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣، ٢١٤).

والنَّقضُ عندَ الجدَليِّينَ: هو تخلُّفُ الحُكمِ عن الدَّليلِ. ويَنقسِمُ إلى قِسْمَين: إجماليٍّ، وتفصيليٍّ؛ فالإجماليُّ: تخلُّفُه للقدحِ في بعضِ مقدِّماتِه لا على التَّعيينِ. والتَّفصيليُّ: للقدحِ في مقدِّمةٍ مُعَيَّنةٍ. يُنظر: ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة العراقي (ص: ٦٣١)، ((الفوائد السنية في شرح الألفية)) للبرماوي (٥/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٤).

السَّببيَّةِ، أي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعَل العمَلَ سببَ دُخولِ الجنَّة[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أنَّ مَنازِلَ الجنَّةِ عاليةٌ، فالغُرْفةُ: المنزِلُ العالي[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ تمامُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانِه؛ لكَونِه يَبسُطُ ويَقْدِرُ، ولا أحدَ يُمكِنُ أنْ يَعترِضَ عليه، وحتَّى لو اعتَرَضَ عليه فلا يَنفَعُ هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُدَبِّرٌ لِمَا يَشاءُ[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ نَعيمَ الآخِرةِ لا يُنافي نِعمةَ الدُّنيا، فالصَّالِحونَ قد يحصُلُ لهم في الدُّنيا النِّعَمُ مع القطْعِ بحصولِ النَّعيمِ لهم في العُقْبَى بناءً على الوعدِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ رَدٌّ على الجَبْريَّةِ -وهم الجَهميَّةُ- حيث أضاف الفِعلَ إلى العَبدِ، والجَبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ مَسلوبُ القُدرةِ والاختيارِ، وفِعلُه لا يُنسَبُ إليه إلَّا على سبيلِ المَجازِ، وإلَّا فإنَّه لا اختيارَ له في فِعلِه[٥]!

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ سُبحانَه وتعالى، وفيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ؛ فالعبدُ يأتيه رزقُه كثيرًا مِن كَسْبِه: مِن تجارةٍ أو حَرْثٍ أو عمَلٍ وغيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٢، ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

ذلك، ففيه دليلٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ لله سُبحانَه وتعالى[١].

١١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بصيغةِ التَّفضيلِ؛ نَظرًا إلى أنَّ بَعضَ المخلوقينَ يَرزُقُ بَعضَهم، قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شَكَّ أنَّ فَضْلَ رَزقِ اللهِ خَلْقَه على رَزقِ بعضِ خَلقِه بعضَهم: كفَضلِ ذاتِه وسائرِ صفاتِه على ذواتِ خَلقِه وصِفاتِهم[٢]، وأيضًا فرزقُ غيرِ اللهِ تعالى هو مِن رزقِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الَّذي يُعطي إنَّما يُعطي مِن رزقِ اللهِ تعالى الَّذي أعطاه، وأيضًا فإنَّ رِزقَ غيرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى رِزقٌ محدودٌ، ليس شاملًا لكلِّ أحَدٍ، وليس شامِلًا لكلِّ زمَنٍ، بخِلافِ رِزقِ اللهِ تعالى؛ فهو رِزقٌ شامِلٌ عامٌّ، كثيرٌ دائِمٌ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ اعتِراضٌ للانتِقالِ إلى تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا ابتُلِيَ به من المُشرِكينَ من أهْلِ مكَّةَ، وبخاصَّةٍ ما قابَلَه به سادتُهم وكُبَراؤهم من التَّأليبِ عليه، بتَذكيرِه أنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسلِ مِن قبْلِه؛ فليس في ذلك غَضاضةٌ عليه، والتَّعريض بقَومِه الَّذين عادَوه بتَذكيرِهم عاقبةَ أمثالِهم مِن أهْلِ القُرى الَّتي كذَّبَ أهْلُها برُسلِهم وأغْراهم بذلك زُعماؤُهم[٤].

- وتَخصيصُ المُتنعِّمينَ بالتَّكذيبِ في قولِه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١١، ٢١٢).

بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليه التَّكبُّرُ والمُفاخَرةُ بزَخارفِ الدُّنيا، والانهماكُ في الشَّهواتِ، والاستهانةُ بمَن لم يَحْظَ منها؛ ولذلك ضَمُّوا التَّهكُّمَ والمُفاخَرةَ إلى التَّكذيبِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

- وفي بِناءِ قولِه: ﴿مُتۡرَفُوهَآ ﴾ للمَفعولِ تَعريضٌ بالتَّذكيرِ بنِعمةِ اللهِ عليهم؛ لعلَّهم يَشكُرونَها، ويُقلِعون عن الإشراكِ به[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ تَقفيةٌ مِن الكافرينَ على صَريحِ كُفْرِهم بالقُرآنِ وغيرِه مِن الشَّرائعِ، بكلامٍ كَنَّوْا به عن إبطالِ حَقِّيَّةِ الإسلامِ بدَليلٍ سُفسطائيٍّ؛ فجَعَلوا كثرةَ أموالِهم وأولادِهم حُجَّةً على أنَّهم أهلُ حَظٍّ عندَ اللهِ تعالى! وهذا مِن تَمويهِ الحَقائقِ بما يَحُفُّ بها مِن العوارِضِ، فجَعَلوا ما حَفَّ بحالِهم في كُفرِهم مِن وَفرةِ المالِ والولَدِ حُجَّةً على أنَّهم مَظِنَّةُ العِنايةِ عندَ اللهِ، وأنَّ ما هم عليه هو الحقُّ. وهذا تَعريضٌ منهم بعَكسِ حالِ المسلمينَ؛ بأنَّ حالَ ضَعفِ المُسلمين، وقِلَّةِ عَدَدِهم، وشَظَفِ عَيْشِهم؛ حُجةٌ على أنَّهم غيرُ مَحظوظينَ عندَ اللهِ[3]!

- ولَمَّا كانت الأموالُ في الأغلَبِ سَبَبًا لكَثرةِ الأولادِ بالاستِكثارِ مِن النِّساءِ الحرائرِ والإماءِ؛ قدَّمَها، فقال: ﴿أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾[4].

- وقولُ الكافرينَ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالنَّتيجةِ لِقَولِهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾، وإنَّما جِيءَ فيه بحَرْفِ العطْفِ؛ لِتَرجيحِ جانبِ الفائدةِ المُستقِلَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١٢، ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٣).

على جانبِ الاستنتاجِ الَّذي يُومِئُ إليه ما تَقدَّمَه، وهو قولُهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾؛ فحصَلَ مِن هذا النَّظمِ استدلالٌ لِصِحَّةِ دِينِهم، ولإبطالِ ما جاء به الإسلامُ، ثمَّ الافتخارُ بذلك على المسلمينَ والضَّعةِ لجانبِ المسلمينَ، بإشارةٍ إلى قِياسٍ استثنائيٍّ بناءً على مُلازمةٍ مَوهومةٍ، وكأنَّهم استَدَلُّوا بانتفاءِ التَّعذيبِ على أنَّهم مُقرَّبونَ عندَ اللهِ، بناءً على قياسِ مُساواةٍ مَطْويٍّ، فكأنَّهم حَصَروا وسائلَ القُربِ عندَ اللهِ في وَفرةِ الأموالِ والأولادِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَصَّ هذه السُّورةَ بذِكرِ الرَّبِّ في قولِه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾؛ وذلك لأنَّه تَكرَّرَ فيها مرَّاتٍ كثيرةً؛ منها: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [سبأ: ٣]، و﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، و﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، و﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ: ٢٦]، و﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] [سبأ: ٣١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه لم يَذكُرْ هنا ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾، وذكَرَه بعْدَه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]؛ لأنَّ المُرادَ بهمْ هنا الكُفَّارُ. وذكَرَهُ مع الثَّاني؛ لأنَّهم المُؤمِنون[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مِن جِهَتِه عزَّ وعَلا خُوطِبَ به النَّاسُ. ويجوزُ أن تكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سبأ: ٣٦]؛ فيكون ممَّا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَقولَه لهم ويُبلِّغَه عن اللهِ تعالى، ويكون في ضَميرِ ﴿عِندَنَا﴾ الْتفاتٌ؛ مُبالَغةً في تَحقيقِ الحقِّ وتَقريرِ ما سبَقَ، وتكون ضمائرُ الخِطابِ عائدةً إلى الَّذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ وهو ارتقاءٌ مِن إبطالِ المُلازَمةِ إلى الاستِدلالِ على أنَّهم لَيسوا بمَحلِّ الرِّضا من اللهِ تعالى، على طَريقةِ النَّقضِ التَّفصيليِّ؛ فقد أبطَلَتِ الآيةُ أنْ تكونَ أموالُهم وأولادُهم مُقرِّبةً عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُقرِّبُ إلى اللهِ إلَّا الإيمانُ والعمَلُ الصَّالحُ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا﴾ جِيءَ بالجُملةِ المَنفيَّةِ في صِيغةِ حَصرٍ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ؛ لأنَّ هذه الجُملةَ أُريدَ منها نَفْيُ قولِهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، أي: لا أنتُم؛ فكان كلامُهم في قُوَّةِ حَصْرِ التَّقريبِ إلى اللهِ في كَثرةِ الأموالِ والأولادِ، فنُفِيَ ذلك بأسْرِه. وتَكريرُ (لا) النَّافيةِ بعْدَ العاطفِ في ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾؛ لِتأكيدِ تَسلُّطِ النَّفيِ على كِلا المَذكورَينِ؛ لِيَكونَ كلُّ واحدٍ مَقصودًا بنَفْيِ كَونِه ممَّا يُقرِّبُ إلى اللهِ، ومُلتَفتًا إليه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٥).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ في الإخبارِ عمَّن آمَنَ؛ للتَّنويهِ بشَأنِهم، وللإيذانِ بعُلُوِّ رُتبتِهم وبُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ، والتَّنبيهِ على أنَّهم جَديرون بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ. وكُنِّيَ عن التَّقريبِ بمُضاعَفةِ الجزاءِ؛ لأنَّ ذلك أمارةُ كَرامةِ المَجزِيِّ عندَ اللهِ، أي: أولئك الَّذين يُقرَّبون زُلْفى، فيُجْزَون جَزاءَ الضِّعفِ على أعمالِهم لا على وَفرةِ أموالِهم وأولادِهم؛ فالاستدراكُ وَرَدَ على جَميعِ ما أفادَهُ كلامُ المشركينَ مِن الدَّعوى الباطلةِ والفَخرِ الكاذبِ؛ لِرَفْعِ تَوهُّمِ أنَّ الأموالَ والأولادَ لا تُقرِّبُ إلى اللهِ بحالٍ؛ فإنَّ مِن أموالِ المؤمنينَ صَدقاتٍ ونَفَقاتٍ، ومِن أولادِهم أعوانًا على البرِّ، ومُجاهِدينَ، وداعِينَ لآبائِهم بالمَغفرةِ والرَّحمةِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ...﴾ تَعقيبٌ للتَّرغيبِ بالتَّرهيبِ؛ فكان بمَنزلةِ الاعتراضِ بيْنَ الثَّناءِ على المؤمنينَ الصَّالحينَ، وبيْنَ إرشادِهم إلى الانتفاعِ بأمْوالِهم للقُرْبِ عندَ اللهِ تعالى بجُملةِ ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [سبأ: ٣٩] إلخ[2].

- واسمُ الإشارةِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم استَحقُّوا الجَحيمَ لِأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ. و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ هنا كِنايةٌ عن المُلازَمةِ؛ فهو ارتقاءٌ في المعنى الَّذي دلَّت عليه أداةُ الظَّرفيَّةِ من إحاطةِ العذابِ بهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ هذه الآيةُ تقريرٌ لمعنى قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ أتْبَعَ إبطالَ أنْ تكونَ الأموالُ والأولادُ بذاتِهما وَسيلةَ قُرْبٍ لَدى اللهِ تعالى؛ ردًّا على مَزاعِمِ المُشرِكين بما يُشبِهُ مَعنى الاستدراكِ على ذلك الإبطالِ؛ مِن إثباتِ انتفاعٍ بالمالِ للتَّقرُّبِ إلى رِضا اللهِ إنِ استُعْمِلَ في طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ؛ تَفصيلًا لِمَا أُشِيرَ إليه إجمالًا مِن أنَّ ذلك قد يكونُ فيه قُربةٌ إلى اللهِ بقولِه: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾[2] [سبأ: ٣٧].

- وفي قولِه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ تَشريفٌ للمؤمنينَ بإضافتِهم إلى ضَميرِ الجلالةِ، وفي هذا امتنانٌ على الَّذين يُبسَطُ عليهم الرِّزقُ؛ بأنْ جمَعَ اللهُ لهم فضْلَ الإيمانِ وفضْلَ سَعةِ الرِّزقِ، وتَسليةٌ لِلَّذين قُدِرَ عليهم رِزْقُهم؛ بأنَّهم نالوا فضْلَ الإيمانِ وفضْلَ الصَّبرِ على ضِيقِ الحياةِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأيضًا في تَعليقِ ﴿لَهُۥ﴾ بـ(يَقْدِرُ) إيماءٌ إلى أنَّ ذلك القَدْرَ لا يَخْلو مِن فائدةٍ للمَقدورِ عليه رِزقُه، وهي فائدةُ الثَّوابِ على الرِّضا بما قُسِمَ له، والسَّلامةِ مِن الحِسابِ عليه يومَ القِيامةِ، وفي ذلك تَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ حثًّا على الإنفاقِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ترغيبٌ للأغنياءِ في الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ؛ ولذلك جُعِلَ الوَعدُ بإخلافِ ما يُنفِقُه المرْءُ كِنايةً عن التَّرغيبِ في الإنفاقِ؛ لأنَّ وَعْدَ اللهِ بإخلافِه مع تأكيدِ الوَعدِ يَقْتضي أنَّه يُحِبُّ ذلك من المُنفِقينَ، وأكَّدَ ذلك الوعدَ بصِيغةِ الشَّرطِ، وبجَعْلِ جُملةِ الجوابِ اسميَّةً، وبتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ بقولِه: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ ففي هذا الوَعدِ ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ دالَّةٌ على مَزِيدِ العِنايةِ بتَحقيقِه؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى الكِنايةِ عن كَونِه مَرْغوبَه تعالى[٢].

- والجارُّ والمَجرورُ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بَيانٌ لِمَا في (ما) مِن العُمومِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تَذييلٌ للتَّرغيبِ، والوعْدِ بزيادةٍ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (٤٠-٤٢)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أولئكَ المشركينَ يومَ القيامةِ: ويومَ يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ جَميعًا، ثُمَّ يَقولُ للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونكم مِن دوني؟! قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا رَبَّنا- نحنُ بُرآءُ مِن المُشرِكينَ؛ فأنت وليُّنا مِن دُونِهم، بل كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ، أكثَرُهم بهم مُؤمِنون!

فيُقالُ لهم: فاليومَ لا يَملِكُ بَعضُكم لبعضٍ نَفعًا ولا ضَرًّا، ونقولُ للظَّالِمينَ: ذوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كحالِ مَن تقدَّمَه مِن الأنبياءِ، وحالَ قَومِه كحالِ مَن تقدَّم مِن الكُفَّارِ، وبيَّنَ بُطلانَ استِدلالِهم بكثرةِ أموالِهم وأولادِهم- بيَّن ما يكونُ مِن عاقبةِ حالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى شُبهةَ الكافِرينَ، فعُلِمَ بذلك أنَّ الأمرَ كُلَّه له، وأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١١).

في محلِّ الخَطَرِ، وكان قد بَقِيَ مِن شُبَهِهم أنَّهم يقولونَ: نحن نعبُدُ الملائكةَ فهم يَشفَعونَ لنا، وكان الأنبياءُ عليهم السَّلامُ لا يُنكِرونَ أنَّ الملائِكةَ مُقَرَّبون- أبطَلَ ما يَتعلَّقونَ به منهم، وبيَّنَ أنَّه لا أمرَ لهم، وأنَّهم بَريئون منهم[1].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: ويومَ[2] يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ فيَجمَعُهم يومَ القيامةِ جميعًا[3]، ثمَّ يَقولُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٩).

(٢) قيل: الظَّرفُ هنا متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن قال بهذا القولِ: مكِّي، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّ المعنى: اذكُرْ في نفْسِك هذا اليومَ، أو اذكُرْ لغيرِك هذا اليومَ. وكِلاهما حقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

وقيل: هذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: ولو تَراهم أيضًا يومَ يَحشُرُهم جميعًا. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

(٣) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: هؤلاء الكفَّارُ بالله. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وضميرُ الغَيبةِ مِن ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائدٌ إلى ما عاد عليه ضميرُ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥] الَّذي هو عائدٌ إلى الَّذين كفروا مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [سبأ: ٣١]. والكلامُ كلُّه مُنتظِمٌ في أحوالِ المشركينَ... ولفظُ ﴿جَمِيعًا﴾ يَعُمُّ أصنافَ المشركينَ على اختلافِ نِحَلِهم واعتقادِهم في شِرْكِهم؛ فقد كان مُشركو العربِ نِحَلًا شَتَّى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بهم المشركون: ابنُ الجوزي، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٥٣).

وقيل: المرادُ: المكذِّبون، مَن تقدَّمَ ومَن تأخَّرَ. وممَّن اختاره: الرَّازي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٦). =

للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونكم مِن دوني[١]؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾.

أي: قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا رَبَّنا- تنزيهًا عن أن يَستَحِقَّ العبادةَ أحَدٌ سِواك، ونحن بُرآءُ مِن المُشرِكينَ ومِن عبادتِهم، وأنت ولِيُّنا الَّذي نَتوَلَّاه ونُطيعُه ونَعبُدُه وَحْدَه[٢]!

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

أي: بل كان هؤلاء المُشرِكونَ يَعبُدونَ الجِنَّ، وأكثَرُهم مُؤمِنونَ بالجِنِّ؛

= وقيل: المرادُ: العابِدونَ والمعبودونَ من دونِ الله. وممَّن قال بهذا القولِ: القرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: الملائكةُ ومَن عبَدَها: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٣).

وقال يحيى بن سلام: (﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: المشركين وما عبَدوا). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٧).

وقال البيضاوي: (﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المُستكبِرينَ والمُستضعَفينَ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (وعمَّ التَّابعَ والمتبوعَ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

فيُصَدِّقونَهم ويُطيعونَهم، ويُذْعِنونَ لهم، ويَنقادونَ إليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

قال ابنُ عطية: (وعبادةُ البَشَرِ للجِنِّ هي فيما نعرِفُه نحن بطاعتِهم إيَّاهم، وسماعِهم مِن وَسوستِهم وإغوائِهم؛ فهذا نوعٌ من العبادةِ، وقد يجوزُ إن كان في الأُمَمِ الكافرةِ مَن عبَدَ الجنَّ، وفي القرآنِ آياتٌ يَظهَرُ منها أنَّ الجنَّ عُبِدَت؛ في سورة الأنعام وغيرِها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٠٧) و (٧/ ٤٣).

وقال ابنُ القيِّم: (ولَمَّا عبَدَ المشركون الملائكةَ بزعمِهم وقعَتْ عبادتُهم في نفْسِ الأمرِ للشَّياطين، وهم يَظُنُّون أنَّهم يَعبُدون الملائكةَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

فالشَّيطانُ يَدعو المُشرِكَ إلى عبادتِه، ويُوهِمُهم أنَّه مَلَكٌ، وكذلك عُبَّادُ الشَّمسِ والقمرِ والكواكبِ، وهي الَّتي تُخاطِبُهم، وتقضي لهم الحوائجَ؛ ولهذا إذا طلعَتِ الشَّمسُ قارنَها الشَّيطانُ، فيَسجُدُ لها الكفَّارُ، فيقَعُ سُجودُهم له، وكذلك عندَ غُروبِها. وكذلك مَن عبَدَ المسيحَ وأمَّه لم يَعبُدْهما، وإنَّما عبَدَ الشَّيطانَ؛ فإنَّه يَزعُمُ أنَّه يَعبُدُ مَن أمَرَه بعبادتِه وعبادةِ أمِّه، ورَضِيَها لهم، وأمَرَهم بها، وهذا هو الشَّيطانُ الرَّجيمُ، لا عبدُ اللهِ ورسولُه، فنَزِّلْ هذا كلَّه على قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فما عبَدَ أحدٌ من بني آدَمَ غيرَ الله -كائنًا مَن كان- إلَّا وقعَتْ عِبادتُه للشَّيطانِ، فيَستمتِعُ العابدُ بالمعبودِ في حُصولِ غرَضِه، ويَستمتِعُ المعبودُ بالعابدِ في تعظيمِه له، وإشراكِه مع الله الَّذي هو غايةُ رِضا الشَّيطانِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٤٣). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٩٢).

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بطَلَت تمسُّكاتُ الكافِرينَ، وتقطَّعَت تعلُّقاتُهم؛ تَسَبَّب عن ذلك تقريعُهم النَّاشِئُ عنه تنديمُهم[١].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: فاليومَ لا يَقدِرُ بَعضُكم على نفعِ بَعضٍ أو ضرِّه[٢]؛ فالأمرُ كلُّه لله[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢١).

(٢) قيل: هو خِطابٌ مِن الله تعالى للملائِكةِ، والمعنى: فاليومَ لا يَملِكُ بعضُكم -أيُّها الملائكةُ- لِلَّذين كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَكم، [ولا الَّذين كانوا يَعبُدونكم لكم]: نفعًا يَنفَعونكم به، ولا ضَرًّا يَنالونَكم به، أو تَنالونَهم به. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

وقيل: الأظهَرُ أنَّ هذا مِن خطابِ اللهِ تعالى المُشرِكينَ والجِنَّ. وممَّن ذكر ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مِن خِطابِ الملائكةِ للفَريقينِ بعدَ أداءِ الشَّهادةِ عليهم. وممَّن جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

قال ابن عطية: (قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ وفي الكلامِ حذْفٌ، تقديرُه: فيُقالُ لهم -أي: مَن عبَدَ ومَن عُبِد-: اليومَ لا ﴿يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤).

وقال ابن عاشور: (والمِلْكُ هنا بمعنَى: القُدرةِ، أي: لا يَقْدِرُ بعضُكم على ضرٍّ أو نفعِ بعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

ممَّن فسَّر النَّفعَ بالشَّفاعةِ والنَّجاةِ، والضرَّ بالعذابِ والهلاكِ: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٠).

وممَّن فسَّر النَّفعَ بالشَّفاعةِ، والضرَّ بالتَّعذيبِ: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والعُلَيمي. =

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

أي: ونَقولُ لِمَنْ وَضَعوا العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وجَعَلوها لغيرِ مَن تنبغي أن تكونَ له وَحْدَه: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أنَّه ينبغي تذكيرُ النَّاسِ بيومِ المعادِ؛ ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ قولَه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: «اذْكُرْ يومَ يحشرون» -على قولٍ في التَّفسيرِ-، أي: اذكُرْ لغيرِك أو اذكُرْ في نفْسِك، فيَشملُ أيضًا تذكيرَ النَّفْسِ، فإذا غَفَلَتْ نفْسُ الإنسانِ فيَنبغي أنْ يُذَكِّرَها الموتَ ويومَ الحشرِ؛ يُذكِّرها مآلَه كلَّما رَكَنَتْ إلى الدُّنيا، وأرادتِ الانغماسَ فيها، فلْيُذَكِّرْها اليومَ المشهودَ الَّذي يُجْمَعُ له النَّاسُ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ كذا كُلُّ مَن تقرَّبَ إلى شَخصٍ بمعصيةِ الله، يُقَسِّي اللهُ قَلْبَه عليه، ويُبَغِّضُه فيه؛ فيُجافيه ويُعاديه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ جوازُ المسألةِ عمَّا السَّائِلُ أعلَمُ به مِن المَسؤولِ(٤).

= يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٠، ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٣/ ٦٩١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ إثباتُ القولِ والكلامِ للهِ تعالى، وهو كلامٌ حقيقيٌّ بحروفٍ وأصواتٍ مسموعةٍ؛ وهو غيرُ مخلوقٍ، كما هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى حكايةً عن الملائكةِ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ بيانُ ما عندَ الملائكةِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تعظيمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، حيثُ قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا عن أنْ يكونَ لك شريكٌ، لا مِنَّا ولا مِن غيرِنا[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: لو قال قائِلٌ: جَميعُهم كانوا تابعينَ للشَّياطينِ، فما وجْهُ قَولِه: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾؛ فإنَّه يُنبِئُ أنَّ بَعضَهم لم يؤمِنْ بهم، ولم يُطِعْ لهم؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الملائِكةَ احترَزوا عن دعوى الإحاطةِ بهم، فقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم﴾؛ لأنَّ الَّذين رأَوْهم واطَّلَعوا على أحوالِهم كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ ويُؤمِنونَ بهم، ولعلَّ في الوجودِ مَن لم يُطلِعِ اللهُ الملائِكةَ عليه مِنَ الكُفَّارِ.

الوَجهُ الثَّاني: هو أنَّ العبادةَ عمَلٌ ظاهِرٌ، والإيمانَ عمَلٌ باطِنٌ، فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ لاطِّلاعِهم على أعمالِهم، وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ عندَ عمَلِ القَلبِ؛ لئلَّا يكونوا مُدَّعينَ اطِّلاعَهم على ما في القُلوبِ؛ فإنَّ القَلبَ لا اطِّلاعَ عليه إلَّا لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣] [الأنفال: ٤٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١]؛ استِكمالًا لتصويرِ فَظاعةِ حالِهم يومَ الوَعدِ الَّذي أنكَروه، تَبَعًا لِما وُصِفَ من حالِ مُراجعةِ المُستكبرينَ منهم والمُستَضعَفينَ، فوصَفَ هنا افتِضاحَهم بتبرُّؤِ الملائكةِ منهم، وشَهادتِهم عليهم بأنَّهم يَعبُدونَ الجِنَّ[١]. وذلك على قولٍ.

- وفيه الاقتصارُ على تَقريرِ الملائكةِ واستِشهادِهم على المُشرِكينَ؛ لأنَّهم أشرَفُ شُركائِهم، وهم الصَّالِحون للخِطابِ منهم، ولأنَّ عِبادتَهم مَبدَأُ الشِّركِ وأصلُه، ولأنَّ إبطالَ إلهيَّةِ الملائكةِ يُفيدُ إبطالَ إلهيَّةِ ما هو دُونَها ممَّن عُبِدَ من دُونِ اللهِ بدَلالةِ الفَحْوى، أي: بطَريقِ الأَوْلى؛ فإنَّ ذلك التَّقريرَ من أهَمِّ ما جُعِلَ الحشرُ لأجْلِه. وتَوجيهُ الخِطابِ إلى الملائكةِ بهذا الاستفهامِ مُستعمَلٌ في تَقريعِ المُشركينَ والتَّعريضِ بهم، على طَريقةِ المَثَلِ: (إيَّاكِ أعْني واسْمَعي يا جارهْ)! والغرَضُ من ذلك أنْ يقولَ ويَقولوا، ويَسأَلَ ويُجيبوا؛ فيَكونَ تَقريعُهم أشَدَّ، وتَعييرُهم أبلَغَ، وخَجَلُهم أعظَمَ، وهو أنَّه ألْزَمُ، ويكونَ اقتصاصُ ذلك لُطْفًا لِمَن سَمِعَه، وزاجرًا لِمَن اقتُصَّ عليه[٢].

- وتَقديمُ المَفعولِ ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ للاهتمامِ، ولرِعايةِ الفاصلةِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢).

أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا ... ﴾ حُكِيَ قولُ الملائكةِ دُونِ عاطفٍ؛ لِوُقوعِه في المُحاوَرةِ؛ ولذلك جِيءَ فيه بصِيغةِ الماضي ﴿ قَالُواْ ﴾؛ لأنَّ ذلك هو الغالبُ في الحِكايةِ، مع ما فيه مِن الدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، أي: أنت الَّذي نُواليه مِن دُونِهم، لا مُوالاةَ بيْنَنا وبيْنَهم، وجوابُ الملائكةِ يَتضمَّنُ إقرارًا، مع التَّنزُّهِ عن لَفظِ كَونِهم مَعبودينَ كما يَتنزَّهُ مَن يَحكي كُفرَ أحدٍ، فيقولُ: قال: هو مُشرِكٌ باللهِ، وإنَّما القائلُ قال: أنا مُشرِكٌ باللهِ؛ فمَوردُ التَّنزيهِ في قولِ الملائكةِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ هو أنْ يكونَ غيرُ اللهِ مُستحِقًّا أنْ يُعبَدَ، مع لازمِ الفائدةِ، وهو أنَّهم يَعلَمون ذلك، فلا يُضَرُّون بأنْ يَكونوا مُعبودينَ. وقولُ الملائكةِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ تَبرُّؤٌ مِن الرِّضا بأنْ يَعبُدَهم المُشرِكون؛ لأنَّ الملائكةَ لَمَّا جَعَلوا أنفُسَهم مُوالِينَ للهِ فقدْ كذَّبوا المُشرِكين الَّذين زَعَموا لهم الإلهيَّةَ؛ لأنَّ العابدَ لا يكونُ مَعبودًا[1].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن دُونِهِم ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ؛ فـ ﴿مِن دُونِهِم ﴾ تأكيدٌ لِمَا أفادَتْه جُملةُ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ مِن الحَصرِ؛ لِتَعريفِ الجُزأينِ[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ ﴾ (بل) للإضرابِ الانتقاليِّ، انتقالًا مِن التَّبرُّؤِ منهم إلى الشَّهادةِ عليهم، وعلى الَّذين سَوَّلوا لهم عِبادةَ غيرِ اللهِ تعالى، وليس إضرابَ إبطالٍ؛ لأنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم كانوا يَعبُدون الملائكةَ. وفيه إشعارٌ لهم بما عَبَدوه وإنْ لم يُصرَّحْ به، والمعنى: بلْ كان أكثَرُ هؤلاء يَعبُدون الجِنَّ، وكان الجِنُّ راضِينَ بعِبادتِهم إيَّاهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٧)، ((تفسير =

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ تبكيتٌ للكُفَّارِ حينَ بيَّنَ لهم أنَّ مَن عَبَدوه لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وهو كَلامٌ مُوجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى إلى الملائكةِ، والمَقصودُ به التَّعريضُ بضَلالِ الَّذين عَبَدوا الملائكةَ والجنَّ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعلَمون مَضمونَ هذا الخبَرِ، فلا تُقصَدُ إفادتُهم به، والمُرادُ إظهارُ عَجزِهم وقُصورِهم عندَ عَبَدتِهم، والتَّنصيصُ على ما يُوجِبُ خَيبةَ رَجائِهم بالكلِّيَّةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن خِطابِ الملائكةِ للفَريقين بعدَ أداءِ الشَّهادةِ عليهم؛ تَوبيخًا لهم، وإظهارًا للغَضَبِ عليهم؛ تَحقيقًا للتَّبرُّؤِ منهم[(١)].

- قولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ فيه نِسبةُ عَدَمِ النَّفعِ والضَّرِّ إلى البَعضِ المُبهَمِ؛ للمُبالَغةِ فيما هو المَقصودُ الَّذي هو بَيانُ عدَمِ نَفْعِ الملائكةِ للعَبَدةِ، بنَظْمِه في سِلكِ عدَمِ نفْعِ العَبَدةِ لهم؛ كأنَّ نَفْعَ الملائكةِ لِعَبَدتِهم في الاستِحالةِ والانتِفاءِ كنَفْعِ العَبَدةِ لهم. وتَقييدُ هذا الحُكمِ بذلك اليومِ مع ثُبوتِه على الإطلاقِ؛ لانعِقادِ رَجائِهم على تَحقُّقِ النَّفعِ يومَئذٍ[(٢)].

- وقُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِه في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾؛ لأنَّ النَّفعَ والضَّرَّ يومَئذٍ قد اختَصَّ صَغيرُهما وكَبيرُهما باللهِ تعالى،

= أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

قال ابن عثيمين: (الحِكمةُ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ وجعَلَه مُبهَمًا؛ لِيَشملَ العابدَ والمعبودَ، والتَّابعَ والمتبوعَ؛ فكلُّ أحدٍ يومَ القيامةِ لا يملكُ لأحدٍ نفعًا ولا ضرًّا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥٥).

خِلافَ ما كان في الدُّنيا مِن نفْعِ الجِنِّ عُبَّادَهم ببَعضِ المنافعِ الدُّنيويَّةِ، ونَفْعِ المُشركينَ الجِنَّ بخِدمةِ وَساوِسِهم، وتَنفيذِ أغراضِهم مِن الفِتنةِ والإضلالِ، وكذلك الضُّرُّ في الدُّنيا أيضًا. وقُدِّمَ النَّفعُ في حيِّزِ النَّفيِ تأييسًا لهم؛ لأنَّهم كانوا يَرجُون أنْ يَشفَعوا لهم يَومَئذٍ(١).

- وعَطْفُ نَفْيِ الضَّرِّ على نَفْيِ النَّفعِ، مع أنَّه لا بَحْثَ عنه أصلًا؛ إمَّا لِتَعميمِ العَجزِ، والدَّلالةِ على سَلْبِ مَقدرتِهم على أيِّ شَيءٍ؛ فإنَّ بَعضَ الكائناتِ يَستطيعُ أنْ يَضُرَّ، ولا يَستطيعُ أنْ يَنفَعَ؛ كالعَقربِ(٢)، أو لِحَملِ عدَمِ النَّفعِ على تَقديرِ العِبادةِ، وعدَمِ الضَّرِّ على تقديرِ تَرْكِها، فالعبادةُ أيضًا تقَعُ لدَفعِ ضرِّ المعبودِ، فبُيِّنَ أنَّهم ليس فيهم ذلك الوجهُ الَّذي يَحسُنُ لأجْلِه عبادتُهم(٣)؛ تحقيقًا لقطعِ جميعِ الأسبابِ الَّتي كانت في دارِ التَّكليفِ مِن دارِ الجزاءِ الَّتي المقصودُ فيها تمامُ إظهارِ العَظَمةِ لله وحْدَه على أتمِّ الوُجوهِ(٤)، أو لأنَّ المُرادَ دفْعُ الضَّرِّ، على حَذْفِ المُضافِ(٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [سبأ: ٤٠]، وقد وقَعَ الإخبارُ عن هذا القَولِ بعدَ الإخبارِ عن الحِوارِ الَّذي يَجري بيْنَ الملائكةِ وبيْنَ المُشركين يَومَئذٍ؛ إظهارًا لاستِحقاقِهم هذا الحُكمَ الشَّديدَ، ولِكَونِه كالمَعلولِ لِقَولِه: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

- قولُه: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وَصْفُ النَّارِ بالَّتي كانوا يُكذِّبون بها؛ لِمَا في صِلةِ الموصولِ مِن إيذانٍ بغَلَطِهم وتَنْديمِهم[١].

- قولُه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عُلِّقَ التَّكذيبُ هنا بنَفْسِ النَّارِ؛ فجِيءَ باسمِ الموصولِ المناسِبِ لها فقِيل: ﴿الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، ولم يُعلَّقْ بالعذابِ كما في آيةِ سُورةِ (السَّجدةِ)، حيثُ قيل: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ القولَ المُخبَرَ عنه هنا هو قولُ اللهِ تعالى وحُكمُه، وقد أذِنَ بهم إلى جهنَّمَ وشاهَدُوها، كما قال تعالى آنفًا: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ فإنَّ الَّذي يَرَى هو ما به العذابُ. وأمَّا القولُ المَحكيُّ في سُورةِ (السَّجدةِ) فهو قولُ مَلائكةِ العذابِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُه[٢].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٥).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ
(٤٣) وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصُدَّكُمْ﴾: أي: يَصرِفكم ويَمنعَكم، والصَّدُّ والصُّدُودُ: الانصرافُ عن الشَّيءِ والامتناعُ، وأيضًا: الصَّرفُ والمنعُ، وأصلُ (صدد): يَؤولُ إلى إعراضٍ وعُدولٍ[1].

﴿إِفْكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿مُّفْتَرًى﴾: أي: مُختَلَقٌ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديم)، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ[3].

﴿يَدْرُسُونَهَا﴾: أي: يَقرؤُونَها، والدَّرْسُ: الطَّريقُ الخفيُّ، يقالُ: دَرَسْتُ القرآنَ

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

وغيرَه؛ وذلك أنَّ الدَّارسَ يَتتبَّعُ ما كان قَرَأ، كالسَّالِك للطَّريقِ يَتتبَّعُه، وأصلُ (درس): يدُلُّ على خَفاءٍ وخفضٍ وعَفاءٍ(١).

﴿مِعْشَارَ﴾: أي: عُشْرَ، وأصلُ (عشر) هنا: عددٌ معلومٌ، ثمَّ يُحمَلُ عليه غيرُه(٢).

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري وتَغْييري وعُقوبَتي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن أقوالِ المشركينَ في شأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والقرآنِ: وإذا تُتلى على مُشركي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ الواضحةُ الدَّلالةِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ، قالوا عندَ سماعِهم لها: ما محمَّدٌ إلَّا رجلٌ يُريدُ أن يَصرِفَكم عن عِبادةِ الأصنامِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤكم! وقالوا: ما هذا الَّذي يَتلوه علينا إلَّا كَذِبٌ مُختَلَقٌ! وقال الكُفَّارُ في القُرآنِ لَمَّا جاءَهم: ما هذا إلَّا سِحرٌ ظاهِرٌ!

ثُمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه أنَّ أقوالَهم هذه لا تَستنِدُ إلى دليلٍ، فيقولُ: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قبْلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبْلَك -يا محمَّدُ- من نذيرٍ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٢).

ثُمَّ يُبيِّنُ لهم اللهُ تعالى هَوانَ أمرِهم بالنِّسبةِ لِمَن سبَقوهم، فيقولُ: وكذَّب الَّذين مِن قبْلِ كُفَّارِ قُريشٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقةِ، وما بلغَ كفَّارُ قُرَيشٍ عُشْرَ ما آتَيْناه لأولئك المكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم؛ مِنَ الأموالِ والأولادِ والقُوَّةِ، فلمَّا كذَّبوا أهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ المُشركينَ هم أهلُ النَّارِ يومَ القيامةِ، وأنَّه يُقالُ لهم يَومَئذٍ: ذوقوا عذابَها الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ- أعقَبَ ذلك بذِكرِ ما لأجْلِه استَحَقُّوا هذا العذابَ[1].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾.

أي: وإذا تُتلى على مُشركي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحةُ الدَّلالةِ في ألفاظِها ومَعانيها، وأنَّها حَقٌّ من عندِ اللهِ؛ قالوا عندَ سَماعِهم لها: ما مُحمَّدٌ إلَّا رَجُلٌ يريدُ بدَعوتِكم أن يَصرِفَكم عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤُكم[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥)، =

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما هذا الَّذي يُتْلى علينا إلَّا كَذِبٌ مُختلَقٌ[1]!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ لَمَّا جاءَهم القُرآنُ: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾﴾.

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٠-٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

ومعنى ﴿إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾: أي أنَّه كَذِبٌ في حَدِّ ذاته غيرُ مُطابِقٍ للواقِعِ، وهو مُختَلَقٌ على اللهِ مِن حيثُ نِسبتُه إليه؛ وعليه فـ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ تأسيسٌ لا تأكيدٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: العُلَيمي، والقِنَّوْجي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٣).

قال ابن عاشور: (والإفْكُ: الكَذِبُ، ووَصْفُه بالمُفترى: إمَّا أن يتوجَّهَ إلى نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، أو أُريدَ أنَّه في ذاته إفكٌ، وزادوا فجعَلوه مُختَرَعًا مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ليس مسبوقًا به؛ فكَوْنُه إفكًا يَرجِعُ إلى جميعِ ما في القُرآنِ، وكَوْنُه مُفترًى يُرجِعونَه إلى ما فيه مِن قَصَصِ الأوَّلينَ. وهذا القَولُ مِن بهتانِهم؛ لأنَّهم كثيرًا ما يقولونَ: أساطيرُ الأوَّلينَ؛ فليس ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ تأكيدًا لـ﴿إِفۡكٞ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ما ردَّ الكافِرونَ به الحَقَّ، وأنَّها أقوالٌ دونَ مَرتبةِ الشُّبهةِ، فَضلًا أن تكونَ حُجَّةً؛ ذكَرَ أنَّهم وإن أراد أحَدٌ أن يحتَجَّ لهم، فإنَّهم لا مُستندَ لهم، ولا لهم شَيءٌ يعتَمِدونَ عليه أصلًا(١).

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قَبلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ عطية: (المعنى: وما أرسَلْنا مِن نذيرٍ يُشافِهُهم بشَيءٍ، ولا يُباشِرُ أهلَ عَصرِهم ولا مَن قَرُب مِن آبائِهم، وإلَّا فقد كانت النِّذارةُ في العالَمِ وفي العَرَبِ مع شُعَيبٍ وصالحٍ وهودٍ، ودعوةُ اللهِ وتوحيدُه قائمٌ، لم تَخْلُ الأرضُ مِن داعٍ إليه؛ فإنَّما معنى هذه الآيةِ: ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾ يختَصُّ بهؤلاءِ الَّذين بعَثْناك إليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤).

واختلَف المفَسِّرون في المرادِ بهذه الآيةِ، فقيل: المعنى: أنَّهم لم يَقرؤوا بُطلانَ ما جئتَ به في كتابٍ أُوتوه، ولا سَمِعوه مِن رسولٍ بُعِث إليهم؛ فليس لتكذيبِهم وجْهٌ يَتشَبَّثونَ به، ولا مُستَنَدٌ يَعتَمِدونَ عليه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٩).

وقيل: المعنى: أنَّهم قَومٌ أُمِّيُّونَ لا يَقرؤونَ ولم يُبعَثْ إليهم نبيٌّ؛ فكان الأليقُ بهم أن يَفرَحوا بالقُرآنِ وبإرسالِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأن يَقبَلوا ما جاء به؛ فهم في أشدِّ الحاجةِ لذلك؛ فكيف رفَضوا اتِّباعَ الرَّسولِ وتلقِّي القُرآنِ، وكان الأجدَرُ أن يَغتَبِطوا بذلك؟! وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ * بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بشَّر اللهُ تعالى وأنذَرَ، وأبان بالحُجَّةِ والبُرهانِ ما كان فيه المَقنَعُ لهم لو كانوا يَعقِلونَ؛ سَلَك بهم سَبيلَ التَّهديدِ والوعيدِ، وضَرَب لهم المَثَلَ بالأُمَمِ الَّتي كانت قَبْلَهم(١).

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾.

أي: وكذَّب الَّذين من قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَمِ السَّابِقةِ، كعادٍ وثمودَ، وما بلَغَ كُفَّارُ مَكَّةَ عُشرَ الَّذي آتَيْناه لتلك الأُمَمِ الماضيةِ؛ مِن العَدَدِ، والأموالِ، والأولادِ، والقُوَّةِ، وغَيرِ ذلك مِنَ النِّعَمِ(٢)!

= وممَّن حمَل الآيةَ على كِلا الوجهَين: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٠-٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٣).

قال السمعاني: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ أنَّ المرادَ من الآيةِ هو أنَّ هؤلاء الكفَّارَ -وهم قُرَيشٌ- ما بلَغوا مِعشارَ ما آتَيْنا الَّذين مِن قَبْلِهم في القوَّةِ والمالِ والآلةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٩).

كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلي فيما جاؤوهم به مِنَ الحَقِّ، فأهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم[1]؟

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أنَّ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بيِّناتٌ ليس فيها خَفاءٌ، وعلى هذا فما يُشكِلُ على بعضِ أهلِ العلمِ من أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فليس مَصدرُه أنَّ الوَحيَ خَفِيٌّ، ولكِنَّ مَصدرَه قصورُ النَّاظرِ في الوَحيِ أو تقصيرُه: قصورُه بحيثُ لا يكونُ عنده عِلْمٌ، أو لا يكونُ عنده فَهمٌ؛ وتقصيرُه بحيثُ لا يَطلُبُ العِلمَ، ولا يَطلُبُ الفَهمَ؛ وإلَّا فإنَّ آياتِ اللهِ تعالى بيِّناتٌ، ولا يمكِنُ أنْ تَحدُثَ حادِثةٌ إلى يومِ القيامةِ إلَّا في كتابِ اللهِ تعالى بيانُها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

قال السعدي: (فاحذَروا -يا هؤلاءِ المكذِّبونَ- أن تَدوموا على التَّكذيبِ؛ فيَأخُذَكم كما أخَذَ مَن قَبْلَكم، ويُصيبَكم ما أصابهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

ولكنْ ليس كلُّ أحدٍ يستطيعُ أنْ يَتبيَّنَها مِن القرآنِ؛ فتجدُ الآيةَ الواحدةَ يتلوها جماعةٌ ويَتفكَّرونَ فيها، يَستنبِطُ أحدُهم منها مَسائِلَ عديدةً، والآخَرُ لا يَستنبِطُ منها إلَّا مسألةً أو مَسألتَينِ!

وبيانُ الآياتِ إمَّا أنْ تكونَ هي بذاتِها بَيِّنةً واضحةً، وإمَّا أنْ يكونَ عن طريقِ السُّنَّةِ: تُبَيِّنُ المُجمَلَ، وتُفَسِّرُ المُشْكِلَ، وتُقَيِّدُ المُطْلَقَ، وتُخَصِّصُ العامَّ(١).

٢- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، فقالوا كما حكاه الله عنهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، ولم يقولوا: «عَمَّا كنتم تعبُدونَ»؛ لإثارةِ الحَمِيَّةِ في نفوسِهم؛ لأنَّ الإنسانَ يَصعُبُ عليه أنْ يَدَعَ ما كان آباؤُه عليه، لا سيَّما مِثلُ هؤلاءِ الجَهَلةِ، ولو قالوا: «عمَّا كنتُم تَعبُدونَ» لَكان يمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم عبَدوا على غيرِ أساسٍ، لكنْ لَمَّا قالوا: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأنَّ هذه العبادةَ لهذه الأصنامِ أمرٌ مُستقِرٌّ كان عليه الآباءُ، ولا ينبغي لكم أنْ تَترُكوا مِلَّةَ آبائِكم؛ ولهذا يقولونَ كما حكى اللهُ عنهم في آياتٍ أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] أو ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] آيتانِ(٢)؛ لأنَّهم يَجعَلونَ آباءَهم أهلَ الرَّأيِ فيما ارتَأَوا، والتَّسديدِ فيما فَعَلوا؛ فلا يَرَونَ إلَّا حَقًّا، ولا يَفعَلونَ إلَّا صَوابًا وحِكمةً(٣)!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ بيانُ عُتُوِّ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث كانوا -مع هذه الآياتِ البَيِّناتِ- يَدَّعُونَ هذه الدَّعوى الباطِلةَ، وهي أنَّ الرَّسولَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يريدُ إلَّا أنْ يَصُدَّهم عمَّا كان يَعبُدُ آباؤُهم[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ هو مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه وأبيَنِه؛ فهم لم يَصِفوه بالسِّحرِ إلَّا لأنَّه يأخُذُ بالقُلوبِ، ويَجُرُّ النَّاسَ إليه جَرًّا، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البيانِ لَسِحرًا))[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّه حينَ جاءَهم لم يُفكِّروا فيه، بل بادَروه بالإنكارِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ مَن نَسَبَ الكَذِبَ إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أوحى اللهُ تعالى إليه، فهو كافِرٌ؛ لأنَّه وصَفَهم بالكُفرِ مُسنَدًا إلى هذا القَولِ؛ فيكونُ ذلك سبَبًا لِكُفرِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ بيانُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى العُظمَى على العَرَبِ بما بعَثَ إليهم، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا أُمَّةً جاهِلةً ليس عندَهم كُتُبٌ تُدرَسُ، ولم يأتِهم نذيرٌ يُخبِرُهم ويُعَلِّمُهم؛ فهم أشدُّ النَّاسِ حاجةً إلى الرَّسولِ، وإذا اشتدَّتِ الحاجةُ ثمَّ جاء ما يُزيلُ تلك الحاجةَ، كان هذا أعظَمَ مِنَّةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ أنَّه ليس في العَرَبِ رسولٌ -بعدَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ- إلَّا محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو كذلك، وما ذَكَرَ بعضُ المُؤرِّخينَ مِن أنَّه وُجِدَ في الجاهليَّةِ رُسُلٌ -منهم خالدُ ابنُ سِنَان- فهذا لا أصلَ ولا صِحَّةَ له؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((ليسَ بيني وبينَ عيسَى نبيٌّ))[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ وهو مُستغنًى عنه بقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؟

الجوابُ: لَمَّا كان معنى قَولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: وفَعَلَ الَّذين مِن قَبلِهم التَّكذيبَ، وأقدَموا عليه- جعَل تكذيبَ الرُّسُلِ مُسَبَّبًا عنه، ونظيرُه أن يقولَ القائلُ: (أقدَمَ فُلانٌ على الكُفرِ، فكفَرَ بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم)، ويجوزُ أن يُعطَفَ على قَولِه: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾، كقولِك: ما بلَغ زَيدٌ مِعشارَ فَضلِ عَمرٍو فيُفضَّلَ عليه[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وقولِه سُبحانَه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ وغَيرِها مِن الآياتِ الَّتي تُضيفُ الفِعلَ إلى الفاعِلِ: ردٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ العبدَ مُجبَرٌ على فِعلِه، ليس له فيه اختيارٌ[٣]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ أفرد الضَّميرَ كما هو حقُّه، ونصًّا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٣). والحديث أخرجه مسلم (٢٣٦٥).

قال ابنُ كثير: (قال غيرُ واحدٍ مِن العلماءِ: إنَّ الله تعالى لم يبعَثْ بعدَ إسماعيلَ نبيًّا في العربِ إلَّا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم خاتمَ الأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٦).

أنَّ النُّونَ فيما مضى -في قولِه: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾- للعَظَمةِ لا للجَمعِ؛ دفعًا لتعنُّتِ مُتعَنِّتٍ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أنَّ الإنكارَ يكونُ بالفعلِ كما يكونُ بالقولِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إنكارَ اللهِ تعالى عليهم ليس بالقولِ فقط، بل بالفعلِ والعقوبةِ، فعقوبةُ المجرمينَ هي إنكارٌ بالفعلِ[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استعمالُ قياسِ الأَولى؛ فإذا أخَذَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأقوياءَ الأشِدَّاءَ الأكثَرَ أموالًا وأولادًا بجُرْمِهم: فهؤلاء الَّذين دُونَهم مِن بابِ أَولى[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بيانٌ لِبَعضٍ آخَرَ مِن كُفرانِهم، وانتِقالٌ مِن حِكايةِ كُفرِهم وغُرورِهم، وازْدِهائِهم بأنفُسِهم، وتَكذيبِهم بأُصولِ الدِّيانةِ؛ إلى حِكايةِ تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأتبَعَ ذلك بحِكايةِ تَكذيبِهم الكتابَ والدِّينَ الَّذي جاء به؛ فكان كالفَذْلَكةِ[(٤)] ....

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

(٤) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلكَ كذا وكذا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد =

لِمَا تَقدَّمَ مِن كُفرِهم[١].

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ ...﴾ فيه إيرادُ حِكايةِ تكذيبِ الكفَّارِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُقيَّدةً بالزَّمنِ الَّذي تُتْلى عليهم فيه آياتُ اللهِ البيِّناتُ؛ للتَّعجُّبِ مِن وَقاحتِهم؛ حيثُ كذَّبوه في أجدَرِ الأوقاتِ بأنْ يُصَدِّقوه عندَها؛ لأنَّه وَقتُ ظُهورِ حُجَّةِ صِدقِه لكلِّ عاقلٍ مُتبصِّرٍ. وللاهتِمامِ بهذا الظَّرفِ والتَّعجُّبِ مِن مُتعلَّقِه قُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِه، والتَّشوُّقِ إلى الخبَرِ الآتي بعْدَه، وأنَّه مِن قِبَلِ البُهتانِ والكُفرِ البَواحِ[٢].

- وحُذِفَ فاعلُ التِّلاوةِ؛ لِظُهورِ أنَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ هو تالي آياتِ اللهِ. والإشارةُ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واستَحْضَروه بطَريقِ الإشارةِ دونَ الاسمِ؛ إفادةً لِحُضوره مَجلسَ التِّلاوةِ، وذلك مِن تَمامِ وَقاحتِهم، وابتَدؤوا بالطَّعنِ في التالي؛ لأنَّه الغرَضُ الَّذي يَرْمُون إليه، وأثْبَتوا له إرادةَ صَدِّهم عن دِينِ آبائِهم قَصْدَ أنْ يُثيرَ بعضُهم حَميَّةَ بَعضٍ؛ لأنَّهم يَجعَلون آباءَهم أهلَ الرَّأيِ والتَّسديدِ، والصَّوابِ والحِكمةِ؛ فلا جَرَمَ أنَّ يكونَ مُريدُ الصَّدِّ عنها مُحاوِلًا الباطلَ، وكاذبًا في قولِه؛ لأنَّ الحقَّ مُطابِقُ الواقعِ، فإبطالُ ما هو حقٌّ في زَعمِهم قولٌ غيرُ مُطابقٍ للواقعِ؛ فهو الكذِبُ[٣]! وقيل: أَتَوا بصيغةِ الحاضرِ: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ وإن كان غائبًا؛ للاحتقارِ، وقولُهم: ﴿إِلَّا

= سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٦).

رَجُلٌ ﴾ للإنكارِ؛ لأنَّهم أتَوْا به بصيغةِ النَّكرةِ، كأنَّهم لا يَعرِفونَه، كأنَّه رجُلٌ أجنبيٌّ منهم(١)!

- وفي التَّعبيرِ بالفِعلِ (كان) في قولِهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾: إشارةٌ إلى أنَّهم عَنَوا أنَّ تلك عِبادةٌ قَديمةٌ ثابتةٌ، وفي ذلك إلْهابٌ لِقُلوبِ قَومِهم وإيغارٌ لِصُدورِهم؛ لِيَتألَّبوا على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَزْدادوا تَمسُّكًا بدِينِهم. وفي قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ قد قَصَروا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على صِفَةِ إرادةِ صَدِّهم قَصْرًا إضافيًّا(٢)، أي: إلَّا رجلٌ صادٌّ، فما هو برَسولٍ(٣).

- وفي قولِهم: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ إضافةُ الآباءِ إلى المخاطَبينَ لا إلى أنفُسِهم؛ لِتَحريكِ عِرْقِ العَصبيَّةِ منهم؛ مُبالَغةً في تَقريرِهم على الشِّركِ، وتَنفيرِهم عن التَّوحيدِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أتبَعوا وَصْفَ التَّالي بوَصْفِ المَتلُوِّ بأنَّه كذِبٌ مُفترًى. وإعادةُ فِعلِ القولِ؛ للاهتِمام بحِكايةِ قَولِهم؛ لِفَظاعتِه، وكذلك إعادةُ فِعلِ القولِ إعادةً ثابتةً؛ للاهتِمامِ بكلِّ قَولٍ من القَولَينِ الغَريبَينِ؛ تَشنيعًا لهما في نفْسِ السَّامعينَ(٥).

- ثمَّ حَكَى تَكذيبَ الكافرينَ الَّذي يَعُمُّ جميعَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن وَحيٍ يُتْلَى، أو دَعوةٍ إلى التَّوحيدِ وغيرِه، أو استِدلالٍ عليه، أو مُعجِزةٍ؛ بقولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فهذا المقالُ الثَّالثُ في الآيةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٢، ٢٦٨).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

ويَشملُ ما تقدَّمَ وغيرَه؛ فحِكايةُ مَقالِهم هذا تَقومُ مَقامَ التَّذييلِ(١).

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في تَكريرِ الفعلِ (قالَ)، والتَّصريحِ بذِكرِ الكفرةِ، وفي قولِه: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، وما في اللَّامينِ مِن الإشارةِ إلى القائلينَ والمَقولِ فيه، وفي ﴿لَمَّا﴾ مِن المُبادَهةِ بالكُفرِ؛ دليلٌ على صُدورِ الكلامِ عن إنكارٍ عظيمٍ، وغَضبٍ شديدٍ، وتَعجُّبٍ مِن أمْرِهم بليغٍ؛ كأنَّه قال: وقال أولئك الكَفَرةُ المُتمرِّدون بجَراءتِهم على اللهِ، ومُكابَرتِهم لِمثلِ ذلك الحقِّ النَّيِّرِ قبْلَ أنْ يَذوقُوه: إنْ هذا إلَّا سِحرٌ مُبينٌ، فبَتُّوا القَضاءَ على أنَّه سِحرٌ، ثمَّ بَتُّوه على أنَّه بيِّنٌ ظاهرٌ، كلُّ عاقلٍ تأمَّلَه سمَّاهُ سِحرًا(٢)!

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ...﴾ فيه تَحميقٌ لجهالتِهم، وتَسفيهٌ لِرَأْيِهم، وتَعجُّبٌ مِن حالِهم، ورَفْضِهم الحقَّ حينَ لا مانعَ يَصُدُّهم(٣).

- ولم يُقيَّدْ إيتاءُ الكُتبِ بقَيدٍ -كما قُيِّدَ الإرسالُ بقولِه: ﴿قَبْلَكَ﴾-؛ لأنَّ الإيتاءَ هو التَّمكينُ مِن الشَّيءِ، وهمْ لم يَتمكَّنوا مِن القُرآنِ، بخِلافِ إرسالِ النَّذيرِ؛ فهو حاصلٌ سواءٌ تَقبَّلوه أمْ أعْرَضوا عنه(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

- قولُه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ...﴾ تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهديدٌ لِلَّذين كذَّبوه، ومَوقعُ التَّسليةِ في قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ومَوقعُ التَّهديدِ بقيَّةُ الآيةِ؛ فالتَّسليةُ في أنَّ له أُسوةً بالرُّسلِ السَّابقينَ، والتَّهديدُ بتَذكيرِهم بالأُمَمِ السَّالفةِ الَّتي كذَّبَت رُسلَها، وكيف عاقَبَهم اللهُ على ذلك وكانوا أشَدَّ قوَّةً منهم[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ لأنَّ المُرادَ منهم المُشرِكون، فقُدِّمَ اهتمامًا، وإيذانًا بأنَّ إيرادَ هذا الكلامِ سَببُه هؤلاء المُكذِّبون؛ تَهديدًا ووَعيدًا. والفاءُ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ باعتبارِ أنَّ المُفرَّعَ عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وبذلك كانت جُملةُ ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ تأكيدًا لِجُملةِ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ونَظيرُه قولُه تعالى في سورة (القمرِ): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ [القمَر: ٩]، وتكونُ الفاءُ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تأكيدًا لفظيًّا للفاءِ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾. ويجوزُ ألَّا تكونَ مُعترِضةً، بلْ يكونُ قولُه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ توطئةً وتَمهيدًا لقَولِه: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾، ويَنعطِفُ قولُه: ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ على ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾، أي: وما بلَغَ هؤلاءِ المُكذِّبون مِعشارَ ما آتَيْنا أولئك المُكذِّبين السَّابقينَ مِن طُولِ الأعمارِ، وقوَّةِ الأجرامِ، وكثرةِ الأموالِ؛ فكيف أقْدَموا على كُفرٍ أعظَمَ، وتكذيبٍ أبلَغَ مِن أولئك، فكذَّبوا سيِّدَ الرُّسلِ لدَلالةِ جميعِ الرُّسلِ؟! كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن قَبيلِ قولِه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وإنَّما كذَّبوه وَحْدَه؛ لأنَّ الرِّسالةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٩).

وصْفٌ جامعٌ، فيَلزَمُ مِن تكذيبِه تكذيبُهم[1].

- وقولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. و(كيف) استِفهامٌ عن الحالةِ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقريرِ والتَّفريعِ؛ فجُمْلَتا ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ في قوَّةِ جُملةٍ واحدةٍ مُفرَّعةٍ على جُملةِ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والتَّقديرُ: وكذَّبَ الَّذين مِن قبْلِهم، فكيف كان نَكيري على تكذيبِهم الرُّسلَ؟! ولكنْ لَمَّا كانت جُملةُ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مَقصودًا منها تَسليةُ الرَّسولِ ابتداءً، جُعِلَت مَقصورةً على ذلك؛ اهتِمامًا بذلك الغرَضِ، وانتصارًا مِن اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ خُصَّت عِبرةُ تَسبُّبِ التَّكذيبِ في العِقابِ بجُملةٍ تَخُصُّها؛ تَهويلًا للتَّكذيبِ، وهو مِن مَقاماتِ الإطنابِ، فصادَفَ أنْ كان مَضمونُ الجُملتينِ مُتَّحِدًا اتِّحادَ السَّببِ لِمُسبَّبين، أو العِلَّةِ لِمَعلولين، كعِلَّةِ السَّرقةِ للقطْعِ والغُرْمِ. وبُنِيَ النَّظمُ على هذا الأُسلوبِ الشَّيِّقِ؛ تَجنُّبًا لِثِقَلِ إعادةِ الجُملةِ إعادةً ساذَجةً؛ ففُرِّعَت الثَّانيةُ على الأُولى، وأُظهِرَ فيها مَفعولُ (كَذَّبَ)، وبُنِيَ عليه الاستِفهامُ التَّقريريُّ التَّفظيعيُّ، أو فُرِّعَ التَّكذيبُ الخاصُّ على التَّكذيبِ الَّذي هو سَجيَّتُهم العامَّةُ، على الوَجْهِ الثَّاني في مَعنى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

- ولفظُ ﴿نَكِيرِ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ، وهو مُضافٌ إلى ياءِ المُتكلِّمِ، وحُذِفَت الياءُ للتَّخفيفِ، مع التَّنبيهِ عليها ببَقاءِ الكَسرةِ على آخرِ الكلمةِ، ولِيُناسِبَ الفاصِلةَ، وكُتِبَ في المُصحَفِ بدُون ياءٍ وبوَقفٍ عليه بالسُّكونِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٦-٥٠)

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا
بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ
أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ
ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ
نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جِنَّةٍ﴾: أي: جُنونٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ؛ وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه[(١)].

﴿يَقْذِفُ﴾: أي: يُلْقي، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّميِ والطَّرحِ[(٢)].

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: أي: زال الباطِلُ وهلَك؛ فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يُعيدُ؛ فالإبداءُ والإعادةُ مِن صفةِ الحيِّ، فعدمُهما عبارةٌ عن الهلاكِ، وأصلُ (بدأ): يدُلُّ على افتتاحِ الشَّيءِ، وأصلُ (عود): يدُلُّ على تثنيةٍ في الأمرِ؛ عَوْدًا بعدَ بَدْءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢) و(٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣)، ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ملقِّنًا نبيَّه الحُجَجَ القاطعةَ، والأقوالَ الحكيمةَ، الَّتي تهدي إلى الحقِّ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنَّما أنصَحُكم بخَصلةٍ واحِدةٍ: أن تقوموا مُخلِصينَ لله تعالى دونَ اتِّباعِ أهوائِكم، مُجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وواحِدًا واحِدًا، ثمَّ تَتفكَّروا في شأنِ مُحمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس به مِن جُنونٍ! فما محمَّدٌ إلَّا نذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنْ سَألْتُكم أجرًا فهو لكم؛ فما أجري على البلاغِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ.

وقُلْ لهم: إنَّ رَبِّي يُلْقي الوَحيَ على رَسولِه، وهو سبُحانَه علَّامُ الغُيوبِ.

وقُلْ لهم: جاء القرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وذهَبَ الباطِلُ ذَهابًا كُلِّيًّا فلم يَبقَ له بقيَّةٌ.

وقُلْ لهم: إنْ ضلَلْتُ عن الهُدى فإنَّما إثْمُ ضَلالي على نَفْسي لا عليكم، وإنِ اهتدَيتُ فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي باتِّباعِ ما أوحى إلَيَّ، إنَّ ربِّي سَميعٌ قَريبٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذكَرَ الأصولَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ بعدَما سَبَق منه تقريرُها بالدَّلائلِ؛ فقَولُه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارةٌ إلى التَّوحيدِ، وقَولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ [سبأ: ٤٦] إشارةٌ إلى الرِّسالةِ، وقَولُه: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾

[سبأ: ٤٦] إشارةٌ إلى يَومِ الآخرةِ[١].

وأيضًا لَمَّا أبطل اللهُ تعالى شُبَهَ الكافِرينَ كُلَّها، وليَّن مِن عَريكتِهم بالتَّنبيهِ على التَّحذيرِ؛ فصاروا جديرينَ بقَبولِ الوَعظِ، وكان ممَّا رَمَوه به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وحاشاه- الجنونُ وتعمُّدُ الكَذِبِ؛ فرَدَّ عليهم تعالى، فقال[٢]:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: إنَّما أُشيرُ عليكم وأنصَحُكم بالقيامِ بخَصلةٍ واحِدةٍ فحَسْبُ[٣].

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

أي: أن تَقوموا بهِمَّةٍ واجتِهادٍ على وَجهِ الإخلاصِ للهِ تعالى، واستِحضارِ عَظَمتِه، دونَ اتِّباعٍ لهوًى، أو تعصُّبٍ لِعَشيرةٍ، فتَقوموا مجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وفَرْدًا فَردًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٢).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالواحدةِ: القيامُ للهِ مَثْنى وفُرادى؛ للتَّفكُّرِ في أمرِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾.

أي: ثمَّ تَتفكَّروا مع غَيرِكم ومع أنفُسِكم في شأنِ محمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس بصاحِبِكم الَّذي خالطْتُموه وعرَفْتُم أحوالَه ورَجاحةَ عَقلِه: مِن جُنونٍ(١)!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

= (٢/ ١٦٩)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

وقيل: المرادُ بالواحدةِ: كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

قال القرطبي: (الوَقفُ عند أبي حاتمٍ وابنِ الأنباريِّ على ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾. وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثمَّ تتفكَّروا هل جرَّبتُم على صاحِبِكم كَذِبًا، أو رأيتُم فيه جِنَّةً، أو في أحوالِه مِن فسادٍ، أو اختلَف إلى أحدٍ ممَّن يَدَّعي العِلمَ بالسِّحرِ، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتُبَ، أو عرَفتُموه بالطَّمَعِ في أموالِكم، أو تَقدِرونَ على مُعارَضتِه في سورةٍ واحدةٍ؟! فإذا عرَفتُم بهذا الفِكرِ صِدقَه، فما بالُ هذه المعانَدةِ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١١، ٣١٢).

وممَّن جعَل الوَقفَ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾، وتكونُ جملةُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ استئنافًا مِن كلامِ اللهِ تعالى؛ تكذيبًا لهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٠).

وممَّن أثبَت محذوفًا تقديرُه: فتَعْلَموا، أو: فتتَبيَّنوا... ونحو ذلك، على معنى: ثمَّ تَتفكَّروا فتَعْلَموا أنَّه ما بصاحِبِكم مِن جِنَّةٍ: ابنُ جُزَي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾.

أي: ما مُحمَّدٌ إلَّا نَذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا وقَريبًا قبْلَ حُلولِه بكم؛ لِكُفرِكم[1].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((صَعِدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّفا ذاتَ يوم، فقال: يا صَباحاه[2]! فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، قالوا: ما لَك؟ قال: أرأيتُم لو أخبَرْتُكم أنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكم أو يُمَسِّيكم، أمَا كنتُم تُصَدِّقُوني؟ قالوا: بلى، قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك، ألهذا جمعْتَنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]))[3].

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما به جِنَّةٌ؛ لِيَلزَمَ منه كَونُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨١).
قال ابن عثيمين: (يعني: ما محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا رجُلٌ من أعقَلِ النَّاس، ومِن أحَنِّ النَّاسِ على قَومِه... فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هذه حالُه، رجُلٌ عاقلٌ ناصِحٌ لقومِه حانٍ عليهم؛ لأنَّ الَّذي يُنذِرُك مِن العذابِ يُعتبَرُ مُحسِنًا إليك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨١).

(٢) هذه كلِمةٌ يقولُها المُستغيثُ، وأصلُها إذا صاحوا للغارةِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ما كانوا يُغيرون عندَ الصَّباحِ، ويُسَمُّون يومَ الغارةِ يومَ الصَّباحِ، فكأنَّ القائلَ «يا صَباحاه» يقولُ: قد غَشِيَنا العدوُّ. وقيل: إنَّ المُتقاتِلينَ كانوا إذا جاء اللَّيلُ يَرجِعون عن القتالِ، فإذا عاد النَّهارُ عاوَدوه، فكأنَّه يريدُ بقولِه «يا صَباحاه»: قد جاء وقتُ الصَّباحِ، فتأهَّبوا للقتالِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٦، ٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨).

نَبيًّا- ذكَرَ وَجهًا آخَرَ يَلزَمُ منه أنَّه نبيٌّ، إذا لم يكُنْ مَجنونًا؛ لأنَّ مَن يَرتكِبُ العناءَ الشَّديدَ لا لغرَضٍ عاجلٍ إذا لم يكُنْ ذلك فيه ثوابٌ أُخرويٌّ يكونُ مجنونًا؛ فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بدَعواه النُّبُوَّةَ يَجعَلُ نفْسَه عُرضةً للهَلاكِ عاجِلًا؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يَقصِدُه ويُعاديه، ولا يَطلُبُ أجرًا في الدُّنيا؛ فهو يَفعَلُه للآخرةِ، والكاذِبُ في الآخرةِ مُعَذَّبٌ لا مُثابٌ، فلو كان كاذِبًا لَكان مجنونًا، لكِنَّه ليس بمجنونٍ؛ فليس بكاذبٍ؛ فهو نبيٌّ صادِقٌ(١).

وأيضًا لَمَّا كان ثَمَّ مانعٌ للنُّفوسِ آخَرُ عن اتِّباعِ الدَّاعي إلى الحَقِّ، وهو أنَّه يأخُذُ أموالَ مَن يَستجيبُ له، ويأخُذُ أُجرةً على دَعوتِه؛ بيَّن اللهُ تعالى نزاهةَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن هذا الأمرِ(٢).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنْ سألْتُكم أجرًا فهو لكم؛ فلا أُريدُ منكم أجرًا على تَبليغي رِسالةَ اللهِ إليكم، ولا تَظُنُّوا أنِّي أدعوكم إلى الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وأُنذِرُكم عذابَه لآخُذَ شَيئًا مِن أموالِكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ما أَجْري على تَبليغِكم رِسالةَ اللهِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦). =

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ حاضِرٌ؛ فهو يَشهَدُ على حقيقةِ ما أقولُه لكم وأدعوكم إليه، ولو كُنتُ كاذِبًا لأخَذَني بعذابٍ، وشَهيدٌ على أنَّني بلَّغتُكم وأنذَرْتُكم، فكذَّبتُموني وخالَفْتُم، فأجري على اللهِ، وعُقوبتُكم عليه(١).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم بقَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾، وأكَّده بقَولِه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، وكان من عادةِ المُشرِكينَ استِبعادُ تخصيصِ واحدٍ مِن بيْنِهم بإنزالِ الذِّكرِ عليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]- ذكَرَ ما يَصلُحُ جوابًا لهم، مع الإشارةِ إلى أنَّ الأمرَ بيَدِه، يَفعَلُ ما يُريدُ، ويُعطي ما يَشاءُ لِمَن يشاءُ(٢).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُلقي الوَحيَ على رَسولِه(٣).

= قال البقاعي: (فإذا ثبت أنَّ الدُّعاءَ [أي: الدَّعوةَ إلى الله] ليس لغَرَضٍ دُنيويٍّ، وأنَّ الدَّاعيَ أرجَحُ النَّاسِ عقلًا؛ ثبَتَ أنَّ الَّذي حمَلَه على تعريضِ نفْسِه لتلك الأخطارِ العَظيمةِ إنَّما هو أمرُ اللهِ الَّذي له الأمرُ كُلُّه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٧، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

قال الزمخشري: (معنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يُلقيه ويُنزِلُه إلى أنبيائِه، أو يَرمي به الباطِلَ فيَدمَغُه ويُزهِقُه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩١). =

﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

أي: العلَّامُ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلقِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ[(١)].

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه يَقذِفُ بالحَقِّ، وكان ذلك بصيغةِ الاستِقبالِ؛ ذكَرَ أنَّ

= وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ، وهو إلقاؤه وإنزالُه على رُسُلِه: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧١١).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو رمْيُ الباطِلِ وإبطالُه: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧).

وظاهِرُ عبارةِ الزَّجَّاجِ الجمعُ بيْنَهما؛ حيث قال: (ومعنى ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يأتي بالحَقِّ ويَرمي بالحَقِّ، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عاشور: (والمعنى: أنَّ رَبِّي يَقذِفُكم بالحَقِّ، أو هو إشارةٌ إلى قَولِه: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

قال السعدي: (فإنَّك كما ترى كيف اضمَحَلَّت أقوالُ المكَذِّبين، وتبيَّنَ كَذِبُهم وعِنادُهم، وظهَرَ الحقُّ وسَطَع، وبطَل الباطِلُ وانقَمَع؛ وذلك بسَبَبِ بيانِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ الَّذي يَعلَمُ ما تَنطوي عليه القُلوبُ مِن الوَساوِسِ والشُّبَهِ، ويَعلَمُ ما يُقابِلُ ذلك ويَدفَعُه مِنَ الحُجَجِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢، ٥٣٣).

ذلك الحَقَّ قد جاء[١].

وأيضًا لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى نفْسَه بنهايةِ العِلمِ؛ أتْبَعَه بعضَ آثارِه، فقال[٢]:

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: جاء الحقُّ الَّذي لا يَقدِرُ أحدٌ على إزالتِه وإبطالِه، بنُزولِ القُرآنِ المُشتَمِلِ على البيِّناتِ والحُجَجِ، وبدِينِ الإسلامِ[٣].

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

أي: واضمَحَلَّ الباطِلُ، وذهَبَ ذَهابًا لم يَبقَ معه إقبالٌ له ولا إدبارٌ؛ فلا أثَرَ له ولا وُجودَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحقِّ هنا القرآنُ والإسلامُ: الثعلبيُّ، والبغوي، والرسعني، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).

وممَّن اقتصَر في تفسيرِ الحقِّ على الإسلامِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٥).

وقال ابن جرير: (جاء القرآنُ ووَحْيُ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧).

وقال الماوَرْدي: (﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحَدُها: بَعثةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّاني: القرآنُ. قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: الجهادُ بالسَّيفِ. قاله ابنُ مسعودٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دخَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مكَّةَ، وحَوْلَ البَيت سِتُّونَ وثلاثُ مئةِ نُصُبٍ، فجعَل يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]))[١].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ الحَقِّ والباطِلِ، وكانوا يَزعُمونَ مِن مَجموعِ أقوالِهم أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- غيرُ صادِقٍ في دعوى الرِّسالةِ مِنَ اللهِ؛ كانت أقوالُهم تَقتَضي زَعْمَهم إيَّاه على ضلالٍ، وكان الرَّدُّ عليهم قاطعًا بأنَّه على هُدًى، بِقَولِه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، فانتقَل هنا إلى مُتاركةِ جِدالِهم،

= الشوكاني)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٤).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالباطِلِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه الشَّيطانُ، لا يَخلُقُ أحدًا ولا يَبعَثُه. قاله قَتادةُ.

والثَّاني: أنَّه الأصنامُ، لا تُبدئُ خَلْقًا ولا تُحيي. قاله الضَّحَّاكُ. وقال أبو سُلَيْمانَ: لا يَبتدئُ الصَّنمُ من عنده كلامًا فيُجابَ، ولا يَرُدُّ ما جاء مِن الحَقِّ بحُجَّةٍ.

والثَّالثُ: أنَّه الباطِلُ الَّذي يُضادُّ الحَقَّ، فالمعنى: ذهَب الباطلُ بمجيءِ الحقِّ، فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يعيدُ. ذكره جماعةٌ مِن المفسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٧٨١).

وتَرْكِهم وشأنَهم؛ لِقلَّةِ جَدوَى مُراجَعتِهم[١].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنْ ضلَلْتُ عن الهُدى، واتَّبَعْتُ غيرَ الحَقِّ؛ فإنَّما إثمُ ضلالي وضرَرُه على نَفْسي لا عليكم[٢]!

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾.

أي: وإنِ اتَّبعْتُ الحَقَّ واستقَمْتُ عليه، فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي إلى اتِّباعِ القُرآنِ الَّذي يُوحيه إلَيَّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي سَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ والأقوالِ، قَريبٌ مِن عبادِه سُبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّ رَبِّي سميعٌ لِما أقولُ لكم، حافِظٌ له، وهو المُجازي لي على صِدْقي في ذلك، قريبٌ منِّي، غيرُ بعيدٍ فيتعذَّرَ عليه سماعُ ما أقولُ لكم وما تقولونَ وما يقولُه غيرُنا، ولكِنَّه قريبٌ مِن كُلِّ متكلِّمٍ، يَسمَعُ كُلَّ ما يَنطِقُ به، وهو أقرَبُ إليه مِن حبلِ الوَريدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨).
=

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فجعَلَ النَّاسُ يَجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[1] على أنفُسِكم؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائِبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم))[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن طلَبَ الحقَّ أنْ يكونَ مُخلِصًا للهِ تعالى، بعيدًا عن الهوى[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ مَن وَثِقَ بنَفْسِه في رَصانةِ عَقلِه، وأصالةِ رأيِه، قام وحْدَه؛ لِيَكونَ

= وقال البِقاعي: (علَّلَ الضَّلالَ والهدى بقَولِه: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: رَبِّي ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: لا يَغيبُ عنه شَيءٌ مِن حالِ مَن يَكذِبُ عليه؛ فهو جديرٌ بأنَّه يَفضَحُه كما فضَحَكم في جميعِ ما تَدَّعُونَه، ولا يَبعُدُ عليه شَيءٌ لِيَحتاجَ في إدراكِه إلى تأخيرٍ؛ لِقَطعِ مَسافةٍ أو نحوِها، بل هو مُدرِكٌ لكُلِّ ما أراد كُلَّما أراد). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٥).

وقال ابنُ عثيمين: (يجبُ أنْ تَعلَمَ أنَّه مع قُربِه بذاتِه، فهو مُستوٍ على عَرشِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٠).

(١) ارْبَعُوا: أي: ارفُقوا بأنفُسِكم، واخفِضوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٢).

أصفَى لسِرِّه، وأعْوَنَ على خُلوصِ فِكرِه، ومَن خاف عليها ضمَّ إليه آخَرَ؛ ليُذَكِّرَه إن نَسيَ، ويُقَوِّمَه إن زاغَ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ﴾ جوازُ التَّعاوُنِ في طلَبِ الوُصولِ إلى الحقِّ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ دَعوةُ الإنسانِ المُعانِدِ للتَّأمُّلِ في الأمرِ والنَّظَرِ فيه؛ حتَّى لا يَتعجَّلَ بالرَّدِّ[3]، والفِكرةُ تَهدي غالبًا إلى الصَّوابِ إذا عَرِيَ صاحِبُها عمَّا يُشوِّشُ النَّظَرَ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنَّنا إذا أرَدْنا استِكشافَ حالِ الشَّخصِ، فإنَّنا نسألُ مُصاحِبَه الَّذي يُصاحِبُه ويُلازِمُه؛ لأنَّه أعلَمُ النَّاسِ به[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ استِعمالُ الأوصافِ الَّتي تَستلزِمُ الموافَقةَ والمُتابَعةَ، فعندَ مُخاطَبةِ آخَرَ يَنْبغي استِعمالُ الألفاظِ الَّتي تُدْنيه وتُقرِّبُه وتُؤلِّفُ قلْبَه، لا الألفاظِ الَّتي تُبعِدُه[6].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّه لا ينبغي لِذي هِمَّةٍ أن يَبتغيَ شَيئًا إلَّا مِن عندِ اللهِ تعالى[7].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَنسُبَ الخطأَ إلى نفْسِه، ويَنسُبَ الصَّوابَ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه بنِعمتِه(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ الاعتِرافُ لله عزَّ وجلَّ بالجَميلِ(٢).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ في الآيةِ إرشادٌ مِن اللهِ تعالى إلى أنَّه وإن كان خَلَقَ للآدَميِّ عَقلًا، لكنَّه حَفَّه بقَواطِعَ مِنَ الشَّهَواتِ والحُظوظِ، والكَسَلِ والفُتورِ؛ فلا يَكادُ يَسْلَمُ منها إلَّا مَن عصَمَه اللهُ، فلمَّا كان كذلك أنزَل سبحانَه كُتُبًا، وأرسَل رُسُلًا جرَّدَهم مِن تلك القواطِعِ، فجعَل أخلاقَهم شرائِعَهم؛ فعلى كلِّ أحدٍ أن يَتَّبِعَ رُسُلَه المتخَلِّقينَ بكُتُبِه، مُتَّهِمًا عقْلَه، مُنابِذًا رأيَه، كما كان الصَّحابةُ رَضِيَ الله تعالى عنهم(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ أنَّ النَّظَرَ في الوَحيِ -القُرآنِ والسُّنَّةِ- سَببٌ في الهدايةِ؛ لأنَّ الباءَ في قَولِه تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ سَببيَّةٌ، وإذا كان ذلك سَببًا للهدايةِ، كان مِن العقلِ والبصيرةِ أنْ نَنظُرَ في وَحيِ اللهِ تعالى وشَرعِه، وألَّا نَطلُبَ الصَّوابَ مِن غيرِهما(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في هذه الدَّعوةِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ تَقريبُ مَسالِكِ النَّظرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٥، ٥٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٥).

إليهم باختِصارِه، حيثُ وصَفَ الوعظَ بأنَّه خَصلةٌ واحدةٌ؛ لئلَّا يَتجَهَّموا الإقبالَ على هذا النَّظرِ الَّذي عَقَدوا نيَّاتِهم على رَفضِه، فأُعلِموا بأنَّ ذلك لا يُكلِّفُهم جهدًا، ولا يُضيِّعُ عليهم زمنًا؛ فلْيَتأمَّلوا فيه قليلًا، ثمَّ يَقْضوا قَضاءَهم(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنَّ التَّفكيرَ كما يكونُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يكونُ كذلك في الآياتِ الشَّرعيَّةِ؛ لأنَّه هنا طلَبَ منهم التَّفكُّرَ فيما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي الرَّسولِ نفْسِه أيضًا(٢).

٣- كلُّ مَن تحيَّرَ في أمرٍ قد اشتَبَهَ عليه واستَبهَم، أخرَجه مِنَ الحَيرةِ فيه أن يَسألَ ويُناظِرَ، ثمَّ يُفكِّرَ ويَعتبِرَ؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ استِعمالُ الأُسلوبِ المناسِبِ للحالِ، وهذا معروفٌ في علمِ البلاغةِ: أنْ يَستعمِلَ الإنسانُ ما يُوافِقُ مُقتضى الحالِ؛ فهنا ذَكَرَ الإنذارَ دونَ البِشارةِ؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ تخويفٍ وإنذارٍ؛ لأنه يُخاطِبُ المُكذِّبينَ. لكنْ عندَ وصفِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الوَصفَ المُطلَقَ، يقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ فبدأَ بالبِشارةِ قبْلَ الإنذارِ، وهذا مِن حيثُ حالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُطْلَقةُ، أمَّا في المقاماتِ الَّتي تقتضي ذِكْرَ الإنذارِ، فيُستعمَلُ فيها الإنذارُ دونَ غيرِه(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ التَّنزُّلُ مع الخَصمِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٤).

على فَرضِ أنِّي سألتُ، فهو لكم[١]!

٦- قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢١]، فلا يجوزُ أخذُ الأجرةِ على تبليغِ الإسلامِ والقرآنِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تهديدُ الخَصمِ بما تقتضيه أسماءُ اللهِ تعالى وصِفاتُه؛ فإنَّ في ذلك تهديدًا لهم، يعني: فسيَشهدُ على تكذيبِكم وعلى تبليغِه[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، استُدِلَّ به على استحبابِ هذا القولِ عندَ إزالةِ المنكرِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ بيانُ أنَّ الإيمانَ والهدَى حَصَلَ بالوَحيِ النَّازلِ، لا بمُجرَّدِ العَقلِ الَّذي كان حاصِلًا قبْلَ الوَحيِ[٥].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ لَمَّا كانت النَّفْسُ مُنقادةً بل مُترامِيةً نحوَ الباطِلِ، عبَّرَ في الضَّلالِ بالمجَرَّدِ ﴿ضَلَلْتُ﴾ ﴿أَضِلُّ﴾، وفي الهدَى بالافتِعالِ ﴿اهْتَدَيْتُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه لا بُدَّ فيه من هادٍ وعِلاجٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).
(٥) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٧).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٤، ٥٣٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّها مُؤَثِّرةٌ بإذنِ اللهِ تعالى؛ ففي ذلك رَدٌّ على الأشاعرةِ الَّذين يُنكِرونَ تأثيرَ الأسبابِ[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ استِئنافٌ للانتقالِ مِن حِكايةِ أحوالِ كُفرِ المُشرِكينَ، إلى دَعوتِهم للإنصافِ في النَّظرِ والتَّأمُّلِ في الحقائقِ؛ لِيَتَّضِحَ لهم خَطؤُهم، وأُرشِدوا إلى كيفيَّةِ النَّظرِ في شَأنِهم، والاختلاءِ بأنفُسِهم لِمُحاسَبتِها على سُلوكِها؛ استِقصاءً لهم في الحُجَّةِ، وإعذارًا لهم في المُجادَلةِ؛ ولذلك اجتُلِبَت صِيغةُ الحَصرِ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾، أي: ما أعِظُكم إلَّا بواحدةٍ؛ طَيًّا لِبساطِ المُناظَرةِ، وإرساءً على الخُلاصةِ مِن المُجادَلاتِ الماضيةِ، وتقريبًا لِشُقَّةِ الخلافِ بيْنَنا وبيْنَكم[٢].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ افتتاحُ الأمرِ بالقولِ هنا وفي الآياتِ الأربعِ بعْدَه؛ للاهتِمامِ بما احتوَت عليه[٣].

- في قولِه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ طِباقٌ بَديعٌ[٤]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِك والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطِباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ =

أتَى به احترازًا مِن القِيامِ جماعةً؛ لأنَّ في الاجتِماعِ تَشويشًا للخواطرِ، وحُئولًا دونَ التَّأمُّلِ والاستغراقِ في التَّفكيرِ(١)، فلم يَذكُرْ غَيرَهما مِنَ الأقسامِ إشارةً إلى أنَّهم إذا كانوا على هاتينِ الحالتَينِ، كان أجدَرَ لهم بأن يَعرِفوا الحَقَّ مِن غيرِ شائبةِ حَظٍّ؛ ممَّا يكونُ في الجَمعِ الكثيرِ مِن الجِدالِ واللَّفظِ المانعِ مِن تهذيبِ الرَّأيِ، وتَثقيفِ الفِكرِ، وتنقيةِ المعاني(٢).

- والتَّعبيرُ بالقيامِ؛ إشارةً إلى الاجتِهادِ(٣).

- وقُدِّمَ ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذانًا بأنَّه أوثَقُ وأقرَبُ إلى الاطمئنانِ؛ لأنَّ الاستعانةَ بشَخصٍ ثانٍ أعوَنُ على الفَهمِ؛ فيكونُ المرادُ دَفْعَ عوائقِ الوُصولِ إلى الحقِّ بالنَّظرِ الصَّحيحِ الَّذي لا يُغالِطُ فيه صاحبُ هَوًى ولا شُبهةٍ، ولا يَخشى فيه النَّاظرُ تَشنيعًا ولا سُمْعةً، وللسَّلامةِ مِن العوائقِ والتَّخلُّصِ مِن البوائقِ الصَّادَّةِ عن طَريقِ الحقِّ قِيل هنا: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ فإنَّ المرْءَ إذا خَلَا بنَفْسِه عندَ التَّأمُّلِ لم يَرضَ لها بغيرِ النُّصحِ، وإذا خَلا ثانيَ اثنينَ فهو إنَّما يَختارُ ثانيَه أعلَقَ أصحابِه به، وأقرَبَهم منه رأْيًا، فسَلِمَ كِلاهما مِن غِشِّ صاحبِه(٤). وقيل:

= تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

قُدِّمَ ﴿مَثْنَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا القِسمَ أكثَرُ وُجودًا في النَّاسِ[1].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ؛ لأنَّ التَّفكُّرَ في أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهَمُّ في إصلاحِ حالِ المُخاطَبينَ المُعرِضينَ عن دَعوتِه، بخِلافِ القيامِ للهِ؛ فإنَّهم لا يَأبَوْنَه[2]. وقيل:

لَمَّا كان ما طُلِب منهم هذا لأجْلِه عظيمًا، جديرًا بأن يُهتَمَّ له هذا الاهتِمامَ؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تَجتَهِدوا بعد التَّأنِّي وطولِ التروِّي في الفِكرِ فيما وَسَمتُم به صاحِبَكم مِن أمرِ الجُنونِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفي إطلاقِ ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ مُبالَغةٌ ليسَتْ في تَقييدِه[4].

- قولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ مِن جِهَته تعالَى -على قولٍ-؛ للتَّنبيهِ على طَريقةِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ؛ بأنَّ مِثلَ هذا الأمرِ العظيمِ الَّذي تَحتَه مُلكُ الدُّنيا والآخِرةِ، لا يَتصدَّى لادِّعائه إلَّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتِضاحِه عندَ مُطالَبتِه بالبُرهانِ، وظُهورِ عَجْزِه، أو مُؤيَّدٌ من عندِ اللهِ، مُرشَّحٌ للنُّبوَّةِ، واثقٌ بحُجَّتِه وبُرهانِه، وإذ قد عَلِمْتُم أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرجَحُ العالَمينَ عقْلًا، وأصدَقُهم قولًا، وأجمَعُهم للكَمالاتِ البشريَّةِ؛ وجَبَ أنْ تُصدِّقُوه في دَعواهُ، فكيف وقد انضَمَّ إلى ذلك مُعجزاتٌ تَخِرُّ لها صُمُّ الجبالِ[5]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩).

- والتَّعبيرُ ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (ما بي مِن جِنَّةٍ)؛ إذ الكلامُ جارٍ على لِسانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ حالَه مَعلومٌ لَدَيْهم، لا يَلتبِسُ عليهم؛ لِشدَّةِ مُخالَطتِه بهم مُخالطةً لا تَذَرُ للجَهالةِ مَجالًا؛ فهُم عَرَفوه ونشَأَ بيْنَهم حتَّى جاءهم بالحقِّ[1]، وفي الإضافةِ ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ زيادةُ التَّشنيعِ على هؤلاءِ الكُفَّارِ في أنَّهم يَصِفونَ صاحبَهم -الَّذي يَعرِفونَه- بهذا الوَصفِ، وأيضًا أنَّه كان أَولى بهم -وهو صاحِبُهم- أنْ يكونوا أوَّلَ النَّاسِ تصديقًا به، وأشدَّ النَّاسِ مَعونةً له[2].

- والاقتِصارُ في التَّفكُّرِ المَطلوبِ على انتفاءِ الجِنَّةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هو أنَّ أصْلَ الكفرِ هو الطَّعنُ في نُبوَّتِه، وهمْ لَمَّا طَعَنوا فيه قالوا: مَجنونٌ، وقالوا: ساحرٌ، وقالوا: كاذبٌ؛ فابتُدِئَ في إرجاعِهم إلى الحقِّ بنَفْيِ الجُنونِ عنه، حتى إذا أذْعَنوا إلى أنَّه مِن العُقلاءِ، انصَرَفَ النَّظرُ إلى أنَّ مِثلَ ما جاء به لا يَأتي به إلَّا عاقلٌ، فبَقِيَت دَعواهم أنَّه ساحِرٌ، وأنَّه كاهنٌ، وأنَّه شاعرٌ، وأنَّه كاذبٌ -حاشاهُ-؛ فأمَّا السِّحرُ والكِهانةُ فسَهلٌ نَفْيُهما بنَفْيِ خَصائصِهما، ومِن أجْلِ هذا التَّدرُّجِ الَّذي طُوِيَ تحتَ جُملةِ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، أُعقِبَ ذلك بحَصْرِ أمْرِه في النِّذارةِ بقُرْبِ عذابٍ واقعٍ، أي: في النِّذارةِ والرِّسالةِ الصَّادقةِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- قولُه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ...﴾ استقصاءٌ لِبَقايا شُبَهِ التَّكذيبِ؛ لِدَحْضِها، سواءٌ منها ما تَعلَّقوا به مِن نَحوِ قولِهم: كاهنٌ، وشاعِرٌ، ومَجنونٌ، وما لم يَدَّعوه ولكنَّه قد يَخطُرُ ببالِ واحدٍ منهم؛ أنْ يَزعُموا أنَّه يُريدُ بهذه الدَّعوةِ نفعًا لنَفْسه يكونُ أجْرًا له على التَّعليمِ والإرشادِ، وهذه طَريقةٌ بَديعةٌ في الكِنايةِ التَّهكُّميَّةِ عن عدَمِ انتفاعِه بما يَدْعوهم إليه؛ بأنْ يُفرَضَ كالواقعِ، ثم يُرتَّبَ عليه الانكفافُ عنه، ورَدُّ ما فات منه؛ لِيُفضيَ بذلك إلى البراءةِ منه ومِن التَّعرُّضِ له؛ فهي كِنايةٌ رَمزيَّةٌ، وأنَّهم يَعلَمون أنَّه لم يَسألْهم أجْرًا(١).

- في قولِه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ تصريحٌ بأنَّ النَّبيَّ لا يُريدُ أجرًا منهم، وجِيءَ بالشَّرطِ بصِيغةِ الماضي لِيَدُلَّ على انتفاءِ ذلك في الماضي، فيَكونَ انتِفاؤُه في المُستقبَلِ أجدَرَ، على أنَّ وُقوعَه في سِياقِ الشَّرطِ يَقْضي بانتفائِه في المُستقبَلِ أيضًا، وهذا جارٍ مَجْرى التَّحدِّي؛ لأنَّه لو كان لِجَماعتِهم أو آحادِهم عِلْمٌ بأنَّه طلَبَ أجْرًا منهم، لَجأروا حينَ هذا التَّحدِّي بمُكافَحتِه، وطالَبوه برَدِّه عليهم(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا، جَوابًا لِسُؤالٍ مُقدَّرٍ أنْ يَسأَلَ السَّامعُ: كيف لا يكونُ له على ما قام به أجْرٌ؟ فأُجِيبَ بأنَّ أجْرَه مَضمونٌ وعَدَه اللهُ به؛ لأنَّه إنَّما يقومُ بعَملٍ لِمَرْضاتِه وامتثالِ أمْرِه؛ فعليه أجْرُه(٣).

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تَذييلٌ باستِشهادِ اللهِ تعالى على باطنِه ونِيَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٧).

الَّتي هي مِن جُملةِ الكائناتِ الَّتي اللهُ شَهيدٌ عليها، وعليمٌ بخَفاياها، وهو شاهِدٌ على ذلك كلِّه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أُعِيدَ فِعلُ (قل)؛ للاهتِمامِ بالمَقولِ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ هذا الخبَرِ[٢].

- والتَّعبيرُ عن اسمِ اللهِ سُبحانَه بلفظِ (الرَّبِّ)، وإضافتُه إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحقَّ في جانبِه، وأنَّه مؤيَّدٌ مِن ربِّه؛ فإنَّ الرَّبَّ يَنصُرُ مَربوبَه ويُؤيِّدُه[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿رَبِّي﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختِصاصِ دونَ التَّقَوِّي؛ لأنَّ تَقوِّي الجُملةِ حَصَلَ بحَرْفِ التَّأكيدِ، وهذا الاختِصاصُ باعتبارِ ما في ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ من معنى: النَّاصرُ لي دُونَكم؛ فماذا يَنفَعُكم اعتزازُكم بأموالِكم وأولادِكم وقُوَّتِكم[٤]؟!

- وفي قولِه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ والتَّخويفِ مِن نَصرِ اللهِ المؤمنينَ على المُشرِكينَ، ووَعدٌ بإظهارِ الإسلامِ وإعلاءِ كَلمةِ الحقِّ[٥].

- وتَخصيصُ وَصْفِ ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مِن بيْنِ الأوصافِ الإلهيَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه عالِمٌ بالنِّيَّاتِ، وأنَّ القائلَ يَعلَمُ ذلك؛ فالَّذي يَعلَمُ هذا لا يَجترِئُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

اللهِ بادِّعائه باطلًا أنَّه أرسَلَه إليكم، فالإعلامُ بهذه الصِّفةِ هنا يُشبِهُ استِعمالَ الخبَرِ في لازِمِ فائدتِه؛ وهو العِلمُ بالحُكمِ الخَبَريِّ، مع ما فيه مِن المُبالَغةِ(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أُعِيدَ فِعلُ (قل)؛ للاهتمام بالمَقولِ، وجُملةُ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ تأكيدٌ لِجُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨]؛ فإنَّ الحقَّ قد جاء بنُزولِ القرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ. ولَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ، أخبَرَ أنَّ الحقَّ قد جاء، وهو القرآنُ والوحيُ، وبطَلَ ما سِواهُ مِن الأديانِ؛ فلمْ يَبقَ لغيرِ الإسلامِ ثَباتٌ، لا في بَدْءٍ ولا في عاقبةٍ؛ فلا يُخافُ على الإسلامِ ما يُبطِلُه(٢).

- وعطَفَ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ على ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنَّه إذا جاء الحقُّ انقشَعَ الباطِلُ مِن المَوضعِ الذي حلَّ فيه الحقُّ، وفيه كِنايةٌ عن اضْمِحْلالِ الباطِلِ وزوالِه، وهو مَثَلٌ في الهَلاكِ بالمرَّةِ(٣).

- وأيضًا قَولُه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ الآيةَ الثَّانيةَ مُقرِّرةٌ للأُولى، وعلى الأوَّلِ تكميلٌ؛ لأنَّ الأُولى إثباتٌ للحَقِّ، والثَّانيةَ إزالةٌ للباطِلِ(٤).

٥- قَولُه تَعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٢، ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨١).

رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾

- صِيغةُ القَصرِ في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ لقَصرِ الضَّلالِ المَفروضِ، أي: على نَفْسي لا عليكم؛ لأنَّهم كانوا يُحاوِلون أنْ يُقلِعَ عمَّا دَعاهُم إليه، ولم يَقتَصِروا على صُدودِهم. أمَّا قَولُه: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ فهو كالاحتِراسِ مِن أنْ يكونَ حالُه مُقتَصِرًا على فَرضِ كَونِه مَظِنَّةَ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن الاعتِرافِ للهِ بنِعمَتِه بأنَّ ما يَنالُه مِن خَيرٍ فهو بإرشادِ اللهِ، لا مِن نفْسِه[1].

- وبيْنَ قَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ وقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ تَقابُلٌ من جِهةِ المَعْنى؛ لأنَّ النَّفْسَ كُلُّ ما عليها فهو بها، أي: أنَّ كُلَّ ما هو وَبالٌ عليها وضارٌّ لها فهو بسببِها: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وما لَها ممَّا يَنفَعُها فبِهدايةِ ربِّها وتَوفيقِه، وهذا حُكمٌ عامٌّ لكُلِّ مُكلَّفٍ، وإنَّما أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُسنِدَه إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الرَّسولَ إذا دخَلَ تحتَه مع جَلالةِ مَحلِّه وسَدادِ طَريقتِه كان غيرُه أَوْلى به[2].

- واختِيرَ في جانبِ الهُدى فِعلُ ﴿ٱهۡتَدَيۡتُ﴾ الَّذي هو مُطاوِعُ (هَدَى)؛ لِما فيه من الإيماءِ إلى أنَّ له هاديًا، وبيَّنَه بقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾؛ ليَحصُلَ شُكرُه للهِ إجمالًا ثمَّ تفصيلًا. وفي قَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه على هُدًى؛ لأنَّه أثبَتَ أنَّ وَحيًا من اللهِ واردٌ إليه، وقد استُفيدَ أنَّ الضَّلالَ المفروضَ إنْ حصَلَ فسببُه مِن قِبَلِ نَفْسِه، من إسنادِ فعلِ ﴿أَضِلُّ﴾ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ، ثمَّ ممَّا عَقِبَه مِن قَصْرِ الضَّلالِ على الحُصولِ من المُتكلِّمِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٤).

أعرَقُ في التَّعلُّقِ به. وفي هذا مُقابَلَةٌ يُعلَمُ منها أنَّ سببَ الضَّلالِ والاهتداءِ مُختلِفٌ مِن جِهةِ المعنى، ولا سيَّما حينَ رجَّحَ جانبَ اهتدائِه بقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾، على أنَّ المُقابَلَةَ بيْنَ الشَّرطَينِ يَنقدِحُ بها في ذِهنِ السَّامعِ أنَّ الضَّلالَ مِن تَسْويلِ النَّفْسِ، ولو حصَلَ لَكان جِنايةً مِن النَّفْسِ عليه، وأنَّ الاهتِداءَ مِن اللهِ، وأنَّه نفْعٌ ساقَه إليه بوَحيِه[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ تَذييلٌ لِما أفادَتْه الجُمْلتانِ المَقولتانِ قبْلَه مِن التَّرديدِ في نِسبةِ الاهتِداءِ والضَّلالِ، أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي على هُدًى أو ضِدِّه، ويَحصُلُ مِن ذلك عِلمُ مُقابِله مِن أحوالِ خُصومِه؛ لأنَّه سميعٌ لِما يقولُه الفَريقانِ، قَريبٌ ممَّا يُضمِرونَهُ فلا يَخْفَى عليه. وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤١).

الآيات (٥١-٥٤)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ
مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَلَا فَوْتَ﴾: أي: فلا نجاةَ ولا هربَ، والفَوتُ: التَّفَلُّتُ والخلاصُ مِن العِقابِ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ إدراكِ الشَّيءِ، والوُصولِ إليه[(١)].

﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: أي: التَّناوُلُ، وإدراكُ ما يُريدونَ، أو التَّناوُلُ السَّهلُ أو الخَفيفُ، وأكثرُ وُرودِه في شُرْبِ الإبلِ شُرْبًا خَفيفًا مِن الحوضِ ونحوِه، وأصلُ (نوش): يدُلُّ على تَناوُلِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿وَحِيلَ﴾: أي: حُجِزَ ومُنِعَ، وأصلُ (حول): يدُلُّ على انفِصالِ الشَّيءِ عن غَيرِه[(٣)].

﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾: أي: بأشباهِهم مِن كَفَرةِ الأُمَمِ؛ جمعُ شِيَعٍ، وشِيَعٌ: جَمعُ شِيعةٍ، وهم كُلُّ قَومٍ اجتَمَعوا على أمرٍ، وأصلُه مِنَ التَّشييعِ، وهو التَّتَبُّعُ والتَّقويةُ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، =

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يختِمُ اللهُ تعالى السُّورةَ بذِكْرِ حالِ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ولو ترى -يا محمَّدُ- أولئك الكافِرينَ حينَ فَزِعوا عندَ رُؤيةِ عَذابِ اللهِ، فلا يَستَطيعونَ منه هَرَبًا، وأُخِذوا مِن مَكانٍ قَريبٍ، وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ! وكيف لهم تَناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها؟! وهم قد كَفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك، ويَرمونَ بالغَيبِ مِن مَوضِعٍ بَعيدٍ!

ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ كما فعَلَ اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكُفَّارِ مِن قَبْلِهم؛ إنَّهم كانوا في شَكٍّ مُوقِعٍ لهم الرِّيبةَ والتُّهمةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جاءهم التَّعريضُ بالتَّهديدِ مِن لازمِ المُتارَكةِ المدلولِ عليها بقولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ للعِلمِ بأنَّ الضَّالَّ يَستَحِقُّ العِقابَ؛ أَتْبَعَ حالَهم حينَ يحُلُّ بهم الفَزَعُ مِن مُشاهَدةِ ما هُدِّدوا به[2].

= ((التفسير البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١).

وأيضًا لَمَّا أبطل اللهُ تعالى شُبَهَ الكافرينَ، وخَتَم مِن صِفاتِه بما يَقتضي البَطشَ بمَن خالَفَه؛ قال عاطِفًا على: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ...﴾ [سبأ: ٣١][1]:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولو تَرى الَّذين كَفَروا -يا محمَّدُ- حينَ فزَعِهم عندَ رُؤيتِهم عذابَ اللهِ[2]، فلا يَستطيعون منه بُعدًا، وأُخِذوا مِن موضِعٍ قَريبٍ، فلم يَتمَكَّنوا مِنَ الفِرارِ بَعيدًا[3].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٦).

(٢) قال القرطبي: (المعنى: لو ترى إذا فَزِعوا في الدُّنيا عندَ نزولِ الموتِ أو غيرِه مِن بأسِ اللهِ تعالى بهم. رُوِي معناه عن ابنِ عبَّاسٍ. الحسَنُ: هو فزَعُهم في القُبورِ مِن الصَّيحةِ. وعنه: أنَّ ذلك الفزَعَ إنَّما هو إذا خرَجوا مِن قبورِهم. وقاله قَتادةُ. وقال ابنُ مَعْقِلٍ: إذا عايَنوا عِقابَ اللهِ يومَ القيامةِ. السُّدِّيُّ: هو فزَعُهم يومَ بدرٍ حينَ ضُرِبَت أعناقُهم بسيوفِ الملائكةِ، فلم يَستطيعوا فِرارًا ولا رجوعًا إلى التَّوبةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤).

وقال ابنُ الجوزي: (قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: هو الجَيشُ الذي يُخسَفُ به بالبَيْداءِ، يَبقى منهم رجُلٌ فيُخبِرُ النَّاسَ بما لَقُوا، وهذا حديثٌ مشروحٌ في التَّفسيرِ، وأنَّ هذا الجَيشَ يَؤُمُّ البَيتَ الحرامَ لتخريبِه، فيُخسَفُ بهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

وقال ابنُ عثيمين عندَ تفسيرِ قَولِ الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُ﴾: (هذا يؤيِّدُ ما ذكره بعضُ المفسِّرين -رحِمَهم اللهُ- بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ [سبأ: ٥١] يعني: عندَ الموتِ؛ لأنَّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُ﴾، وهذا فعلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّ هذا أمرٌ قد مضَى على مَن سَبَق، ولو كان يومَ القيامةِ لم يكُنْ قد مضى مِن قبْلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨، ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٩).

قال ابنُ جرير: (وأخَذَهم اللهُ بعذابِه مِن موضعٍ قَريبٍ؛ لأنَّهم حيث كانوا فهم مِن اللهِ قريبٌ، لا يَبعُدونَ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤).

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾.

أي: وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ(١).

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: وكيف لهم تناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها، وبَعُدوا عن محلِّ قَبولِه منهم، وصاروا إلى الدَّارِ الآخرةِ، فحِيلَ بيْنَهم وبيْنَه(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

قال ابن الجوزي: (في هاءِ الكنايةِ أربعةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّها تعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، قاله مجاهدٌ. والثاني: إلى البعثِ، قاله الحسنُ. والثالثُ: إلى الرَّسولِ، قاله قتادةُ. والرابعُ: إلى القرآنِ، قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

قال ابنُ جرير: (﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، يعني: آمنَّا باللهِ وبكتابِه ورسولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ للوعيدِ أو ليوم البعثِ أو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أو القرآنِ، إذا كان الضميرُ محكيًّا مِن كلامِهم؛ لأنَّ جميعَ ما يصِحُّ معادًا للضميرِ مشاهدٌ لهم وللملائكةِ، فأجمَلوا فيما يُرادُ الإيمانُ به؛ لأنَّهم ضاق عليهم الوقتُ، فاستعجَلوه بما يحسبونَه منجيًا لهم مِن العذابِ، وإن كان الضميرُ مِن الحكايةِ فهو عائدٌ إلى الحقِّ مِن قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨]؛ لأنَّ الحقَّ يتضمَّنُ ذلك كلَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١١-٣١٣).

قال الشنقيطي: (والمعنى: أنَّه يُستبعَدُ كلَّ الاستِبعادِ، ويَبعُدُ كلَّ البُعدِ أن يَتناوَلَ الكفَّارُ الإيمانَ النَّافعَ في الآخرةِ بعدَما ضَيَّعوا ذلك وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا. وقيل: الاستِبعادُ لِرَدِّهم إلى الدُّنيا مرَّةً أخرى ليؤمنوا. والأوَّلُ أظهَرُ، ويدُلُّ عليه قولُه قبْلَه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، ومَن أراد تَناوُلَ شَيءٍ مِن مكانٍ بعيدٍ لا يُمكِنُه ذلك، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٧٥). =

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ٥٣ ﴾.

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: وهم قد كفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك[(١)].

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

أي: ويَرمُونَ[(٢)] بالغيبِ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ[(٣)]!

= وقال ابن جرير: (وأنَّى لهم التَّوبةُ والرَّجْعةُ الَّتي قد بَعُدَتْ منهم، وصاروا منها بمَوضِعٍ بعيدٍ أن يَتناوَلوها؛ وإنَّما وصَفَ ذلك المَوضِعَ بالبُعدِ؛ لأنَّهم قالوا ذلك في القيامةِ، فقال الله: أنَّى لهم بالتَّوبةِ المقبولةِ؟! والتَّوبةُ المقبولةُ إنَّما كانت في الدُّنيا، وقد ذهبتْ الدُّنيا، فصارتْ بعيدًا مِن الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (يقول: وهم اليَومَ يَقذِفونَ بالغَيب). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٠).
وقال ابنُ عاشور: (﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾، فهي حالٌ ثانية، والتَّقديرُ: وكانوا يَقذِفونَ بالغَيبِ. واختيارُ صيغةِ المضارعِ؛ لحكايةِ الحالة، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٤).
وقيل: المرادُ أنَّهم يَقذِفونَ بالغَيبِ في الآخرةِ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا المعنى: ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨، ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).
قال ابن الجوزي: (﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يَرمونَ بالظَّنِّ مِن مَكانٍ بَعيدٍ، وهو بُعدُهم عن العِلمِ بما يقولونَ. وفي المرادِ بمقالتِهم هذه ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: أنَّهم يَظُنُّون أنَّهم يُرَدُّون إلى الدُّنيا. قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.
والثَّاني: أنَّه قولُهم في الدُّنيا: لا بَعْثَ لنا ولا جنَّةَ ولا نارَ. قاله الحسَنُ وقَتادةُ.
والثَّالث: أنَّه قَولُهم عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هو ساحِرٌ، هو كاهِنٌ، هو شاعِرٌ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

أي: ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ[1] كما فَعَل اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكافِرينَ مِن قَبْلِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

في معنى قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أقوالٌ؛ منها:

أنَّ المرادَ: ما يَشتَهونَ مِن الإيمانِ وقَبولِه ونَفْعِه حينَئذٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ ونحوِه مِن السَّلفِ: الحسَنُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((المعرفة والتاريخ)) ليعقوب بن سفيان (٢/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وقيل: المرادُ: الشَّهواتُ واللَّذَّاتُ؛ كالأولادِ، والأموالِ، والخَدَمِ، والجنودِ. وممَّن قال بهذا القولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عمَر، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: ابنُ كثير، فقال: (والصَّحيحُ: أنَّه لا مُنافاةَ بينَ القولَينِ؛ فإنَّه قد حِيل بيْنَهم وبيْنَ شَهَواتِهم في الدُّنيا، وبينَ ما طلَبوه في الآخرةِ فمُنِعوا منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وقيل: المرادُ بـ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾: الرُّجوعُ إلى الدُّنيا. وممَّن اختاره: السمرقندي، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩).

وقيل: المرادُ: التَّوبةُ والإيمانُ والرُّجوعُ إلى الدُّنيا. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١، ٣٢٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾.

أي: إنَّهم كانوا في شَكٍّ يُوجِبُ لهم الارتيابَ والتُّهمةَ والاضطِرابَ في شأنِ الحَقِّ[1].

= القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩، ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: والمعنى: كما فُعِل بنُظَرائهم مِن الكفارِ، مِنْ قَبْلِ هؤلاء، فإنَّهم حِيل بيْنَهم وبينَ ما يَشتَهونَ. وقال الضَّحَّاكُ: هم أصحابُ الفيلِ حينَ أرادوا خرابَ الكعبةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

وقال ابنُ جُزَي: (و ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يحتمِلُ أن يتعلَّقَ بـ﴿فُعِلَ﴾، أو ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ على حسَبِ معنى ما قبْلَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٧).

وقال الألوسي: (﴿مِّن قَبْلُ﴾ متعلِّقٌ ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ على أنَّ المرادَ مَن اتَّصفَ بصفتِهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: في الزَّمانِ الأوَّلِ، ويرجِّحُه أنَّ ما يُفعَلُ بجميعِهم في الآخرةِ إنَّما هو في وقتٍ واحدٍ. أو متعلِّقٌ بـ﴿فُعِلَ﴾ إذا كانت الحيلولةُ في الدُّنيا). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩، ٣٢١).

قال الشوكاني: (جملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ تعليلٌ لِما قَبْلَها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩).

قيل: المرادُ بشَكِّهم المُريبِ: شَكُّهم في شأنِ العذابِ ونُزولِه بهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٤٦).

وقيل: المرادُ: شَكُّهم في البَعثِ ونزولِ العذابِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١).

وقيل: المرادُ: في أمرِ الرُّسُلِ والبَعثِ، والجنَّةِ والنَّارِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٤). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أنَّ الإيمانَ بعدَ مُعايَنةِ العذابِ لا يُفيدُ، وإنَّما كان غيرَ مفيدٍ؛ لأنَّ الإيمانَ بالمُشاهَدِ لا قيمةَ له؛ فالشَّيءُ المُشاهَدُ لا بُدَّ أنْ يُؤمِنَ به كلُّ إنسانٍ، لكنَّ المحنةَ والابتِلاءَ إنَّما تكونُ في الإيمانِ بالغَيبِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] [البقرة: ٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ فيه سؤالٌ: إنْ قيلَ: إنَّ الآخرةَ قَريبٌ، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فكيف قال: ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾؟

فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الماضيَ كالأمسِ الدَّابرِ، وهو من أبعَدِ ما يكونُ؛ إذْ لا وُصولَ إليه، والمُستقبَلَ وإن كان بيْنَه وبيْنَ الحاضِرِ سِنونَ فإنَّه آتٍ؛ فيومُ القيامةِ الدُّنيا بعيدةٌ منه؛ لِمُضيِّها، ويومُ القيامةِ في الدُّنيا قريبٌ؛ لإتيانِه[2].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ ذلك قريبٌ عندَ مَنْ آمَنَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أمَّا مَن لم يؤمِنْ فلا يُمكِنُه التَّصديقُ به، فيكونُ بعيدًا عندَه.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الحِكايةَ يومَ القيامةِ، فكأنَّه قال: كانوا يَقذِفونَ مِن مكانٍ

= وقال البِقاعي: (أي: في جميعِ ما يُخبِرُهم به رُسُلُنا عنَّا مِن الجزاءِ أو غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٥٨).

بعيدٍ، وهو الدُّنيا.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّهم في الآخرةِ يقولونَ: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وهو قَذْفٌ بالغَيبِ مِن مكانٍ بعيدٍ، وهو الدُّنيا(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أنَّ هؤلاء لم يُحاوِلوا القُرْبَ والنَّظَرَ فيما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، بل كانوا كالَّذي يَرمي بالحِجارةِ مِن بُعدٍ، ولا يريدُ أنْ يَقترِبَ لِيَتبيَّنَ الأمرَ! وهذا سوءُ أدبٍ منهم؛ لأنَّ العَقلَ يَقتضي أنْ يَدنُوا مِن الشَّيءِ لِيَتعرَّفوا إليه؛ حتَّى لا يَقذِفوه مِن بعيدٍ، لكنْ هم كانوا يَقذِفونَ بالغَيبِ مِن مَكانٍ بعيدٍ، وهذا يُبعِدُ أنْ يكونَ الإيمانُ مَقبولًا منهم(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ ...﴾ ثمَّ قال في آخِرِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾ احتجَّ بهذه الآيةِ بَعضُ المفسِّرينَ أنَّ الشَّاكَّ كافِرٌ، ورَدَّ بها على مَن زعَمَ أنَّه ليس بكافرٍ، واللهُ لا يُعَذِّبُ على الشَّكِّ(٣)، فالشَّكُّ مُنافٍ للإيمانِ فيما يجِبُ الإيمانُ به؛ فلو أنَّ أحدًا شَكَّ في يومِ القيامةِ وفي البَعثِ؛ ما نفَى وجَزَمَ بالنَّفيِ، ولا أقَرَّ وجَزَم بالإقرارِ: فهذا في حُكْمِ المُنكِرِ تمامًا؛ فهو كافِرٌ(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ عن ابنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما: (أنَّه شَرِب ماءً باردًا فبكَى، فاشتدَّ بُكاؤُه، فقيل له: ما يُبكيكَ؟ فقال: ذكَرْتُ آيةً في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾، فعرَفْتُ أنَّ أهلَ النَّارِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٢١).

يَشتَهونَ إلَّا الماءَ البارِدَ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠])[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أنَّ مُفارَقةَ المُشتهَياتِ هو مِن أعظَمِ العُقوباتِ؛ فالفَرَحُ والسُّرورُ: بالظَّفَرِ بالمحبوبِ، والهَمُّ والغَمُّ والحزنُ والأسَفُ: بفَواتِ المحبوبِ، فأطيبُ العَيشِ عَيشُ المُحِبِّ الواصلِ إلى محبوبِه، وأمَرُّ العَيشِ عَيشُ مَن حِيلَ بيْنَه وبينَ محبوبِه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ استِعمالُ القياسِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ الإشارةُ إلى الاعتبارِ بمَن مضى وسَبَقَ، سواءٌ كانوا مِن أهلِ الخيرِ أو مِن أهلِ الشَّرِّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

- الخِطابُ في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا ...﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَسليةً له، أو لكلِّ مَن يَتأتَّى منه النَّظرُ؛ لِعِظَمِ الأمرِ، وفَخامةِ الشَّأنِ. وحُذِفَ جَوابُ (لو)؛ للتَّهويلِ[٥]، والتَّقديرُ: لَرأيتَ أمرًا فَظيعًا، وحالًا هائلةً[٦]، ففيه

---

(١) رواه عبد الله بن أحمدَ في زوائد ((الزهد)) (١٠٥٥)، ومن طريقه البيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٤٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) والقاعدةُ في هذا: أنَّ حذفَ جوابِ الشَّرطِ يدُلُّ على تعظيمِ الأمرِ وشِدَّتِه في مقاماتِ الوعيدِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣٧٢، ٣٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١).

إشارةٌ إلى عظيمِ ما سيَقَعُ بهؤلاء عندَ الموتِ أو يومَ القيامةِ؛ فحَذْفُ جوابِ الشَّرطِ أعظَمُ في التَّهويلِ والتَّفخيمِ، حتَّى يَذهَبَ الذِّهْنُ كلَّ مَذهَبٍ في تقديرِ ما يمكِنُ أنْ يكونَ جوابًا[(١)].

- والكلماتُ (لو، وإذ، فَزِعوا، وأُخِذوا، وحِيل)، كلُّها للمُضيِّ، والمُرادُ بها الاستِقبالُ؛ لأنَّ ما اللهُ فاعِلُه في المُستقبَلِ بمَنزلةِ ما كان ووُجِدَ؛ لِتَحقُّقِه[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على قولٍ-؛ لمُرورِ ذِكْرِه في قولِهِ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى بَيانِ النَّظمِ؛ وذلك أنَّ كُلًّا من الآياتِ المُصَدَّرةِ بـ﴿قُلْ﴾ من قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ ﴿قُلْ مَا سَأَلۡتُكُم﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ فيه تذكيرٌ بَليغٌ، ووَعظٌ شافٍ كافٍ. فلمَّا خُتِمتْ هذه الآياتُ بقولِه: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ -وفيه إيماءٌ إلى مَعنى المشارَكةِ، وأنَّ تلك النَّصيحةَ ما نَفَعَتْ فيهم- قيل له مُسلِّيًا والتفتَ إلى كُلِّ مَنْ يتأتَّى منه النَّظَرُ مُخاطبًا بقولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾؛ لِعِظَمِ الأمرِ، وفَخامةِ الشأنِ، أي: ولو تَرى -أيُّها النَّاظرُ- وَقْتَ فَزَعِهم وأخْذِهم فلا فَوْتَ لهم، ووقْتَ قولِهم: آمَنَّا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَنفعُهُم إيمانُهم حينَئذٍ؛ لَرأيْتَ خَطْبًا جليلًا، وأمرًا هائلًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٨).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيلٌ لطَلَبِهم ما لا يكونُ، وهو أنْ يَنفعَهم إيمانُهم في ذلك الوقتِ، كما يَنفَعُ المؤمنينَ إيمانُهم في الدُّنيا؛ مُثِّلَتْ حالُهم بحالِ مَن يُريدُ أنْ يَتناوَلَ الشَّيءَ مِن غَلْوةٍ -أي: مِن نُقطةٍ بعيدةٍ- كما يَتناوَلُه الآخَرُ مِن قَيسِ ذِراعٍ -أي: مِن قريبٍ- تَناوُلًا سهلًا لا تَعَبَ فيه، وهو مُرَكَّبٌ تَمثيليٌّ يُفيدُ تَشبيهَ حالِهم -إذ فَرَّطوا في أسبابِ النَّجاةِ وقْتَ المُكْنةِ منها، حينَ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوهم ويُحرِّضُهم ويُحذِّرُهم، وقد عمَّرهم اللهُ ما يَتذكَّرُ فيه مَن تَذكَّرَ، ثمَّ جاؤوا يَطلُبون النَّجاةَ بعْدَ فواتِ وَقتِها- بحالِهم كحالِ مَن يُريدُ تَناوُشَها وتَناوُلَها وهو في مكانٍ بعيدٍ عن مُرادِه الَّذي يجِبُ تَناوُلُه، وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لِتَفريقِ أجْزائِه؛ بأنْ يُشَبَّهَ السَّعيُ بما يَحصُلُ بسُرعةٍ بالتَّناوُشِ، ويُشَبَّهَ فواتُ المطلوبِ بالمكانِ البعيدِ كالحوضِ[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾

- يجوزُ جَعْلُ ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ تَمثيلًا لِحالِهم؛ شُبِّهوا بحالِ مَن يَقذِفُ شيئًا وهو غائبٌ عنه لا يَراهُ؛ فهو لا يُصيبُه ألْبتَّةَ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ لم يَقُلْ: «وحَالَ اللهُ تعالى بيْنَهم»، ولا قال: «وحَالَ الكفرُ»! والنُّكتةُ في عدَمِ بيانِ الفاعلِ لأَجْلِ أنْ يكونَ الحائلُ صالحًا لأنْ تُقَدِّرَهُ بكلِّ ما يُناسِبُ الحالَ؛ إنْ شئتَ فقُلْ: حَالَ بيْنَهم وبيْنَ ما يَشتهون كُفْرُهم في الدُّنيا، وإنْ شئتَ فقُلْ: حَالَ بيْنَهم وبيْنَ ما يَشتهون تقديمُ شَهَواتِهم في الدُّنيا؛ فمَنَعَهم شهواتِهم في الآخرةِ[1].

- وفائدةُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ تَذكيرُ الأحياءِ منهم -وهم مُشرِكو أهلِ مكَّةَ- بما حلَّ بالأُمَمِ مِن قبْلِهم؛ لِيُوقِنوا أنَّ سُنَّةَ اللهِ واحدةٌ، وأنَّهم لا تَنفَعُهم أصنامُهم الَّتي زَعَموها شُفعاءَ عندَ اللهِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مَسوقةٌ لِتَعليلِ الجُمَلِ الَّتي قبْلَها، وإنَّما جُعِلَت حالتُهم شكًّا؛ لأنَّهم كانوا في بعضِ الأُمورِ شاكِّينَ، وفي بعضِها مُوقِنينَ، كما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مُستأْنَفةً استئنافًا بَيانيًّا، ناشئةً عن سُؤالٍ يُثيرُه قولُه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ كأنَّ سائلًا سأل: هل كانوا طامِعينَ في حُصولِ ما تَمَنَّوه؟ فأُجِيبَ بأنَّهم كانوا يَتمَنَّون ذلك، ويَشُكُّون في استِجابتِه، فلمَّا حِيلَ بيْنَهم وبيْنَه غَشِيَهم اليأْسُ، واليأْسُ بعْدَ الشَّكِّ أوقَعُ في الحُزنِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٥).

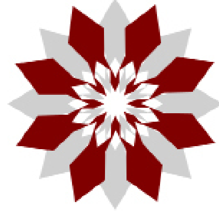
اليأْسِ المُتأصِّلِ[١].

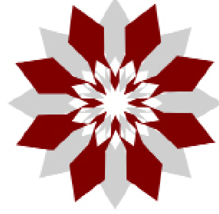
- والمُرِيبُ: المُوقِعُ في الرَّيبِ. والرَّيبُ: الشَّكُّ؛ فوَصْفُ الشَّكِّ به وَصْفٌ له بما هو مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه أو معناهُ؛ لإفادةِ المُبالَغةِ، كقَولِهم: شِعرٌ شاعِرٌ، ولَيْلٌ ألْيَلُ، أو لَيْلٌ داجٍ[٢].

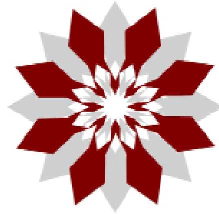


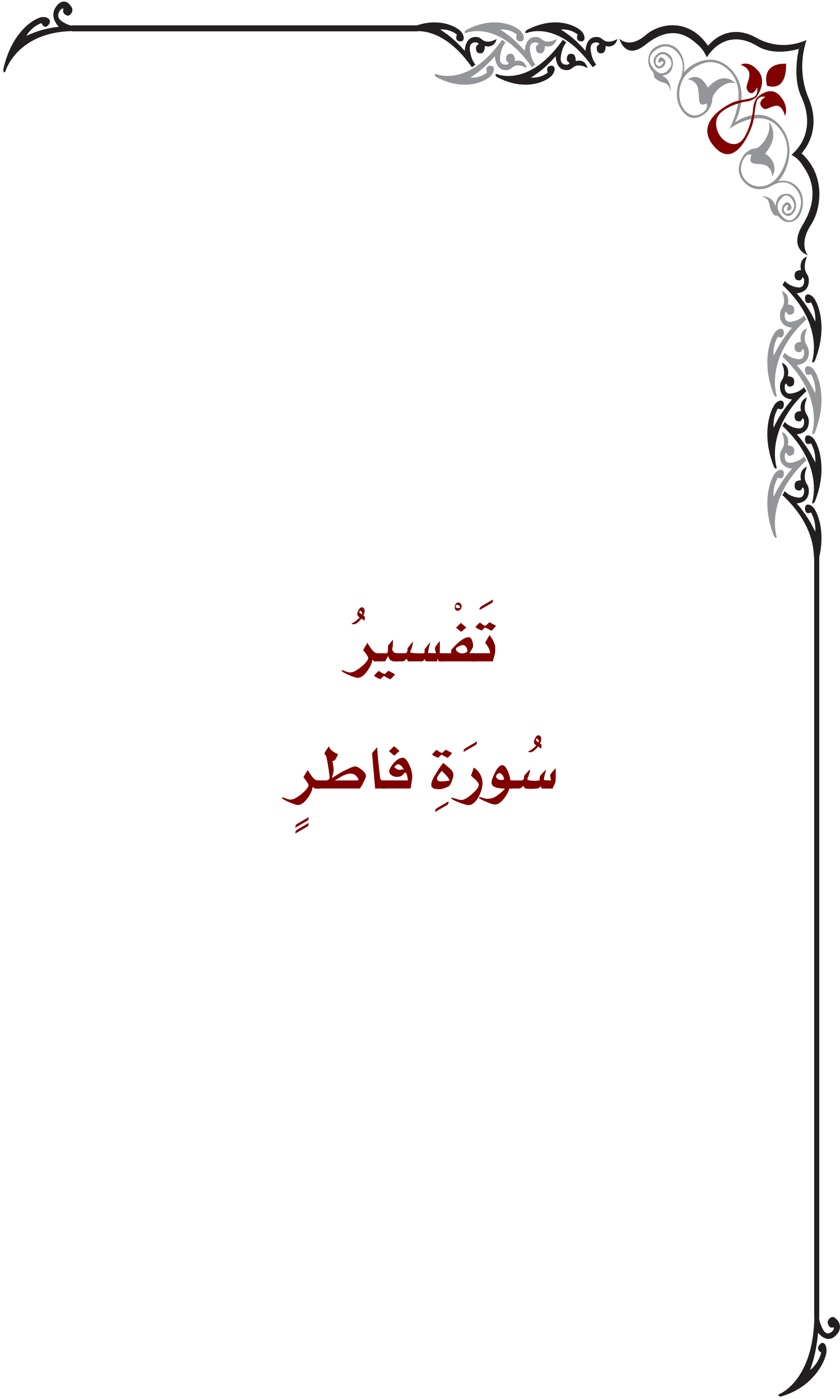
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤٦).



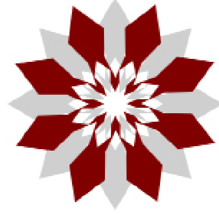


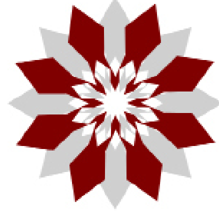


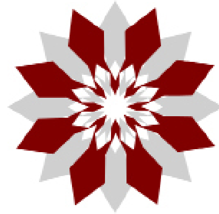


تَفْسِيرُ

سُورَةِ فاطرٍ







سورةُ فاطرٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (فاطرٍ)[١]، وسُورةِ (الملائكةِ)[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ فاطِرٍ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- إثباتُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى عن طريقِ التَّذكيرِ بنِعَمِه المبثوثةِ في الكَونِ[٤].

---

(١) سُمِّيت بسُورةِ (فاطرٍ)؛ لذِكرِ هذا الاسمِ الجليلِ والنَّعتِ الجميلِ: (فاطر) في طليعتِها. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧).

وقد وردت تسميتُها بذلك عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٣).

(٢) سُمِّيت بسُورةِ الملائكةِ؛ لأنَّه ذُكِرَ في أوَّلِها صِفةُ الملائكةِ، ولم يقَعْ في سورةٍ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيَت في «صحيحِ البخاريِّ» وفي «سننِ الترمذيِّ» وفي كثيرٍ مِن المصاحِفِ والتَّفاسيرِ «سورةَ الملائكةِ» لا غيرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (٤٨٠١)، ((سنن الترمذي)) (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، باب (٣٦) قبل حديث (٣٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٤).

وقد وردت تَسميتُها بسورةِ الملائكةِ عن قَتادةَ، وابنِ أبي مُلَيْكةَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ٣١٧).

٢- إثباتُ قُدرةِ اللهِ الكاملةِ، ومنها قدرتُه على البَعثِ[١].

٣- إثباتُ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- افتتاحُ السُّورةِ بحَمدِ الله تعالى، وخَلقِه للسَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلِه الملائِكةَ رُسُلًا أُولي أجنِحةٍ، وتقريرِ قُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

٢- ذِكرُ بعضِ مظاهرِ قُدرةِ الله تعالى في الخَلقِ، ونِعَمِه على عبادِه.

٣- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتثبيتُه ببيانِ حالِ مَن سبَقَه مِن الأنبياءِ.

٤- التَّحذيرُ مِن الدُّنيا، ومِن الاغترارِ بوَساوِسِ الشَّيطانِ.

٥- بيانُ جزاءِ المؤمنينَ، وجزاءِ الكافِرينَ.

٦- امتِنانُ اللهِ بإرسالِ الرِّياحِ، وإنزالِ المطَرِ، وإحياءِ الأرضِ المَيْتةِ، وما في ذلك مِن دَلالةٍ على البَعثِ والنُّشورِ.

٧- بيانُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ ومراحِلِ نمُوِّه، وآياتِ اللهِ ونِعَمِه في البِحارِ والأنهارِ.

٨- ذِكرُ افتِقارِ الخَلقِ إلى الله سُبحانَه، وغِناه عنهم سُبحانَه.

٩- تقريرُ أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وِزْرَ غَيرِه، وأنَّ الَّذين يَنتَفِعونَ بالنُّذُرِ هم مَن يَخشَونَ اللهَ تعالى ويُطيعونَه.

١٠- ضَرْبُ المثَلِ للكافِرِ والمؤمِنِ، وللجاهِلِ والعالِمِ.

---

(١) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٨).

١١- تقريرُ وظيفةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسليتُه بما أصاب الرُّسُلَ قَبْلَه، ومصيرِ مَن كفَروا بهم.

١٢- الدَّعوةُ إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وإنزالِ اللهِ المطَرَ مِن السَّماءِ، وإخراجِ الثِّمارِ المتنَوِّعةِ الألوانِ؛ والنَّظَرِ في الجِبالِ وتعَدُّدِ ألوانِها، والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ وألوانِها المتعَدِّدةِ الكثيرةِ؛ وتقريرُ أنَّ العُلماءَ هم الَّذين يَخشَونَ اللهَ.

١٣- بيانُ فَضلِ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ويُنفِقونَ سِرًّا وعلانيةً.

١٤- تقريرُ أنَّ هذا الكتابَ المنَزَّلَ هو الحَقُّ يُصَدِّقُ ما بيْنَ يدَيْهِ مِن الكُتُبِ المنَزَّلةِ، وأنَّ اللهَ أوْرَثَه مَنِ اختارهم؛ وبيانُ دَرَجاتِ الوارِثينَ، وما ينتَظِرُهم مِن النَّعيمِ المُقيمِ، ثمَّ قابَلَهم بذِكرِ الكافِرين وجزائِهم.

١٥- الحديثُ عن جَهالاتِ المُشرِكينَ؛ حيثُ عَبَدوا مِن دونِ اللهِ تعالى ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نَفعًا، وعن مَكرِهم السَّيِّئِ الَّذي لا يَحيقُ إلَّا بأهلِه، ونَقْضِهم لعُهودِهم.

١٦- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ ببيانِ سَعةِ رَحمةِ الله تعالى بالنَّاسِ.



الآيات (١-٤)

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ
يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ
لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ
عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ
٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاطِرِ﴾: أي: خالِقِ ومُبتَدِئِ، يُقالُ: فطَرَ اللهُ الخَلْقَ، أي: ابتدَأهم، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[١].

﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي: اثنَينِ اثنَينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا؛ لبعضِهم جَناحانِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ[٢].

﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، والإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥، ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥، ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: الحَمدُ لله وَحْدَه الَّذي خلَقَ السَّموات والأرضَ، وجعَلَ الملائِكةَ رُسُلًا، أصحابَ أجنِحةٍ مَثنى وثُلاث ورُباعَ، يَزيدُ سُبحانَه في الخَلقِ ما يَشاءُ؛ إنَّه سُبحانَه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى أحدَ مَظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه تعالى بالتَّدبيرِ والعطاءِ والمنع، فيقولُ: ما يَفتَحِ اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ فلا يَستطيعُ أحدٌ أن يَحبِسَها دونَه، وما يُغلِقِ اللهُ مِن رحمةٍ عن النَّاسِ فلا يستطيعُ أحدٌ أن يُرسِلَها لهم، واللهُ هو العزيزُ الغالِبُ القاهِرُ، الحكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى بذِكْرِه وشُكرِه، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم، فانظُروا هل مِن خالقٍ غيرُ اللهِ يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ، لا إلهَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادتِه؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وإنْ يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِك؛ فلا تَحزَنْ لذلك، وإلى اللهِ وحْدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: الحمدُ[1] الكاملُ ثابتٌ ومختَصٌّ باللهِ وَحْدَه الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ،

(١) قال ابنُ عثيمين: (الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ معَ المحبةِ والتعظيمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١)

على غيرِ مِثالٍ سابقٍ[١].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

أي: جاعِلِ[٢] الملائكةِ رُسُلًا بيْنَه وبيْنَ مَن يَشاءُ مِن خَلقِه -لِتَبليغِ أوامِرِه الدِّينيَّةِ، وتدبيرِ أوامِرِه القَدَريَّةِ- أصحابَ أجنحةٍ، فيَنزِلونَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ويَصعَدونَ مِن الأرضِ إلى السَّماءِ؛ فمِنهم مَن له جَناحانِ، ومنهم مَن له ثلاثةُ أجنِحةٍ، ومنهم مَن له أربعةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١).

(٢) قال ابنُ عاشور: (أمَّا ﴿جَاعِلِ﴾ فيُطلَقُ بمعنى مُكوِّن، وبمعنى مُصَيِّر، وعلى الاعتبارين يختلفُ موقعُ قَولِه: ﴿رُسُلًا﴾ بين أن يكونَ مفعولًا ثانيًا لـ ﴿جَاعِلِ﴾ أي: جعل اللهُ من الملائكة، أي: ليكونوا رسلًا منه تعالى لِما يريد أن يفعَلوه...، وبين أن يكونَ حالًا من ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي: يجعَلُ من أحوالِهم أن يُرسَلوا، ولصلاحية المعنيَينِ أُوثِرَت مادةُ الجعلِ دون أن يُعطَفَ على مَعمولِ ﴿فَاطِرِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّ الملَكَ الواحدَ من صِنفٍ له جَناحانِ، وآخَرُ ثلاثةٌ، وآخَرُ أربعةٌ، وآخَرُ أكثَرُ من ذلك؛ لِما رُوِيَ أنَّ لِجبريلَ سِتَّ مئةِ جَناحٍ، منها اثنانِ يَبلُغُ بهما المَشرِقَ إلى المغربِ. قاله قَتادةُ... وقالت فِرقةٌ: المعنى: أنَّ في كلِّ جانبٍ مِنَ المَلَكِ جناحَينِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ، وإلَّا فلو كانت ثلاثةً لواحدٍ لَمَا اعتدلَتْ في مُعتادِ ما رأيْنا نحن مِن الأجنحة. وقيل: بل هي ثلاثةٌ لواحدٍ، كما يوجَدُ لبعضِ الحيواناتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٩).

وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ أعدادُ الأجنحةِ مُتغَيِّرةً لكلِّ مَلَكٍ في أوقاتٍ مُتغيِّرةٍ على حَسَبِ المسافاتِ الَّتي يُؤْمَرونَ باختِراقِها من السَّمواتِ والأَرَضينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٠).

وقال ابن عثيمين: (كيفيَّةُ هذه الأجنحةِ لا نَعلَمُها... والشَّيءُ لا يُعرَفُ إلَّا بمُشاهَدتِه، أو مُشاهَدةِ نَظيرِه، أو الخبرِ الصَّادقِ عنه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَزيدُ في الخَلْقِ[1] ما يَشاءُ بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه؛ فقد فضَّل بعضَ الملائِكةِ بزيادةِ الأجنحةِ على أربعةٍ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يَستعصي عليه شَيءٌ؛ فلا تُعجِزُه زيادةُ ما يَشاءُ في الخَلْقِ كيف يَشاءُ[3].

---

(١) قيل: قَولُه تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعُمُّ الزِّيادةَ في خَلْقِ الملائكةِ وغيرِهم من المخلوقات. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥).

قال الرَّسْعَني: (والصَّحيحُ: أنَّ الآيةَ مُطْلَقةٌ تَشملُ كلَّ زيادةٍ في الخَلقِ: مِن صَباحةٍ في الوجهِ، ومَلاحةٍ في العَينِ، وفَصاحةٍ في اللِّسانِ، وسماحةٍ في النَّفْسِ، وحَصافةٍ في العقلِ، وجَزالةٍ في الرَّأيِ، وجَراءةٍ في القلبِ، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ الزِّيادةِ ممَّا لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٦٩).

وقيل: المرادُ بذلك: الزِّيادةُ في خَلقِ الملائكة. ونَسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ، وأنَّه يَزيدُ في أجنحتِها ما يَشاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٥).

قال ابنُ كثير: (منهم [أي: الملائكةِ] مَن له أكثَرُ مِن ذلك، كما جاء في الحديثِ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جبريلَ لَيلةَ الإسراءِ وله ستُّ مئةِ جَناحٍ [البخاري: «٣٢٣٢» ومسلم «١٧٤»]...، ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٠)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير =

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى كَمالَ القُدرةِ؛ ذكَرَ بَيانَ نُفوذِ المَشيئةِ، ونفاذِ الأمرِ(١).

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

أي: ما يَفتَحْه اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ، سواءٌ مِن الأرزاقِ الحِسِّيَّةِ أو المعنويَّةِ، فلا يَستطيعُ أحدٌ كائنًا مَن كان أن يَحبِسَها ويُغلِقَ أبوابَها، فيَمنَعَ عَطاءَ اللهِ عن عبادِه(٢).

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾

أي: وما يُغلِقِ اللهُ مِن رَحمةٍ(٣) عن النَّاسِ ويَحبِسْها عندَه، فلا يَستطيعُ أحدٌ

= الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤، ٢٥).

(٣) ممَّن قال بأنَّ المحذوفَ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ هو الرَّحمةُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧).

وقيل: حُذِفَ المتعلَّقُ هنا؛ لإفادةِ العمومِ في كلِّ ما يمسكُ؛ فما يُمسِكُه اللهُ يَشملُ الرَّحمةَ وغيرَها مِن الشَّرِّ والضُّرِّ. استظهره أبو حيَّان، واختاره الألوسي، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥، ٢٦).

كائنًا مَن كان أن يُطلِقَها لهم(١).

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ القَدْرِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ وهو الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، فما يَفتَحُه للخَلقِ مِن رحمتِه أو يُمسِكُه عنهم هو وَفْقُ حِكمتِه سُبحانَه، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على نَقْضِ أمْرِه المحكَمِ المتقَنِ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الحَمدَ له، وبيَّنَ بَعضَ وُجوهِ النِّعمةِ الَّتي تَستوجِبُ الحَمدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨).
والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ قيل: عائِدٌ على اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦، ٢٨).
وقيل: عائدٌ على الإمساكِ. وممَّن قال بهذا: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧، ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧، ٢٨).

على سَبيلِ التَّفصيلِ؛ بيَّنَ نِعَمَه على سبيلِ الإجمالِ، فقال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[(١)].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى -بما يُشاهِدُه كُلُّ أحدٍ في نفْسِه- أنَّه المُنعِمُ وحْدَه؛ أمَرَ بذِكرِ نِعمتِه بالاعترافِ أنَّها منه[(٢)].

وأيضًا لَمَّا جرى ذِكرُ رحمةِ الله الَّتي تَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهم؛ أقبَلَ على خِطابِهم بأن يَتذكَّروا نِعمةَ الله عليهم الخاصَّةَ، وهي النِّعمةُ الَّتي تَخُصُّ كُلَّ واحدٍ بخاصَّته، فيأْتَلِفُ منها مجموعُ الرَّحمةِ العامَّةِ للنَّاسِ كُلِّهم، وما هي إلَّا بعضُ رحمةِ اللهِ بمَخلوقاتِه، والمقصودُ من تذَكُّرِ النِّعمةِ شُكْرُها، وقَدْرُها قَدْرَها[(٣)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا ما أنعَمَ اللهُ به عليكم، فانظُروا هل تَجِدونَ خالِقًا غيرَ اللهِ يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ ومِنَ الأرضِ -بالمطرِ والنَّباتِ وغيرِهما-؛ فيَستَحِقَّ العبادةَ[(٤)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادةِ الخالِقِ الرَّازِقِ إلى عبادةِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا، ولا يَرزُقُكم شيئًا[(٥)]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩-٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ: وهو التَّوحيدُ؛ ذكَرَ الأصلَ الثَّانيَ: وهو الرِّسالةُ[1].

وأيضًا فهي عَطفٌ على ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، أي: وإن استمَرُّوا على انصِرافِهم عن قَبولِ دَعوتِك، ولم يَشكُروا النِّعمةَ ببَعثِك- فلا عَجَبَ؛ فقد كذَّب أقوامٌ مِن قَبْلِهم رُسُلًا من قَبْلُ[2].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: وإن يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فتلك سُنَّةُ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَذَّبوا رُسُلَهم؛ فلا تَحزَنْ لذلك، ولك فيمَنْ سبَقَك مِنَ الرُّسُلِ أُسوةٌ[3].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ[4].

= (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).
قيل: المعنى: أنَّ أمورَ العبادِ تصيرُ إلى الله- جلَّ وعزَّ- في الآخرة. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ انفرادَه تعالى بالتَّدبيرِ والعَطاءِ والمَنعِ، فهذا يُوجِبُ التَّعَلُّقَ باللهِ تعالى، والافتِقارَ إليه مِن جميعِ الوُجوهِ، وألَّا يُدعَى إلَّا هو، ولا يُخافَ ولا يُرجَى إلَّا هو[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أمْرٌ بذِكرِ نِعمتِه، بالاعتِرافِ أنَّها منه؛ فإنَّ الذِّكرَ يَقودُ إلى الشُّكرِ، وهو قَيْدُ الموجودِ، وصَيْدُ المعدومِ المفقودِ[2].

= مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧١).

قال الواحدي: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ يعني: في الجزاءِ، مِن الثَّوابِ والعقابِ). ((الوجيز)) (ص: ١٦٠). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

وقال ابنُ جرير: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإلى الله مَرجِعُ أمْرِك وأمْرِهم، فيُحِلُّ بهم مِن العقوبةِ -إن هم لم يُنيبوا إلى طاعتِنا في اتِّباعِك، والإقرارِ بنُبوَّتِك، وقَبولِ ما دعَوْتَهم إليه مِن النَّصيحةِ- نظيرَ ما أحلَلْنا بنُظَرائِهم مِن الأمَمِ المكَذِّبةِ رُسُلَها قَبْلَك، ومُنَجِّيك وأتْباعَك من ذلك؛ سُنَّتَنا بمَن قَبْلَك في رُسُلِنا وأوْليائنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ هذا عامٌّ في أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وأمورِ الشَّرعِ، وأمورِ القَدَرِ؛ فكُلُّ الأمورِ تُرجَعُ إلى الله عزَّ وجلَّ... والأمورُ هنا جمْعُ أمرٍ، بمعنى الشَّأنِ، أي: شُؤونُ الدُّنيا والآخرةِ، والشُّؤونُ القَدَريَّةُ والشَّرعيةُ كُلُّها تُرجَعُ إلى الله سُبحانَه وتعالى... وإذا تُرجَعُ إلى الله وقد كُذِّبَت الرُّسُلُ، فمَصيرُ الرُّسُلِ النَّصرُ في الدُّنيا والآخرةِ، ومصيرُ المكَذِّبينَ الخِزيُ والعارُ في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ إذا أصابَتْه الضَّرَّاءُ أنْ يَرجِعَ إلى ربِّه، وأنْ يَتعلَّقَ به؛ فإذا كانتِ الأمورُ تُرجَعُ إلى اللهِ فلْيَكُنْ طلَبُ إزالةِ الضَّررِ مِن اللهِ[١]. على قولٍ في معنى الآيةِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُسنِدَ ما رزَقَه اللهُ مِن رِزْقٍ -سواءٌ كان عِلْمًا أم مالًا أم جاهًا أم ولدًا أم زَوجةً- إلى نفْسِه، فيَقولَ: إنَّما أُوتيتُه على عِلمٍ عندي[٢]! على قولٍ في معنى الآيةِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَمدَحُ اللهُ تعالى نَفْسَه الكريمةَ المقَدَّسةَ، على خَلقِه السَّمواتِ والأرضَ، وما اشتَمَلَتا عليه مِن المخلوقاتِ؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على كمالِ قُدرتِه، وسَعةِ مُلكِه، وعُمومِ رَحمتِه، وبديعِ حِكمتِه، وإحاطةِ عِلمِه[٣]، حيثُ ابتدأَ خَلْقَ هذه السَّمَواتِ العظيمةِ وهذه الأرضِ على هذا النِّظامِ البَديعِ مِن غيرِ أنْ يَسبِقَ مِثالٌ يَحتذيه ويَقتدي به، ومَعلومٌ أنَّ مُبدِعَ الصَّنعةِ يُشهَدُ له بالخِبرةِ والقُدرةِ؛ لأنَّه أنشَأَ شيئًا جديدًا، وصارَ هذا الشَّيءُ الجديدُ مُنتَظِمًا على تمامِ الانتظامِ، وغايةِ الإحكامِ[٤].

٢- اسمُ الملائِكةِ والمَلَكِ يَتضَمَّنُ أنَّهم رُسُلُ اللهِ[٥]، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١).

(٥) إذ الملَكُ مِن الأَلُوكةِ، وهي الرِّسالةُ، يقالُ: أَلِكْني إلى فُلانٍ، يُريدون به: كُنْ رسولي، وتحمَّلْ رِسالتي إليه. يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٤٠٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٢٠٢)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٤٨-٥٣).

ﱡٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﱠ، وكما قال: ﱡوَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗاﱠ [المرسلات: ١]، فالملائِكةُ رُسُلُ اللهِ في تنفيذِ أمرِه الكَونيِّ الَّذي يُدبِّرُ به السَّمَواتِ والأرضَ -كما قال تعالى: ﱡحَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﱠ [الأنعام: ٦١]، وكما قال: ﱡبَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﱠ [الزخرف: ٨٠]- وأمْرِه الدِّينيِّ الَّذي تَنزِلُ به الملائِكةُ؛ فإنَّه قال: ﱡ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ﱠ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﱡوَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﱠ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﱡ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِﱠ(١) [الحج: ٧٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﱡجَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ ﱠ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ، وليسوا أرواحًا مُجرَّدةً مِن الجِسميَّةِ(٢).

٤- قال الله سبحانه تعالى: ﱡجَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ ﱠ في ذِكرِه تعالى أنَّه جعَلَ الملائِكةَ رُسُلًا، ولم يَستَثْنِ منهم أحدًا: دَليلٌ على كمالِ طاعتِهم لربِّهم، وانقيادِهم لأمرِه، كما قال تعالى: ﱡلَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﱠ(٣) [التحريم: ٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﱡأُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ ﱠ إشارةٌ إلى سرعةِ تَنَقُّلِ الملائكةِ لقوَّةِ أجنحتِهم؛ يدُلُّ على ذلك أنَّه لولا أنَّ لهذه الأجنحةِ مَزيَّةً عظيمةً لَمَّا استحقَّتْ أنْ يُنَصَّ عليها، ولَذُكِر غيرُها كالرُّؤوسِ مثلًا! ولكنْ ذَكَر الأجنحةَ؛ لِمَا فيها من القوَّةِ لِحَمْلِها هؤلاءِ الملائكةِ، ولأنَّها تكونُ عندَ الإرسالِ أسرَعَ(٤). فلمَّا كانت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١، ٢٢).

الملائكةُ مُدَبِّراتٍ -بإذنِ اللهِ- ما جعَلهم اللهُ موَكَّلينَ فيه؛ ذكَر قوَّتَهم على ذلك، وسرعةَ سَيْرِهم[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ أنَّ اللهَ تعالى فَضَّلَ المخلوقاتِ بعضَها على بعضٍ، والزِّيادةُ مُقابِلُها نقصٌ؛ فهذا يَزيدُه قوَّةً في الجسمِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في العقلِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في الطُّولِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في العِلمِ... إلى آخرِه[٢]، وهذا على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٧- الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّ أفعالَ العبدِ غيرُ مخلوقةٍ ولا مَقدورةٍ لله! لعُمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وأفعالُ العبدِ من الأشياءِ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ وُصِفَت النِّعمةُ بـ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن التَّذكُّرِ: التَّذكُّرُ الَّذي يَترتَّبُ عليه الشُّكرُ، وليس المرادُ مُطلَقَ التَّذكُّرِ، بمعنى الاعتبارِ والنَّظَرِ في بديعِ فَضلِ اللهِ[٤].

٩- في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أهمِّيَّةُ ذِكْرِ النِّعمةِ؛ لأنَّها صُدِّرَتْ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا يدُلُّ على الأهمِّيَّةِ؛ لأنَّ ما صُدِّرَ بالنِّداءِ معناه تنبيهُ المخاطَبِ على الاستماعِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بالشَّرائعِ، فكما يجِبُ على المُسلمِ أنْ يَذكُرَ نِعمةَ اللهِ، يجبُ على الكافرِ أيضًا أنْ يَذكُرَ نِعمةَ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

وبِناءً عليه فإنَّه يُعاقَبُ على عدَمِ ذِكْرِ النِّعمةِ في الآخرةِ، وقد يُعاقَبُ عليه أيضًا في الدُّنيا[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ فيه ردٌّ على أهلِ القَدَرِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم يَخلُقونَ أفعالَهم[٢]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنَّ الإقرارَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ الإقرارَ بتوحيدِ الألوهيَّةِ، وهذا مأخوذٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ فكما أنَّه هو الخالقُ وَحْدَه، فيجبُ أنْ يكونَ هو المعبودَ وحْدَه؛ ولهذا نقولُ: توحيدُ الألوهيَّةِ يَتضمَّنُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ؛ لأنَّه لا يُعبَدُ إلَّا مَن عُلِمَ بأنَّه الرَّبُّ الخالقُ الكامِلُ في صِفاتِه، وتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ توحيدَ الألوهيَّةِ وتوحيدَ الأسماءِ والصِّفاتِ[٣].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وفي سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] بالحَصرِ؟

والجوابُ: أنَّ أصلَ الرِّزقِ مِن السَّماءِ، وتُشارِكُ فيه الأرضُ باعتبارِ النَّباتِ[٤].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه بيانُ عنايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ برَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، حيثُ سَلَّاه بذِكرِ مَن كُذِّبَ مِن قَبْلِه؛ فإنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ غيرَه أُصيبَ بمِثلِ مُصيبتِه تَسلَّى بذلك[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٠، ٤٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وُجوبُ تحكيمِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وأنَّه لا يجوزُ العُدولُ عمَّا دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ؛ لأنَّ الأمورَ والشُّؤونَ تُرجَعُ إلى اللهِ، ومنها الحُكمُ بينَ النَّاسِ؛ فيجبُ أنْ يكونَ مَرجِعُه إلى اللهِ تعالى[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ افتتاحُ السُّورةِ بالحمْدِ مُؤذِنٌ بأنَّ صِفاتٍ من عَظَمةِ اللهِ ستُذكَرُ فيها. وإجراءُ صِفاتِ الأفعالِ على اسمِ الجَلالةِ مِن خلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وأفضَلَ ما فيهما مِن الملائكةِ والمرسَلينَ؛ مُؤذِنٌ بأنَّ السُّورةَ جاءتْ لإثباتِ التَّوحيدِ وتَصديقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وإيذانُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ باستحقاقِ اللهِ إيَّاه دونَ غيرِه[(٢)].

- وتَخصيصُ ذِكرِ الملائكةِ مِن بيْنِ مَخلوقاتِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِشَرَفِهم بأنَّهم سُكَّانُ السَّمواتِ، وعظيمِ خَلْقِهم، وأجْرى عليهم صِفةَ أنَّهم رُسلٌ؛ لِمُناسَبةِ المَقصودِ من إثباتِ الرِّسالةِ، أي: جاعِلِهم رُسلًا منه إلى المُرسَلينَ مِن البشَرِ؛ للوحْيِ بما يُرادُ تَبليغُهم إيَّاهُ للنَّاسِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما ذُكِرَ من صِفاتِ الملائكةِ يُثيرُ تَعجُّبَ السَّامعِ أنْ يَتساءلَ عن هذه الصِّفةِ العَجيبةِ؛ فأُجِيبَ بهذا الاستئنافِ بأنَّ مَشيئةَ اللهِ تعالى لا تَنحصِرُ ولا تُوقَّتُ، ولكلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤٩).

جِنسٍ مِن أجناسِ المَخلوقاتِ مُقوِّماتُه وخَواصُّه[(١)]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَعليلٌ بطَريقِ التَّحقيقِ للحُكمِ المذكورِ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ شُمولَ قُدرتِه تعالى لجَميعِ الأشياءِ ممَّا يُوجِبُ قُدرتَه تعالى على أنْ يَزيدَ كلَّ ما يَشاؤُه إيجابًا بيِّنًا[(٢)]. وفي هذا تَعريضٌ بتَسفيهِ عُقولِ الَّذين أنْكَروا الرِّسالةَ وقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ فأُجيبوا بقولِ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[(٣)] [إبراهيم: ١١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ عبَّر عن إرسالِ هذه الرَّحمةِ بالفَتْحِ؛ إيذانًا بأنَّها أنفَسُ الخَزائنِ الَّتي يَتنافَسُ فيها المُتنافِسونَ، وأعَزُّها مَنالًا[(٤)].

- وتَنكيرُ الرَّحمةِ؛ للإشاعةِ والإبهامِ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يَفتَحُ اللهُ مِن خَزائنِ رحمتِه أيَّةَ رَحمةٍ كانتْ؛ مِن نِعمةٍ وصِحَّةٍ وأمْنٍ، وعِلمٍ وحِكمةٍ، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحاطُ به. وقيل: العمومُ مَفهومٌ مِن اسمِ الشَّرطِ، و﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾؛ لِبيانِ ذلك العامِّ مِن أيِّ صِنفٍ هو[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ حُذِفَ مَفعولُه؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ عليه، والتَّقديرُ: وما يُمسِكْ مِن رَحمةٍ؛ ولم يُذكَرْ له بَيانٌ استِغناءً ببَيانِه مِن قبْلُ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ولَمَّا كان حَبْسُ الرَّحمةِ مَكروهًا لم يُصرَّحْ به، وتُرِكَ الشَّرطُ على عُمومِه بعْدَ أنْ فُسِّرَ الشَّرطُ الأوَّلُ بالرَّحمةِ؛ دَلالةً على مَزيدِ الاعتناءِ بها؛ إيذانًا بأنَّ رَحمتَه سبَقَتْ غضَبَه، فقال: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿لَهَا﴾ وضَميرُ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ عائدانِ إلى (ما) مِن قولِه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾؛ رُوعِيَ في تأْنيثِ أحَدِ الضَّميرينِ معنى (ما)؛ فإنَّه اسمٌ صادقٌ على (رَحمةٍ) وقد بُيِّنَ بها، ورُوعِيَ في تَذكيرِ الضَّميرِ الآخَرِ لَفظُ (ما)؛ لأنَّه لفظٌ لا علامةَ تأنيثٍ فيه، وهما اعتبارانِ كَثيرانِ في مِثلِه في فَصيحِ الكلامِ؛ فالمُتكلِّمُ بالخِيارِ بيْنَ أيِّ الاعتبارينِ شاء. والجمْعُ بيْنَهما في هذه الآيةِ تَفنُّنٌ، وأُوثِرَ بالتَّأنيثِ ضَميرُ (ما)؛ لأنَّها مُبيَّنةٌ بلَفظٍ مُؤنَّثٍ، وهو ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾[٣]. وقيل: اختِلافُ الضَّميرَينِ في قولِه: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وقولِه: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ الموصولَ الأوَّلَ مُفسَّرٌ بالرَّحمةِ، والثَّاني مُطلَقٌ يَتناوَلُها والغضَبَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رَحمتَه سبقَت غضَبَه[٤].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه؛ لِيَدُلَّ على شُمولِ المَعسورِ

= السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢).

والمَيْسورِ، ومُعربٌ عن كَونِ كلٍّ مِن الفَتحِ والإمساكِ بمُوجَبِ الحِكمةِ الَّتي عليها يَدورُ أمْرُ التَّكوينِ. ورُجِّحَ فيه جانبُ الإخبارِ فعُطِفَ -وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يكونَ مَفصولًا-؛ لإفادةِ أنَّه يَفتَحُ ويُمسِكُ لِحِكمةٍ يَعلَمُها، وأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ نقْضَ ما أبرَمَه في فتْحِ الرَّحمةِ وغيرِه مِن تَصرُّفاتِه؛ لأنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُمكِنُ لِغَيرِه أنْ يَغلِبَه؛ فإنَّ نَقْضَ ما أبرَمَ ضَربٌ مِن الهَوانِ والمَذلَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، والمعنَى: لا خالقَ إلَّا اللهُ وحْدَه؛ ولذلك اقترَنَ ما بعْدَه بـ (مِن) الَّتي تُزادُ لِتَأكيدِ النَّفيِ[2]. وقيل: إنَّ هذا الاستِفهامَ على جِهةِ التَّقريرِ[3].

- وجُعِلَ النَّفْيُ في قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ مُتوجِّهًا إلى القَيدِ -وهو جُملةُ الصِّفةِ ﴿يَرۡزُقُكُم﴾- كما هي سُنَّته في الكلامِ المُقيَّدِ؛ لأنَّ المَقصودَ التَّذكيرُ بنِعَمِ اللهِ تعالى لِيَشْكروا، ويكونَ ذلك كِنايةً عن الاستِدلالِ على انتفاءِ وَصفِ الخالقيَّةِ عن غَيرِه تعالى؛ لأنَّه لو كان غيرُه خالقًا لَكان رازقًا؛ إذ الخَلْقُ بدُونِ رِزقٍ قُصورٌ في الخالقيَّةِ؛ لأنَّ المخلوقَ بدُونِ رِزقٍ لا يَلبَثُ أنْ يَصيرَ إلى الهلاكِ والعَدَمِ، فيَكونُ خَلْقُه عَبَثًا يُنزَّهُ عنه المَوصوفُ بالإلهيَّةِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٣، ٦٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣).

المُقتضيةِ للحِكمةِ؛ فكانت الآيةُ مُذكِّرةً بنِعمَتَي الإيجادِ والإمدادِ[(١)].

- وللاهتِمامِ بهذا الاستِثناءِ -﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾- قُدِّمَ في الذِّكرِ قبْلَ ما هو في قوَّةِ المُسْتثنى منه. وجُعِلَ صِفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾؛ لأنَّ (غير) صالحةٌ للاعتبارينِ[(٢)].

- وزِيادةُ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَذكيرٌ بتَعدُّدِ مَصادرِ الأرزاقِ؛ فإنَّ منها سَماويَّةً كالمطَرِ -الَّذي منه شَرابٌ، ومنه طَهورٌ، وسبَبُ نَباتِ أشجارٍ وكَلَأٍ- وكالضِّياءِ مِن الشَّمسِ، والاهتداءِ بالنُّجومِ في اللَّيلِ، وكذلك أنواعُ الطَّيرِ الَّذي يُصادُ، كلُّ ذلك مِن السَّماءِ. ومِن الأرضِ أرزاقٌ كثيرةٌ؛ مِن حُبوبٍ، وثِمارٍ، وزيوتٍ، وفَواكهَ، ومَعادنَ، وأسماكِ البحارِ والأنهارِ. وفي هذا القَيدِ فائدةٌ أخرى؛ وهي دَفْعُ توهُّمِ الغُفَّلِ أنَّ أرزاقًا تأْتيهم مِن غَيرِ اللهِ مِن أنواعِ العَطايا الَّتي يُعْطيها بعضُهم بعضًا، والمُعاوضاتِ الَّتي يُعاوِضُها بعضُهم مع بعضٍ؛ فإنَّها لِكَثرةِ تَداوُلِها بيْنَهم قد يُلْهِيهم الشُّغلُ بها عن التَّدبُّرِ في أُصولِ مَنابعِها؛ فإنَّ أُصولَ مَوادِّها مِن صُنعِ اللهِ تعالى، فآلَ ما يُعطاهُ النَّاسُ منها إلى أنَّه مِن اللهِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نَتيجةٌ عَقِبَ ذِكرِ الدَّليلِ؛ إذ رَتَّبَ الحقُّ على انفرادِه بالخالقيَّةِ والرَّازقيَّةِ انفرادَه بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ هذَينِ الوَصفينِ هما أظهَرُ دَلائلِ الإلهيَّةِ عندَ النَّاسِ؛ فجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مُستأنَفةٌ[(٤)]، سيقَتْ لِتَقريرِ النَّفيِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ قَصدًا[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢١).

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ التَّعجُّبِ مِن انصرافِهم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ على انفرادِه بالخالقيَّةِ والرَّازقيَّةِ؛ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن انصرافِهم عن الاعترافِ بالوَحدانيَّةِ تَبعًا لِمَن يَصرِفُهم، وهمْ أولياؤهم وكُبَراؤهم[1]. أو لِترتيبِ إنكارِ عُدولِهم عن التَّوحيدِ إلى الإشراكِ على ما قبْلَها[2].

- وحُذِفَ الفاعلُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ لأنَّ آفكيهِم أصنافٌ كَثيرونَ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ انتِقالٌ مِن خِطابِ النَّاسِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ خِطابِ النَّاسِ على لِسانِه، فهو مُشاهِدٌ لِخطابِهم، فلا جَرَمَ أنْ يُوجَّهَ إليه الخِطابُ بعْدَ تَوجيهِه إليهم؛ إذِ المَقامُ واحدٌ، وإذ قد أبانَ لهم الحُجَّةَ على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ حينَ خاطَبَهم بذلك، نُقِلَ الإخبارُ عن صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أنْكَروا قَبولَه منه؛ فإنَّه لَمَّا استبانَ صِدْقُه في ذلك بالحُجَّةِ، ناسَبَ أنْ يُعرَّضَ إلى الَّذين كذَّبوه بمِثلِ عاقِبةِ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ مِن قبْلِه. وقد أُدمِجَ في خِلالِ ذلك تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على تَكذيبِ قَومِه إيَّاه بأنَّه لم يكُنْ مَقامُه في ذلك دونَ مَقامِ الرُّسلِ السابقينَ[4].

- وجِيءَ في هذا الشَّرطِ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بحَرفِ (إنْ) الَّذي أصْلُه أنْ يُعلَّقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

به شَرطٌ غيرُ مَقطوعٍ بوُقوعِه؛ تَنزيلًا لهم -بعْدَما قُدِّمَت إليهم الحُجَّةُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، المُصَدِّقةُ لِمَا جاءهم به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فكذَّبوه فيه- مَنزِلةَ مَن أيقَنَ بصِدقِ الرَّسولِ؛ فلا يكونُ فَرْضُ استمرارِهم على تَكذيبِه إلَّا كما يُفرَضُ المُحالُ. وهذا وَجهُ إيثارِ الشَّرْطِ هنا بالفِعلِ المُضارِعِ الَّذي في حيِّزِ الشَّرْطِ يَتمحَّضُ للاستِقبالِ، أي: إنْ حدَثَ منهم تَكذيبٌ بعْدَ ما قَرَع أسماعَهم مِن البراهينِ الدَّامغةِ[(١)].

- وبُنِيَ الفِعلُ للمَجهولِ ﴿كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ مَحطُّها وُقوعُ التَّكذيبِ، لا تَعيينُ المُكذِّبِ[(٢)].

- والمَذكورُ جَوابًا للشَّرطِ -﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾- إنَّما هو سَببٌ لِجَوابٍ مَحذوفٍ؛ إذ التَّقديرُ: وإنْ يُكذِّبوك فلا يَحزُنْك تَكذيبُهم، أو فتَأسَّ بتَكذيبِ الرُّسلِ مِن قبْلِك؛ إذ قد كُذِّبَت رُسلٌ مِن قبْلِك، فاستُغْنِيَ بالسَّببِ عن المُسبَّبِ؛ لدَلالتِه عليه[(٣)].

- ولم يُعرَّفْ لَفظُ (رُسُل)، وجِيءَ به مُنكَّرًا؛ لِمَا في التَّنكيرِ مِن الدَّلالةِ على تَعظيمِ أولئك الرُّسلِ؛ زِيادةً على جانبِ صِفةِ الرِّسالةِ مِن جانبِ كَثرتِهم، وتَنوُّعِ آياتِ صِدقِهم، ومع ذلك كذَّبَهم أقوامُهم[(٤)]!

- وأُفْرِد التَّكذيبُ بالذِّكرِ؛ اهتِمامًا بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنبيهًا على أنَّ الأكثَرَ يُكذِّبُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠).

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ عُطِفَ على التَّسليةِ والتَّعريضِ ما هو كالتَّأكيدِ لهما، والتَّذكيرِ بعاقبةِ مَضمونِها بأنَّ أمْرَ المُكذِّبينَ قد آلَ إلى لِقائِهم جَزاءَ تَكذيبِهم مِن لَدُنِ الَّذي ترجِعُ إليه الأمورُ كلُّها، فكان أمْرُ أولئك المُكذِّبينَ وأمْرُ أولئك الرُّسلِ في جُملةِ عُمومِ الأُمورِ الَّتي أُرجِعَت إلى اللهِ تعالى؛ إذ لا تَخرُجُ أُمورُهم مِن نِطاقِ عُمومِ الأُمورِ. وقد اكتسَبَت هذه الجُملةُ معنى التَّذييلِ بما فيها مِن العُمومِ. و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ جمْعُ أمْرٍ، وهو الشَّأنُ والحالُ، أي: إلى اللهِ تَرجِعُ الأحوالُ كلُّها يَتصرَّفُ فيها كيف يَشاءُ؛ فتكونُ الآيةُ تَهديدًا للمُكذِّبينَ وإنذارًا، ووَعدًا للمُكذَّبِ[1].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيه تقديمُ المعمولِ؛ وتقديمُ المعمولِ يفيدُ الحصرَ، فالمعنى: إلى اللهِ لا إلى غيرِه تُرجعُ الأمورُ[2].

- وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ اختِصاصِ المَرجِعِ باللهِ تعالى مع إبهامِ الجَزاءِ ثوابًا وعِقابًا: مِن المُبالَغةِ في الوَعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

الآيات (٥-٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ(١).

﴿حَسَرَٰتٍ﴾: جمعُ حَسْرةٍ، والحَسْرةُ: شدَّةُ الحزنِ أو النَّدَمُ الشَّديدُ وهمُّ النَّفسِ على ما فاتَ مِنَ الأمرِ، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انْكِشافٌ عن حالِ النَّدامَةِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ كائنٌ لا مَحالةَ؛ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا، ولا يَغُرَّنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه ووُعودِه الكاذِبةِ.

ثُمَّ يُبيِّنُ عداوةَ الشَّيطانِ لابنِ آدَمَ، فيقولُ: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتَّخِذوه عَدوًّا

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير الثعلبي (٨/ ٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢).

واحذَروا طاعتَه؛ إنَّما يدعو الشَّيطانُ أتْباعَه لِيُضِلَّهم فيكونوا مِن أصحابِ النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أقسامَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: الَّذين كفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شَديدٌ، والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لهم مَغفِرةٌ وأجرٌ كبيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى: أفمَن زُيِّن له عمَلُه السَّيِّئُ فرآه حَسَنًا كمَنْ ليس كذلك؟! فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، ويَهدي مَن يشاءُ هِدايتَه؛ فلا تُهلِكْ نَفْسَك -يا محمَّدُ- حَزَنًا على هؤلاء الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقِّ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما يَصنَعونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ ما وعَدَكم اللهُ به صِدقٌ لا شكَّ فيه، كائنٌ لا مَحالةَ[1].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

قيل: المرادُ بوَعدِ اللهِ تعالى هنا: البَعثُ والجزاءُ على الأعمالِ. وممَّن قال بهذا القولِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

وقيل: المرادُ به: البَعثُ وغَيرُه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

قال ابنُ عثيمين: (فكُلُّ ما وعَدَ اللهُ به فإنَّه حَقٌّ؛ سواءٌ البَعثُ، أو العِقابُ أو الثَّوابُ، أو النَّصرُ أو الخِذلانُ، أو غيرُ ذلك ممَّا وعد اللهُ به؛ فإنَّه حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

أي: فلا تَخدَعَنَّكم حياتُكم الدُّنيا، والتَّمَتُّعُ بمَلَذَّاتِها، والانشِغالُ بها[(١)].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه، وأمانيِّه الباطِلةِ، ووُعودِه الكاذِبةِ[(٢)].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قيل: المرادُ: لا تَغُرَّنَّكم الدُّنيا عن الآخرةِ، والتَّزوُّدِ لها بالعَمَلِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤).

وقال ابن جرير: (﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يقولُ: فلا يَغُرَّنَّكم ما أنتم فيه مِن العَيشِ في هذه الدُّنيا، ورياساتِكم الَّتي تَترَأَّسون بها على ضُعفائِكم فيها: عن اتِّباعِ محمَّدٍ والإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٢٧).

وممَّن جمَع بين المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ الجوزي، فقال: (﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتِها عن الإسلامِ، والتَّزوُّدِ للآخرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤).

قيل: المعنى: لا يَغُرَّنَّكم بحِلمِ الله ومغفرتِه، فيُوَسْوِسَ لكم بأنِ اعمَلوا ما شِئتُم، وسيَتجاوَزُ الله عنكم، ويَغفِرُ لكم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشري، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يقولُ: ولا يَخدَعنَّكم باللهِ الشَّيطانُ، فيُمَنِّيَكم الأمانيَّ، ويَعِدَكم مِن الله العِدَاتِ الكاذبةَ، ويَحمِلَكم على الإصرارِ على كُفرِكم بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى في آيةِ «لقمانَ» وآيةِ «فاطرٍ» المذكورتَين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وترتيبُه على ذلك النَّهيَ عن أن يَغُرَّهم باللهِ الغَرورُ: دليلٌ واضِحٌ على أنَّ ممَّا يَغُرُّهم به الشَّيطانُ أنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ ليس بحقٍّ، وأنَّه غيرُ واقعٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٤٦).

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠].

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾؛ ذكَرَ ما يَمنَعُ العاقِلَ مِن الاغترارِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ حريصٌ على إضلالِكم؛ فعادُوه أشدَّ العَداوةِ، وخالِفوه فيما يأمُرُكم، واحذَروا طاعتَه، واستَفرِغوا وُسْعَكم في محاربتِه ومُجاهَدتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

أي: إنَّما يَدْعو الشَّيطانُ أشياعَه وأتْباعَه إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ باللهِ[3]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٣) قال ابن عثيمين: (حزبُ الشَّيطانِ؛ الحِزبُ المُطلَقُ: لا شَكَّ أنَّهم الكُفَّارُ، لكِنْ مَن عصى اللهَ عزَّ وجلَّ -ولو لم يكنْ كافِرًا- في معصيةٍ مِن المعاصي، فله مِن حزبيَّةِ الشَّيطانِ بقَدرِ ما عصى اللهَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٣).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَدْعوهم إلى الكفرِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، =

وغرَضُه أنْ يُضِلَّهم حتَّى يكونوا مِن أهلِ النَّارِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنهَى اللهُ تعالى البيانَ في غَرَضِ الشَّيطانِ إلى مُنتَهاه؛ نبَّه على ما حكَمَ به

= وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦).

وقال الشوكاني: (إنَّما يَدْعو أشياعَه، وأتْباعَه، والمُطيعينَ له إلى معاصي اللهِ سبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (إنَّما يَدْعو حزبَه... إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن عاشور: (واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يجوزُ أن تكونَ لامَ العِلَّة؛ فإنَّ الشَّيطانَ قد يكونُ ساعيًا لغايةِ إيقاعِ الآدَميِّينَ في العذابِ؛ نِكايةً بهم، وهي عِلَّةٌ لِلدَّعوةِ مَخفيَّةٌ في خاطِرِه الشَّيطانيِّ وإن كان لا يجهَرُ بها؛ لأنَّ إخفاءَها من جملةِ كَيدِه وتزيينِه. ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ لامَ العاقبةِ والصَّيرورةِ، مِثلُ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. قال ابنُ عطيَّةَ: لأنَّه لم يَدْعُهم إلى السَّعيرِ، إنَّما اتَّفق أنْ صار أمْرُهم عن دعائِه إلى ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠).

هو سُبحانَه في أشياعِه، بقَولِه مُستأنِفًا[١]:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾.

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شديدٌ[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ جزاءَ حِزبِ الشَّيطانِ؛ أتْبَعَه حِزبَ اللهِ الَّذين عادَوا عَدُوَّهم، فقال[٣]:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا -تصديقًا لإيمانِهم- الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ للهِ تعالى، والموافِقةَ لِشَرعِه: لهم مَغفِرةٌ مِن اللهِ لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها؛ ولهم أجرٌ كَبيرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قيل: المرادُ: لهم عذابُ النَّارِ في الآخرةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

وقيل: المرادُ: عذابُ الدُّنيا والآخرةِ؛ ففي الدُّنيا بفَواتِ غالبِ ما يُؤَمِّلونَ، مع تفرقةِ قُلوبِهم، وانسدادِ بصائرِهم، وسَفالةِ هِمَمِهم -حتَّى إنَّهم رَضُوا أن يكونَ إلهُهم حَجَرًا-، وانحجابِ المعارِفِ -الَّتي لا لَذاذةَ في الحقيقةِ غيرُها- عنهم. وفي الآخِرةِ بالسَّعيرِ الَّتي دعاهم الشَّيطانُ إلى صُحبتِها. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٦، ٥٧).

=

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبان ما سَبَق تَفاوُتَ الحِزبَينِ في المآلِ بالهلاكِ والفَوزِ، وكان لا يُقدِمُ على الهلاكِ أحدٌ فيه حِسٌّ، وكان الكُفَّارُ يَدَّعونَ أنَّهم الفائزون قناعةً بالنَّظَرِ إلى ما هم فيه، ويَدَّعون أنَّهم أبصَرُ النَّاسِ، وأحسَنُهم أعمالًا، وكذا كلُّ عاصٍ ومُبتَدِعٍ؛ كان ذلك سببًا في إنكارِ تساويهما، فأنكرَه مُبَيِّنًا السَّبَبَ في ضلالِهم بما فيه تسليةٌ للمُحسِنينَ، ونَدْبٌ إلى الشُّكرِ، وحَثٌّ على مُلازَمةِ الافتقارِ والذُّلِّ، وسُؤالِ العافيةِ مِن الزَّلَلِ والزَّيغِ(١).

وأيضًا لَمَّا جَرَى تَحذيرُ النَّاسِ مُن غُرورِ الشَّيطانِ، وإيقاظُهم إلى عَداوتِه للنَّوعِ الإنسانيِّ، وتَقسيمُ النَّاسِ إلى فَريقَينِ: فَريقٌ انطَلَت عليه مَكايدُ الشَّيطانِ، واغتَرُّوا بغُرورِه، ولم يُناصِبوه العَداءَ، وفريقٌ أخَذوا حِذْرَهم منه، واحتَرَسوا من كَيدِه، وتَجنَّبوا السَّيرَ في مَسالِكِه، ثمَّ تَقسيمُهم إلى كافرٍ مُعذَّبٍ، ومُؤمِنٍ صالحٍ مُنْعَمٍ عليه؛ أُعقِبَ ذلك بالإيماءِ إلى استِحقاقِ حِزبِ الشَّيطانِ عذابَ السَّعيرِ، وبتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن لم يَخلُصوا مِن حَبائلِ الشَّيطانِ من

= قيل: المرادُ بالأجرِ الكبيرِ: الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦).

وقيل: المرادُ: لهم أجرٌ كبيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ففي الدُّنيا بسُهولةِ العبادةِ، ودوامِ المعرفةِ، ونحوِ ذلك؛ وفي الآخرةِ: في الجنَّةِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤).

أُمَّةِ دَعوتِه بأُسلوبِ المُلاطَفةِ في التَّسليةِ؛ ففُرِّعَ على جَميعِ ما تَقدَّمَ قولُه[(١)]:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾.

أي: أفَمَنْ حُسِّنَ له عَمَلُه السَّيِّئُ، فرآه حسَنًا، كمَنْ ليس كذلك[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٨، ٦٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

اختُلِفَ في تقديرِ الخبرِ المحذوفِ؛ فقيل: التَّقديرُ: أفمَنْ زُيِّن له سوءُ عمَلِه فرآه حسَنًا، كمَن ليس كذلك، فلم يُزَيَّنْ له؟! وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ تيميَّةَ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٤).

قال السمين الحلبي: (وهو أحسَنُ لموافقتِه لفظًا ومعنًى). ((الدر المصون)) (٩/ ٢١٤).

وقيل: التَّقديرُ: أفمَن زُيِّن له سوءُ عمَلِه، كمَنْ هداه الله فرأى الحقَّ حقًّا، والباطِلَ باطلًا؟! وممَّن قال بهذا القولِ: الواحديُّ، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

وقيل: التَّقديرُ: أفمَن زُيِّن له سوءُ عَمَلِه فرآه حسَنًا، ذهَبَت نفْسُك حَسَراتٍ عليهم؟ وممَّن قال بهذا القولِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٧)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، فيَصرِفُه عن الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ ويَهدي مَن يَشاءُ هدايتَه، فيَدُلُّه ويُوفِّقُه للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾.

أي: فلا تُهلِكْ نَفْسَك -يا محمَّدُ- حَزَنًا على الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَصنَعُه الكافِرونَ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيهم عليه[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ ألَّا يَرتبِطَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٧).

بالدُّنيا مهما حَصَلَ له مِن زَهرتِها ونَعيمِها[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لا يَليقُ بذي هِمَّةٍ عَليَّةٍ اتِّباعُ الدَّنيءِ، والرِّضا بالدُّونِ الزَّائِلِ عن العالي الدَّائِمِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الإشارةُ إلى وُجوبِ العنايةِ بالآخرةِ؛ فإذا نُهينا عن الحياةِ الدُّنيا فمعناه أنَّنا نُلزَمُ بالعنايةِ بالآخرةِ؛ لأنَّها في الحقيقةِ هي المُنتَهى، أمَّا هذه الدُّنيا فإنَّ الإنسانَ يَمُرُّ بها عابرًا فقط، حتَّى القبورُ الَّتي يَبقَى فيها الإنسانُ مِن السَّنواتِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ: هي مَحَلُّ عُبُورٍ[(٣)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ غايةٌ في التَّحذيرِ مِن الشَّيطانِ؛ فأخبَرَ تعالى بأنَّه عدُوٌّ، وخبَرُه حَقٌّ وصِدقٌ؛ فالواجِبُ على العاقِلِ أن يأخُذَ حِذْرَه مِن هذا العدُوِّ الَّذي قد أبان عداوتَه مِن زمنِ آدَمَ، وبَذَلَ نَفْسَه وعُمُرَه في إفسادِ أحوالِ بني آدمَ؛ قال جَلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء: ٦٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، ونحن على ذلك نتولَّاه ونُطيعُه فيما يُريدُ مِنَّا ممَّا فيه هلاكُنا! وكان الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ يقولُ: (يا كذَّابُ، يا مُفترٍ، اتَّقِ اللهَ، ولا تَسُبَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

الشَّيطانَ في العلانيةِ، وأنت صديقُه في السِّرِّ!)، وقال ابنُ السَّمَّاكِ: (يا عجبًا لِمَن عصَى المحسِنَ بعدَ مَعرفتِه بإحسانِه، وأطاع اللَّعينَ بعدَ معرفتِه بعداوتِه!)[(١)].

وعداوةُ الشَّيطانِ وسيلةٌ إلى معصيتِه في كلِّ ما يأمُرُ به؛ فإنَّه لا يأمُرُ بخَيرٍ[(٢)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فيه تنبيهٌ على وُجوبِ عداوةِ الدُّعاةِ في الضَّلالةِ، المُستَمِدِّينَ مِن الشَّيطانِ[(٣)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فيه وَعيدٌ لِمَن أجاب دُعاءَ الشَّيطانِ، ووَعدٌ لِمَن خالَفَه، وقَطْعٌ للأمانيِّ الفارغةِ، وبِناءٌ للأمْرِ كلِّه على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ[(٤)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ التَّحذيرُ مِن سُلوكِ الإنسانِ سُبُلَ الهَلاكِ وهو لا يَشعُرُ[(٥)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ تضَمَّنت الآيةُ غُرورَينِ: غُرورًا يغتَرُّه المرءُ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ويُزيِّنُ لِنَفْسِه مِن المظاهِرِ الفاتنةِ الَّتي تَلوحُ له في هذه الدُّنيا ما يَتوهَّمُه خَيرًا، ولا يَنظُرُ في عواقِبِه؛ بحيثُ تخفَى مَضارُّه في بادِئِ الرَّأيِ، ولا يظُنُّ أنَّه مِن الشَّيطانِ. وغُرورًا يَتلَقَّاه ممَّن يَغُرُّه، وهو الشَّيطانُ. وكذلك الغُرورُ كُلُّه في هذا العالَمِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٩) و(١٤/ ٣٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز ابن عبد السلام (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٣).

بَعضُه يُمليه المرءُ على نَفْسِه، وبَعضُه يَتلَقَّاه مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ جوازُ تَنَعُّمِ الإنسانِ بالدُّنيا على وَجهٍ لا تَغُرُّه؛ فلم يَقُلْ: «فلا تَتنَعَّموا في الدُّنيا بشَيءٍ»، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً، ودناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[٣] [الأعلى: ١٦، ١٧].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لَمَّا كانت عداوتُه تحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ -لأنَّه يأتي الإنسانَ مِن قِبَلِ الشَّهَواتِ-؛ عبَّرَ بصيغةِ الافتِعالِ، فقال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أمَرَ اللهُ هنا باتِّخاذِ العَدُوِّ عَدُوًّا، ولم يَندُبْ إلى العَفوِ عنه، والإغضاءِ عن عداوتِه، كما أمَرَ في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ونحوِ ذلك ممَّا تكَرَّر في القُرآنِ وكلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فعداوةُ الشَّيطانِ لَمَّا كانت جِبِلِّيَّةً لا يُرجى زوالُها مع مَن يعفو عنه، لم يأمُرِ اللهُ إلَّا باتِّخاذِه عَدُوًّا؛ لأنَّه إذا لم يُتَّخَذْ عدُوًّا، لم يراقِبِ المُسلِمُ مَكايِدَه ومُخادَعتَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١).

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤ - ٣٦]. فهذه ثلاثُ آياتٍ ليس لهنَّ رابعةٌ في معناها، وهو أنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ بمُصانَعةِ العدوِّ الإنسيِّ والإحسانِ إليه؛ ليَرُدَّه عنه طبْعُه الطَّيِّبُ الأصلِ إلى المُوادَّةِ والمُصافاةِ، ويأمُرُ بالاستِعاذةِ به مِن العدوِّ الشَّيطانيِّ لا مَحالةَ؛ إذْ لا يَقْبَلُ مُصانَعةً ولا إحسانًا، ولا يَبتغي غيرَ هلاكِ ابنِ آدمَ[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ الأمرُ باتِّخاذِه عدوًّا تنبيهٌ على استِفراغِ الوُسْعِ في مُحارَبتِه ومُجاهَدتِه، كأنَّه عَدُوٌّ لا يَفْتُرُ ولا يُقْصِرُ عن مُحارَبةِ العَبدِ على عَدَدِ الأنفاسِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بيانُ رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِه؛ لأنَّ العِلْمَ بعَداوةِ الشَّيطانِ غيرُ مُدرَكٍ لنا، ولكِنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أخبَرَنا به، ثمَّ حَثَّنا، بل أمَرَنا بمُخالَفتِه[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه إشارةٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٠).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٥).

معنًى لطيفٍ، وهو أنَّ مَن يكونُ له عدُوٌّ، فله في أمْرِه طريقانِ:

أحدُهما: أن يُعاديَه مُجازاةً له على مُعاداتِه.

والثَّاني: أن يُذهِبَ عداوتَه بإرضائِه، فلمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، أمَرَهم بالعَداوةِ، وأشار إلى أنَّ الطَّريقَ ليس إلَّا هذا، وأمَّا الطَّريقُ الآخَرُ -وهو الإرضاءُ- فلا فائدةَ فيه؛ لأنَّكم إذا رأيتُموه واتَّبَعْتُموه، فهو لا يُؤدِّيكم إلَّا إلى السَّعيرِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بلاغةُ القرآنِ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ عَمَلًا واحِدًا في الكُفَّارِ ذكَرَ جزاءً واحِدًا، ولَمَّا ذكَرَ وصْفَينِ في المؤمِنينَ ذكَرَ وصفَينِ في ثَوابِهم[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بلاغةُ القرآنِ؛ حيث يَجْمَعُ بينَ الشَّيءِ وضِدِّه، وهو مِصْداقُ قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تُثَنَّى فيه المعاني، وهنا لَمَّا ذكَرَ عذابَ الكافرين ذكَرَ ثوابَ المؤمنينَ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أشارت الآيةُ إلى طرَفَينِ في الضَّلالِ والاهتداءِ، وطَوَتْ ما بيْنَ ذَينك مِن المراتِبِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما بيْنَ ذلك ينالُهم نَصيبُهم مِن أشبَهِ أحوالِهم بأحوالِ أحدِ الفَريقَينِ، على عادةِ القُرآنِ في وَضعِ المُسلمِ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

والأمَلِ والرَّهبةِ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ أنَّ الأجرَ لا يَثبُتُ إلَّا باتِّصافِ الفاعِلِ بوصفَينِ؛ أحدُهما: الإيمانُ، والثَّاني: العملُ الصَّالحُ(٢).

١٣- أنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ يَنالونَ أجرَهم مِن وَجهَينِ: مِن زوالِ المكروهِ الثَّابتِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، وحُصولِ المطلوبِ الثَّابتِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يَنالَه العامِلُ، فهو كأُجرةِ الأجيرِ، فلا بُدَّ أنْ ينالَها العامِلُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فسَمَّى العَمَلَ للهِ قَرضًا؛ لأنَّ القَرضَ يجبُ إيفاؤُه، فمِثْلُ هذه الآياتِ تدُلُّ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوجَبَ على نفْسِه أنْ يُثيبَ العامِلَ(٤).

١٥- ليس كلُّ مَن كان قَصْدُه حَسَنًا يكونُ فِعلُه صَوابًا وحَسَنًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾(٥)!

١٦- قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فأحيانًا يَحذِفُ فاعِلَ التَّزيينِ، وأحيانًا يَنسُبُه إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).
(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٣٥٩).

سَبَبِه ومَن أجراه على يَدِه، وأحيانًا يُضيفُه اللهُ إليه، وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ لِيَتميَّزَ المطيعُ منهم مِن العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وهو مِن الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعُبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثَرَ القبيحَ واختاره، وأحبَّه ورَضِيَه لنَفْسِه؛ زيَّنَه سُبحانَه له، وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعدَ أنْ رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيَه اللهُ تعالى ظُلْمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادَى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فرُبَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ مَن خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(١) [الأعراف: ٥٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ حيث أضاف العمَلَ إليه، وهم يقولونَ: إنَّ الأعمالَ لا تُضافُ إلى الإنسانِ؛ لأنَّه مُجبَرٌ عليها(٢)!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ؛ فإنَّ القَدَريَّةَ يقولونَ: «إنَّ أفعالَ العَبدِ مِن ضَلالةٍ أو هِدايةٍ لا تَتعلَّقُ بها مَشيئةُ اللهِ»، ويرَوْنَ أنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، ليس للهِ تعالى فيه تَعلُّقٌ إطلاقًا(٣)!

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَتأثَّرُ بما يَتأثَّرُ به البَشَرُ مِن أسبابِ الفرحِ وأسبابِ الحزنِ، وهذا أمرٌ واقعٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ رُجوعٌ إلى خِطابِ النَّاسِ. وتَكريرُ نِداءِ النَّاسِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لِتَأكيدِ العِظَةِ والتَّذكيرِ، وإعذارًا لهم وإنذارًا بتَحقيقِ أنَّ وعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه مِن عِقابِه المُكذِّبينَ في يومِ البعثِ هو وعْدٌ واقعٌ لا يَتخلَّفُ، وذلك بعْدَ أنْ قدَّمَ لهم التَّذكيرَ بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ المُشتمِلةِ عليها، مع الدَّلالةِ على نِعَمِ اللهِ عليهم؛ لِيَعلَموا أنَّه لا يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُه، وأنَّه لا يَتَّصِفُ بالإلهيَّةِ الحقِّ غيرُه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فيه تأْكيدُ الخَبرِ بـ(إنَّ)؛ إمَّا لأنَّ الخِطابَ للمُنكِرينَ، وإمَّا لِتَغليبِ فَريقِ المُنكِرينَ على المؤمنينَ؛ لأنَّهم أحوَجُ إلى تَقويةِ المَوعظةِ[٣].

- وإضافةُ الوعدِ إلى الاسمِ الأعظَمِ تَوطِئةٌ لِكَونِه حقًّا؛ لأنَّ اللهَ لا يَأتي منه الباطلُ[٤]. والحقُّ هنا مُقابِلُ الكذِبِ، والمعنى: أنَّ وعْدَ اللهِ صادِقٌ، ووَصْفُ الصِّدقِ بالمَصدرِ ﴿حَقٌّ﴾ مُبالَغةٌ في حَقيقتِه[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ فيه تَكريرُ فِعلِ النَّهيِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ و﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ للمُبالَغةِ فيه، ولاختِلافِ الغُرورينِ في الكيفيَّةِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- لَمَّا كان في قولِه: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] إبهامٌ ما في المُرادِ بالغَرورِ، عُقِّبَ ذلك ببيانِه بأنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ؛ ليَتقرَّرَ المُسنَدُ إليه بالبَيانِ بعْدَ الإبهامِ؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ تَتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ مَنزلةَ البَيانِ مِن المُبيَّنِ؛ فلذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ، وهذا مِن دَلالةِ تَرتيبِ الكلامِ على إرادةِ المُتكلِّمِ؛ إذ يَعلَمُ السَّامعُ مِن وُقوعِ وَصْفِ الشَّيطانِ عَقِبَ وصْفِ الغَرورِ أنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فيه إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإفصاحِ عن المُرادِ بالغَرورِ أنَّه الشَّيطانُ(٣).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لِقَصدِ تَحقيقِه؛ لأنَّ النَّاسَ بغَفْلتِهم عن عَداوةِ الشَّيطانِ كَحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ(٤).

- وتَقديمُ شِبهِ الجُملةِ ﴿لَكُمْ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿عَدُوٌّ﴾؛ للاهتِمامِ بهذا المُتعلِّقِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

- وفُرِّعَ عن الخَبرِ بأنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ للإنسانِ أنْ أُمِروا باتِّخاذِه عَدُوًّا بقولِه: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ لأنَّهم إذا عَلِموا أنَّه عَدُوٌّ لهم حَقَّ عليهم اتِّخاذُه عَدوًّا، وإلَّا لَكانوا في حَماقةٍ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تَقريرٌ لِعَداوةِ الشَّيطانِ، وتَحذيرٌ مِن طاعتِه؛ بالتَّنبيهِ على أنَّ غَرَضَه في دَعوةِ شيعتِه إلى اتِّباعِ الهَوَى والرُّكونِ إلى مَلاذِّ الدُّنيا، ليس تَحصيلَ مَطالِبِهم ومَنافِعِهم الدُّنيويَّةِ، كما هو مَقصدُ المُتحابِّينَ في الدُّنيا عندَ سَعيِ بعضِهم في حاجةِ بعضٍ، بلْ هو تَوريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّدِ مِن حيثُ لا يَحتسِبون، وهذا يُؤكِّدُ الأمْرَ باتِّخاذِه عَدوًّا؛ لأنَّ أشدَّ النَّاسِ تَضرُّرًا به همْ حِزبُه وأولياؤه[2]؛ فالجُملةُ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. وجِيءَ بها في صِيغةِ حَصْرٍ؛ لانحصارِ دَعوتِه في الغايةِ المَذكورةِ عَقِبَها بلامِ العِلَّةِ؛ كَيْلا يُتوهَّمَ أنَّ دَعوتَه تَخْلو عن تلك الغايةِ ولو في وَقتٍ ما. وبهذا العُمومِ الَّذي يَقْتضيهِ الحَصرُ صارتِ الجُملةُ أيضًا في مَعنى التَّذييلِ لِمَا قبْلَها كلِّه[3].

- ومُقْتضى وُقوعِ فِعلِ ﴿يَدۡعُواْ﴾ في حيِّزِ القَصرِ أنَّ مَفعولَه -وهو قولُه: ﴿حِزۡبَهُۥ﴾- هو المَقصودُ مِن القَصرِ، أي: أنَّه يَدْعو حِزبَه، ولا يَدْعو غيرَ حِزبِه، والشَّيطانُ يَدْعو النَّاسَ كلَّهم، سواءٌ في ذلك حِزبُه ومَن لم يَركَنْ إلى دَعوتِه، إلَّا أنَّ أثَرَ دَعوتِه لا يَظهَرُ إلَّا في الَّذين يَركَنون له، فيَصيرون حِزبَه؛ قال تعالى له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١، ٢٦٢).

[الحجر: ٤٢]؛ فتعيَّنَ أنَّ في الكلامِ إيجازَ حَذْفٍ[١]، والتَّقديرُ: إنَّما يَدْعو حِزبَه دَعوةً بالِغةً مَقْصدَه[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ يُفيدُ مُفادَ الفَذْلَكةِ[٣]

(١) الإيجاز: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ من الكلامِ بأقلَّ من عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ، ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصود. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسْنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعانِ؛ الأولُ: إيجازُ القصرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغة)، وهو ما ليس بحَذْفٍ، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا عَلِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ من قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم.
الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ: وهو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بِشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مُقَدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجَمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢).

(٣) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق من الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

والاستنتاج ممَّا تقدَّمَ. وهذا الاستئنافُ يُشيرُ إلى أنَّ الَّذين كَفَروا همْ حِزبُ الشَّيطانِ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ حِزبَه مِن أصحابِ السَّعيرِ، وحكَم هنا بأنَّ الَّذين كَفَروا لهم عذابٌ شَديدٌ؛ عُلِمَ أنَّ الَّذين كَفَروا مِن أصحابِ السَّعيرِ؛ إذ هو العذابُ الشَّديدُ، فعُلِمَ أنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ بطَريقةِ قِياسٍ مَطْويٍّ؛ فالَّذين كَفَروا همْ حِزبُ الشَّيطانِ؛ لِعُكوفِهم على مُتابَعتِه وإنْ لم يُعلِنوا ذلك؛ لاقتناعِه منهم بمُلازَمةِ ما يُمْليه عليهم[1].

- وبدَأَ بالكُفَّارِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ لِمُجاوَرةِ قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾، فأَتْبَعَ خَبرَ الكافرِ بحالِه في الآخرةِ[2]، فبَدَأَ بما فيه التَّحذيرُ قبْلَ ما فيه التَّبشيرُ؛ مِن أجْلِ المناسَبةِ[3].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ ذِكرُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ تَتميمٌ بأنَّ الَّذين لم يَكونوا مِن حِزبِ الشَّيطانِ قد فازوا بالخَيراتِ[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ ابتِداؤُه بفاءِ التَّفريعِ ربْطٌ له بما تَقدَّمَ؛ لِيَعودَ الذِّهنُ إلى ما حُكِيَ مِن أحوالِهم؛ فالتَّفريعُ على قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ثمَّ بإبرازِ الكلامِ

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

المُفرَّعِ في صورةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، واجتِلابِ المَوصولِ الَّذي تُومِئُ صِلَتُه إلى عِلَّةِ الخبرِ المَقصودِ، فأُشِيرَ إلى أنَّ وُقوعَه في هذه الحالةِ ناشئٌ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ له سُوءَ عمَلِه[١].

- وقولُه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إمَّا تَقريرٌ لِما سبَقَ مِن التَّبايُنِ البَيِّنِ بيْنَ عاقِبَتَي الفَريقَينِ، ببَيانِ تَبايُنِ حالَيْهما المُؤدِّيَينِ إلى تَينِك العاقِبتَينِ، والفاءُ لإنكارِ تَرْتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، أي: أبَعْدَ كَونِ حالَيهما كما ذُكِرَ، يكونُ مَن زُيِّن له الكُفرُ مِن جِهةِ الشَّيطانِ فانهَمَك فيه، كمَن استقْبَحَه واجتنَبَه، واختارَ الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ حتَّى لا تكونَ عاقِبَتاهما كما ذُكِرَ؟! فحُذِفَ ما حُذِفَ؛ لِدَلالةِ ما سبَقَ عليه. وإمَّا تَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِن نَهْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن التَّحسُّرِ والتَّحزُّنِ عليهم لِعَدمِ إسلامِهم، ببَيانِ أنَّهم لَيْسوا بأهلٍ لذلك، بلْ لأنْ يَضرِبَ عنهم صَفْحًا، ولا يُباليَ بهم قَطعًا، أي: أبَعْدَ كَونِ حالِهم كما ذُكِرَ تَتحسَّرُ عليهم؟! فحُذِفَ؛ لِمَا دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ دَلالةً بَيِّنةً. وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ...﴾ إلخ، تَقريرٌ له، وتَحقيقٌ للحقِّ ببَيانِ أنَّ الكُلَّ بمَشيئتِه تعالى. وإمَّا تَمْهيدٌ لِصَرْفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا كان عليه مِن الحِرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، والمُبالَغةِ في دَعوتِهم إليه؛ ببَيانِ استحالةِ تَحوُّلِهم عن الكُفرِ؛ لِكَونِه في غايةِ الحُسنِ عندَهم، أي: أبَعْدَ ما ذُكِرَ مَن زُيِّن له الكُفرُ مِن قِبَلِ الشَّيطانِ، فرآهُ فانهَمَك فيه، يَقبَلُ الهِدايةَ حتَّى تَطمَعَ في إسلامِه وتُتعِبَ نفْسَك في دَعوتِه؟! فحُذِفَ ما حُذِفَ؛ لِدَلالةِ ما مَرَّ مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إلخ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤).

- وهذه الآياتُ مِن الجمْعِ والتَّقسيمِ والتَّفريقِ[١]؛ فقولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ ﴾ جمَعَ الفَريقينِ معًا في حُكمِ نِداءِ الناسِ، وجمَعَ ما لَهما مِن الثَّوابِ والعِقابِ في حُكمِ الوَعدِ، وحذَّرَهما معًا عن الغُرورِ بالدُّنيا والشَّيطانِ. وأمَّا التَّقسيمُ فهو قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾؛ لأنَّه بيَّن فيه أحوالَ الفريقَين وما لَهما وعليهما مِن الثَّوابِ والعِقابِ. وأمَّا التَّفريقُ فقولُه: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾؛ لأنَّه فرَّقَ فيه، وبيَّن التَّفاوُتَ بيْنَ الفريقَينِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿ أَفَمَن ﴾ للتَّعقيبِ، والهمْزةُ الدَّاخلةُ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لإنكارِ المُساواةِ، وتَقريرِ البَونِ العَظيمِ بيْنَ الفريقينِ[٢].

- والنَّهيُ مُوَجَّهٌ إلى نَفْسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ تَذهَبَ حَسَراتٍ على الضَّالِّينَ، ولم يُوجَّهْ إليه بأنْ يُقالَ: فلا تَذهَبْ عليهم حَسراتٍ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونفْسُه مُتَّحدانِ؛ فتَوجيهُ النَّهيِ إلى نفْسِه دونَ أنْ يُقالَ: فلا تَذهَبْ عليهم حَسراتٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الذَّهابَ مُعبَّرٌ به عنِ التَّلفِ والانعدامِ؛ لِتَحصُلَ فائدةُ تَوزيعِ النَّهيِ والخِطابِ على شَيئينِ في ظاهرِ الأمرِ؛ فهو تكريرُ الخِطابِ والنَّهيِ لِكلَيهما، وهي طَريقةُ التَّجريدِ[٣] المعدودِ

(١) الجمْعُ والتَّقسيمُ والتَّفريقُ: أنْ يُجمعَ بيْنَ مُتعدِّدٍ في حُكمٍ، ثم يُفرَّقَ -أي: يُوقعَ التَّبايُنُ بيْنها-، ثمَّ يُضافَ لكلِّ واحدٍ ما يُناسِبُه؛ كقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ الآيات؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفيِ تَعُمُّ. والتَّفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴾. والتَّقسيمُ في قولِه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((حاشية الدسوقي على مختصر المعاني)) (٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٨).

(٣) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصِيرَ الذاتُ الواحدةُ =

في المُحسِّناتِ، وفائدةُ التَّكريرِ المُوجبِ تقريرُ الجُملةِ في النَّفْسِ[1].

- وجُمِعَت الحَسَراتُ -مع أنَّ اسمَ الجِنسِ صالحٌ للدَّلالةِ على تكرارِ الأفرادِ-؛ قَصدًا للتَّنبيهِ على إرادةِ أفرادٍ كثيرةٍ مِن جِنسِ الحَسْرةِ؛ لأنَّ تَلَفَ النَّفْسِ يكونُ عندَ تَعاقُبِ الحسَراتِ الواحدةِ تِلْوَ الأُخرى؛ لدَوامِ المُتحسَّرِ منه؛ فكلُّ تَحسُّرٍ يَترُكُ حَزازةً وكَمدًا في النَّفْسِ حتى يَبلُغَ إلى الحدِّ الَّذي لا تُطيقه النَّفْسُ، فيَنفطِرَ له القلْبُ. أو لِكَثرةِ قَبائحِ أعمالِهم المُوجِبةِ للتَّأسُّفِ والتَّحسُّرِ[2].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مُفرَّعةٌ على ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾، وجُملةُ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ مُفرَّعةٌ على المُفرَّعِ على جُملةِ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ...﴾ إلخ؛ فتَؤُولُ إلى التَّفريعِ على الجُملتينِ، فيَؤُولُ إلى أنْ يكونَ النَّظمُ هكذا: أفتَتحسَّرُ على مَن زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالِهم فرَأَوها حَسناتٍ، واختاروا لأنفُسِهم طَريقَ الضَّلالِ؟! فلا تَذهَبْ نفْسُك عليهم حَسراتٍ، وإنَّما حَسْرَتُهم على أنفُسِهم؛ إذ رَضُوا لها باتِّباعِ الشَّيطانِ، ونَبَذوا اتِّباعَ إرشادِ اللهِ، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ تَسجيلًا عليهم أنَّهم ورَّطوا أنفُسَهم فيما أوقَعوها فيه بصُنْعِهم؛ فعُدِلَ عن النَّظمِ المألوفِ إلى هذا النَّظمِ العجيبِ، وصِيغَ

= ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي منكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٦).

بالاستِفهامِ الإنكاريِّ والنَّهيِ التَّثبيتيِّ. وقد اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على فاءاتٍ أربَعٍ كلُّها للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ، وهي الَّتي بلَغَ بها نَظْمُ الآيةِ إلى هذا الإيجازِ البالغِ حَدَّ الإعجازِ، وفي اجتماعِها ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بجَمْعِ النَّظائرِ[1].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تَصلُحُ لإفادةِ التَّصبُّرِ والتَّحلُّمِ، أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بصُنْعِهم في المُخالَفةِ عن أمْرِه؛ فكما أنَّه لِحلمِه لم يُعجِّلْ بمُؤاخَذتِهم، فكُنْ أنت مُتَّصِفًا بذلك. وفي ضِمنِ هذا كِنايةٌ عن عدَمِ إفلاتِهم مِن العَذابِ على سُوءِ عَمَلِهم، وليس في هذه الجُملةِ مَعنى التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ لأنَّ كَمَدَ نفْسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ لأجْلِ تَأخيرِ عِقابِهم، ولكنْ لأجْلِ عدَمِ اهتدائِهم[2]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه، مع ما فيه مِن الوعيدِ[3].

- وتَأكيدُ الخَبرِ بـ (إنَّ)؛ إمَّا تَمثيلٌ لحالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ مَن أغفَله التَّحسُّرُ عليهم عن التَّأمُّلِ في إمهالِ اللهِ إيَّاهم؛ فأُكِّدَ له الخبَرُ بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وإمَّا لِجَعْلِ التَّأكيدِ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبرِ؛ لِتَكونَ (إنَّ) مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، فتَتمحَّضَ الجُملةُ لِتَقريرِ التَّسليةِ والتَّعريضِ بالجزاءِ عن ذلك[4].

- وعُبِّرَ بـ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ دونَ (يعملون)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يُدَبِّرون مَكايِدَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُسلمينَ؛ فيكونُ هذا الكلامُ إيذانًا بوُجودِ باعثٍ آخَرَ على النَّزعِ عن الحَسرةِ عليهم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٤ - ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩-١١)

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ
ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا
بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: تُحرِّكُه وتَنشُرُه وتَرفَعُه وتُهَيِّجُه، أو تُنشِئُه، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والسَّحابُ ونحوُهما: انتشَر ساطِعًا، وقد أثَرْتُه، وأصلُ (ثور) هنا: انْبعاثُ الشَّيءِ[(١)].

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: أي: الحياةُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[(٢)].

﴿يَبُورُ﴾: أي: يَبطُلُ ويَفسُدُ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: هي المَنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي[(٤)]، وقيل: الماءُ القليلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨).

(٤) وقال الشنقيطي: (النُّطْفةُ مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَن زَعَم أنَّها من ماءِ الرَّجلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالى: =

وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه ورحمتِه، مُستدِلًّا على المَعادِ بإحيائه الأرضَ بعدَ موتِها، فيقولُ: اللهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه فتُثيرُ سَحابًا فيَسوقُه اللهُ إلى بلدٍ لا نباتَ فيه، فيُحيي به الأرضَ المُجدِبةَ، ويُنبِتُ فيها الزَّرعَ، كذلك يُحيي اللهُ الأمواتَ، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ العزَّةَ الكاملةَ إنَّما هي له وحْدَه، فيقولُ: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَسأَلْها مِنَ اللهِ وَحْدَه؛ فإنَّ لله وحْدَه العِزَّةَ، وإلى اللهِ وحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعَمَلُ الصَّالحُ الَّذي يَعمَلُه العَبدُ يَرفَعُه.

ثمَّ يَذكُرُ سوءَ عاقبةِ الَّذين يَمكُرونَ السُّوءَ، فيقولُ: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ لهم عذابٌ شَديدٌ، وعمَلُهم وخِداعُهم يَذهَبُ، ولا يَنفَعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، فيقولُ: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكْرانًا وإناثًا، وما مِن أُنثى تَحملُ حَملًا أو تَضَعُه إلَّا بعِلمِ اللهِ سُبحانَه، وما يُزادُ في عُمُرِ إنسانٍ أو يُنقَصُ منه إلَّا وذلك مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، إنَّ ذلك يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه.

= ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ من ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ. ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أشياءَ مِن الأمورِ السَّماويَّةِ، وإرسالِ الملائكةِ؛ ذكَرَ أشياءَ مِن الأُمورِ الأرضيَّةِ: الرِّياحَ وإرسالَها، وفي هذا احتِجاجٌ على مُنكِري البَعثِ، دلَّهم على المثالِ الَّذي يُعاينونَه، وهو وإحياءُ الموتَى سِيَّانِ[1].

وأيضًا لَمَّا قدَّمَ في أوَّلِ السُّورةِ الاستدلالَ بأنَّ اللهَ فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ وما في السَّمواتِ مِن أهلِها، وذلك أعظَمُ دَليلٍ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ ثنَّى هنا بالاستِدلالِ بتَصريفِ الأحوالِ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، وذلك بإرسالِ الرِّياحِ وتكوينِ السَّحابِ وإنزالِ المطَرِ؛ فهذا عَطْفٌ على قولِه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] [فاطر: ١].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾.

أي: واللهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه، فتُثيرُ سَحابًا[3]، فسُقْناه إلى بلدٍ لا نباتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٣) قيل: معنى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾: تُزعِجُه مِن مكانِه. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٠).

قال الواحدي: (قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا ﴾، قال الكلبيُّ: فتُنشِئُ سَحابًا. والمعنى: فنُزعِجُه مِن حيث هو). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٤).

وقال السمرقندي: (تَرفَعُه وتُهيِّجُه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١). =

فيه، فأخصَبْنا تلك الأرضَ المُجْدِبةَ، وأنبَتْنا فيها الزَّرعَ بعدَ يَبَسِها[1].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم: ٤٨].

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾.

أي: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ يُحيي الأمواتَ بعدَ فَنائِهم، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً[2].

= وقال أبو عبيدة: («تُثيرُ» أي: تجمَعُ وتَجيءُ به وتُخرِجُه). ((مجاز القرآن)) (٢/ ١٥٢).
وقال ابنُ عاشور: (الإثارةُ: تحريكُ القارِّ تحريكًا يَضطرِبُ به عن موضِعِه، وإثارةُ السَّحابِ إنشاؤُه بما تُحدِثُه الرِّياحُ في الأجواءِ مِن رطوبةٍ تحصُلُ مِن تفاعُلِ الحرارةِ والبرودةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).
قال الشوكاني: (أي: أحيَيْنا بالمطرِ الأرضَ بإنباتِ ما يَنبُتُ فيها، وإنْ لم يَتقدَّمْ ذِكرُ المطَرِ فالسَّحابُ يدُلُّ عليه، أو أحيَينا بالسَّحابِ؛ لأنَّه سَبَبُ المطرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).
قال ابنُ الجوزي: (في معنى الكلامِ قولان؛ أحدُهما: كما أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها يُحيي الموتى يومَ البعثِ... والثَّاني: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ بالماءِ، كذلك يحيي اللهُ الموتَى بالماءِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦، ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).
وممَّن ذهب إلى معنى أنَّ النُّشورَ المذكورَ هنا يكونُ بواسطةِ ماءٍ يُنزِلُه اللهُ عزَّ وجلَّ فيحيا به الموتى: ابنُ كثير، والسعدي، ورجَّحه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٩).
والقَولُ بأنَّ المرادَ أنَّ إحياءَ الموتى كإحياءِ الأرضِ دونَ نظرٍ للسَّبَبِ: هو ظاهِرُ اختيارِ الزمخشريِّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفختينِ أربعون. قالوا: يا أبا هريرةَ، أربعون يَومًا؟ قال أبَيْتُ! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبيتُ[1]! ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[2]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))[3].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى بُرهانَ الإيمانِ؛ إشارةً إلى ما كان يَمنعُ الكُفَّارَ منه، وهو العِزَّةُ الظَّاهِرةُ الَّتي كانوا يَتوهَّمونَها مِن حيثُ إنَّهم ما كانوا في طاعةِ أحدٍ، ولم يكُنْ لهم مَن يأمُرُهم ويَنهاهم، فهم كانوا يَطلُبونَ العِزَّةَ، وهي عدَمُ التَّذَلُّلِ للرَّسولِ،

(١) معناه: أَبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٢) هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهر، وأعلَى ما بينَ الأليتَين. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.

وتَرْكُ الاتِّباعِ له، فقال: إن كنتُم تَطلُبون بهذا الكُفرِ العِزَّةَ في الحقيقةِ، فهي كُلُّها لله، ومَن يَتذلَّلْ له فهو العزيزُ، ومَن يَتعزَّزْ عليه فهو الذَّليلُ[١].

وأيضًا لَمَّا مضَى ذِكرُ غُرورينِ إجمالًا في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، فأُخِذ في تفصيلِ الغُرورِ الثَّاني من قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦] وما استَتْبَعه مِن التَّنبيهِ على كَيدِه، وانبعاثِ سُمومِ مَكرِه، والحَذرِ مِن مَصارعِ مُتابعتِه، وإبداءِ الفَرقِ بيْنَ الواقِعينَ في حبائِلِه والمُعافَيْنَ مِن أدوائِه، بِدارًا بتفصيلِ الأهَمِّ والأصلِ، وأُبقيَ تفصيلُ الغُرورِ الأوَّلِ إلى هنا، وإذ قد كان أعظَمُ غُرورِ المُشرِكين في شِركِهم ناشِئًا عن قَبولِ تعاليمِ كُبرائِهم وسادتِهم، وكان أعظَمُ دواعي القادةِ إلى تضليلِ دَهْمائِهم وصنائِعِهم هو ما يجِدونه مِن العِزَّةِ والافتتانِ بحُبِّ الرئاسةِ- لا جَرَمَ كانت إرادةُ العِزَّةِ مِلاكَ تكاتُفِ المُشرِكينَ بعضِهم مع بعضٍ، وتألُّبِهم على مُناوأةِ الإسلامِ؛ فلذلك نادَى عليهم القرآنُ بأنَّ مَن كان ذلك صارِفَه عن الدِّينِ الحَقِّ، فلْيَعلَمْ بأنَّ العِزَّةَ الحَقَّ في اتِّباعِ الإسلامِ، وأنَّ ما هم فيه مِنَ العِزَّةِ كالعَدَمِ[٢].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

أي: مَن كان يريدُ العِزَّةَ[٣] فلْيَطلُبْها من الله، ولْيَتسَبَّبْ لِنَيْلِها بطاعتِه؛ فإنَّ لله وَحْدَه جميعَ العِزَّةِ دونَ مَن سِواه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٩).

(٣) قال ابنُ عثيمين: (والعِزَّةُ: هي الغَلَبةُ، والمنَعَةُ، وقَهرُ الأعداءِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٠).

وقال ابن عاشور: (والعِزَّةُ: الشَّرَفُ والحصانةُ مِن أنْ يُنالَ بسوءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعمَلُ الصَّالحُ الَّذي يَعمَلُه العبدُ خالِصًا للهِ تعالى ومُوافِقًا لِشَرعِه يرفَعُه(١).

= ابن كثير)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الآية تحتملُ ثلاثةَ معانٍ: أحدُها -وهو الأظهَرُ: مَن كان يريدُ نَيلَ العِزَّةِ، فلْيَطلُبْها من عند اللهِ؛ فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها لله. والثَّاني: مَن كان يريدُ العِزَّةَ بمُغالبةِ الإسلام، فلله العِزَّةُ جميعًا، فالمُغالِبُ له مغلوبٌ. والثَّالثُ: مَن كان يريدُ أن يعلَمَ لِمَنِ العِزَّةُ، فلْيَعلَمْ أنَّ العِزَّةَ لله جميعًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٢).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ يرادُ به عمومُ الأنواعِ، وعُمومُ الأزمانِ، وعُمومُ الأمكنةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٣).

قال السمعاني: (وقولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: ما رُويَ عن الحسَنِ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ وعِكْرِمةَ والضَّحَّاكِ وغيرِهم أنَّهم قالوا: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: العمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ.

والقولُ الثَّاني: قَولُ قَتادةَ؛ قال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يَرفَعُه اللهُ.

والقولُ الثَّالثُ: والعمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُه الكَلِمُ الطَّيِّبُ)). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨). =

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن ما يُحصِّلُ العِزَّةَ مِن الحِكمةِ؛ بَيَّنَ ما يَكسِبُ الذِّلَّةَ، ويُوجِبُ النِّقمةَ مِن رَديءِ الهِمَّةِ، فقال[١]:

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ[٢] لهم عذابٌ شديدٌ يُهانونَ فيه غاية

= وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والنحاس، والسمعاني، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٣).

وهذا باعتبارِ أنَّه لا يَنفعُ قولٌ بلا عمَلٍ؛ إذ الإيمانُ قولٌ وعملٌ.

وممَّن قال بالقولِ الثَّاني: ابنُ عطية، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سرة فاطر)) (ص: ٨٧).

وهذا باعتبارِ أنَّ توحيدَ مرجعِ الضَّمائرِ أولى مِن تفريقِها، كما في ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٤١٤ وما بعدها).

والقولُ الثَّالثُ باعتبارِ أنَّ الضَّميرَ يرجِعُ إلى أقرَبِ مذكورٍ، ويكونُ ذلك باعتِبارِ أنَّه لا يَنفَعُ عمَلٌ إلَّا مع شهادةِ التَّوحيدِ.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩).

(٢) قال الواحدي: (﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: والَّذين يقولون الشِّركَ. وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ: والَّذين يُشرِكون بالله لهم عذابٌ شديدٌ. وقال الكلبيُّ: يعني: يَعمَلون السَّيِّئات. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: والَّذين يَعمَلون بالرِّياءِ. وهو قولُ مُجاهدٍ وشَهرِ بنِ حَوْشَبٍ. وقال أبو العاليةِ: يعني: الَّذين مكَروا برسولِ الله في دارِ النَّدوةِ. وهو اختيارُ أبي إسحاقَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٦٥).

قيل: المرادُ بهم المُشرِكونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢). =

الإهانةِ؛ جزاءَ مَكرِهم[١].

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا توعَّدهم اللهُ بالعذابِ الشَّديدِ على مَكرِهم، أنبَأهم أنَّ مَكرَهم لا يَرُوجُ، وأنَّ اللهَ سَيُبطِلُه، فلا يَنتفِعون منه في الدُّنيا، ويُضَرُّون بسَببِه في الآخرةِ، فقال[٢]:

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي: وعمَلُ أولئكَ وخِداعُهم يَبْطُلُ ويَذهَبُ، فلا يَروجُ، ولا يَنفعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

= قال ابن كثير: (الصَّحيحُ أنَّها عامَّةٌ، والمشرِكونَ داخِلونَ فيها بطريقِ الأَولى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧، ٥٣٨).

قال الشنقيطي: (مِن مَكرِهم السَّيِّئاتِ كُفرُهم باللهِ، وأمْرُهم أتْباعَهم به). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨١).

وقال ابن عاشور: (المكرُ: تدبيرُ إلحاقِ الضُّرِّ بالغيرِ في خُفيةٍ؛ لئلَّا يأخُذَ حِذرَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى دلائِلَ الآفاقِ مِن السَّمَواتِ -وما يُرسَلُ منها مِن الملائِكةِ-، والأرضِ وما يُرسَلُ فيها مِن الرِّياحِ- شَرَع في دلائِلِ الأنفُسِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه ما صيَّرَهم إليه مِن المُفاوَتةِ في الأخلاقِ؛ أتْبَعَه ما كانوا عليه مِن الوَحدةِ في جِنسِ الأصلِ، فقال(٢):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾.

أي: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ، ثمَّ خلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكرانًا وإناثًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ...﴾ [الحج: ٥].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ * مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

بعْدَ الاستدلالِ بما في بَدءِ التَّكوينِ الثَّاني مِن التَّلاقُحِ بيْنَ النُّطفتَينِ، استُدِلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).
قال الشوكاني: (﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: زَوَّج بعضَكم ببعضٍ، فالذَّكرُ زَوْجُ الأنثَى، أو جَعَلَكم أصنافًا ذُكْرانًا وإناثًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢).

بما يَنشَأُ عن ذلك مِن الأطوارِ العارضةِ للنُّطفةِ في الرَّحِم، وهو أطوارُ الحمْلِ مِن أوَّله إلى الوَضعِ(١).

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

أي: وما مِن أنثى تَحمِلُ حَمْلًا أو تضَعُه إلَّا واللهُ عالمٌ به، لا يخفَى عليه شَيءٌ منه، فيَعلَمُ وَقْتَ حَمْلِه ووَضْعِه، ونَوْعَه وشَكْلَه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونه(٢).

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لا جَرَمَ أنَّ الحديثَ عن التَّكوينِ يَستتبِعُ ذِكرَ الموتِ المكتوبِ على كُلِّ بَشَرٍ، فجاء بذِكرِ عِلمِه الآجالَ والأعمارَ؛ للتَّنبيهِ على سَعةِ العِلمِ الإلهيِّ(٣).

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾.

أي: وما مِن زيادةٍ في عُمُرِ إنسانٍ أو نُقصانٍ منه إلَّا وذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ٩٦، ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢، ٣٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: لا يَطولُ عُمُرُ أحَدٍ ولا يُنْقَصُ مِن عُمُرِ آخَرَ غيرِه إلَّا في كتابٍ، فوُضِعَ ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾ مَوضِعَ (مِن أحدٍ)، وليس المرادُ شخصًا واحدًا، وإنَّما ذلك كقولِك: لا يُعاقِبُ اللهُ عبدًا ولا يُثيبُه إلَّا بحقٍّ، وقولِك: لِفُلانٍ عندي دِرهَمٌ ونِصْفُه، أي: نِصْفُ دِرهَمٍ آخَرَ؛ =

= ممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي، والبغويُّ، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، وأبو السعود، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٨- ١٠١).

وقيل: الضَّميرُ في قولِه: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ عائدٌ على المُعَمَّرِ الأوَّلِ بعَيْنِه، واختُلِف في تأويلِه:

فقيل: معنى الآيةِ على ذلك: أنَّ اللهَ جلَّ وعزَّ قد كتَبَ عُمُرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ، وكتَبَ: يُعَمَّرُ كذا وكذا سَنةً، وكذا وكذا شهرًا، وكذا وكذا يومًا، وكذا وكذا ساعةً، فكلُّ ما نَقَص مِن عُمُرِه مِن سَنةٍ أو شهرٍ أو يومٍ أو ساعةٍ كتب ذلك حتَّى يَبلُغَ أجَلَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ. ونسَبَه الواحديُّ للجمهور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٩).

قال الواحدي: (فالمُعَمَّرُ على هذا الَّذي قُدِّر له شَيءٌ مِن العُمُرِ وإن قَلَّ، وليس المُعَمَّرُ بمعنى الطَّويلِ العُمُرِ، وهو قولُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٩).

وقال الشوكاني: (ظاهِرُ النَّظمِ القُرآنيِّ أنَّ تطويلَ العُمُرِ وتقصيرَه: هما بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ لأسبابٍ تقتضي التَّطويلَ، وأسبابٍ تقتضي التَّقصيرَ؛ فمِن أسبابِ التَّطويلِ: ما وردَ في صِلةِ الرَّحِمِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ونحو ذلك. ومِن أسبابِ التَّقصيرِ الاستِكثارُ مِن معاصي اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فإذا كان العمُرُ المَضروبُ للرَّجُلِ مثلًا سبعين سنةً، فقد يَزيدُ الله له عليها إذا فعَل أسبابَ الزِّيادةِ، وقد يَنقُصُه منها إذا فعَل أسبابَ النُّقصانِ، والكُلُّ في كتابٍ مُبينٍ، فلا تَخالُفَ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْن قَولِه سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ويؤيِّدُ هذا قَولُه سُبحانَه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٩٠- ٤٩٢)، ((إتحاف ذوي الألباب)) لمرعي (ص: ٩٥-٩٧)، ((تفسر ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٧-١٠٠).

وقال السعدي: (﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: عُمُرِ الَّذي كان مُعَمَّرًا عُمُرًا طويلًا ﴿إِلَّا﴾ بعِلْمِه تعالى، أو ما يُنقَصُ مِن عُمُرِ الإنسانِ الَّذي هو بصَدَدِ أن يَصِلَ إليه، لولا ما =

كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن أحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقِه، ويُنْسَأَ له في أثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لها: ((إنَّه مَن أُعطِيَ حَظَّه مِن الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حَظَّه مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وصِلةُ الرَّحِمِ وحُسْنُ الخُلُقِ وحُسْنُ الجِوارِ يَعمُرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمارِ))[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك الأمرَ العظيمَ مِن كتابةِ أعمارِ جميعِ الخَلقِ؛ ما زاد منها وما نَقَص، وتقديرِها، وإحصاءِ ساعاتِها ودقائِقِها، والإحاطةِ بها على وَجهِ التَّفصيلِ: أمرٌ يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه، فلا يَعسُرُ عليه شَيءٌ من ذلك[٣].

= سلَكَه مِن أسبابِ قِصَرِ العُمُرِ؛ كالزِّنا، وعُقوقِ الوالدَينِ، وقطيعةِ الأرحامِ، ونحوِ ذلك ممَّا ذُكِر أنَّها من أسبابِ قِصَرِ العُمُرِ. والمعنى: أنَّ طولَ العُمُرِ وقِصَرَه، بسببٍ وبغيرِ سببٍ كلُّه بعِلمِه تعالى، وقد أثبَت ذلك ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ حوى ما يَجري على العبدِ في جميعِ أوقاتِه وأيَّامِ حياتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩) واللفظ له، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (٩/ ١٥٩).

وثَّق رجالَ إسنادِه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٤٢٩)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥١٩)، وصحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٦٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- المعصيةُ تُورِثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛ فإنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ في طاعةِ اللهِ تعالى؛ قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَطلُبْها بطاعةِ اللهِ وذِكْرِه مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ فإنَّه لا يَجِدُها إلَّا في طاعتِه[1]، فمَن أطاع اللهَ فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله مِن العِزِّ بحَسَبِ طاعتِه، ومَن عصاه فقد عاداه فيما عَصاه فيه، وله مِن الذُّلِّ بحَسَبِ مَعصيتِه[2].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ المقصودُ منه أنَّ أعمالَ المؤمِنينَ هي الَّتي تَنفَعُ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ سَعيٌ باطِلٌ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ المُسبَّباتِ مَربوطةٌ بأسبابِها؛ فإنَّ الفاءَ هنا للسَّببيَّةِ[4].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الرَّدُّ على أهلِ الكلامِ الَّذين يقولونَ: إنَّه لا يُوصَفُ بالحياةِ والمَوتِ شَيءٌ مِن الجَماداتِ؛ لأنَّه هنا أثبَتَ الحياةَ والموتَ للأرضِ، وهي مِن الجماداتِ، وقال تعالى في الأصنامِ: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[5] [النحل: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٥٩، ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم، وإضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم أمرٌ واقعٌ في القرآنِ وفي السُّنَّةِ، بمعنى: أنَّه لا يُشترَطُ أنْ تَقرِنَ معه اللهَ عزَّ وجلَّ، فإذا أضَفْتَ الشَّيءَ إلى سَببِه المعلوم وإنْ لم تكُنْ تَقْرِنُ اللهَ به؛ فلا بأسَ، لكنَّ المُحرَّمَ أنْ يُضافَ إلى سَبَبٍ غيرِ مَعلومٍ لا شَرعًا ولا حِسًّا، أو أنْ يُضافَ إلى سَبَبِه المعلومِ مَقرونًا مع اللهِ بحَرفٍ يقتضي التَّسويةَ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ يدُلُّ على صِحَّةِ القياس(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ لا تَنافيَ بيْنَه -وإن كان الظَّاهِرُ أنَّها له لا لِغَيرِه- وبيْنَ قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وإن كان يقتضي الاشتراكَ؛ لأنَّ العِزَّةَ في الحقيقةِ لله بالذَّاتِ، وللرَّسولِ بواسِطةِ قُربِه مِن اللهِ، وللمُؤمنينَ بواسِطةِ الرَّسولِ؛ فالمحكومُ عليه أوَّلًا غيرُ المحكومِ عليه ثانيًا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ دليلٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى على سائرِ مخلوقاتِه، وأنَّه كاملُ الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا(٤). وفيه حُجَّةٌ قاطِعةٌ لكلِّ لُبْسةٍ على مَن يَزعمُ أنَّ اللهَ بنَفْسِه في الأرضِ؛ فكيف يَصْعَدُ إليه -وَيْحَهم- العَمَلُ الصَّالحُ، وهو مع عامِلِه -بزعمِهم- في الأرضِ؟! بل هو في السَّماءِ على العَرشِ بلا مِريةٍ ولا شَكٍّ، وعِلمُه بكلِّ مكانٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٨).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٣٦).

لا يَخلو مِن عِلْمِه مَكانٌ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ حُجَّةٌ على المرجئةِ فيما يُعَرُّونَ الإيمانَ مِن العملِ الصَّالحِ! وهذا القولُ نفْسُه لا يَرفَعُه إلَّا العملُ الصَّالحُ -كما ترى، على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكيف لا يكونُ مِن الإيمانِ؛ والقولُ -الَّذي هو عندَهم كمالُ الإيمانِ- لا يَرفعُه إلَّا العملُ[٢]؟!

٨- قد يُجعَلُ الكَلامُ قَسيمًا للعَمَلِ ليس قِسمًا منه في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، وقد يُجعَلُ قِسمًا منه كما في قَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣] [الحجر: ٩٢، ٩٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَرفَعُ مِن الأعمالِ إلَّا ما كان صالِحًا -وهذا على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، والعَمَلُ الصَّالحُ ما اشتَمَلَ على وصْفَينِ: الإخلاصِ للهِ، والمتابَعةِ لِشَرعِه؛ فإنْ فُقِدَ الإخلاصُ فليس بعَمَلٍ صالحٍ؛ لأنَّه شِركٌ، وإنْ فُقِدَت المتابَعةُ فليس بعَمَلٍ صالحٍ؛ لأنَّه بِدعةٌ[٤].

١٠- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فسَمَّى السَّيِّئاتِ مَكرًا؛ لأنَّ الإنسانَ في الواقعِ يَخدَعُ نَفْسَه بها، ويَخدَعُ غيرَه بها؛ فيُمَنِّي نَفْسَه التَّوبَةَ، أو يُمنِّي نَفْسَه سَعةَ حِلمِ اللهِ ومَغفرتِه، فلن يُؤاخِذَه بهذه العُقوبةِ[٥]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٩٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٨).

تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ إثباتُ مراتبِ القَدَرِ الأربعةِ: العِلمِ، والكتابةِ، والخَلْقِ، والمشيئةِ، وهذه الأخيرةُ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾، وهذا لا يكونُ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ يَظهَرُ رُجوعُه إلى المُعمَّرِ، فيُشكِلُ معنى الآيةِ على هذا القول؛ لأنَّ المعَمَّرَ والمنقوصَ مِن عُمُرِه ضِدَّانِ، فيَظهَرُ تنافي الضَّميرِ ومُفَسِّرِه؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ بالمعَمَّرِ هنا جِنسُ المُعمَّرِ الَّذي هو مُطلَقُ الشَّخصِ، فيَصدُقُ بالَّذي لم يُنقَصْ مِن عُمُرِه، وبالَّذي نقَصَ مِن عُمُرِه، فصار المعنى: لا يُزادُ في عُمُرِ شَخصٍ، ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِ شَخصٍ إلَّا في كتابٍ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾

- في هذه الآيةِ اختيرَ مِن دَلائلِ الوحدانيَّةِ: دَلالةُ تَجمُّعِ أسبابِ المطَرِ؛ لِيُفْضيَ مِن ذلك إلى تَنظيرِ إحياءِ الأمواتِ بعْدَ أحوالِ الفَناءِ بآثارِ ذلك الصُّنْعِ العجيبِ، وأنَّ الَّذي خلَقَ وسائلَ إحياءِ الأرضِ قادرٌ على خلْقِ وسائلِ إحياءِ الَّذين ضَمَّتْهم الأرضُ، على سَبيلِ الإدماجِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧). =

- وفي قولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ، دونَ أنْ يقولَ: (وهو الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ)، فيَعودَ الضَّميرُ إلى اسمِ اللهِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨][1]، فأخبَرَ عن نفْسِه بأنَّه صاحِبُ هذا الاسمِ المختَصِّ به الَّذي لا يَجهَلونَه، ولأنَّه مع الصِّلةِ يُفيدُ الحَصرَ، أي: اللهُ المُرسِلُ، ومعناه أنَّه لا مُرسِلَ سِواه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾، فلَمْ يُؤتَ بفِعلِ الإرسالِ في هذه الآيةِ بصِيغةِ المُضارِعِ، بخِلافِ قولِه: في سُورةِ (الرُّومِ): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ... ﴾ [الرُّوم: ٤٨] الآيةَ؛ وذلك لأنَّ القَصدَ هنا استِدلالٌ بما هو واقِعٌ؛ إظهارًا لإمكانِ نَظيرِه، وأمَّا آيةُ سُورةِ (الرُّومِ) فالمَقصودُ منها الاستِدلالُ على تَجديدِ صُنْعِ اللهِ ونِعَمِه[3].

- وأيضًا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ بلَفظِ الماضي، ثم قال: ﴿فَتُثِيرُ

= والإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغَرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ، فيُقرِنُ الغرضَ المسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((الطراز لأسرار البلاغة)) ليحيى بن حمزة المؤيد بالله (٣/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨).

سَحَابًا ﴾ بصيغةِ المُستقبَلِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان القَصدُ مِن الاستِدلالِ هو وُقوعَ الإحياءِ وتقرُّرَ وُقوعِه، جِيءَ بفِعلِ الماضي في قولِه: ﴿ أَرۡسَلَ ﴾. وأمَّا تَغييرُه إلى المُضارعِ في قولِه: ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾؛ فلِحكايةِ الحالِ العَجيبةِ الَّتي تقَعُ فيها إثارةُ الرِّياحِ السَّحابَ، وتُستحضَرَ تلك الصُّورُ البديعةُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ الرَّبَّانيَّة، ولأنَّ المُرادَ بَيانُ إحداثِها بهذه الخاصِّيَّة؛ ولذلك أسنَدَهُ إليها، وهي طريقةٌ للبُلغاءِ في الفِعلِ الَّذي فيه خُصوصيَّةٌ بحالٍ تُستغرَبُ وتَهُمُّ السَّامعَ. ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الأفعالِ للدَّلالةِ على استِمرارِ الأمْرِ(١). وقيل: إنَّما هذا مِن التَّفنُّنِ في الكلامِ، والتَّصرُّفِ في البَلاغة(٢).

- ولَمَّا كان سَوقُ السَّحابِ إلى البلدِ الميِّتِ، وإحياءُ الأرضِ بالمَطرِ بعْدَ مَوتِها: مِن الدَّلائلِ على القُدرةِ الباهرةِ؛ قِيل: (فسُقْنا، وأحيَيْنا) مَعدولًا بهما عن لَفظِ الغَيبةِ إلى ما هو أدخَلُ في الاختصاصِ وأدلُّ عليه. وإيرادُ الفِعلين ﴿ فَسُقۡنَٰهُ ﴾ ﴿ فَأَحۡيَيۡنَا ﴾ على صِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّق(٣). وقيل: في الأوَّلِ عرَّف نفْسَه بفِعلٍ مِن الأفعالِ، وهو الإرسالُ، ثمَّ لَمَّا عُرِفَ قال: أنا الَّذي عرَفْتَني سُقْتُ السَّحابَ، وأحيَيْتُ الأرضَ؛ ففي الأوَّلِ كان تعريفًا بالفِعلِ العجيبِ، وفي الثَّاني كان تذكيرًا بالنِّعمةِ؛ فإنَّ كمالَ نِعمةِ الرِّياحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦، ١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦، ١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

والسُّحُبِ: بالسَّوقِ والإحياءِ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾

- قولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ في إخراجِ هذا الكَلامِ مُخرجَ الشَّرطِ نَوعُ تَوبيخٍ، وتَنبيهٌ للمُخاطَبينَ على خَطأِ رأيِهم، وفَسادِ طَريقتِهم، وتَضْليلِهم فيما هُمْ فيه مِن طَلبِ العزَّةِ من غَيرِ مَوضعِها ومَكانِها، كأنَّه قِيل: أيُّها الضَّالُّون، تَنبَّهوا على خَطئِكم، وتَيقَّنوا أنْ ليسَ الوُصولُ إلى المطلوبِ ما أنتُم عليه مِن رَوْمِ العزَّةِ مِن عندِ غيرِ اللهِ؛ لأنَّ العزَّةَ كلَّها مِلكُ اللهِ، ومُختصَّةٌ به وبأوليائِه، وطَريقُ الوُصولِ إليها الإيمانُ والعملُ الصالحُ، واعلَموا أنَّ مَنْ أعزَّهُ اللهُ فلا مُذِلَّ له، ومَنْ أذَلَّه لا مُعِزَّ له[2].

- والجمْعُ بيْن (كانَ) و(يُريدُ) في قولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ للدَّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستمرارِها[3].

- قولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ (مَن) شَرطيَّةٌ، وجُعِل جوابُها ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وليس ثُبوتُ العزَّةِ للهِ بمُرتَّبٍ في الوُجودِ على حُصولِ هذا الشَّرطِ، فتَعيَّنَ أنَّ ما بعْدَ فاءِ الجزاءِ هو عِلَّةُ الجوابِ، أُقِيمَت مُقامَه، واستُغْنِيَ بها عن ذِكرِه؛ إيجازًا، ولِيَحصُلَ مِن استخراجِه مِن طَيَّاتِ الكلامِ تَقرُّرُه في ذِهنِ السَّامعِ، والتَّقديرُ: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَستجِبْ إلى دَعوةِ الإسلامِ؛ ففيها العِزَّةُ؛ لأنَّ العِزَّةَ كلَّها للهِ تعالى، أو فلْيَطْلُبْها عندَ اللهِ، فأمَّا العِزَّةُ الَّتي يَتشبَّثون بها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

فهي كخَيطِ العَنكبوتِ؛ لأنَّها واهيةٌ باليةٌ، وهذا الأسلوبُ لِتَنبيهِ المخاطَبِ على خطَأِ زَعمِه. وقد يكونُ بالعكسِ، وهو تَثبيتُ المخاطَبِ على عِلمِه؛ فتَقديمُ المجرورِ ﴿فَلِلَّهِ﴾ يُفيدُ قصرًا، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[(١)]؛ لِعَدمِ الاعتدادِ بما للمشركينَ مِن عِزَّةٍ ضَئيلةٍ، أي: فالعِزَّةُ للهِ لا لهم[(٢)].

- ولفظةُ ﴿جَمِيعًا﴾ أفادتِ الإحاطةَ؛ فكانتْ بمَنزلةِ التَّأكيدِ للقصرِ الادِّعائيِّ، فحصَلَت ثلاثةُ مُؤكِّداتٌ؛ فالقصرُ بَمنزلةِ تأْكيدينِ -فالحصرُ والتَّخصيصُ

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبْتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ **فالحقيقيُّ** هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. **والإضافيُّ**: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثَرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **والادِّعائيُّ**: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. **وقصْرُ القَلبِ**: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ مُعَيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيْدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٠، ٢٧١).

ليسَا إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ-، و﴿جَمِيعًا﴾ بمَنزلةِ تأكيدٍ ثالثٍ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قَريبٌ مِن قولِه: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]؛ فإنَّ فيه تَأْكيدَينِ: تأكيدًا بـ (إنَّ)، وتأكيدًا بـ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ تلك الآيةَ نَزَلت في وَقتِ قُوَّةِ الإسلامِ؛ فلم يُحتَجْ فيها إلى تَقويةِ التَّأكيدِ مِثْلَما في هذه الآيةِ الَّتي أُكِّدَتْ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ[٢].

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ كما أَتْبَعَ تَفصيلَ غُرورِ الشَّيطانِ بعَواقبِه في الآخرةِ بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] الآيةَ، وبذِكرِ مُقابِلِ عَواقبِه من حالِ المؤمنينَ، كذلك أَتْبَعَ تَفصيلَ غُرورِ الأنفُسِ أهْلَها بعَواقبِه، وبذِكرِ مُقابِلِه أيضًا؛ لِيَلتقِيَ مآلُ الغُرورينِ ومُقابِلِهما في مُلتقًى واحدٍ، ولكنْ قُدِّم في الأوَّلِ عاقبةُ أهلِ الغُرورِ بالشَّيطانِ، ثمَّ ذُكِرَت عاقبةُ أضْدادِهم، وعُكِسَ في ما هنا؛ لِجَريانِ ذِكرِ عِزَّةِ اللهِ؛ فقُدِّمَ ما هو المناسبُ لآثارِ عِزَّةِ اللهِ في حِزْبِه وجُنْدِه، وجُملةُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ مُستأْنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمُناسَبةِ تَفصيلِ الغُرورِ الَّذي يُوقَعُ فيه[٣].

- وتقَديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾ في قولِه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أفادَ أنَّ كلَّ ما يُقدَّمُ مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ إلى غيرِ اللهِ لا طائلَ تَحتَه[٤]. وقيل: تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ عِبارةٌ عن كَمالِ الاعتدادِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٧١، ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

- وفي بِناءِ المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ على المسنَدِ إليه (الْعَمَلُ الصَّالِحُ) ما يُفيدُ تَخصيصَ المسنَدِ إليه بالمُسنَدِ؛ فإذا انضمَّ إليه سِياقُ جُملتِه عَقِبَ سِياقِ جُملةِ القَصْرِ في قولِه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ المُشعِرِ بسَرَيانِ حُكمِ القصْرِ إليه بالقرينةِ لاتِّحادِ المَقامِ -إذ لا يُتوهَّمُ أنْ يُقصَرَ صُعودُ الكَلِمِ الطَّيِّبِ على الجانبِ الإلهيِّ، ثمَّ يُجعَلَ لِغَيرِه شَرِكةٌ معه في رَفعِ العملِ الصالحِ-؛ تَعيَّن معنى التَّخصيصِ، فصار المعنى: اللهُ الَّذي يَقبَلُ مِن المؤمنينَ أقوالَهم وأعمالَهم الصَّالحةَ[1].

- وجِيءَ في جانبِ العملِ الصَّالحِ بالإخبارِ عنه بجُملةِ ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾، ولم يُعطَفْ على ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ في حُكمِ الصُّعودِ إلى اللهِ مع تَساوي الخبرَينِ؛ لِفائدتينِ: **أُولاهما**: الإيماءُ إلى أنَّ نوعَ العملِ الصَّالحِ أهمُّ مِن نَوعِ الكلِمِ الطَّيِّبِ على الجُملةِ؛ لأنَّ مُعظَمَ العملِ الصالحِ أوسَعُ نفْعًا مِن مُعظَمِ الكَلِمِ الطَّيِّبِ (عدا كلمةَ الشَّهادتينِ وما ورَدَ تَفضيلُه مِن الأقوالِ في السُّنةِ؛ مِثلُ دُعاءِ يَوم عَرَفةَ)؛ فلذلك أُسنِدَ إلى اللهِ رَفْعُه بنَفْسِه، على قولٍ في التَّفسيرِ. **وثانيهما**: أنَّ الكلِمَ الطَّيِّبَ يَتكيَّفُ في الهواءِ؛ فإسنادُ الصُّعودِ إليه مُناسِبٌ لِماهيَّتِه، وأمَّا العملُ الصالحُ فهو كيفيَّاتٌ عارضةٌ لِذواتٍ فاعلةٍ ومَفعولةٍ، فلا يُناسِبُه إسنادُ الصُّعودِ إليه، وإنَّما يَحسُنُ أنْ يُجعَلَ مُتعلِّقًا لِرَفْعٍ يقَعُ عليه ويُسخِّرُه إلى الارتفاعِ[2]. وقيل: تَخصيصُ العمَلِ بهذا الشَّرفِ؛ لِمَا فيه مِن الكُلْفةِ[3].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ حالِ الكَلِمِ الخَبيثِ والعَمَلِ السَّيِّئِ وأهلِهما، بعدَ بَيانِ حالِ الكلِمِ الطَّيِّبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥).

والعمَلِ الصالحِ[١]. أو هذا فَريقٌ مِن الَّذين يُريدون العِزَّةَ مِن المشركينَ، وهمُ الَّذين ذكَرَهم اللهُ تعالى في قولِه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآيةَ؛ فعَطْفُهم على ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ تَخصيصٌ لهم بالذِّكرِ؛ لِمَا اختَصُّوا به مِن تَدبيرِ المكْرِ، وهو مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ بذِكرِه[٢]. أو يكونُ استِطرادًا وتَقريرًا لِمَضمونِ قولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ على طَريقِ الاستِشهادِ والتَّمثيلِ[٣].

- و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ مَنصوبٌ هنا على أنَّه وَصْفٌ لِمَصدرِ المَكرِ، نائبًا مَنابَ المَفعولِ المُطلَقِ المُبيِّنِ لِنَوعِ الفِعلِ؛ فكأنَّه قِيل: والَّذين يَمكُرون المكرَ السَّيِّئَ. وكان حقُّ وَصْفِ المصدرِ أنْ يكونَ مُفرَدًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، لكنْ لَمَّا أُريدَ هنا التَّنبيهُ على أنَّ أولياءَ الشَّيطانِ لهم أنواعٌ مِن المَكرِ، عُدِلَ عن الإفرادِ إلى الجَمْعِ، وأُتِيَ به جمْعَ مُؤنَّثٍ؛ للدَّلالةِ على مَعنى الفَعَلاتِ مِن المَكرِ، فكلُّ واحدةٍ مِن مَكْرِهم هي سَيِّئةٌ[٤].

- وجِيءَ باسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ عِلَّةٌ فيما يَرِدُ بعْدَها مِن الحُكمِ، أي لهم عذابٌ شديدٌ جَزاءَ مَكرِهم، وعُبِّرَ بالمُضارعِ ﴿يَمْكُرُونَ﴾ في الصِّلةِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ مَكرِهم واستِمرارِه، وأنَّه دأْبُهم وهِجِّيراهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعبَّرَ عنهم باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دونَ الضَّميرِ الَّذي هو مُقْتضَى الظَّاهِرِ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَميُّزِهم بما هُم فيه مِن الشَّرِّ والفَسادِ عن سائرِ المُفسدينَ واشتهارِهم بذلك؛ فيُكَنَّى بذلك عن تَمييزِ المَكرِ المُضافِ إليهم، ووُضوحِه في عِلمِ اللهِ وعِلمِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أعلَمَهُ اللهُ به منه، فكأنَّما أُشيرَ إليهم وإلى مَكرِهم باسمِ إشارةٍ واحدٍ على سَبيلِ الإيجازِ. وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على تَرامي أمْرِهم في الطُّغيانِ، وبُعدِ مَنزلتِهم في العُدوانِ[١]. ولم يَقُلْ: (مَكرُ هؤلاء)؛ إمَّا استبعادًا لهم؛ لأنَّهم لَيسوا أهلًا لأنْ يُقرَّبوا، أو لأنَّهم جَعَلوا أنفُسَهم في مَحلِّ العالِينَ الَّذين يُشارُ إليهم مِن بُعدٍ؛ فبيَّنَ أنَّ هؤلاء الَّذين تَعالَوا بمَكرِهم، وإنْ كانوا في القِمَّةِ على حَسَبِ زَعْمِهم، فإنَّ هذا المكرَ يَبورُ[٢].

- ووُقوعُ الفِعلِ المُضارعِ بعْدَ ضَميرِ الفَصلِ في جُملةِ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ في حُصولِ الفِعلِ، وأُتِيَ بضَميرِ الفصلِ هنا؛ لِيُفيدَ الثَّباتَ والتَّقويةَ؛ فالفصلُ هنا يُفيدُ القصْرَ، أي: مَكرُهم يَبورُ دونَ غَيرِه، ومَعلومٌ أنَّ غيرَه هنا تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يَمكُرُ بهم مَكرًا يُصِيبُ المَحزَّ منهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥).

المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ: أي: القَطع. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ عودٌ إلى سَوقِ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ بدَلالةٍ عليها مِن أنفُسِ النَّاسِ، بعْدَ أنْ قدَّمَ لهمْ ما هو مِن دَلالةِ الآفاقِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وابْتدَأَهم بتَذكيرِهم بأصلِ التَّكوينِ الأوَّلِ مِن تُرابٍ، وهو ما تَقرَّرَ عِلْمُه لَدى جَميعِ البَشرِ مِن أنَّ أصْلَهم -وهو البشرُ الأوَّلُ- خُلِقَ مِن طِينٍ؛ فصار ذلك حَقيقةً مُقرَّرةً في عِلمِ البشرِ. ثمَّ استَدْرَجهم إلى التَّكوينِ الثَّاني بدَلالةِ خلْقِ النَّسلِ مِن نُطفةٍ، وذلك عِلمٌ مُستقِرٌّ في النُّفوسِ بمُشاهَدةِ الحاضرِ، وقياسِ الغائبِ على المُشاهَدِ، فكما يَجزِمُ المرْءُ بأنَّ نَسْلَه خُلِقَ مِن نُطفَتِه، يَجزِمُ بأنَّه خُلِقَ مِن نُطفةِ أبَوَيه، وهكذا يَصعَدُ إلى تَخلُّقِ أبناءِ آدمَ وحوَّاءَ. وقولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يُشيرُ إلى حالةٍ في التَّكوينِ الثَّاني، وهو شَرْطُه مِن الازدواجِ؛ فـ(ثُمَّ) عاطفةٌ الجُملةَ، فهي دالَّةٌ على التَّرتيبِ الرُّتبيِّ الَّذي هو أهمُّ في الغَرَضِ، أعني دَلالةَ التَّكوينِ على بَديعِ صُنْعِ الخالقِ سُبحانَه؛ فذلك مُوزَّعٌ على مَضمونِ قولِه: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، والمعنى: ثمَّ مِن نُطفةٍ، وقد جعَلَكم أزواجًا لِتَركيبِ تلك النُّطفةِ؛ فالاستِدلالُ بدِقَّةِ صُنْعِ النَّوعِ الإنسانيِّ مِن أعظَمِ الدَّلائلِ على وَحدانيَّةِ الصَّانعِ، وفيها غُنْيةٌ عن النَّظرِ في تأمُّلِ صُنعِ بقيَّةِ الحيوانِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ تَقريرٍ آخَرَ، أو دليلٍ آخَرَ على صِحَّةِ البَعثِ والنُّشورِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أُدمِجَ في ذلك الاستِدلالِ دَليلُ التَّنبيهِ على إحاطةِ عِلمِ اللهِ بالكائناتِ الخفيَّةِ والظَّاهرةِ. ولِكَونِ العِلمِ بالخَفيَّاتِ أعلى قُدِّمَ ذِكرُ الحَملِ على ذِكرِ الوَضعِ، والمقصودُ مِن عَطفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣٤).

الوَضعِ أنْ يُدفَعَ تَوهُّمُ وُقوفِ العِلم عندَ الخفيَّاتِ الَّتي هي مِن الغَيبِ دونَ الظَّواهرِ؛ بأنْ يَشتغِلَ عنها بتَدبيرِ خَفيَّاتِها، كما هو شأْنُ عُظماءِ العُلماءِ مِن الخلْقِ؛ لِظُهورِ استِحالةِ تَوجُّهِ إرادةِ الخلْقِ نحوَ مَجهولٍ عندَ مُريدِه[١].

- قولُه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: وما يُعمَّرُ مِن أحدٍ، وإنَّما سمَّاهُ مُعمَّرًا بما هو صائرٌ إليه، وهذا مِن الكَلامِ المُتسامَحِ فيه؛ ثِقةً في تأْويلِه بأفهامِ السَّامعينَ، واتِّكالًا على تَسديدِهم مَعناهُ بعُقولِهم، وأنَّه لا يَلتبِسُ عليهم استِحالةُ الطُّولِ والقِصَرِ في عُمُرٍ واحدٍ[٢].

- وقد ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ الكريمةِ سائرَ أحوالِ الإنسانِ، وتَقلُّبَه في أطوارٍ مُختلِفةٍ ممَّا هو أُصولُها، ويُعرَفُ منه تَوابعُها ولَواحقُها على مَراتبَ ثلاثٍ كما هو عليه في الوُجودِ، وسُلِكَ فيه فنٌّ غريبٌ، وأُسلوبٌ عَجيبٌ؛ حيثُ أُخْرِجَ في جُمَلٍ ثلاثٍ على طَريقٍ يُنبِئُ عن صِفاتِ جَلالِه، وحُسنِ تَدْبيرِه مِنَ القُدرةِ الكاملةِ، والعِلمِ الشَّاملِ، وثُبوتِ القَضاءِ والقدَرِ بحَسَبِ تلك المراتبِ؛ فبَدأَ أوَّلًا بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ إظهارًا لِتَصرُّفِه فيه في تلك الأطوارِ، وثَنَّى بقولِه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ بيانًا لِلُطْفِ عِلْمِه ونُفوذِه فيما هو مِن أدَقِّ أحوالِ الإنسانِ من عُلْقةِ النُّطفةِ حينَ المُباشَرةِ، واستِقرارِها في مَكانةِ الرَّحِمِ، ثم ما تُكابِدُ الأُنثى مِن ثِقَلِ الحمْلِ ومُقاساةِ شِدَّتِه، وما يَجري عليها عندَ الوَضعِ مِن وجَعِ المَخاضِ، وما تَلطَّفَ عليها مِن الخَلاصِ من تلك الوَرْطةِ المُهلِكةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٨).

وثَلَّث بقولِه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ ...﴾ على إرادةِ: وما يُعَمَّرُ منكم أيُّها الناسُ مِن مُعَمَّرٍ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾؛ إثباتًا لِقضائِه وقَدَرِه، وأنَّ ما هو مِن خُوَيصَّةِ الإنسانِ الَّذي هو أعظمُ مَطالبِه ليس إليه، بل إلى اللهِ وإلى قَضائِه، وأنَّه مُثبَتٌ عندَه لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ عمَّا هو عليه؛ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٤].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢١، ٦٢٢).

الآيات (١٢-١٤)

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ
سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرَاتٌ﴾: أي: شَديدُ العُذوبةِ[(١)].

﴿سَآئِغٌ﴾: أي: سَهلٌ، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: مُرٌّ، شَديدُ الملوحةِ، وأصلُ (أجج) هنا: يدُلُّ على شِدَّةِ المُلوحةِ[(٣)].

﴿حِلْيَةً﴾: أي: لُؤلؤًا ومَرجانًا، والحِلْيةُ: مَا يتحَلَّى به النَّاسُ، أيْ: يَتزيَّنونَ، وأصلُ (حلو) هنا: يدُلُّ على تَحسينِ الشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، =

﴿مَوَاخِرَ﴾: أي: جواريَ تَشُقُّ الماءَ وتَخرِقُه مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتْحٍ(١).

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ(٢).

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سِياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصلُ (سخر): يدلُّ على استذلالٍ(٣).

﴿قِطْمِيرٍ﴾: القِطميرُ: القِشرةُ أو اللِّفافةُ الرَّقيقةُ البَيضاءُ التي تكونُ على نَواةِ التَّمرةِ(٤).

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٩).

قيل: اللُّؤْلُؤُ: الدُّرُّ، والمَرجانُ: الخَرَزُ الأحمرُ. وقيل: المَرجانُ: صِغارُ الدُّرِّ، واللُّؤْلُؤُ: كِبارُه. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٣)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا مَظاهرَ قُدرتِه وبديعَ صُنعِه: وما يَستوي البَحرانِ؛ فماءُ أحَدِهما حُلوُ المذاقِ، بالغُ العُذوبةِ، يُستَساغُ شُربُه، وماءُ الآخَرِ شَديدُ الملوحةِ، ومِن كُلِّ بَحرٍ منهما تأكُلونَ لَحمًا طَريًّا، وتَستَخرِجونَ زينةً تَلبَسونَها كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ، وترَى السُّفُنَ تَسيرُ في البَحرِ وهي تشَقُّ الماءَ وتَدفَعُه؛ لِتَطلُبوا برُكوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم ورِزقَ اللهِ لكم، ولعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على ذلك.

ويَذكرُ أنواعًا أُخرى مِن مَظاهرِ قُدرتِه، فيقولُ: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ فيَكونُ الضِّياءُ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ فيَكونُ الظَّلامُ، وسخَّر اللهُ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لِمَصالحِكم إلى وَقتٍ مُحدَّدٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالَى.

ذلِكُم اللهُ ربُّكم له المُلكُ وَحدَه لا شَريكَ له. والذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دونِ اللهِ لا يَملِكونَ أيَّ شَيءٍ، حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ.

إنْ تدْعوا هذه الآلهةَ المزعومةَ لا يَسمَعوا دُعاءَكم، ولو سَمِعوا دُعاءَكم ما استَجابوا لكم، ويومَ القِيامةِ يَكفُرونَ بإشراكِكم إيَّاهم في العِبادةِ مع اللهِ تعالَى، ولا يُنبِّئُك -يا محمَّدُ- مِثلُ اللهِ الخَبيرِ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ المرادَ ذِكرُ دَليلٍ آخَرَ على قُدرةِ اللهِ، وذلك مِن حيثُ إنَّ البحرينِ يَستويانِ

في الصُّورةِ، ويَختَلِفانِ في الماءِ؛ فإنَّ أحَدَهما عذْبٌ فُراتٌ، والآخَرَ مِلحٌ أُجاجٌ، ثمَّ إنَّهما بعدَ اختِلافِهما يُوجَدُ منهما أمورٌ مُتشابِهةٌ؛ فإنَّ اللَّحمَ الطَّريَّ يوجَدُ فيهما، والحِليةَ تُؤخَذُ منهما، ومَن يُوجِدُ في المتشابِهَينِ اختِلافًا، ومِن المختَلِفَينِ اشتِباهًا، لا يكونُ إلَّا قادِرًا مُختارًا[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه أحَدَ أصلَيهم: التُّرابَ المختَلِفَ الأصنافِ، ذكَرَ الأصلَ الآخَرَ: الماءَ الذي هو أشَدُّ امتزاجًا مِن الترابِ، ذاكِرًا اختلافَ صِنفَيه اللَّذين يتفَرَّعانِ إلى أصنافٍ كثيرةٍ، مُنَبِّهًا على فِعلِه بالاختيارِ، ومُنكِرًا على مَن سَوَّى بَينَه سُبحانَه وبَينَ شَيءٍ، حتى أشركَه به مع المباعَدةِ التي لا شَيءَ بَعدَها[٢].

وأيضًا فإنَّه انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ بالأحوالِ في الأجواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، إلى الاستِدلالِ بما على الأرضِ مِن بِحارٍ وأنهارٍ، وما في صِفاتِها مِن دَلالةٍ زائدةٍ على دَلالةِ وُجودِ أعيانِها، على عَظيمِ مَخلوقاتِ اللهِ تعالى[٣].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

أي: وما يَتماثَلُ البَحرانِ اللَّذانِ خلَقَهما اللهُ مختَلِفَينِ بقُدرتِه وحِكمتِه؛ فماءُ أحَدِهما ذُو طَعمٍ طَيِّبٍ حُلوٍ، ومَذاقٍ لَذيذٍ بالغِ العُذوبةِ، يُستساغُ شُربُه، ويَسهُلُ ابتِلاعُه بلا صُعوبةٍ ولا كَراهةٍ، ومِياهُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك؛ فهي شَديدةُ الملوحةِ والمرارةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣-٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٠)، =

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

أي: ومِن كُلِّ بحرٍ منهما -عذْبًا كان أو مالِحًا- تأكُلونَ لَحمًا طَرِيًّا مِن أنواعِ السَّمَكِ وغَيرِه(١).

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

أي: وتَستَخرِجونَ مِن البَحرِ -مالِحًا كان أم عذبًا- زينةً كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ تتحلَّونَ بلُبسِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٣).

قال البِقاعي: (المرادُ أنَّه مَيَّزهما سبحانَه بعد جمْعِهما في ظاهرِ الأرضِ وباطِنِها، ولم يَدَعْ أحدَهما يبغي على الآخَرِ، بل إذا حُفِرَ عل جانبِ البَحرِ الملحِ ظَهَر الماءُ عذبًا فُراتًا على مقدارِ صلاحِ الأرضِ وفَسادِها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤-١٠٥).

قال ابن عثيمين: (أكثرُ المفسرينَ على أنَّه لا يخرجُ إلَّا مِن المالحِ، وحمَلوا قولَه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على أنَّ المرادَ مِن مجموعِهما لا مِن جميعِهما... لكنِ الصحيحُ أنَّه يخرجُ مِن الجميعِ؛ لأنَّ هذا هو ظاهرُ القرآنِ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بما خلَق... وقد ثبت الآنَ أنَّ اللؤلؤَ والمرجانَ يخرجُ مِن هذا ومِن هذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤- ١٠٥). ويُنظر: أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٣).

أي: وترَى[1] السُّفُنَ تَجري في البَحرِ، وهي تَشُقُّ الماءَ وتَدفَعُه بصُدورِها دونَ أن تَغرَقَ فيه[2].

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: لِتَطلُبوا بُركوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم، وتتنقَّلوا بها لِتِجاراتِكم، إلى غيرِ ذلِك[3].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولَعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِه لكم ذلك[4].

---

(١) قال ابن عثيمين: (الخِطابُ لكلِّ مَن يتوجَّهُ إليه الخِطابُ، والرؤيةُ هنا بصريَّةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٥-١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

قال القرطبيُّ: (قال مجاهدٌ: التِّجارةُ في الفُلكِ إلى البُلدانِ البعيدةِ في مدةٍ قريبةٍ... وقيل: ما يُستخرَجُ مِن حِليتِه ويُصادُ مِن حِيتانِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

ذكر ابنُ جرير أنَّ المعنى: لتشكروا اللهَ على تَسخيرِه ذلك لكم، وما رزقَكم منه من طيِّبات الرِّزق، وفاخِرِ الحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧).

وقيل: المرادُ: شُكرُه على تَسخيرِ الفُلكِ في البَحرِ. وممَّن اختاره: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٦-١٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون ربَّكم على تَسخيرِه لكم هذا الخَلْقَ العظيمَ، وهو البحر، تتصرَّفون فيه كيف شِئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

قيل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نِعمِه. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبَغوي، والخازن، =

كما قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه استِدلالٌ آخَرُ باختِلافِ الأزمِنةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه اختِلافَ الذَّواتِ الدَّالَّ على بَديعِ صُنعِه تعالى؛ أتْبَعَه تَغييرَه المعانيَ؛ آيةً على بَليغِ قُدرتِه[2].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

= والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٤٥).

وقال الشوكاني: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على ما أنعمَ عليكم به من ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٣).

وقيل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم مِن فضْلِه، وممَّن اختارَه القرطبيُّ والنَّسفيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

أي: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ[١].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم الشَّمسَ والقمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لمصالِحِكم إلى وَقتٍ محدَّدٍ مَضروبٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٢-١١٣).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: يُدخِل اللَّيلَ في النهار، وذلك ما نقَص مِن اللَّيلِ أدْخَله في النَّهار فزادَه فيه، ويُولِج النَّهارَ في اللَّيلِ، وذلك ما نقَص من أجزاء النَّهارِ زادَ في أجزاء اللَّيل، فأدْخَله فيها: ابنُ جرير وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٢-١١٣).

وقالَ البِقاعي: (﴿يُولِجُ﴾، أي: يُدخِل على سَبيلِ الجَولانِ ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيَصير الظلامُ ضِياءً... ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيَصير ما كان ضِياءً ظلامًا، وتارةً يكون التوالجُ بقِصَرِ هذا وطُولِ هذا). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

وقال السعديُّ: (يُدخِل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلَّما أتَى أحدهما ذهَب الآخَرَ، ويَزيدُ أحدَهما ويَنقُص الآخَرَ، ويتساويانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

ممَّن اختارَ أنَّ المرادَ بالأجَلِ المُسمَّى هنا: يومُ القيامةِ: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

قال السعديُّ: (فإذا جاء الأجَلُ، وقَرُب انقِضاءُ الدُّنيا، انقطع سيرُهما، وتعطَّل سُلطانُهما، وخسَفَ القَمَرُ، وكُوِّرَت الشَّمسُ، وانتَثَرت النُّجومُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

وقال أبو السعود: (قولُه تعالى ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ تسخيرِهما، أي: كلٌّ منهما يجري لمُنتهى دَورتِه أو منقطَعِ حركتِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: العُمومُ، فيَشمَلُ ذلك الأجَلَ اليوميَّ للمَغيبِ، فيَستمِرُّ ذلك كلَّ يومٍ حتى مجيءِ الأجَلِ الأعظَمِ، فيختَلُّ نظامُ الكونِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨).

=

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾.

أي: ذلكم العَظيمُ، الذي خلَقَ تلك المذكوراتِ وقام بتَسخيرِها: اللهُ خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أُمورِكم، المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحدَه، له المُلكُ التَّامُّ كُلُّه وَحدَه لا شَريكَ له[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

أي: وأمَّا الذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ[(٢)].

= قال ابنُ عثيمين: (يمكِنُ أن نقولَ: يسيرانِ إلى أجَلٍ مُسمًّى حتى في الفَلَك، فمَثلًا الشَّمسُ تنزِلُ على مَدارِ الجَدْيِ في أيامِ الشِّتاءِ، ثمَّ تنتقِلُ شيئًا فشيئًا إلى أن تَصِلَ إلى مدارِ السَّرطان... فكلَّ يوم مُحدَّدٌ مكانُ الطُّلوعِ وزمانُ الطُّلوعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٢٨).

وقال الواحديُّ في نظيرِ هذه الآيةِ من سورة الرعد: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد: ٢]، قال: (قولُه: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي: إلى وقتٍ معلومٍ، وهو فَناءُ الدنيا، وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ، قال: يريدُ أنَّ هذا كائنٌ إلى يوم القيامةِ. ورُوِي عنه أنَّه قال: أراد بالأجَلِ المُسمَّى: انتهاؤُهما في السَّيرِ إلى درجاتِهما ومنازلِهما، وهو قولُ الكلبيِّ؛ قال: للشَّمسِ منازِلُ معلومةٌ، كُلَّ يوم لها منزلٌ تنزِلُه حتى تنتهيَ إلى آخِرِ مَنازلِها، فإذا انتهتْ إليه لم تجاوِزْه، ثم ترجِعُ؛ فهذا الأجَلُ المسمَّى، وللقَمَرِ كذلك). ((البسيط)) (١٢/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٢، ٧٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦، ٦٨٧).

قال القُرطبيُّ: (القِطميرُ: القِشرةُ الرَّقيقةُ البيضاءُ التي بينَ التَّمرةِ والنَّواةِ، قاله أكثَرُ المفَسِّرين). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣).

وقال أبو حيَّان بعدَ أنْ ذكَر الخِلافَ في معنى القِطميرِ: (وأيًّا ما كان، فهو تمثيلٌ للقليلِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢).

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه إذا انتفَى أنَّ الأصنامَ تَملِكُ شَيئًا، انتفَى عنها وَصْفُ الإلهيَّةِ بطَريقِ الأَولَى؛ فنَفَى ما كانوا يَزعُمونَه مِن أنَّها تَشفَعُ لهم[1].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾.

أي: إنْ تدْعوا هؤلاء الآلهةَ المزعومةَ التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لا يَسمَعوا دُعاءَكم[2].

﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

أي: وحتَّى لو سَمِعوا دُعاءَكم، فإنَّهم لا يَستَجيبونَ لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

قال السعديُّ: (لا يَسمعوكم؛ لأنَّهم ما بينَ جمادٍ وأمواتٍ، وملائكةٍ مَشغولينَ بطاعةِ ربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

ذكر ابنُ عثيمين أن قولَه تعالى: ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يَشمَلَ الاستجابةَ بالقَولِ بأنْ تقولَ هذه الأصنامُ: ماذا تريدونَ؟ والاستجابةَ بالفِعلِ، وهي إيصالُ المطلوبِ إلى هؤلاءِ الطَّالبين؛ فهي لا تستجيبُ لا لهذا ولا لهذا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٢٦)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩).

وقال القرطبيُّ: (وقيل: أيْ: لو جعَلْنا لهم عُقولًا وحياةً فَسَمِعوا دُعاءَكم، لكانوا أطوعَ لله منكم، ولَما استجابوا لكم على الكُفرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦).

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

مناسبتُها لِمَا قبلَها:

لَمَّا كُشِفَ حالُ الأصْنامِ في الدُّنيا بما فيه تَأْييسٌ من انتِفاعِهم بها فيها؛ كُمِّلَ كَشْفُ أمْرِها في الآخِرةِ بأنَّ تلك الأصْنامَ يُنطِقُها اللهُ، فتَتبرَّأَ من شِركِهم[1].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

أي: ويومَ القِيامةِ يَكفُرونَ بما وَقعتُم فيه مِن اتِّخاذِهم شُرَكاءَ للهِ تدعونَهم مِن دُونِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

أي: ولا أحدَ يُنبِّئُك[3] -يا محمَّدُ- مِثلَ ما يُنَبِّئُك اللهُ الذي يَعلَمُ بواطِنَ الأمورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) قيل: المرادُ تحقيقُ ما أخبَر به مِن حالِ آلهتِهم، ونفيُ ما يدَّعُون لهم من الإلهيةِ. ممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، وابن جُزي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٣). =

وحقائِقَها، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَفعلَ الأسبابَ

= قال ابنُ جَرير: (يقول تعالى ذِكرُه: ولا يُخبِرُك -يا محمدُ- عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكونُ مِن أمْرِها وأمْرِ عَبَدتِها يومَ القيامةِ، مِن تَبرُّئِها منهم، وكُفرها بهم، مثل ذِي خِبرة بأمْرها وأمْرِهم؛ وذلك الخبيرُ هو اللهُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ -كان أو يكون- سُبحانَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١).

وقال ابنُ كثير: (وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾، أي: ولا يُخبِرُك بعواقبِ الأمورِ ومآلها وما تصيرُ إليه، مِثلُ خبيرٍ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١).

وقال جلال الدِّين المَحليُّ: (﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بأحوالِ الدَّارين ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٣).

وقال البِقاعيُّ: (﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾، أي: إنباءً بليغًا عظيمًا على هذا الوَجهِ بشيءٍ مِن الأشياءِ ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾، أي: بالِغِ الخبر، فلا يُمكن الطعنُ في شيءٍ ممَّا أخبر به، وأمَّا غيره فلا يُخبر خبرًا إلَّا يُوجَّه إليه نقْصٌ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

قال الكَرمانيُّ: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ ﴿خَبِيرٖ﴾ في الآيةِ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ). ((غرائب التفسير)) (٢/ ٩٤٨).

ممن اختار أنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٩).

وقيل: الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يصِحُّ منه سَماعُ هذا الكلام. وممَّن قال بهذا المعنى: الشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

قال ابن عاشور: (لأنَّ هذه الجُملةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمثالِ؛ فلا يَنبغي تَخصيصُ مَضمونِها بمخاطَبٍ مُعيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

التي يُتَوَصَّلُ بها إلى المقصودِ، لا أنْ يبقَى في بيتِه مُنتظرًا رِزقَه، ويقولَ: إنَّه مُتوكِّلٌ على اللهِ! ففَرْقٌ بيْنَ التواكُلِ والتوكُّلِ؛ فالنَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ كان يَفْعَلُ الأسبابَ الجالبةَ للخيرِ؛ الدافعةَ للشَّرِّ، وهو سَيِّدُ المتوكِّلينَ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وجوبُ شُكرِ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّ اللهَ جَعَل هذه النِّعَمَ وسَخَّرها تَسخيرًا لنا؛ لنقومَ بشُكرِه سُبحانَه وتعالى، والشُّكرُ موضعُه: اللسانُ، والقلبُ، والجوارحُ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا إخبارٌ عن قُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه: أنَّه جعَل البَحرينِ لمصالحِ العالَمِ الأرضيِّ كُلِّهم، وأنَّه لم يُسَوِّ بينَهما؛ لأنَّ المصلحةَ تَقتضي أنْ تكونَ الأنهارُ عَذبةً فُراتًا، سائِغًا شَرابُها؛ لِيَنتفعَ بها الشَّاربونَ والغارِسونَ والزَّارِعونَ، وأنْ يكونَ البَحرُ مِلحًا أُجاجًا؛ لِئلَّا يَفسُدَ الهواءُ المحيطُ بالأرضِ برَوائحِ ما يموتُ في البَحرِ مِن الحيواناتِ، ولأنَّه ساكِنٌ لا يَجري، فمُلوحتُه تمنَعُه مِن التغَيُّرِ، ولِتَكونَ حيواناتُه أحسَنَ وألَذَّ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ تَسميةُ اللهِ تعالى الماءَ العَذْبَ بَحْرًا[4].

٣- قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وصَفَه بالطراوةِ؛ للإشعارِ بلَطافتِه والتَّنبيهِ على المسارعةِ إلى أكْلِه؛ لئلَّا يَتسارَعَ إليه الفَسادُ كما يُنبئُ عنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيِّم (ص: ٦٤).

جعْلُ كُلٍّ مِن البَحرينِ مَبدأَ أكْلِه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أنَّ الغوصَ في استخراجِ حِلْيَةِ البَحرِ مُباحٌ؛ ولا يكونُ تَعَرُّضًا للهَلَكةِ ومخاطرةً بالرُّوحِ! وذلك لِمَن يُحْسِنُ العَوْمَ والغَوْصَ(٢).

٥- في قولِه: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ دَلالةُ إباحةِ التِّجارةِ، وطلَبِ الفَضلِ برُكوبِ الأخطارِ واحتمالِ الشَّدائدِ، حيثُ أخبر أنَّه سخَّرَ البحرَ؛ حتَّى أمكنَهم ركوبُه بالحِيَلِ والأسبابِ التي علَّمَها لهم؛ لأنَّ الغوَّاصَ يُخاطِرُ برُوحِه ونفْسِه، وكذلك راكبُ السَّفينةِ(٣).

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ظاهِرُ قَولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أنَّه يجوزُ للرِّجالِ أن يَلبَسوا اللُّؤلؤَ والمَرجانَ، أي: يَجعلونَه حِليةً لهم كما يجوزُ للنِّساءِ، ولا حاجةَ لِما تكلَّفه جماعةٌ مِن المفَسِّرينَ في تأويلِ قَولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقَولِه: تَلبَسُه نِساؤُهم؛ لأنَّهنَّ مِن جُملتِهم، أو لِكَونِهنَّ يَلبَسنَها لأجلِهم، وليس في الشَّريعةِ المطَهَّرةِ ما يَقتضي منْعَ الرِّجالِ مِن التحَلِّي باللُّؤلؤِ والمَرجانِ، ما لم يَستعمِلْه على صِفةٍ لا يَستعمِلُه عليها إلَّا النِّساءُ خاصَّةً؛ فإنَّ ذلك ممنوعٌ مِن جِهةِ كَونِه تشَبُّهًا بهنَّ -وقد ورد الشَّرعُ بمَنعِه- لا مِن جهةِ كَونِه حِليةَ لؤلؤٍ أو مَرجانٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢٢/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤).

وجوازُ التحلِّي بالجواهِرِ والأحجارِ الكريمةِ للرجالِ هو مذهبُ الجُمهورِ، مِن المالِكيَّة، والشَّافعيَّة -على الأظهَرِ عِندَهم-، والحَنابلة، وبه قال ابنُ حَزم. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (١/ ١٨٥)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٦٤)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ١٠)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (١/ ٣٠)، ((الإقناع)) للحجاوي (١/ ٢٧٥)، ((مطالب =

٧- قولُه تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ هذا استِدْلالٌ سَنَدُه المُشاهَدةُ؛ فطالَما دَعَوُا الأصْنامَ، فلم يَسمَعوا منها جوابًا، وطالَما دَعَوْها، فلم يَحصُلْ ما دَعَوْها لتَحْصيلِه، معَ أنَّها حاضِرةٌ بمَرأًى منهم غيرُ مَحْجوبةٍ، فعَدَمُ إجابَتِها دَليلٌ على أنَّها لا تَسمَعُ؛ لأنَّ شأنَ العَظيمِ أنْ يَستَجيبَ لأوْليائِه الذين يَسعَوْنَ في مَرْضاتِه، فقد لَزِمهم إمَّا عَجزُها، وإمَّا أنَّها لا تَفقَهُ، وهذا من أبْدعِ الاستِدْلالِ المُوطَّأِ بمُقدِّمةٍ مُتَّفَقٍ عليها(١).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ أنَّ مَن تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ خابَ أمَلُه؛ لأنَّ هذه الأصنامَ لا تنفعُهم في الدُّنيا، ولا تَنفعُهم يومَ القِيامةِ، إذَنْ خابَ أملُهم؛ هم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ولكنْ ما قرَّبوهم! بل هذه ما زادتْهم إلَّا بُعْدًا، فأَمَلُهم قد خابَ -والعياذُ باللهِ-، وخسِروا الدُّنيا والآخِرةَ(٢).

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ نوعُ هذا الكُفرِ هو التبَرُّؤ؛ فيُستفادُ منه: أنَّ هذه الأصنامَ المعبودةَ تتبرَّأُ مِن عابِديها يومَ القِيامةِ، بل إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَجمَعُ الأصنامَ وعابِديها، ويُلقِيهم في جهنَّمَ ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]، ولكِنَّها ليستْ آلِهةً، فلا تَنفعُ(٣).

= أولي النهى)) للرحيباني (٢/ ٩٤)، ((المحلى)) لابن حزم (٩/ ٢٤٦).

وحُكي الاتفاق على أنَّ التختُّمَ للرِّجال بجَميعِ الأحجار مُباحٌ، من الياقوت وغيرِه. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٠- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ...﴾ تضَمَّنَت هذه الآياتُ الأدلَّةَ والبراهينَ السَّاطِعةَ الدَّالَّةَ على أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ، الذي لا يَستَحِقُّ شَيئًا مِن العبادةِ سِواه، وأنَّ عبادةَ ما سِواه باطِلةٌ مُتعلِّقةٌ بباطِلٍ، لا تفيدُ عابِدَه شَيئًا(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ صِيغَ هذا الاستِدلالُ على أُسلوبٍ بَديعٍ؛ إذ اقتُصِرَ فيه على التَّنبيهِ على الحِكمةِ الرَّبَّانيَّةِ في المَخلوقاتِ، وهي ناموسُ تَمايُزِها بخَصائصَ مُختلِفةٍ، واتِّحادِ أنواعِها في خَصائصَ مُتماثِلةٍ؛ استدلالًا على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى، ويَتضمَّنُ ذلك الاستدلالَ بخَلْقِ البَحرينِ أنفُسِهما؛ لأنَّ ذِكرَ اختلافِ مَذاقِهما يَستلزِمُ تَذكُّرَ تكوينِهما؛ فالتَّقديرُ: وخلَقَ البَحرينِ العَذْبَ والأُجاجَ على صُورةٍ واحدةٍ، وخالَفَ بيْنَ أعراضِهما؛ ففي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ، وإنَّما قُدِّمَ من هذا الكلامِ تَفاوُتُ البَحرينِ في المذاقِ، واقتُصِرَ عليه؛ لأنَّه المقصودُ مِن الاستِدلالِ بأفانينِ الدَّلائلِ على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى(٢).

- وقولُه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمَّا استِطْرادٌ في صِفةِ البَحْرينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٩).

وما فيهما مِن النِّعمِ والمَنافِعِ. وإمَّا تكمِلةٌ للتَّمْثيلِ، أي: كما أنَّهما -وإنِ اشتَرَكا في بَعضِ الفَوائِدِ- لا يَتَساوَيانِ من حيثُ إنَّهما مُتَفاوِتانِ فيما هو المَقْصودُ بالذَّاتِ مِنَ الماءِ لَمَّا خالَطَ أحَدَهما ما أفسَدَه وغيَّرَه عن كَمالِ فِطْرتِه؛ لا يُساوي الكافِرُ المُؤمِنَ، وإنْ شارَكَه في بَعضِ الصِّفاتِ كالشَّجاعةِ والسَّخاوةِ ونحوِهما؛ لِتبايُنِهما فيما هو الخاصيَّةُ العُظْمَى؛ لِبَقاءِ أحَدِهما على فِطْرتِه الأصليَّةِ، وحِيازتِه لكَمالِه اللَّائقِ دون الآخَرِ. أو تَفْضيلٌ للأُجاجِ على الكافِرِ من حيثُ إنَّه يُشارِكُ العَذْبَ في مَنافِعَ كثيرةٍ، والكافِرُ خِلْوٌ من المَنافِعِ بالكُلِّيةِ(١).

- وإفرادُ ضَميرِ الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ مع جَمعِه فيما سَبَقَ وما لَحِقَ؛ لأنَّ الخِطابَ لكُلِّ أحَدٍ تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ دونَ المُنتَفِعينَ بالبَحْرينِ فَقَطْ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ الظَّرْفُ هنا في قَولِه: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ على عَكسِ آيةِ سورةِ (النَّحلِ): ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَسوقةٌ مَساقَ الاستِدْلالِ على دَقيقِ صُنعِ اللهِ تَعالَى في المَخْلوقاتِ، وأدمَجَ فيه الامتِنانَ بقَولِه: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وقَولِه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ فكان المَقصدُ الأوَّلُ من سِياقِها الاستِدْلالَ على عَظيمِ الصُّنعِ؛ فهو الأهمُّ هنا. ولَمَّا كان طَفْوُ الفُلكِ على الماءِ -حتى لا يَغرَقَ فيه- أظهَرَ في الاستِدْلالِ على عَظيمِ الصُّنعِ مِنَ الذي ذُكِرَ من النِّعْمةِ والامتِنانِ؛ قُدِّمَ ما يدُلُّ عليه، وهو الظَّرفيَّةُ في البَحرِ. والمَخْرُ في البَحرِ آيةُ صُنعِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٤- ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

أيضًا بخَلقِ وَسائِلِ ذلك، والإلْهام له، إلَّا أنَّ خُطورَ السَّفَرِ من ذلك الوَصفِ أو ما يتبادَرُ إلى الفَهمِ؛ فأُخِّرَ هُنا لأنَّه من مُسْتتبَعاتِ الغَرَضِ لا من مَقصِدِه، فهو يَستتبِعُ نِعْمةَ تَيسيرِ الأسْفارِ لقَطعِ المَسافاتِ التي لو قُطِعتْ بسَيرِ القَوافِلِ؛ لطالتْ مُدَّةُ الأسْفارِ. وبهذا يتَّضِحُ الفَرقُ بيْنَ هذه الآيةِ وآيةِ سُورةِ (النَّحْلِ) في كَونِ فِعلِ (لِتَبتَغُوا) غيرَ مَعطوفٍ بالواوِ هنا، ومَعطوفًا نظيرُه في آيةِ (النَّحْلِ)؛ لأنَّ الابتغاءَ عُلِّقَ هنا بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ إيقافًا على الغَرَضِ من تَقديمِ الظَّرْفِ، وفي آيةِ (النَّحْلِ) ذُكِرَ المَخْرُ في عِدادِ الامتِنانِ؛ لأنَّه به تَيسيرُ الأسْفارِ، ثم فُصِلَ بيْنَ مَوَاخِرَ وعِلَّتِه بظَرفِ (فيه)؛ فصارَ ما يُؤمِئُ إليه الظَّرْفُ فَصْلًا بغَرَضٍ أُدمِجَ إدْماجًا، وهو الاستِدْلالُ على عَظيمِ الصُّنعِ بطَفوِ الفُلكِ على الماءِ. فلمَّا أُريدَ الانتِقالُ منه إلى غَرَضٍ آخَرَ -وهو العَودُ إلى الامتِنانِ بالمَخْرِ لنِعْمةِ التِّجارةِ في البَحرِ- عُطِفَ المُغايِرُ في الغَرَضِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه التعبيرُ بحَرْفِ التَّرجِّي (لعلَّ)؛ للإيذانِ بكَونِه مَرْضيًّا عندَ اللهِ تَعالَى[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ استِدْلالٌ بما في مَظاهِرِ السَّمَواتِ من الدَّلائِلِ على بَديعِ صُنعِ اللهِ في أعظَمِ المَخْلوقاتِ؛ لِيتذكَّرَ الكُفَّارُ والنَّاسُ بذلك أنَّه الإلهُ الواحِدُ، وفي الآيةِ إدْماجٌ[3] للتَّذكيرِ في خِلالِ الاستِدْلالِ؛ ففي هذه الآيةِ ذكَّرَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

بأنَّ لأعْمارِهم نِهايةً؛ تَذْكيرًا مُرادًا به الإنْذارُ والوَعيدُ، واقتِلاعُ الطُّغْيانِ والكِبْرياءِ من نُفوسِهم(١).

- قَولُه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ لَمَّا كان هذا الفِعلُ في غايةِ الإعجابِ، وكان لكَثرةِ تكرارِه قد صار مألوفًا؛ فغُفِلَ عمَّا فيه مِن الدَّلالةِ على تَمامِ القُدرةِ- نبَّه عليه بإعادةِ الفِعلِ، فقال: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾(٢).

- قولُهُ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عَطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾، واختِلافُهما صِيغةً؛ لأنَّ إيلاجَ أحَدِ المَلَوينِ -اللَّيلِ والنَّهارِ- في الآخَرِ مُتجدِّدٌ حِينًا فحِينًا، وأمَّا تَسخيرُ النَّيِّرَينِ -الشَّمْسِ والقمَرِ- فأمْرٌ لا تَعدُّدَ فيه، وإنَّما المُتعدِّدُ والمُتجدِّدُ آثارُه، وقد أُشيرَ إليه بقَولِه تَعالَى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي ...﴾(٣).

- وفيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سورةِ (لُقْمانَ) في قوله: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ جاء فيها ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ﴾؛ فعُدِّيَ فِعلُ يَجْري باللَّامِ، وجِيءَ في آيةِ سورةِ (لُقْمانَ) تَعديةُ فِعلِ يَجْري بحَرفِ (إلى) وليسَ ذلك مِن تعاقُبِ الحَرفَينِ -أي: ليس كُلُّ واحِدٍ منهما مَكانَ صاحبِه مِنْ غيرِ تَفرقةٍ-؛ لأنَّ بيْنهما بَونًا بعيدًا مِن حيثُ الوضْعُ؛ لأنَّ أحدَهما (إلى) للانتِهاءِ، والآخَر (اللام) للاختِصاصِ، وكلٌّ واحِدٍ منهما مُلائمٌ لصحَّة الغَرضِ في مَوضعِهِ الخاصِّ؛ فقَولُ: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ مَعْناه: يَبلُغُه، وقَولُ: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٍ﴾ يُرادُ به لإدْراكِ أجلٍ، أي: ويَجْري لأَجْلِ أَجَلٍ، أي: لِبُلوغِه واستيفائِه. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّ الغرَضَ من المعنَيَينِ الغايةُ؛ فمآلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

المَعْنَيينِ واحِدٌ، وإنْ كان طَريقُه مُختلِفًا. وقيلَ: اللَّامُ تكونُ بمَعْنى (إلى) في الدَّلالةِ على الانتِهاءِ؛ فالمُخالَفةُ بيْنَ الآيتَينِ تفنُّنٌ في النَّظمِ(١).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ استِئْنافٌ واقعٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ من الأدِلَّةِ بعدَ تَفْصيلِها، واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مُوجَّهٌ إلى مَن جرَتْ عليه الصِّفاتُ والأخْبارُ السَّابقةُ من قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] الآياتِ. وفيها إشْعارٌ بأنَّ فاعِليَّتَه لها مُوجِبةٌ لِثُبوتِ الأخْبارِ المُترادِفةِ؛ فكان اسْمُه حَريًّا بالإشارةِ إليه بعدَ إجْراءِ تلك الصِّفاتِ؛ إذ بذِكْرِها يَتميَّزُ عِندَ السَّامِعينَ أكْمَلَ تَمْييزٍ حتى كأنَّه مُشاهَدٌ لأبْصارِهم، مع ما في اسْمِ الإشارةِ مِنَ البُعدِ المُستَعمَلِ كِنايةً عن تَعْظيمِ المُشارِ إليه. ومع ما يَقْتضيهِ إيرادُ اسمِ الإشارةِ عقِبَ أوْصافٍ كَثيرةٍ مِن التَّنبيهِ على أنَّه حَقيقٌ بما سيَرِدُ بعدَ الإشارةِ مِن أجْلِ تلك الصِّفاتِ، فأخبَرَ عنه بأنَّه صاحِبُ الاسمِ المُخْتصِّ به الذي لا يَجهَلونَه، وأخبَرَ عنه بأنَّه ربُّ الخَلائِقِ بعْدَ أنْ سُجِّلَ عليهم ما لا قِبَلَ لهم بإنْكارِه، مِن أنَّه الذي خلَقَهُم خَلْقًا مِن بعْدِ خَلقٍ، ممَّا يدُلُّ على أنَّه لا يُعجِزُه شَيءٌ؛ فهو الرَّبُّ دونَ غيرِه، وهو الذي المُلكُ والسُّلْطانُ له لا لِغَيرِه؛ أفادَ ذلك كُلَّه قولُه تَعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ فانتهَضَ الدَّليلُ(٢).

- قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ تَصريحٌ بأنَّ الأصْنامَ لا يَملِكونَ من المُلكِ شيئًا، ولو حَقيرًا، وهو المُمثَّلُ بالقِطْميرِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٢).

فالمَعْنى: لا يَملِكونَ شَيئًا، ولو حَقيرًا؛ فكَونُهُم لا يَملِكونَ أعظَمَ من القِطْميرِ مَعْلومٌ بفَحْوى الخِطابِ[١]، فإذا انْتَفَى أنَّها تَملِكُ شَيئًا، انْتَفَى عنها وَصفُ الإلهيَّةِ بطَريقِ الأَوْلى؛ فنَفَى ما كانوا يَزعُمونَه من أنَّها تَشفَعُ لهم، معَ ما في ذلك من الدَّلالةِ على تَفرُّدِ اللهِ سُبْحانَه بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[٢].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾

- قولُهُ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ استِئْنافٌ مُقرِّرٌ لمَضْمونِ ما قَبلَه، كاشِفٌ عن جَليَّةِ حالِ ما يَدْعونَه، أو خَبَرٌ ثانٍ عن (الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ)، والمَقصِدُ منه تَنبيهُ المُشرِكينَ إلى عَجزِ أصْنامِهم؛ بأنَّها لا تَسمَعُ، وليس ذلك استِدْلالًا؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمونَ أنَّ الأصْنامَ تَسمَعُ منهم؛ فلذَلِكَ كانوا يُكلِّمونَها، ويُوجِّهونَ إليها مَحامِدَهم ومَدائِحَهم، ولكنَّه تَمهيدٌ للجُمْلةِ المَعْطوفةِ على الخَبَرِ، وهي جُمْلةُ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[٣].

- وأُجرِيَ على الأصْنامِ مَوصولُ العاقِلِ، وضَمائرُ العُقَلاءِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ [فاطر: ١٣] إلى قَولِه: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ على تَنْزيلِ الأصْنامِ

(١) فحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَوْلَى، وهو نوعان: تَنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنهي عن قولِ أفٍّ على النهيِ عن الشَّتمِ والضربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

مَنزِلةَ العُقَلاءِ؛ مُجاراةً للمَرْدودِ عليهم على طَريقةِ التَّهكُّمِ(١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تَذْييلٌ لِتَحقيقِ هذه الأخْبارِ بأنَّ المُخبِرَ بها هو الخَبيرُ بها وبغَيرِها، ولا يُخبِرُكَ أحَدٌ مِثلَ ما يُخبِرُكَ هو(٢).

- وعبَّرَ بفِعلِ الإنْباءِ؛ لأنَّ النَّبَأَ هو الخَبَرُ عن حَدَثٍ خَطيرٍ مُهِمٍّ(٣).

- قَولُه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ لَمَّا كان التَّقْديرُ: قدْ أنْبأَكم بذلك الخَبيرُ، وكانوا لا يُقِرُّونَ بذلك، ولا يَفهَمونَه حَقَّ فَهمِه، ولا يَعمَلونَ به؛ صُرِفَ الخِطابُ عنهم إلى مَن له الفَهمُ التَّامُّ، والطاعةُ الكامِلةُ، فقال عاطِفًا على هذا الذي هَدَى إلى تَقْديرِه السِّياقُ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ ...﴾(٤)، وهذا على القَولِ بأنَّ الخِطابَ فيه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وقيل: إنَّ الخِطابَ فيه لكُلِّ مَن يَصِحُّ منه سَماعُ هذا الكَلامِ؛ لأنَّ هذه الجُمْلةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمْثالِ، فلمَّا أُرسِلَ هذا القَولُ مَثَلًا، وكان شَأنُ الأمْثالِ أنْ تكونَ مُوجَزةً صِيغَ على أُسلوبِ الإيجازِ؛ فحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ ومُتعلَّقُ وَصْفِ ﴿خَبِيرٍ﴾، ولم يُذكَرْ وَجهُ المُماثَلةِ؛ لعِلْمِه من المَقامِ(٥).

- وجُعِلَ ﴿خَبِيرٍ﴾ نَكِرةً مع أنَّ المُرادَ به خَبيرٌ مُعَيَّنٌ، وهو المُتكلِّمُ فكان حقُّهُ التَّعريفَ؛ فعُدِلَ إلى تَنْكيرِهِ لقَصدِ التَّعْميمِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لأنَّ إضافةَ كَلِمةِ (مِثْلُ) إلى (خَبيرٌ) لا تُفيدُه تَعريفًا. وجُعِلَ نَفيُ فِعلِ الإنْباءِ كِنايةً عن نَفيِ المُنبِئِ. ولعلَّ التَّركيبَ: (ولا يُوجَدُ أحَدٌ يُنَبِّئُكَ بهذا الخَبَرِ يُماثِلُ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

الخَبيرَ الذي أنْبَأَكَ به)، فإذا أردَفَ مُخبِرٌ خَبَرَه بهذا المَثَلِ كان ذلك كِنايةً عن كَونِ المُخْبِرِ بالخَبَرِ المَخْصوصِ يُريدُ بـ (خَبيرٌ) نفسَه للتَّلازُمِ بيْنَ مَعْنى هذا المَثَلِ وبيْنَ تَمثُّلِ المُتكلِّمِ منه؛ فالمَعْنى: ولا يُنبِّئُكَ بهذا الخَبَرِ مِثْلي؛ لأنِّي خَبَرتُه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

الآيات (١٥-١٨)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: أي: لا تحمِلُ آثِمةٌ إثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْلُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثم، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقلِ في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وِزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه[1].

﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾: أي: نفسٌ أثْقَلَتْها الذُّنوبُ والأوزارُ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[2].

﴿ تُنذِرُ ﴾: أي: تُعلِمُ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ[3].

﴿ يَخْشَوْنَ ﴾: أي: يَخافونَ، وأصلُ الخَشْيَةِ: خوفٌ يَشوبُه تعظيمٌ، وأكثَرَ ما

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

يكونُ ذلِك عنْ عِلمٍ بما يُخشَى منه. وقيل: الخَشيةُ أشدُّ مِن الخَوْفِ[١].

﴿تَـزَكَّىٰ﴾: أي: تَطهَّرَ مِن الشِّركِ والفَواحِشِ، وأصْلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى عِبادَه مُنبِّهًا على فَقرِهم إليه، وغِناه عنهم، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ أنتم الفُقَراءُ إلى اللهِ، واللهُ وَحْدَه هو الغَنيُّ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، إنْ شاءَ اللهُ أهلَكَكم -أيُّها النَّاسُ- وأتَى بخَلقٍ غيرِكم، وليس ذلك على اللهِ بمُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه تعالَى.

ثُمَّ يقولُ تعالَى: ولا تَحمِلُ نَفسٌ آثمةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكلُّ إنسانٍ مُجازًى بعَمَلِه، وإنْ تَدْعُ يومَ القِيامةِ نَفسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، لا تُجَبْ، ولا يَحمِلْ أحدٌ عنها شَيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قَريبًا للسَّائِلِ!

ثُمَّ يقولُ تعالَى: إنَّما تُنذِرُ -يا مُحمَّدُ- الذين يَخشَونَ رَبَّهم بالغَيبِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ تامَّةً كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دُونَ غَيرِهم.

ثُمَّ يَحُضُّ سُبحانَه على تَزكيةِ النُّفوسِ وتَطهيرِها، فيقولُ: ومَن تزكَّى فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك عليه، وإلى اللهِ وَحْدَه المرجِعُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أَشبَعَ المقامَ أدِلَّةً ومَواعِظَ وتذكيراتٍ ممَّا فيه مَقنَعٌ لِمن نَصَب نفْسَه مَنصِبَ الانتِفاعِ والاقتِناعِ، ولم يظهَرْ معَ ذلك كُلِّه مِن أحوالِ القَومِ ما يُتوسَّمُ منه نزعُهم عن ضلالِهم، وربَّما أحدَث ذلك في نُفوسِ أهْلِ العِزَّةِ منهم إعجابًا بأنفُسِهم، واغترارًا بأنَّهم مَرغوبٌ في انضمامِهم إلى جَماعةِ المُسلِمينَ؛ فيَزيدُهم ذلك الغُرورُ قَبولًا لتَسويلِ مكائدِ الشَّيطانِ لهم أنْ يَعتَصِموا بشِركِهم- ناسَب أن يُنبِّئَهم اللهُ بأنَّه غنيٌّ عنهم[١].

وأيضًا لَمَّا اختصَّ اللهُ سُبحانَه بالمُلكِ، ونفَى عن شُرَكائِهم النَّفعَ؛ أنتَجَ ذلك قَولَه[٢]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ[٣] أنتُم المحتاجُونَ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، واللهُ وَحدَه هو الغَنيُّ غِنًى مُطلَقًا مِن جَميعِ الوُجوهِ عن جَميعِ خَلقِه، وعن عِبادتِهم؛ فلا يفتَقِرُ إلى شَيءٍ سُبحانَه، ومِن غناه أنَّه يُغني الخَلقَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، وأقوالِه وشَرعِه وقَدَرِه، المحمودُ على نِعَمِه، وإحسانِه بخَلقِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠).

(٣) قال السعديُّ: (يُخاطبُ تعالَى جميعَ الناسِ، ويُخبرُهم بحالِهم ووصفِهم، وأنَّهم فقراءُ إلى الله من جميعِ الوجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هم المشركونَ كما هو غالبُ اصطلاحِ القرآنِ، وهم المخاطبونَ بقولِه آنفًا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [فاطر: ١٣] الآياتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه الغنيُّ على الإطلاقِ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ على استِغنائِه عن

= كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣-١٣٤).

قال السعديُّ: (وهو الحَميدُ في غِناه، الغنيُّ في حَمْدِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (فهو غنيٌّ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه يجودُ به على غيرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِلٍ، كـ: سَميع وبَصير، وعَليم وقَدير، وعَليٍّ وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

لكنْ قال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسم المفعول؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحين، والثناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما له من كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له من كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (اسمُه الحَميدُ صالحٌ لمعنى المحمودِ، فيكونُ فعيلًا بمعنى مفعولٍ، وصالحٌ لمعنى كثيرِ الحَمدِ، فيكونُ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ يُثيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثوابًا جزيلًا، ويُثني على فاعِلِه ثناءً جميلًا؛ فكان بذلك كثيرَ الحَمدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٧).

العالَم، وأنَّه ليس بمُحتاجٍ إليهم، فقال[1]:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لو شاءَ اللهُ لأفْناكم وأهْلَكَكُم -أيُّها النَّاسُ- إنْ عَصيْتُموه، وأتى بخَلقٍ غَيرِكم يُطِيعونَه[2].

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وليسَ ذلِك على اللهِ بمُتعَذِّرٍ ولا مُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه[3].

كما قال تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما قبْلَ هذه الآيةِ مَسوقًا في غَرَضِ التَّهْديدِ، وكان الخِطابُ للنَّاسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).
قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المرادَ: إن يشأْ يُذهبْكم أيُّها الناسُ ويأتِ بغيرِكم مِن الناسِ، أطوعَ للَّه منكم، ويكونُ في هذا تهديدٌ لهم بالهلاكِ والإبادةِ، وأنَّ مشيئتَه غيرُ قاصرةٍ عن ذلك.
ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بذلك إثباتُ البعثِ والنُّشورِ، وأنَّ مشيئةَ اللَّه تعالى نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، وفي إعادتِكم بعدَ موتِكم خلقًا جديدًا، ولكن لذلك الوقتِ أجلٌ قدَّره اللَّه، لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ).
((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٩-١٤٠).

أُريدَتْ طَمْأنةُ المُسلِمينَ من عَواقِبِ التَّهْديدِ؛ فعُقِّبَ بأنَّ مَن لم يَأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جَزاءُ الوازِرِ في الآخِرة، فقال(١):

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنبَ غيرِه(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

أي: وإنْ تَستَغِثْ يومَ القيامةِ نَفْسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ، وتَطلُبْ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، أو يُساعِدُها في حَملِ بَعضِها: فلنْ يَحمِلَ أحَدٌ ذلك ولو شيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قريبًا للسَّائِلِ(٣).

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٤-١٤٥).

أي: إنَّما تُنذِرُ -يا محمَّدُ- إنذارًا نافِعًا مُؤثِّرًا، الذين يَخافونَ رَبَّهم مع كَونِهم لا يَرَونَه في الدُّنيا، ويَخافونَه في خَلَواتِهم غيرَ مُرائينَ أحدًا، وأدَّوُا الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ، كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دونَ غَيرِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾.

أي: ومَن تَطَهَّرَ مِن دَنسِ الكُفرِ والذُّنوبِ، بالإيمانِ باللهِ والتوبةِ إليه، واستَكثَرَ مِن العَمَلِ الصَّالحِ؛ فإنَّما يَعودُ نَفعُ ذلك وثمرتُه على نَفْسِه(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٧-١٥٠).
قولُه: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حالٌ مِن المفعول به، أي: يخشون ربَّهم حالَ كونِه غائبًا عنهم لم يَرَوْه، أو يكون الجارُّ والمجرور حالًا من الفاعِلِ، أي: حال كونِهم غائبين عن الناس. وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الآية يُمكن حمْلُها على المعنيَينِ؛ لأنَّهما لا يَتنافيانِ، وهذا مِن بلاغة القرآن. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٨).
قال الشوكانيُّ: (ومعنى ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أنَّهم يَخشونَه حالَ كونِهم غائبين عن عذابِه، أو يخشَوْن عذابَه وهو غائبٌ عنهم، أو يَخشونَه في الخَلواتِ عن الناسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).
وقيل: معنى التزكِّي هاهنا هو العَمَلُ الصَّالحُ. واختاره الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢).
وقال السعديُّ: (﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾، أي: ومَن زكَّى نفْسَه بالتنقِّي من العُيوبِ =

كما قال تعالَى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه المَرجِعُ والمآلُ والمُنقَلَبُ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ قَرَّرَ اللهُ تعالَى هذه الحالَ الثَّابتةَ التي لا تَنفَكُّ عن الإنسانِ، وهي الفَقرُ إلى اللهِ؛ مِن أجْلِ أنْ يَعمَلَ بمُقتَضى هذه الحالِ، فيَلجَأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَسأَلَ إلَّا اللهَ[2]؛ فالنَّاسُ فُقَراءُ إلى اللهِ من جميعِ الوُجوهِ:

فُقراءُ في إيجادِهم؛ فلولا إيجادُه إيَّاهم لم يُوجَدوا.

فُقَراءُ في إعدادِهم بالقُوَى والأعضاءِ والجَوارِحِ التي لولا إعدادُه إيَّاهم [بها]

= -كالرِّياءِ والكِبرِ، والكَذِبِ والغِشِّ، والمكرِ والخِداعِ، والنِّفاقِ ونحوِ ذلك مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ- وتحلَّى بالأخلاقِ الجَميلةِ -مِن الصِّدقِ والإخلاصِ، والتواضُعِ ولِينِ الجانِبِ، والنُّصحِ للعِبادِ، وسلامةِ الصَّدرِ مِن الحِقدِ والحَسدِ وغيرِهما مِن مَساوئِ الأخلاقِ-: فإنَّ تزكيتَه يَعودُ نَفعُها إليه، ويَصِلُ مَقصودُها إليه، ليس يَضيعُ مِن عمَلِه شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

قال ابنُ جَرير: (قَولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، يَقولُ: وإلى اللهِ مَصيرُ كُلِّ عاملٍ منكم -أيُّها الناسُ-، مُؤمِنكم وكافِركم، وبَرِّكم وفاجِركم، وهو مُجازٍ جَميعَكم بما قَدَّمَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ على ما أُهِلَّ منه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦).

وقال ابنُ عُثَيمين: (إلى اللهِ المَصيرُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فمَرْجِعُ الأُمورِ كُلِّها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، سواءٌ كانتْ في الدُّنيا، أوِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٢).

لَمَا استعدُّوا لأيِّ عمَلٍ كان.

فُقَراءُ في إمْدادِهم بالأقواتِ والأرزاقِ والنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ فلولا فَضلُه وإحسانُه وتيسيرُه الأمورَ، لَما حصَل [لهم] من الرِّزقِ والنِّعَمِ شَيءٌ.

فُقَراءُ في صَرفِ النِّقَمِ عنهم، ودَفْعِ المكارِه، وإزالةِ الكُروبِ والشَّدائدِ؛ فلولا دفْعُه عنهم، وتفريجُه لكُرُباتِهم، وإزالتُه لِعُسرِهم؛ لاستمَرَّتْ عليهم المكارِهُ والشَّدائِدُ.

فُقَراءُ إليه في تَربيتِهم بأنواعِ التربيةِ، وأجناسِ التدبيرِ.

فُقَراءُ إليه في تألُّهِهم له، وحُبِّهم له، وتعبُّدِهم، وإخلاصِ العبادةِ له تعالى؛ فلو لم يوفِّقْهم لذلك لهلَكوا وفسَدَت أرواحُهم وقُلوبُهم وأحوالُهم.

فُقَراءُ إليه في تَعليمِهم ما لا يَعلمونَ، وعَمَلِهم بما يُصلِحُهم؛ فلولا تعليمُه لم يَتعلَّموا، ولولا توفيقُه لم يَصلُحوا.

فهُمْ فُقَراءُ بالذَّاتِ إليه بكُلِّ معنًى، وبكُلِّ اعتبارٍ؛ سواءٌ شَعَروا ببعضِ أنواعِ الفَقرِ أم لم يَشعُروا، ولكِنِ الموفَّقُ منهم الذي لا يَزالُ يُشاهِدُ فَقرَه في كُلِّ حالٍ مِن أمورِ دِينِه ودُنياه، ويَتضَرَّعُ له، ويسألُه ألَّا يَكِلَه إلى نفْسِه طَرفةَ عَينٍ، وأنْ يُعينَه على جَميعِ أمورِه، ويَستصحِبَ هذا المعنى في كُلِّ وقتٍ؛ فهذا أحرَى بالإعانةِ التامَّةِ مِن رَبِّه وإلهِه الذي هو أرحَمُ به مِن الوالدةِ بوَلَدِها[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه إعلامٌ بأنَّه لا افتِقارَ إلَّا إليه تعالَى، ولا اتِّكالَ إلَّا عليه، وهذا يُوجِبُ عِبادتَه؛ لِكَونِه مُفتَقَرًا إليه، وعدَمَ عِبادةِ غَيرِه؛ لعدَمِ الافتِقارِ إلى غَيرِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٠).

٣- قال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الحَميدُ هو الَّذي له مِن الصِّفاتِ وأسبابِ الحَمدِ ما يَقتضي أنْ يكونَ مَحمودًا وإنْ لم يَحمَدْه غيرُه؛ فهو حَميدٌ في نفْسِه، والمحمودُ مَن تَعلَّقَ به حمْدُ الحامِدينَ، والحمْدُ يَستلزِمُ الثَّناءَ والمحبَّةَ للمحمودِ؛ فمَن أحبَبْتَه ولم تُثنِ عليه لم تكُنْ حامِدًا له حتَّى تكونَ مُثنِيًا عليه مُحِبًّا له، وهذا الثَّناءُ والحُبُّ تبَعٌ للأسبابِ المقتضيةِ له، وهو ما عليه المحمودُ مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونُعوتِ الجَلالِ، والإحسانِ إلى الغَيرِ؛ فإنَّ هذه هي أسبابُ المحبَّةِ، وكلَّما كانتْ هذه الصِّفاتُ أجمَعَ وأكمَلَ، كان الحمْدُ والحُبُّ أتمَّ وأعظَمَ. واللهُ سُبحانَه له الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا نقْصَ فيه بوجهٍ ما، والإحسانُ كلُّه له ومِنه؛ فهو أحَقُّ بكُلِّ حمْدٍ، وبكُلِّ حُبٍّ مِن كُلِّ جِهةٍ؛ فهو أهلٌ أنْ يُحَبَّ لذاتِه ولِصِفاتِه، ولأفْعالِه ولأسمائِه، ولإحسانِه، ولكُلِّ ما صدَرَ منه سُبحانَه وتعالَى[(١)].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالذين يَقبَلونَ النِّذارةَ ويَنتَفِعونَ بها: أهلُ الخَشيةِ للهِ بالغَيبِ، الذين يخشَونَه في حالِ السِّرِّ والعلانيةِ، والمشهَدِ والمَغيبِ؛ وأهلُ إقامةِ الصَّلاةِ بحُدودِها وشُروطِها، وأركانِها وواجباتِها، وخُشوعِها؛ لأنَّ الخَشيةَ للهِ تَستدعي مِن العَبدِ العَمَلَ بما يَخشَى مِن تَضييعِه العِقابَ، والهرَبَ ممَّا يَخشَى مِن ارتكابِه العذابَ، والصَّلاةُ تدْعو إلى الخيرِ، وتنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا تزَكَّى؛ فإنَّ نفْعَ تَزَكِّيه لنفْسِه، ولا يَنالُ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مِن ذلك شيءٌ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ: أنَّ أوامرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ليستْ مِن أجْلِ مَصلحةٍ تنالُه بامتثالِنا! ولكنْ مِن

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيِّم (ص: ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٧).

أجْلِ رَحمتِنا ومَصلحتِنا نحنُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] [الزمر: ٧].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ الحَثُّ على تزكيةِ النَّفسِ، وكلُّ إنسانٍ عاقلٍ إذا عَلِمَ أنَّ مَصلحةَ العَمَلِ تَعودُ إليه، فإنَّه سوف يَهتَمُّ به ويقومُ به، فإذا عَلِمتَ أنَّ تَزكِّيَك لنَفْسِكَ؛ حَرَصْتَ عليه غايةَ الحِرصِ، فتُزكِّي نفْسَك ظاهرًا وباطنًا؛ ظاهرًا بالأقوالِ والأفعالِ، وباطنًا بالقلوبِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه الفَقرَ إليه باسمِه (الله) دونَ اسمِ الرُّبوبيَّةِ؛ لِيُؤذِنَ بنَوعيِ الفَقرِ؛ فإنَّ الفَقرَ نوعانِ: فَقرٌ إلى رُبوبيَّتِه، وهو فَقرُ المخلوقاتِ بأسْرِها. وفَقرٌ إلى ألوهيَّتِه، وهو فَقرُ أنبيائِه ورُسُلِه وعِبادِه الصَّالحينَ، وهذا هو الفَقرُ النَّافِعُ[3].

٢- في قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أنَّ للهِ الغنَى المطلَقَ من جميعِ الوجوهِ، يُستفادُ هذا مِن قولِه تعالى: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بـ«أل» الدالةِ على العُمومِ والاستيعابِ[4].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أنَّ غِنى اللهِ سُبحانَه وتعالى مَقرونٌ بالحَمدِ، بخِلافِ غِنَى البَشَرِ؛ فإنَّه قد لا يكونُ محمودًا؛ إمَّا بالبُخلِ، وإمَّا بكَونِه يأتي بدونِ استِحقاقٍ، كالسُّرَّاقِ واللُّصوصِ؛ فقد يكونون أغنياءَ لكنِ اكتَسَبوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٤).

على غيرِ الوَجهِ المباحِ، أمَّا غِنَى اللهِ فهو غِنًى كامِلٌ يُحمَدُ عليه. إذَن: يُحمَدُ مِن جِهةِ الغِنَى، ومِن جهةِ الكَرَمِ بما هو غَنِيٌّ به[(١)].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ لَمَّا كان الغَنيُّ مِن الخَلقِ لا يَسَعُ غِناه مَن يَقصِدُه، وإنْ وَسِعَهم لم يسَعْهم عَطاؤُه؛ لخَوفِ الفَقرِ، أو لغيرِ ذلك من العَوارِضِ، ولا يُمكِنُه عُمومُ النِّعمةِ في شَيءٍ من الأشياءِ، فلا يَنفَعُك، وكان سُبحانَه قد أفاضَ نِعَمَه على خَلقِه، وأسبَغَها ظاهِرةً وباطِنةً، وجعَلَ لهم قُدرةً على تناوُلِها، لا يَعوقُ عنه إلَّا قُدرتُه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وكان لا يَنقُصُ ما عندَه- كان إعطاؤُه حَمدًا، ومَنعُه حَمدًا؛ لأنَّه لا يكونُ مانعًا لغَرَضٍ، بل لحِكمةٍ تَدِقُّ عن الأفكارِ، فقال: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾[(٢)].

٥- قال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بيَّن سُبحانَه في هذه الآيةِ أنَّ فَقرَ العِبادِ إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم لا ينفَكُّ عنهم، كما أنَّ كَونَه غنيًّا حميدًا أمْرٌ ذاتيٌّ له؛ فغِناه وحَمدُه ثابتٌ له؛ لِذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَه، وفَقرُ مَن سِواه إليه ثابتٌ؛ لِذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَه؛ فلا يُعلَّلُ هذا الفَقرُ بحُدوثٍ ولا إمكانٍ، بل هو ذاتيٌّ للفقيرِ؛ فحاجةُ العَبدِ إلى رَبِّه لِذاتِه لا لعِلَّةٍ أَوجبتْ تلك الحاجةَ، كما أنَّ غِنى الرَّبِّ سُبحانَه لذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَ غِناه؛ فالخَلقُ فقيرٌ مُحتاجٌ إلى رَبِّه بالذَّاتِ لا بعِلَّةٍ، وكُلُّ ما يُذكَرُ ويُقرَّرُ مِن أسبابِ الفَقرِ والحاجةِ فهي أدِلَّةٌ على الفَقرِ والحاجةِ لا عِلَلٌ لذلك؛ إذ ما بالذَّاتِ لا يُعلَّلُ، فالفقيرُ بذاتِه محتاجٌ إلى الغَنيِّ بذاتِه، فما يُذكَرُ مِن إمكانٍ وحُدوثٍ واحتياجٍ فهي أدلَّةٌ على الفَقرِ لا أسبابٌ له[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١-٣٢).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٨).

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ آثامَ غيرِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: ثُبوتُ كمالِ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لا يُحمِّلُ أحدًا وِزْرَ أحدٍ[(١)].

٧- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: يدُلُّ على أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وزرَ غَيرِه، وقد جاءتْ آيةٌ كريمةٌ أُخرَى تدُلُّ على أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ يَحمِلونَ أوزارَهم كامِلةً، ويَحمِلونَ أيضًا مِن أوزارِ الأتْباعِ الذين أضلُّوهم، وهي قولُه تعالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]!

والجوابُ: أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ ما حَمَلوا إلَّا أوزارَ أنفُسِهم؛ لأنَّهم تحمَّلوا وِزرَ الضَّلالِ ووِزرَ الإضلالِ؛ فمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها، لا يَنقُصُ ذلك من أوزارِهم شيئًا؛ لأنَّ تشريعَه لها لغيرِه ذَنبٌ من ذُنوبِه، فأُخِذَ به[(٢)].

فقولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيه نفْيُ أنْ يَحمِلَ أحَدٌ وِزرَ آخَرَ، لا مُشاركةَ له للحامِلِ على اقترافِ الوِزرِ، وأمَّا قولُه سُبحانَه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ فمَورِدُها في زُعَماءِ المُشرِكينَ الذين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٣٢).

وقَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ أيضًا لا يُعارِضُ قولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً فعليه وزرُها ووزرُ مَن عمِل بها بعدَه إلى يومِ القيامة)) [مسلم (١٠١٧)]؛ قال ابن عثيمين: (لأنَّ سنَّه إيَّاها يُعتبرُ وِزرًا؛ لأنَّه هو الذي شقَّ الطريقَ لها ومهَّد السبلَ، فلهذا كان عليه وزرُها ووزرُ مَن عمِل بها إلى يومِ القيامةِ، فالآيةُ لا تُنافي الحديثَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٤).

موَّهوا الضَّلالةَ، وثَبتوا عليها؛ فإنَّ أوَّلَ تلك الآيةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وكانوا يقولون ذلك لكُلِّ مَن يَستروِحونَ منه الإقبالَ على الإيمانِ بالأُخرى[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّ الخَشيةَ التي هي مَحَلُّ الثَّناءِ هي ما كانتْ خَشيةً في الغَيبِ؛ لأنَّ الخَشيةَ في الظَّاهِرِ قد يكونُ الحامِلُ عليها مُراعاةَ عِبادِ اللهِ، لكنْ إذا كانتْ بالغَيبِ فإنَّ هذا دليلٌ واضحٌ على أنَّ صاحِبَها مُخلِصٌ في خَشيتِه للهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فَضيلةُ الصلاةِ؛ وأنَّها سببٌ للانتفاعِ بإنذارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كالخَشيةِ[٣].

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ مُشيرًا بصيغةِ التفعُّلِ إلى أنَّ النَّفسَ أَميلُ شَيءٍ إلى الدَّنَسِ، فلا تنقادُ إلى أحسَنِ تقويمٍ إلَّا باجتهادٍ عَظيمٍ[٤].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أنَّ مَرجِعَ الخلائقِ إلى اللهِ في أحكامِهم الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ والجزائيَّةِ؛ أمَّا الأحكامُ الكونيَّةُ فظاهِرٌ أنَّ المَرجِعَ إلى اللهِ؛ لأنَّه لا أحَدَ يَستطيعُ أنْ يَرُدَّ قَضاءَ اللهِ الكَونيَّ، وأمَّا الشَّرعيَّةُ فكذلك؛ فإنَّ العِبادَ مَربوبونَ مُتعَبَّدونَ لله عزَّ وجلَّ، فكان مُقتضَى ذلك أنْ يَتمشَّوا على أحكامِه الشَّرعيَّةِ، وأمَّا الجزائيةُ فالأمرُ ظاهِرٌ؛ فإنَّه لا يُجازي العامِلينَ على عَمَلِهم إلَّا اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥).

سُبحانَه وتعالَى[١]. وذلك على قولٍ في معنى الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قبْلَ أنْ يُوجَّهَ إليهم الإعْلامُ بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عنهم وُجِّهَ إليهم إعْلامٌ بأنَّهم الفُقَراءُ إلى اللهِ؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ للذِّلَّةِ على عَظَمَتِهم من الشُّعورِ بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عنهم؛ فإنَّهم يُوقِنونَ بأنَّهم فُقَراءُ إلى اللهِ، ولكنَّهم لا يُوقِنونَ بالمَقصِدِ الذي يُفضي إليه عِلمُهم بذلك؛ فأُريدَ إبْلاغُ ذلك إليهم لا على وَجهِ الاستِدْلالِ، ولكِنْ على وَجهِ قَرْعِ أسْماعِهم بما لم تَكُنْ تُقرَعُ به من قبْلُ؛ عسَى أنْ يَسْتَفيقوا من غَفْلَتِهم، ويَتكَعْكَعوا [أي: يرْتَدِعوا] عن غُرورِ أنفُسِهم، على أنَّهم لا يَخْلو جَمعُهم من أصْحابِ عُقولٍ صالِحةٍ للوُصولِ إلى حَقائِقِ الحقِّ، فأولئك إذا قُرِعَتْ أسْماعُهم بما لم يَكونوا يَسْمَعونَه من قبْلُ، ازْدادوا يَقينًا بمُشاهَدةِ ما كان مَحْجوبًا عن بَصائِرِهم بأسْتارِ الاشتِغالِ بفِتْنةِ ضَلالِهم، عَسَى أنْ يُؤمِنَ مَن هيَّأَه اللهُ بفِطْرتِه للإيمانِ، فمَن بَقِيَ على كُفرِه كان بَقاؤُه مَشوبًا بحَيرةٍ ومُرِّ طَعمِ الحياةِ عِندَه، فأين ما كانتْ تتلقَّاهُ مَسامِعُهم من قِبَلِ تَمْجيدِهم، وتَمْجيدِ آبائِهم، وتَمْجيدِ آلهتِهم، ألَا ترى أنَّهم لَمَّا عاتَبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بعضِ مُراجَعَتِهم عَدُّوا عليه شَتْمَ آبائِهم؛ فحَصَلَ بهذه الآيةِ فائدَتانِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ تُفيدُ القَصرَ لِتَعريفِ جُزْأَيْها، أي: قَصرَ صِفةِ الفَقرِ على النَّاسِ المُخاطَبينَ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسبةِ إلى اللهِ، أي: أنتُم المُفتَقِرونَ إليه، وليس هو بمُفتَقِرٍ إليكم، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[٣]. وقيلَ: أوقَعَ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ خَبَرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

لـ ﴿أَنتُمُ﴾، وهو مُحلًّى بلَامِ الجنسِ، وهو يُفيدُ الاختِصاصَ، وأنَّ غيرَهم من المَخْلوقاتِ ليس كذلك، وليسَ كذلك؛ لأنَّ الخَلائقَ كلَّهم مُفتَقِرونَ إليه، لكنْ سُلِكَ فيه المُبالَغةُ، وأنَّ افتِقارَ غَيرِهم بالنِّسبةِ إلى افتِقارِهم كَلا افتِقارٍ[1].

- وفي قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عرَّف الفُقَراءَ؛ لِيُريَهم شديدَ افتقارِهم إليه؛ إذ هم جِنسُ الفُقَراءِ، وإن كان العالَمُ بأسره مُفتَقِرًا إليه؛ فلِضَعفِهم جُعِلوا كأنَّهم جميعُ هذا الجِنسِ[2]؛ فـ ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ بالألِفِ واللامِ معناها أنَّنا في جَميعِ أحوالِنا كلِّها مُفتَقِرونَ إلى ربِّنا سُبحانَه وتعالَى[3].

- وإتْباعُ صِفةِ ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ بـ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ تَكميلٌ؛ فهو احْتِراسٌ لِدَفْعِ تَوهُّمِهم أنَّه لَمَّا كان غَنيًّا عن استجابَتِهم وعِبادَتِهم؛ فهُم مَعْذورونَ في ألَّا يَعبُدوهُ، فنُبِّهَ على أنَّه مَوْصوفٌ بالحَمدِ لِمَن عَبَدَه واستَجابَ لِدَعْوته، كما وَقَع ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ في مُقابَلةِ قَولِه: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قُيِّدَ فَقرُهم بالكَونِ إلى اللهِ، قُيِّدَ غِنى اللهِ تعالَى بوَصْفِ الحَميدِ؛ لإفادةِ أنَّ غِناهُ تعالَى مُقتَرِنٌ بجُودِه، فهو يَحمَدُ مَن يَتوجَّهُ إليه. وقيل: ذكَرَ (الحميد)؛ لِيَدُلَّ به على أنَّه الغنيُّ النَّافعُ بغِناه خَلْقَه، الجَوادُ المنعِمُ عليهم، المُستَحِقُّ بإنعامِه أنْ يَحمَدوه[4].

= وتقدم تعريف القصر بأنواعه (ص: ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٠- ٦٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ واقعٌ مَوقِعَ البَيانِ لِمَا تَضمَّنَتْه جُمْلةُ: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] من مَعْنى قِلَّةِ الاكتِراثِ بإعْراضِهم عنِ الإسْلامِ، ومِن مَعْنى رِضاهُ على مَن يَعبُدُه؛ فهو تعالَى -لغِناهُ عنهم وغَضَبِه عليهم- لو شاءَ لأبادَهم، وأتى بخَلْقٍ آخَرينَ يَعبُدونَه، فخَلَصَ العالَمُ مِن عُصاةِ أمْرِ اللهِ، وذلك في قُدْرتِه، ولكنَّه أمْهَلَهم إعْمالًا لصِفةِ الحِلْمِ[(١)]، وهذا على أنَّ الخِطابَ للمشركينَ.

- ومَفْعولُ فِعلِ المَشيئةِ في قولِه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مَحْذوفٌ؛ استِغناءً بما دلَّ عليه جَوابُ الشَّرطِ، وهو يُذْهِبْكُمْ، أي: إنْ يَشَأْ إذْهابَكم[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ زِيادةٌ في الإرْهابِ والتَّهديدِ؛ ليكونوا مُتوقِّعينَ حُلولَ التَّبديلِ بهم[(٣)].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَعقيبٌ لِمَا سبَق -حيثُ سِيقَ بغَرَضِ التَّهديدِ- بطَمأنةِ المسلمينَ بأنَّ مَن لم يَأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جَزاءُ الوازِرِ في الآخِرةِ، وقد يكونُ وَعدًا بالإنجاءِ من عَذابِ الدُّنيا إذا نَزَل بالمُهدَّدينَ الإذْهابُ والإهْلاكُ، مِثلَما أَهْلَكَ فَريقَ الكُفَّارِ يومَ بَدْرٍ، وأَنْجى فَريقَ المُؤمنينَ، فيكونُ هذا وَعدًا خاصًّا؛ فمَوقِعُ قَولِه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كمَوقِعِ قَولِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ ولهذا فإنَّه تَأمينٌ للمُسلِمينَ من الاستِئْصالِ كقَولِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] بقَرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وهو تَأمينٌ من تَعْميمِ العِقابِ في الآخِرةِ بطَريقِ الأَوْلى. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى يَومَ القِيامةِ، أي: إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ جميعًا، ولا يُعذِّبُ المُؤمِنينَ في الآخِرةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ جَرَى وَصْفُ الوازِرةِ على التَّأْنيثِ؛ لأنَّه أُريدَ به النَّفْسُ، ووَجهُ اخْتيارِ الإسْنادِ إلى المُؤنَّثِ بتَأْويلِ النَّفْسِ دون أنْ يَجريَ الإضْمارُ على التَّذْكيرِ بتَأْويلِ الشَّخْصِ؛ لأنَّ مَعْنى النَّفْسِ هو المُتبادَرُ للأذْهانِ عِندَ ذِكرِ الاكتِسابِ، كما في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وغيرِ ذلك من الآياتِ[٢].

- وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: (ولا تزِرُ نَفسٌ وِزرَ أُخرى)؛ لأنَّه لو قال (ولا تزِرُ نفسٌ وِزرَ أُخرى) لَمَا عُلِمَ أنَّ كُلَّ نَفْسٍ وازِرةٌ مَهمومةٌ بهَمِّ وِزرِها، متحيِّرةٌ في أمرِها. ولم يجمَعْ بين الموصوفِ والصِّفةِ، فلم يَقُلْ: (ولا تَزِرُ نَفسٌ وازِرةٌ وِزرَ أُخرى)، فترَكَ ذِكرَ الموصوفِ؛ لِظُهورِ الصِّفةِ، ولُزومِها للمَوصوفِ[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ حُذِف مَفْعولُ ﴿تَدۡعُ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ؛ ليَعُمَّ ويَشمَلَ كُلَّ مَدعوٍّ، والتَّقديرُ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٧ - ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣١).

وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ أيَّ مَدْعُوٍّ. وجُعِل الدُّعاءُ إلى الحِمْلِ؛ لأنَّ الحِمْلَ سَبَبُ الدُّعاءِ وعِلَّتُه، فالتَّقْديرُ: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ أحَدًا إليها لأجْلِ أنْ يَحمِلَ عنها حِمْلَها؛ فحُذِف أحَدُ مُتعلَّقَي الفِعْلِ المَجْرورِ باللَّامِ لِدَلالةِ الفعلِ ومُتعلَّقِه المَذْكورِ على المَحْذوفِ. وهذا إشارةٌ إلى ما سيَكونُ في الآخِرةِ، أي: لو استَصْرخَتْ نَفْسٌ مَن يَحمِلُ عنها شَيئًا مِن أوْزارِها -كما كانوا يَزعُمونَ أنَّ أصْنامَهُم تَشفَعُ لهم أو لغَيرِهم- لا تَجِدُ مَن يُجيبُها لذلك[١].

- وقَولُه: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ أفادَ العُمومَ والمُبالَغةَ، ووَجهُ المُبالَغةِ مِن (لو) الوَصليَّةِ: أنَّ ذا القُرْبى أرَقُّ وأشفَقُ على قَريبِه، فقد يُظَنُّ أنَّه يُغني عنه في الآخِرةِ بأنْ يُقاسِمَه الثِّقَلَ الذي يُؤدِّي به إلى العَذابِ؛ فيَخِفَّ عنه العَذابُ بالاقتِسامِ؛ فكان هذا إبْطالًا لاعتِقادِ الغَناءِ الذَّاتيِّ بالتَّضامُنِ والتَّحامُلِ، فقد كان المُشرِكونَ يَقيسونَ أُمورَ الآخِرةِ على أُمورِ الدُّنيا، فيُعلِّلونَ أنفُسَهم إذا هُدِّدوا بالبَعْثِ بأنَّه إنْ صحَّ، فإنَّ لهم يَومَئذٍ شُفَعاءَ وأنْصارًا[٢].

- قولُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ مَسوقٌ لِبَيانِ مَن يتَّعِظُ بما ذُكِر؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُرُ في نَفسِه التَّعجُّبُ من عَدَمِ تأثُّرِ أكثَرِ المُشرِكينَ بإنْذارِه؛ فأُجيبَ بأنَّ إنْذارَه يَنتفِعُ به المُؤمِنونَ ومَن تَهيَّؤوا للإيمانِ[٣].

- وإيرادُ هذه الآيةِ عَقِبَ التي قَبلَها يُؤكِّدُ أنَّ المَقصِدَ الأوَّلَ مِن التي قبْلَها مَوعِظةُ المُشرِكينَ وتَخويفُهم، وإبلاغُ الحَقيقةِ إليهم؛ لاقتِلاعِ مَزاعِمِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٠).

وأوْهامِهم في أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فأقبَلَ اللهُ على رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطابِ؛ لِيَشعُرَ بأنَّ تلك المَواعِظَ لم تُجْدِ فيهم، وأنَّها إنَّما يَنتفِعُ بها المُسلِمونَ، وهو أيضًا يُؤكِّدُ ما في الآيةِ الأُولى مِن التَّعْريضِ بتَأْمينِ المُسلِمينَ بما اقْتَضاهُ عُمومُ الإنْذارِ والوَعيدِ[١].

- قولُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ...﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ؛ فإنَّ تَعلُّقَ الفِعلِ المَقْصورِ عليه بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ تعلُّقٌ على مَعْنى حُصولِ أثَرِ الفعلِ. وهو قَصرُ قَلْبٍ؛ لأنَّ المَقْصودَ التَّنبيهُ على ألَّا يظُنَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ انتِفاعَ الذين لا يُؤمِنونَ بنِذارته[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لَمَّا كانتْ هاتانِ الصِّفتانِ -خَشيةُ الربِّ بالغيبِ، وإقامةُ الصَّلاةِ- مِن خَصائِصِ المُسلِمينَ صارَ المَعْنى: إنَّما تُنذِرُ المُؤمِنينَ؛ فعَدَلَ عن استِحْضارِهم بأشهَرِ ألْقابِهم معَ ما فيه مِن الإيجازِ إلى استِحْضارِهم بصِلَتَينِ معَ ما فيهما مِن الإطْنابِ، تَذرُّعًا بذِكرِ هاتَينِ الصِّلَتينِ إلى الثَّناءِ عليهم بإخْلاصِ الإيمانِ في الاعتِقادِ والعَمَلِ[٣].

- واختِلافُ الفِعْلينِ: ﴿يَخْشَوْنَ﴾ ﴿وَأَقَامُواْ﴾ -حيثُ جاء أحدُهما مُضارِعًا والآخَرُ ماضيًا-؛ للدَّلالةِ على استِمرارِهم على ذلك في جَميعِ الأزمنةِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ تَذْييلٌ جارٍ مَجْرى المَثَلِ، وذِكرُ التَّذْييلِ عَقِبَ المُذيَّلِ يُؤذِنُ بأنَّ ما تَضمَّنَه المُذيَّلُ داخِلٌ في التَّذْييلِ بادِئَ ذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩٠ - ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((التفسير المظهري)) (٨/ ٥٢).

بَدءٍ، مِثلُ دُخولِ سَببِ العامِّ في عُمومِهِ من أوَّلِ وَهْلةٍ دون أنْ يُخَصَّ العامُّ به، والمَعْنى: إنَّ الذين خَشَوْا ربَّهُم بالغَيبِ وأقاموا الصَّلاةَ هُمْ مِمَّن تَزَكَّى، فانْتَفَعوا بتَزْكِيَتِهم[١].

- والمَقْصودُ من القَصْرِ في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ قَبولَهُم النِّذارةَ كان لِفائِدةِ أنفُسِهم؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّ الذين لم يَعبَؤوا بنِذارتِهِ تَركوا تَزْكيةَ أنفُسِهم بها، فكان تَرْكُهم ضُرًّا على أنفُسِهم[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَكميلٌ للتَّذْييلِ، والتَّعْريفُ في المَصيرِ للجِنْسِ، أي: المصيرُ كُلُّه إلى اللهِ، سواءٌ فيه مَصيرُ المُتزَكِّي ومَصيرُ غَيرِ المُتزَكِّي، وكُلٌّ يُجازى بما يُناسِبُه[٣].

- وتَقديمُ المَجْرورِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، وللتَّنبيهِ على أنَّه مَصيرٌ إلى مَن اقْتَضَى اسْمُه الجَليلُ الصِّفاتِ المُناسِبةَ؛ لإقامةِ العَدلِ، وإفاضةِ الفَضْلِ، مع رِعايةِ الفاصِلةِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩١ - ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩٢).

الآيات (١٩-٢٦)

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ
(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢)
إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)
وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿الْحَرُورُ﴾: أي: الرِّيحُ الحارَّةُ، والنَّارُ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ البَردِ والظِّلِّ[١].

﴿خَلَا﴾: أي: سلَفَ ومضَى، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعرِّي الشيءِ مِن الشيءِ[٢].

﴿وَبِالزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جمْعُ زَبورٍ، وهو: كُلُّ كِتابٍ ذي حِكمةٍ، وأصلُه يدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ[٣].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٥٨)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الفَرْقَ الكَبيرَ بيْنَ المُؤمِنِ والكافِرِ، وبيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وبيْنَ العِلمِ والجَهلِ؛ فالأضدادُ لا تَتساوَى، فيقولُ: ولا يَستوي الأعمى والبَصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، ولا تَستوي الظُّلُماتُ والنُّورُ، ولا يَستوي الظِّلُّ ولا حَرُّ الشَّمسِ، ولا يَستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ، إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه، وما أنتَ -يا محمَّدُ- بمُسمِعٍ الأمواتَ في قُبورِهم؛ ما أنت إلَّا نذيرٌ.

ثم يقول تعالى: إنَّا أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالحَقِّ بَشيرًا لِمَن أطاعَك، ونذيرًا لِمَن عصاك، وما مِن أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وإنْ يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فقدْ كذَّبَ الذين مِن قَبلِهم رُسُلَهم، وقد جاؤُوهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ وبالكِتابِ المنيرِ، ثمَّ أهلَكْتُ الذين كَفَروا، فكيف كان إنكاري وعِقابي؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالَى الهُدى والضَّلالةَ، ولم يَهتَدِ الكافِرُ، وهَدَى اللهُ المؤمِنَ؛ ضَرَب لهم مَثَلًا بالبَصيرِ والأعمَى؛ فالمؤمِنُ بصيرٌ حيثُ أبصَرَ الطَّريقَ الواضِحَ، والكافِرُ أعمَى[١].

وأيضًا بَعدَ أنْ بيَّنَ قِلَّةَ نَفعِ النِّذارةِ للكافِرينَ، وأنَّها لا يَنتفِعُ بها غَيرُ المُؤمِنينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢).

ضرَبَ للفَريقَينِ أمثالًا كاشِفةً عن اختِلافِ حالَيْهما، فقال[١]:

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩﴾.

أي: ولا يَستوي الأعمَى والبصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، وكذا لا يَستوي الكافِرُ والمؤمِنُ، والجاهلُ والعالمُ[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٦).

قيل: المرادُ: الكافر والمؤمن، وممن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، وابن الجوزي، والرازي، والرسعني، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٧).

وقيل: المرادُ بالأعمَى: الجاهِلُ، وبالبصيرِ: العالِمُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن القيِّم. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٩).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ والجاهلُ والعالمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا مَثَلٌ حِسِّيٌّ يجب أن نَنتقِلَ منه إلى المثَلِ المعنويِّ، وأمَّا قولُ المفَسِّر [أي جلال الدِّين المحلِّي] رحمه الله: «الكافِرُ والمؤمِنُ» ففيه نظر، يعني: كأنَّه يريدُ أن يقولَ: إنَّ الأعمَى هو الكافِرُ، والبصيرَ هو المؤمِنُ، ولكِنَّنا نقولُ: لا. الآيةُ يُراد بها نفيُ المساواةِ في الأمورِ الحِسِّيَّةِ الظَّاهرةِ التي لا يُنكِرُها أحدٌ؛ إذ إنَّ الكافرَ والزِّنديقَ، والمعانِدَ والمستكبِرَ لا يُمكنُ أنْ يَدَّعُوا تَساوي الأعمَى والبَصيرِ، لكن قدْ يدَّعُون تَساويَ المؤمِنِ والكافِرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٦).

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾.

أي: ولا تَستوي الظُّلُماتُ معَ النُّورِ، وكذا لا تَستوي ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ(١).

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾.

أي: ولا يَستوي الظِّلُّ ولا شِدةُ الحَرِّ، وكذا لا تَستوي الجَنَّةُ والنارُ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وممَّن قال بأنَّ الظُّلُماتِ هنا هي الكُفرُ، والنُّورَ هو الإيمانُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن جزي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (... الظَّاهِرُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى أراد الظُّلماتِ الحِسِّيَّةَ، والنورَ الحِسِّيَّ؛ لأنَّ نفيَ الاستواءِ بيْن هذين أمرٌ لا يمكِنُ إنكارُه؛ لأنَّه مُدرَكٌ بالحِسِّ، ولكِنْ لا شكَّ أنَّ المرادَ بذلك ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ، يعني: أنَّها إشارةٌ إلى ذلك؛ ولذلك جمَعَ الظُّلماتِ وأفرد النُّورَ؛ لأنَّ سُبُلَ الكفرِ كثيرةٌ، وأمَّا الإيمانُ فسبيلُه واحِدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧-٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال ابنُ جُزي: (والحَرورُ في اللُّغةِ: شِدةُ الحرِّ بالنَّهارِ واللَّيلِ، والسَّمومُ بالنَّهارِ خاصَّةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤).

وممَّن اختار أنَّ معنى الكلام: لا تَستوي الجنةُ والنارُ: الفرَّاءُ، والواحديُّ، والسَّمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّه شبَّه الكُفرَ بالحَرور، وشبَّه الإيمانَ بالظِّلِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

=

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها مَثَلٌ آخَرُ في حَقِّ المؤمِنِ والكافِرِ، كأنَّه قال تعالى: حالُ المؤمِنِ والكافِرِ فوقَ حالِ الأعمَى والبَصيرِ؛ فإنَّ الأعمَى يُشارِكُ البَصيرَ في إدراكٍ ما، والكافِرَ غيرُ مُدرِكٍ إدراكًا نافِعًا، فهو كالمَيِّت؛ ولذلك أعاد الفِعلَ، فقال[١]:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

أي: ولا يَستوي الأحياءُ مع الأمواتِ، وكذا لا يَستوي المؤمِنونَ مع الكُفَّارِ[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه[٣].

= وقال ابنُ عُثَيمين: (هذا مَثَلٌ لأمرٍ حسيٍّ لا يُمكنُ إنكارُه، لكن يُنتقَلُ منه إلى أمْرٍ مَعنويٍّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالأحياءِ: المؤمِنون، وبالأمواتِ: الكُفَّارُ: ابن جرير، والرسعني، وابن القيِّم، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٤)، ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢-٢٩٤)، ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (الأحياءُ والأمواتُ يُرادُ به الحياةُ الحسيةُ والموتُ الحسيُّ...، والذي يماثلُ هذه الأشياءَ الحسيةَ مِن الأمورِ المعقولةِ هو مَثَلُها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير =

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

أي: وليس في مَقدورِك -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الأمواتَ في قُبورِهم، وكذا ليس في مَقدورِك هِدايةُ مَن لم يَشأِ اللهُ هِدايتَه(١).

= ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُسمِعُ آياتِ كتابِه سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ مَن يشاءُ هدايتَه للإيمانِ: ابن جَرير، وابن كَثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وقالَ البِقاعي: (﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: فيَهديه ولو لم يكُنْ له قابليَّةٌ في العادةِ، كالجَماداتِ، ويُصِمُّ مَن يشاءُ فيُعميه ويَنكُسُه ويُرديه مِن أحياءِ القُلوبِ والأرواحِ، وأمواتِ المعاني والأشباحِ، والمعنى: أنَّ إسماعَهم لو كان مُستنِدًا إلى الطَّبائعِ لاستَوَوا؛ إمَّا بالإجابةِ، أو الإعراضِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩-٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قيل: المرادُ: لا تَستطيعُ -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الكُفَّارَ الذين ماتتْ قلوبُهم سماعًا ينتَفِعونَ به. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جَرير، والقرطبي، وابن القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩).

قال ابنُ القيِّم: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فسياقُ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ منها: أنَّ الكافِرَ الميِّتَ القَلبِ لا تَقدِرُ على إسماعِه إسماعًا ينتفِعُ به، كما أنَّ مَن في القبورِ لا تقدِرُ على إسماعِهم إسماعًا ينتفعونَ به، ولم يُرِدْ سُبحانه أنَّ أصحابَ القُبورِ لا يَسمَعونَ شَيئًا البتَّةَ، كيف وقد أخبر النبيُّ أنَّهم يَسمَعونَ خَفْقَ نِعالِ المشيِّعينَ [البخاري «١٣٧٠» ومسلم «٢٨٧٤»]، وأخبَرَ أنَّ قَتلى بَدرٍ سَمِعوا كلامَه وخِطابَه [البخاري «١٣٣٨»، ومسلم «٢٨٧٠»]، وشَرَعَ السَّلامَ عليهم بصيغةِ الخِطابِ للحاضِرِ الذي يَسمَعُ [مسلم «٢٤٩»]،...). ((الروح)) (ص: ٤٥).

وقيل: الأظهرُ هنا أن يكونَ المرادُ بالموتَى: الذين ماتوا حقيقةً؛ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُسمِعُ الكُفَّارَ الذين فارقوا الدُّنيا وانتَقَلوا إلى القبورِ سَماعًا ينتفِعونَ به فيَهتَدونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٣-١٦٤). =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ما أنت -يا محمَّدُ- إلَّا نذيرٌ تُبلِّغُ رِسالةَ اللهِ سُبحانَه، سواءٌ أَستجابَ لك النَّاسُ أم لم يَستَجيبوا؛ فإنَّما جعَلَ اللهُ لك الاستِطاعةَ على الإنذارِ الذي كلَّفَك به، لا على إسماعِ مَن لم يَشَأِ اللهُ إسماعَه، أو على هِدايةِ مَن لم يَشَأِ اللهُ هدايتَه[١].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نبيَّ الرَّحمةِ، وكان الاقتِصارُ على وَصفِ النِّذارةِ رُبَّما أوهَمَ غيرَ ذلك؛ أتبَعَه قولَه[٢]:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: إنَّا أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالحَقِّ[٣] ....

= وقيل المعنى: وما أنت بمُسمعٍ مَن في القبورِ الحِسِّيةِ والمعنويَّةِ إسماعًا ينفَعُهم، بل اللهُ يُسمِعُهم إن شاء؛ فلا تَذهَبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((الروح)) لابن القيِّم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٤-١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨). =

بشيرًا لِمَن أطاعَك، ونَذيرًا لِمَن عَصاك[١].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي: وما مِن أُمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالَى[٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أعْقَبَ الثَّناءَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَسليتِه على تَكذيبِ قَومِه،

= قال الشوكاني: (﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ من الفاعلِ، أي: مُحِقِّينَ، أو من المفعولِ، أي: محقًّا، أو: نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إرسالًا مُلتبسًا بالحقِّ، أو هو متعلِّق بـ ﴿بَشِيرًا﴾، أي: بشيرًا بالوعدِ الحقِّ، ونذيرًا بالوعدِ الحقِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

وقال ابنُ عُثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ الباءُ للتعديةِ، أي: إنَّنا أعطيناك حقًّا وأرسلناك به، ويحتَمِلُ أن يكونَ وصفًا للرِّسالةِ، يعني: أرسلناك رسالةَ حَقٍّ ... فعلَى المعنى الثاني يكونُ معنى الآيةِ: أنَّ إرسالَ النبيِّ حقٌّ. وعلى المعنى الأوَّل يكونُ معناها: أنَّ الرَّسولَ جاء بالحقِّ، وإنْ كان المعنيانِ مُتلازِمَين، لكِنَّهما مختَلِفانِ من حيثُ الموردُ؛ فعلى الأولِ يكونُ مَوردُ الوَصفِ الرِّسالةَ نَفسَها، وعلى الثاني يكونُ مَوردُ الوَصفِ المُرسَلَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ١٧١).

وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بالقُرآن. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٠).

وقال ابن جرير: (﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو الإيمانُ باللهِ وشرائعِ الدِّينِ التي افترَضها على عِبادِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وتأنيسِه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ معَ أُمَمِهم[(١)].

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: وإنْ يُكَذِّبْك -يا مُحمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كَذَّب الذين مِن قَبلِهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم؛ فلسْتَ بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه قَومُه؛ فلا تحزَنْ[(٢)]!

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

أي: جاءتْ تلك الأُمَمَ الماضيةَ رسُلُهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ، وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ، وبالكِتابِ المُنيرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

قال ابنُ عاشور: (والتقديرُ: إن يكَذِّبوك فلا تحزَنْ، ولا تحسَبْهم مُفلِتين من العِقابِ على ذلك؛ إذ قد كذَّب الأقوامُ الذين جاءتْهم رسلٌ مِن قَبلِ هؤلاء، وقدْ عاقبناهم على تكذيبِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال الشَّوكاني: (قِيل: الكتابُ المنيرُ داخلٌ تحتَ الزُّبُرِ وتحتَ البيِّناتِ، والعطفُ؛ لتغايرِ المفهوماتِ، وإنْ كانت مُتَّحِدَةً في الصِّدْقِ. والأَولى تَخصيصُ البيِّناتِ بالمُعجِزاتِ، والزُّبُرِ: بالكُتُبِ التي فيها مواعِظُ، والكتابِ: بما فيه شرائعُ وأحكامٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

وقيل: الكِتابُ المنيرُ هو التَّوراةُ والإنجيلُ. وممَّن قال بهذا القول: ابنُ القيِّم، والعُلَيمي. يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥٠).

واختارَ ابنُ عُثَيمين أنَّه كُلُّ كِتابٍ بَعَثَ اللهُ به الرَّسولَ؛ لِيُنيرَ الطَّريقَ لأُمَّته؛ فيَشمَلُ التَّوراةَ والإنجيلَ وصُحُفَ إبراهيمَ، وغيرَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٥).

قال السعديُّ: (﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: المُضيءِ في أخبارِه الصَّادِقةِ، وأحكامِه العادِلةِ؛ فلم يكُنْ تكذيبُهم إيَّاهم ناشِئًا عن اشتباهٍ أو قُصورٍ بما جاءتهم به الرُّسُلُ، بل بسبَبِ ظُلْمِهم وعِنادِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالَى نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ هدَّد مَن خالَفَه وعصاه، بما فعَلَ في تِلك الأُمَمِ، فقال تعالَى[1]:

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْتُ أولئك الذين كَفَروا بي وبما جاءَتْهم به رسُلُهم[2].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكيفَ كان إنكاري على تِلك الأُمَمِ المكَذِّبةِ وعِقابي[3]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فكما أنَّه من المتقرِّرِ الذي لا يقبَلُ الشَّكَّ أنَّ هذه المذكوراتِ لا تتساوَى، فكذلك عدَمُ تَساوي المتضادَّاتِ المعنويَّةِ أَوْلَى وأَوْلى؛ فلا يَستوي

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٨).

المؤمِنُ والكافِرُ، ولا المُهتدي والضَّالُّ، ولا العالِمُ والجاهِلُ، ولا أصحابُ الجنَّةِ وأصحابُ النَّارِ، ولا أحياءُ القُلوبِ وأمواتُها؛ فبَينَ هذه الأشياءِ من التفاوُتِ والفَرقِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالَى، فإذا عُلِمَت المراتِبُ، ومُيِّزَت الأشياءُ، وبان الذي يَنبغي أنْ يُتنافَسَ في تَحصيلِه مِن ضِدِّه؛ فلْيَختَرِ الحازِمُ لِنَفسِه ما هو أَوْلَى به وأحقُّه بالإيثارِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- نَفيُ التَّساوي في كِتابِ اللهِ تعالَى قدْ يأتي بيْنَ الفِعلَينِ، كقَولِه تعالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقد يأتي بين الفاعِلَينِ، نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، وقد يأتي بين الجَزاءَينِ، كقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقد جمَع اللهُ بيْن الثَّلاثةِ في آيةٍ واحِدةٍ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ فالأعمى والبصيرُ: الجاهِلُ والعالِمُ، والظُّلُماتُ والنُّورُ: الكُفرُ والإيمانُ، والظِّلُّ والحَرورُ: الجنَّةُ والنَّارُ، والأحياءُ والأمواتُ: المؤمِنون والكُفَّارُ[٢]، وذلك على قَوْلٍ في التفسيرِ فيها.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ جِيءَ بلَفظِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ جَمْعًا مع إفْرادِ ﴿ٱلنُّورُ﴾؛ لتَعدُّدِ فُنونِ الباطِلِ، واتِّحادِ الحقِّ[٣].
وقيلَ: جِيءَ في ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ بلَفظِ الجمْعِ؛ لأنَّه الأغلبُ في الاستِعْمالِ؛ فهُم

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٨).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩).

لا يَذكُرونَ الظُّلْمةَ إلَّا بصِيغةِ الجَمعِ[(١)].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ؛ لأنَّا لا نَشُكُّ أنَّ اللهَ جَلَّ وتعالَى ضَرَبَ هذه الأمثالَ للكافِرِ والمؤمِنِ، وأنَّ الحيَّ هو المؤمِنُ، والميِّتَ هو الكافِرُ؛ فإذا كان المُسمِعُ هو اللهُ جلَّ وعلا، ولا يَستطيعُ ذو سَمعٍ أنْ يَسمَعَ بسَمعِه حتى يُسمِعَه اللهُ، وكلاهما -مِن المؤمنِ والكافِرِ- ذو سَمْعٍ: عَلِمْنا أنَّ المؤمِنَ سَمِع بتوفيقِ اللهِ الموعِظةَ، فوَعاها سَمعُه، وأوصلَها إلى قَلبِه بمَشيئتِه في نجاتِه، وأنَّ الكافِرَ صَمَّ عنها بخِذلانِ اللهِ، وزَوالِ توفيقِه عنه؛ فلم تَعِها أُذُنُه، ولم يَقبَلْها قلبُه؛ لخُلُوِّه من مَشيئةِ اللهِ في المؤمِنِ، ودُخولِه في إضلالِه[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، وقولُه في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فيه الجَزْمُ بنفْيِ سَماعِ الأمواتِ، ويُجْعَلُ ما ثَبَتَ فيه الحديثُ مِن السَّماعِ[(٣)] مُخَصِّصًا[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩٩).

(٣) يُنظر ما أخرجه البُخاريُّ (١٣٧٠) مِن حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((اطَّلَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أهلِ القَليبِ، فقال: وَجَدتُم ما وَعَدَ رَبُّكم حَقًّا))؟ فقيل له: تَدْعو أمواتًا؟! فقال: ((ما أنتُم بأسمَعَ مِنهم، ولكِنْ لا يُجيبونَ)).
وفي رِوايةٍ ((والَّذي نَفْسي بيَدِه، ما أنتُم بأسمَعَ لِمَا أقولُ مِنهم، ولكِنَّهم لا يَقدِرونَ أنْ يُجيبوا)) أخرَجَه مُسلِمٌ (٢٨٧٤) من حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه.
وأخرج البخاريُّ (١٣٣٨)، ومُسلِمٌ (٢٨٧٠) من حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ العَبدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِه، وتَوَلَّى عنه أصحابُه، إنَّه لَيَسمَعُ قَرْعَ نِعالِهم...)) الحَديثَ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٧٠).

٥- قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الذين يُنكِرون أنْ تكونَ أفعالُ العِبادِ بمَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ وَصْفُ الكافِرِ بأنَّه مَيِّتٌ، وأنَّه بمنزلةِ أصحابِ القُبورِ؛ وذلك: أنَّ القَلبَ الحيَّ هو الذي يَعرِفُ الحقَّ ويَقبَلُه، ويُحِبُّه ويُؤثِرُه على غَيرِه، فإذا ماتَ القَلبُ لم يَبقَ فيه إحساسٌ ولا تمييزٌ بينَ الحقِّ والباطِلِ، ولا إرادةٌ للحَقِّ وكراهةٌ للباطِلِ، بمنزلةِ الجَسَدِ الميِّتِ الذي لا يُحِسُّ بلذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وألَمِ فَقدِهما[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بيانُ ما يَشتَمِلُ عليه دِينُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحقِّ الذي ضِدُّه الباطِلُ، والباطِلُ إنْ كان في الأخبارِ فهو الكَذِبُ، وإنْ كان في الأحكامِ فهو الجَورُ والظُّلمُ؛ وعليه فرسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتضَمِّنةٌ للحَقِّ في الأخبارِ والأحكامِ؛ ففيه بيانُ فَضيلةِ هذه الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ التي جاء بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ كلَّ ما كان حقًّا فإنَّ الشَّريعةَ جاءتْ به، سواءٌ نَصَّتْ عليه بمعناه الخاصِّ أو بالمعنى العامِّ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بُطلانُ الاحتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ، ولو كان الاحتِجاجُ بالقَدَرِ على المعاصي والمخالَفاتِ ثابتًا لم يَرتفِعْ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ القَدَرَ لا يَرتفِعُ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ فالرُّسُلُ أرسلَهم اللهُ سُبحانَه وتعالَى إقامةً للحُجَّةِ على الخَلْقِ، ورحمةً بهم أيضًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص:١٧٦، ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٠).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بيانُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ حتى تُنكَرَ رسالتُه ويُقالَ: كيف جاء هذا الرجُلُ برسالةٍ مِن عِندِ اللهِ؟! ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[1] [الأحقاف: ٩].

١٠- بُطلانُ ما ذَهَبَ إليه المتكلِّمون مِن أهلِ البِدَعِ، الذين بَنَوا عَقيدتَهم على ما يَقتضيه العَقلُ، وقالوا: ما اقتضَى العقلُ إثباتَه لله أثبتْناه، سواءٌ كان مذكورًا في الكِتاب والسُّنَّةِ أم لم يُذْكَرْ، وما نفاه العَقلُ وَجَبَ علينا نفيُه وإنْ ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ! وما لم يَدُلَّ العَقلُ على نفيِه وإثباتِه فإنَّنا نتوقَّفُ فيه، وأكثرُهم قالوا: نَنفيه! لأنَّه لا بُدَّ مِن دَلالةِ العَقلِ على إثباتِه، فإذا لم يَدُلَّ على إثباتِه وَجَبَ نفيُه؛ لعدمِ وُجودِ الدَّليل!! والرَّدُّ على ذلك يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّه لو كانتِ العُقولُ هي المرجِعَ ما احتِيجَ إلى إرسالِ الرُّسُلِ[2]!

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تكذيبِ قَومِه، وتَأنيسُه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ معَ أُمَمِهم[3]، وفيه عِنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، بذِكْرِ ما يُسَلِّيه ويُهَوِّنُ عليه الأمرَ؛ وذِكرُ المُصيبةِ المُماثِلةِ يَقتضي تَسليةَ الإنسانِ وتَهوينَ الأمرِ عليه[4].

١٢- في قَولِه تعالَى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَترُكِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

الرُّسُلَ هَمَلًا، بل آتاهم مِن البَيِّناتِ ما يُؤمِنُ على مِثلِه البَشَرُ[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أنَّ الكُتُبَ السَّماويَّةَ مُتضمِّنَةٌ للنُّورِ؛ وأنَّ كلَّ مَن أخَذ بها فقدْ أخَذَ بنورٍ يَمشي به في الظُّلماتِ[2]، وذلك على قَولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾

- في هذه الآياتِ أرْبعةُ أمْثالٍ للمُؤمِنينَ والكافِرينَ، وللإيمانِ والكُفْرِ؛ شبَّهَ الكافِرَ بالأعْمى، والكُفْرَ بالظُّلُماتِ والحَرورِ، والكافِرَ بالمَيِّتِ، وشبَّهَ المُؤمِنَ بالبَصيرِ، وشبَّهَ الإيمانَ بالنُّورِ والظِّلِّ، وشبَّهَ المُؤمِنَ بالحَيِّ -وذلك على قَولٍ في تفسيرِها- تَشبيهَ المَعْقولِ بالمَحْسوسِ، ورُوعيَ في هذه الأشْباهِ تَوزيعُها على صِفةِ الكافِرِ والمُؤمِنِ، وعلى حالةِ الكُفرِ والإيمانِ، وعلى أثَرِ الإيمانِ وأثَرِ الكُفرِ، وقُدِّمَ تَشبيهُ حالِ الكافِرِ وكُفرِه على تَشْبيهِ حالِ المُؤمِنِ وإيمانِه ابتِداءً؛ لأنَّ الغَرَضَ الأهمَّ مِن هذا التَّشبيهِ هو تَفْظيعُ حالِ الكافِرِ، ثمَّ الانتِقالُ إلى حُسنِ حالِ ضِدِّه؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ جاءَ لإيضاحِ ما أفادَه القَصْرُ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] مِن أنَّه قَصْرٌ إضافيٌّ قَصرُ قَلْبٍ؛ فالكافِرُ شَبيهٌ بالأعْمى في اختِلاطِ أمْرِه بيْنَ عَقلٍ وجَهالةٍ كاختِلاطِ أمْرِ الأعْمى بيْنَ إدْراكٍ وعَدَمِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ شُبِّهَ الكُفرُ بالظُّلُماتِ في أنَّه يُجعَلُ الذي أحاطَ هو به غَيرَ مُتبيِّنٍ للأشْياءِ؛ فإنَّ من خَصائِصِ الظُّلْمةِ إخْفاءَ الأشْياءِ، والكافِرُ خَفِيَتْ عنه الحَقائِقُ الاعتِقاديَّةُ، وكُلَّما بيَّنَها له القُرآنُ لم يَنتقِلْ إلى أجْلَى، كما لو وَصَفتَ الطَّريقَ للسَّائرِ في الظَّلامِ(١).

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ فيه إدْخالُ (لا) على المُتَقابِلَينِ؛ لتَذْكيرِ نَفيِ الاستواءِ، وتَوسيطُها بيْنَهما للتَّأْكيدِ(٢).

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ضُرِبَ الظِّلُّ مَثَلًا لأثَرِ الإيمانِ، وضِدُّه -وهو الحَرورُ- مَثَلًا لأثَرِ الكُفرِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فالظِّلُّ مَكانُ نَعيمٍ في عُرفِ السَّامِعينَ الأوَّلينَ، وهُمُ العَرَبُ أهْلُ البِلادِ الحارَّةِ التي تَتطلَّبُ الظِّلَّ للنَّعيمِ غالبًا إلَّا في بَعضِ فَصلِ الشِّتاءِ، وقُوبِلَ بالحَرورِ؛ لأنَّه مُؤلِمٌ ومُعذِّبٌ في عُرفِهم. وفي مُقابَلَتِه بالحَرورِ إيذانٌ بأنَّ المُرادَ تَشْبيهُهُ بالظِّلِّ في حالةِ استِطابَتِه؛ فحالُ المُؤمِنِ يُشبِهُ حالَ الظِّلِّ تَطمئِنُّ فيه المَشاعِرُ، وتَصدُرُ فيه الأعْمالُ عن تَبصُّرٍ وتَريُّثٍ وإتْقانٍ. وحالُ الكافِرِ يُشبِهُ الحَرورَ تَضطرِبُ فيه النُّفوسُ، ولا تتمكَّنُ معه العُقولُ من التَّأمُّلِ والتَّبصُّرِ، وتَصدُرُ فيها الآراءُ والمَساعي مُعجَّلةً مُتفكِّكةً(٣).

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ قُدِّم في هذه الفِقْرةِ ما هو من حالِ المُؤمنينَ

= حيان)) (٩/ ٢٥- ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٨- ٦٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

على عَكسِ الفِقْراتِ الثَّلاثِ التي قَبلَها؛ لأجْلِ الرِّعايةِ على الفاصِلةِ بكَلِمةِ ﴿ٱلْحَرُورُ﴾، وفَواصِلُ القُرآنِ من مُتمِّماتِ فَصاحَتِه؛ فلها حظٌّ من الإعْجازِ[١].

وقيل: قُدِّم الأشرَفُ في مَثَلينِ -وهو الظِّلُّ والحَرورُ-، وأُخِّرَ في مَثَلينِ -وهما البَصيرُ والنُّورُ- وذلك لأنَّهم كانوا قبلَ المَبعَثِ في ضَلالةٍ؛ فكانوا كالعُمْيِ، وطَريقُهم الظُّلْمةُ، فلمَّا جاء الرَّسولُ، واهْتَدى به قومٌ، صاروا بَصيرينَ، وطَريقُهم النُّور، وقُدِّم ما كان مُتقدِّمًا من المُتَّصِفِ بالكُفرِ وطَريقَتِه على ما كان مُتأخِّرًا من المُتَّصِفِ بالإيمانِ وطَريقتِه. ثم لَمَّا ذُكِرَ المآلُ والمَرجِعُ، قُدِّم ما يَتعلَّقُ بالرَّحْمةِ على ما يَتعلَّقُ بالغَضَبِ، كما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ: ((سَبَقَتْ رَحْمتي غَضَبي))[٢]؛ فقُدِّم الظِّلُّ على الحَرورِ. ثم إنَّ الكافرَ المُصِرَّ بعدَ البَعْثةِ صارَ أضَلَّ من الأعْمَى، وشابَهَ الأمْواتَ في عَدَمِ إدْراكِ الحقِّ، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ﴾: الذين آمَنوا بما أنزَلَ اللهُ، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: الذين تُليَت عليهمُ الآياتُ البيِّناتُ، ولم يَنتَفِعوا بها. وهؤلاء كانوا بعدَ إيمانِ مَن آمَنَ، فأخَّرَهم لوُجودِ حَياةِ المُؤمِنينَ قَبلَ مَماتِ الكافِرِ[٣].

وقيل: لَمَّا ضُرِبَ الأعمَى والبصيرُ مَثَلَينِ للمُؤمِنِ والكافِرِ، عَقَّب بما كُلٌّ منهما فيه، والكافِرُ في ظُلمةٍ، والمؤمِنُ في نورٍ؛ لأنَّ البصيرَ وإن كان حديدَ البصَرِ لا بدَّ له من ضوءٍ يُبصِرُ فيه، وقَدَّم الأعمى؛ لأنَّ البصيرَ فاصِلةٌ، فحَسُنَ تأخيرُه، ولَمَّا تقدَّم الأعمى في الذِّكرِ ناسَبَ تقديمَ ما فيه؛ فلذلك قُدِّمَت الظُّلمةُ على النُّورِ، ولأنَّ النُّورَ فاصِلةٌ، ثَمَّ ذكَرَ ما لكُلٍّ منهما؛ فللمُؤمِنِ الظِّلُّ، وللكافِرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣)

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٥٥٣)، ومسلمٌ (٢٧٥١) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦- ٢٧).

الحَرورُ، وأخَّرَ الحَرورَ؛ لأجلِ الفاصِلةِ[١].

- وأفرَدَ الأعْمى والبَصيرَ؛ لأنَّه قابَلَ الجِنْسَ بالجِنْسِ؛ إذ قد يُوجَدُ في أفْرادِ العُمْيانِ ما يُساوي به بعضَ أفْرادِ البُصَراءِ، كأعْمى عِندَه مِن الذَّكاءِ ما يُساوي به البَصيرَ البَليدَ؛ فالتَّفاوُتُ بيْنَ الجِنْسَينِ مَقطوعٌ به، لا بيْنَ الأفْرادِ. وأمَّا الأحياءُ والأمْواتُ، فالتَّفاوُتُ بيْنَهما أكثَرُ؛ إذ ما مِن ميِّتٍ يُساوي في الإدْراكِ حيًّا، فذُكِر أنَّ الأحياءَ لا يُساوونَ الأمْواتَ، سواءً قابَلْتَ الجِنْسَ بالجِنْسِ، أمْ قابَلْتَ الفَرْدَ بالفَرْدِ[٢].

- وجُعِل كُلٌّ من التَّمْثيلَينِ تَمْهيدًا وتَوطِئةً لقَولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالأحياءِ: المُؤمِنونَ الذي دَخَلوا في دارِ السَّلامِ، وانْتَفَعوا بدَعْوةِ نَبيِّ الرَّحْمةِ صَلَواتُ اللهِ عليه، وبالأمْواتِ: الذين بَقَوْا خارِجينَ عن دارِ أمانِ الدَّعْوةِ، ولم يَرفَعوا لها رأسًا، وأصَرُّوا واسْتَكْبَروا[٣].

- وتَركيبُ هذه الآياتِ عَجيبٌ؛ فقد احْتَوَتْ على واواتِ عَطفٍ، وأدواتِ نَفيٍ؛ فكُلٌّ مِنَ الوَاوَينِ اللَّذينِ في قَولِه: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ ...﴾ إلخ، وقَولِه: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ ...﴾ إلخ عاطِفُ جُمْلةٍ على جُمْلةٍ، وعاطِفُ تَشْبيهاتٍ ثَلاثةٍ، بل تَشْبيهٌ منها يَجمَعُ الفَريقَينِ، والتَّقْديرُ: ولا تَسْتوي الظُّلُماتُ والنُّورُ، ولا يَسْتوي الظِّلُّ والحَرورُ، وقد صُرِّح بالمُقدَّرِ أخيرًا في قَولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وأمَّا الواواتُ الثَّلاثةُ في قَولِه: ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾؛ فكُلُّ واوٍ عاطِفٌ مُفردًا على مُفرَدٍ؛ فهي سِتَّةُ تَشْبيهاتٍ مُوزَّعةٍ على كُلِّ

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦- ٢٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٧).

فَريقٍ فـ (الْبَصِيرُ) عَطفٌ على الأعْمى، و﴿ٱلنُّورُ﴾ عَطفٌ على الظُّلُماتِ، و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ عَطفٌ على ﴿ٱلظِّلُّ﴾؛ ولذلك أُعيدَ حَرفُ النَّفيِ. وأمَّا أدواتُ النَّفيِ فاثْنانِ منها مُؤكِّدانِ للتَّغلُّبِ المُوجَّهِ إلى الجُمْلَتينِ المَعْطوفَتَينِ المَحذوفِ فِعْلاهما ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾، واثْنانِ مُؤكِّدانِ لِتوجُّهِ النَّفيِ إلى المُفرَدَينِ المَعْطوفَينِ على مُفرَدَينِ في سياقِ نَفيِ التَّسْويةِ بيْنَهما وبيْنَ ما عُطِفا عليهما، وهُما واوُ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، وواوُ ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، والتَّوكيدُ بعضُه بالمِثلِ، وهو حَرفُ (لا) وبَعضُه بالمُرادِفِ، وهو حَرفُ (ما)، ولم يُؤتَ بأداةِ نَفيٍ في نَفيِ الاستِواءِ الأوَّلِ؛ لأنَّه الذي ابتُدِئَ به نَفيُ الاستِواءِ المُؤكَّدِ من بعدُ؛ فهو كُلُّه تأْييسٌ. وهو استِعْمالٌ قُرآنيٌّ بَديعٌ في عَطفِ المَنْفيَّاتِ من المُفْرداتِ والجُمَلِ[1].

- وقولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تَمثيلٌ آخَرُ للمُؤمنينَ والكافِرينَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ؛ ولذلك كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾، وأُوثِرَ صيغةُ الجمعِ في الطَّرَفينِ؛ تَحْقيقًا للتَّبايُنِ بيْنَ أفْرادِ الفَريقَينِ. وقيلَ: هو تَمْثيلٌ للعُلَماءِ والجَهَلةِ[2].

- وفي هذه الجُمْلةِ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ أُظهِرَ الفِعلُ الذي قُدِّر في الجُمْلتَينِ اللَّتَينِ قَبلَها، وهو فِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾؛ لأنَّ التَّمثيلَ هنا عادَ إلى تَشْبيهِ حالِ المُسلمينَ والكافرينَ؛ إذ شُبِّهَ حالُ المُسلِمِ بحالِ الأحياءِ، وحالُ الكافِرينَ بحالِ الأمْواتِ، فهذا ارْتِقاءٌ في تَشْبيهِ الحالَينِ من تَشبيهِ المُؤمِنِ بالبَصيرِ، والكافِرِ بالأعْمى إلى تَشبيهِ المُؤمِنِ بالحيِّ، والكافِرِ بالميِّتِ، فلمَّا كانتِ الحياةُ هي مَبعَثَ المَدارِكِ والمَساعي كلِّها، وكان المَوتُ قاطِعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩ - ١٥٠).

للمَدارِكِ والمَساعي، شُبِّه الإيمانُ بالحَياةِ في انْبِعاثِ خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ منه، وفي تلقِّي ذلك وفَهمِه، وشُبِّهَ الكُفرُ بالمَوتِ في الانْقِطاعِ عن الأعْمالِ والمُدرَكاتِ النَّافِعةِ كُلِّها، وفي عَدَمِ تلقِّي ما يُلْقى إلى صاحِبِه؛ فصار المُؤمِنُ شَبيهًا بالحيِّ مُشابَهةً كامِلةً لَمَّا خَرَج من الكُفرِ إلى الإيمانِ، فكأنَّه بالإيمانِ نُفِخَت فيه الحَياةُ بعدَ المَوتِ، كما أشارَ إليه قَولُه تعالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكان الكافِرُ شَبيهًا بالميِّتِ ما دام على كُفرِه. واكتُفِيَ بتَشبيهِ الكافِرِ والمُؤمِنِ في مَوضِعَينِ عن تَشْبيهِ الكُفرِ والإيمانِ وبالعَكسِ لتَلازُمِهما، وأُوتيَ تَشبيهُ الكافِرِ والمُؤمِنِ في مَوضِعَينِ لكَونِ وَجهِ الشَّبَهِ في الكافِرِ والمُؤمِنِ أوضَحَ، وعُكِسَ ذلك في مَوضِعَينِ؛ لأنَّ وَجهَ الشَّبَهِ أوضَحُ في المَوضِعَينِ الآخَرَينِ(١).

وقيل: كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسۡتَوِي﴾ مبالغةً في المنافاةِ؛ لأنَّ المنافاةَ بينَ الحياةِ والموتِ أتمُّ مِن المنافاةِ المتقدِّمةِ(٢).

- وكرَّر كَلِمةَ النَّفيِ بين الظُّلماتِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ، والأحياءِ والأمواتِ، ولم يكرِّرْ بين الأعمى والبصيرِ؛ وذلك لأنَّ التكريرَ للتأكيدِ، والمنافاةُ بين الظُّلمةِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ مُضادَّةٌ؛ فالظُّلمةُ تُنافي النُّورَ وتُضادُّه، والعمَى والبصَرُ كذلك، أمَّا الأعمى والبصيرُ فليسَا كذلك، بل الشَّخصُ الواحِدُ قد يكونُ بصيرًا، وهو بعينِه يَصيرُ أعمَى؛ فالأعمَى والبصيرُ لا مُنافاةَ بيْنَهما إلَّا مِن حيثُ الوَصفُ، والظِّلُّ والحَرورُ المنافاةُ بيْنهما ذاتيَّةٌ؛ لأنَّ المرادَ مِن الظِّلِّ عدمُ الحَرِّ والبردِ، فلمَّا كانت المنافاةُ هناك أتمَّ، أكَّدَ بالتَّكرارِ، وأمَّا الأحياءُ والأمواتُ وإنْ كانوا كالأعمَى والبَصيرِ مِن حيثُ إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ١٢٤).

الجِسمَ الواحِدَ يكونُ حَيًّا محلًّا للحياةِ، فيَصيرُ مَيْتًا محلًّا للموتِ، ولكِنَّ المنافاةَ بين الحيِّ والميِّتِ أتَمُّ مِن المنافاةِ بين الأعمَى والبصيرِ؛ فالأعمَى والبصيرُ يَشتركانِ في إدراكِ أشياءَ، ولا كذلك الحيُّ والميِّتُ، كيف والميِّتُ يُخالِفُ الحيَّ في الحَقيقةِ لا في الوَصفِ[1]؟!

- قَولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾؛ قُدِّم الأحياءُ؛ لشرفِ الحياةِ[2].

- وأيضًا جِيءَ بصِيغةِ الجَمعِ في (الْأحياءُ والأمْواتُ) تفنُّنًا في الكَلامِ بعدَ أنْ أورَدَ (الأعْمى والبَصيرُ) بالإفْرادِ؛ لأنَّ المُفرَدَ والجَمعَ في المُعرَّفِ بلامِ الجِنْسِ سَواءٌ إذا كان اسْمًا له أفْرادٌ، بخِلافِ النُّورِ والظِّلِّ والحَرورِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ تَعليلٌ؛ تَسليةً لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإقْناطًا له من إيمانِ المُصرِّينَ، وإيذانًا بأنَّ الهاديَ والمُضِلَّ هو اللهُ سُبْحانَه[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أُعقِبَ تَمثيلُ حالِ المُؤمنينَ والكافرينَ بحالِ الأحياءِ والأمْواتِ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعذِرةً له في التَّبليغِ للفريقَينِ، وفي عَدَمِ قَبولِ تَبْليغِه لدى أحَدِ الفَريقَينِ، وتَسلِيةً له عن ضَياعِ وابِلِ نُصحِه في سِباخِ قُلوبِ الكافِرينَ، فقيلَ له: إنَّ قَبولَ الذين قَبِلوا الهُدَى واسْتَمَعوا إليه كان بتَهيئةِ اللهِ تَعالى نُفوسَهم لقَبولِ الذِّكْرِ والعِلمِ، وإنَّ عَدَمَ انْتِفاعِ المُعرِضينَ بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧).

هو بسَبَبِ مَوتِ قُلوبِهم، فكأنَّهم الأمواتُ في القُبور، وأنتَ لا تَستطيعُ أنْ تُسمِعَ الأمْواتَ، فجاءَ قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ على مُقابَلةِ قَولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ مُقابَلةَ اللَّفِّ بالنَّشْرِ المُرتَّبِ[1]؛ فجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعليلٌ لجُمْلةِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]؛ لأنَّ مَعْنى القَصرِ يَنحَلُّ إلى إثْباتٍ ونَفيٍ؛ فكان مُفيدًا فريقَينِ: فَريقًا انْتَفَعَ بالإنْذارِ، وفَريقًا لم يَنتفِعْ؛ فعُلِّلَ ذلك بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾[2].

- وقَولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ إشارةٌ إلى الذين لم يَشَأِ اللهُ أنْ يُسمِعَهم إنْذارَك. وعُبِّرَ بـ ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ عن الذين لم تَنفَعْ فيهم النُّذُرُ، وعُبِّرَ عن الأمْواتِ بـ ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لأنَّ مَن في القُبورِ أعرَقُ في الابتِعادِ عن بُلوغِ الأصْواتِ؛ لأنَّ بيْنَهم وبيْنَ المُنادي حاجزَ الأرْضِ؛ فهذا إطْنابٌ أفاد مَعنًى لا يُفيدُه الإيجازُ، بأنْ يُقالَ: وما أنتَ بمُسْمِعِ الموتَى[3].

- وأيضًا في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ شبَّه سُبحانَه مَن لا يَستجيبُ لِرَسولِه بأصحابِ القُبورِ، وهذا مِن أحسَنِ التشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لقُلوبِهم؛ فقدْ ماتتْ قلوبُهم وقُبِرت في أبدانِهم[4].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أفادَ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسْبةِ إلى مُعالَجةِ تَسْميعِهم الحقَّ، أي: أنتَ نَذيرٌ للمُشابِهينَ مَن في القُبورِ، ولستَ بمُدخِلٍ

(١) سبَق تعريفُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المرتَّب (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيِّم (١/ ٢٢).

الإيمانَ في قُلوبِهم، وهذا مَسوقٌ مَساقَ المَعذِرةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَسليتِه؛ إذ كان مُهتَمًّا من عَدَمِ إيمانِهم. واقتُصِرَ على وَصفِه بالنَّذيرِ؛ لأنَّ مَساقَ الكَلامِ على المُصمِّمينَ على الكُفرِ(١).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾

- قولُهُ: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ استِئْنافُ ثَناءٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنويهٌ به وبالإسْلامِ، وهو تَوطِئةٌ لقَولِه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾، وفيه دَفعُ تَوهُّمِ أنْ يكونَ قَصرُه على النِّذارةِ قَصْرًا حقيقيًّا؛ لِتَبيُّنِ أنَّ قَصرَه على النِّذارةِ بالنِّسْبةِ للمُشركينَ الذين شابَهَ حالُهم حالَ أصْحابِ القُبورِ، أي: إنَّ رِسالتَك تَجمَعُ بِشارةً ونِذارةً؛ فالبِشارةُ لِمَن قَبِلَ الهُدى، والنَّذارةُ لِمَن أعرَضَ عنه، وكُلُّ ذلك حَقٌّ؛ لأنَّ الجَزاءَ على حَسَبِ القَبولِ؛ فهي رِسالةٌ مُلابِسةٌ للحَقِّ، ووَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها(٢).

- قولُهُ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ إبطالٌ لاستِبْعادِ المُشركينَ أنْ يُرسِلَ اللهُ إلى النَّاسِ بَشَرًا منهم؛ فإنَّ تلك الشُّبْهةَ كانتْ من أعظَمِ ما صدَّهُم عن التَّصْديقِ به؛ فلذلك أُتبِعَتْ دَلائلُ الرِّسالةِ بإبْطالِ الشُّبْهةِ الحاجِبةِ. وأيضًا في ذلك تَسْفيهٌ لأحْلامِهم؛ إذ رَضُوا أنْ يكونوا دون غَيرِهم مِن الأُمَمِ التي شَرُفَتْ بالرِّسالةِ(٣).

- ووَجهُ الاقتِصارِ على وَصْفِ النَّذيرِ هنا في قولِه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾، حيثُ اكتفَى بذِكرِ النَّذيرِ عنِ البَشيرِ في آخرِ الآيةِ بَعدَ ذِكرِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

دُونَ الجَمعِ بيْنَه وبيْنَ وَصفِ البَشيرِ: أنَّه لَمَّا كانتِ النِّذارةُ مَشفوعةً بالبِشارةِ لا مَحالةَ، وعُلِمَ أنَّ النِّذارةَ قَرينةُ البِشارةِ، دلَّ ذِكرُها على ذِكرِها، لا سيَّما وقدِ اشتملتِ الآيةُ على ذِكرِهما واقترنَا مِن قَبْلُ. أو لأنَّ الإنذارَ هو الأهمُّ المَقْصودُ مِن البَعْثةِ؛ فعَدَمُ ذِكرِ وَصفِ البِشارةِ؛ للاكتِفاءِ بذِكْرِ القَرينةِ اكتِفاءً بدَلالةِ ما قَبلَه عليه، وأُوثِرَ وَصفُ النَّذيرِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أشدُّ مُناسَبةً لمَقامِ خِطابِ المُكذِّبينَ. وقيل: وجْهُ الاقتصارِ على وَصْفِ النَّذيرِ هنا هو مُراعاةُ العُمومِ الذي في قَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ فإنَّ من الأُمَمِ مَن لم تَحصُلْ لها بِشارةٌ؛ لأنَّها لم يُؤمِنْ منها أحَدٌ[(١)].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾

- جوابُ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ مَحذوفٌ دلَّتْ عليه عِلَّتُه، وهي قَولُه: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]، والتَّقديرُ: إنْ يُكذِّبوكَ فلا تَحزَنْ، ولا تَحسَبْهم مُفلَتينَ من العِقابِ على ذلك؛ إذ قدْ كذَّبَ الأقْوامُ الذين جاءَتْهم رُسُلٌ من قَبلِ هؤلاء، وقدْ عاقَبْناهم على تَكْذيبِهم؛ فالفاءُ في قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فاءُ فَصيحةٌ، أو تَفريعٌ على المَحْذوفِ[(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ إذ قدْ كان سِياقُ الحَديثِ في شَأنِ الأُمَمِ؛ فجُعِلَتِ التَّسْليةُ في هذه الآيةِ بحالِ الأُمَمِ مع رُسُلِهم عَكسَ ما في آيةِ (آلِ عمرانَ)، حيثُ قال: ﴿فَإِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آلِ عمرانَ: ١٨٤]؛ لأنَّ سِياقَ آيةِ (آلِ عِمْرانَ) كان في ردِّ مُحاوَلةِ أهْلِ الكِتابِ إفحامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ قبلَها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقد خُولِفَ أيضًا في هذه الآيةِ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أُسلوبُ آيةِ (آلِ عِمْرانَ): ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]؛ إذ قُرِن كُلٌّ من (الزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) هنا بالباءِ، وجُرِّدا منها في آيةِ (آلِ عِمْرانَ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (آلِ عِمْرانَ) جَرَتْ في سِياقِ زَعمِ اليَهودِ ألَّا تُقبَلَ مُعجِزةُ رَسولٍ إلَّا مُعجِزةَ قُربانٍ تَأكُلُه النَّارُ، فقيلَ في التَّفرُّدِ ببُهتانِهم: قد كُذِّبت الرُّسُلُ الذين جاء الواحِدُ منهم بأصْنافِ المُعجِزات، مِثلُ عيسى عليه السَّلامُ، ومِن مُعجِزاتِهم: قَرابينُ تَأكُلُها النَّارُ فكَذَّبتُموهُم، فتَرْكُ إعادةِ الباءِ هُنالك إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا بالأنْواعِ الثَّلاثةِ. ولَمَّا كان المَقامُ هنا لِتَسْليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ناسَبَ أنْ يُذكَرَ ابتِلاءُ الرُّسُلِ بتَكذيبِ أُمَمِهم على اختِلافِ أحْوالِ الرُّسُلِ، فمنهم الذين أتَوْا بآياتٍ، أي: خَوارِقِ عاداتٍ فقط، مِثلُ صالِحٍ وهُودٍ ولُوطٍ، ومنهم مَن أتَوْا بالزُّبُرِ وهي المَواعِظُ التي يُؤمَرُ بكِتابَتِها وزَبْرِها، أي: تَخْطيطِها؛ لِتكونَ مَحفوظةً، وتُردَّدَ على الألْسُنِ، كزَبورِ داودَ وكُتُبِ أصْحابِ الكُتُبِ من أنْبياءِ بَني إسرائيلَ، ومنهم مَن جاؤوا بالكِتابِ المُنيرِ -يَعْني كِتابَ الشَّرائعِ، وذلك على قولٍ في تَفسيرِها- مِثلُ إبراهيمَ وموسى وعيسى؛ فذِكرُ الباءِ مُشيرٌ إلى تَوزيعِ أصْنافِ المُعجِزاتِ على أصْنافِ الرُّسُلِ، فزَبورُ إبراهيمَ صُحُفُه المَذكورةُ في قَولِه تَعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩]، وزَبورُ موسى كَلامُه

في المَواعِظِ الذي ليس فيه تَبليغٌ عن اللهِ، وزَبورُ عيسى أقوالُهُ المَأْثورةُ في الأناجيلِ ممَّا لم يكُنْ مَنسوبًا إلى الوَحيِ؛ فالضَّميرُ في ﴿جَآءُو﴾ للرُّسُلِ، وهو على التَّوزيعِ، أي: جاء مَجْموعُهم بهذه الأصْنافِ من الآياتِ، ولا يَلزَمُ أنْ يجيءَ كُلُّ فَردٍ منهم بجميعِها كما يُقالُ: بَنو فُلانٍ قَتَلوا فُلانًا[1].

- قَولُه: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (الكتاب) مُفردٌ أُريدَ به الجنسُ، فصار عامًّا؛ فالكتُبُ التي جاؤُوا بها كُتُبٌ كثيرةٌ بحسَبِ الرُّسُلِ[2].

٥- قَولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةُ جُمْلةِ: ﴿أَخَذْتُ﴾ على جُمْلةِ: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، أي: ثُمَّ أخَذتُهم، وأظْهَر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في مَوضِعِ ضَميرِ الغَيْبةِ؛ لذَمِّهم بما في حَيِّزِ الصَّلةِ، والإشعارِ والإيماءِ إلى أنَّ أخْذَهم لأجْلِ ما تَضمَّنَتْه صِلةُ المَوْصولِ من أنَّهم كَفُروا[3].

- والأخْذُ مُعبَّرٌ به هنا عنِ الاستِئْصالِ والإفْناءِ؛ فشبَّهَ إهْلاكَهُم جَزاءً على تَكذيبِهم بإتْلافِ المُغيرينَ على عَدُوِّهم، يَقتُلونَهم ويَغنَمون أمْوالَهم، فتَبْقَى دِيارُهم بَلْقَعًا، كأنَّهم أُخِذوا منها[4].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِفْهامٌ مُستَعمَلٌ في التَّعجُّبِ من حالِهم، وهو مُفرَّعٌ بالفاءِ على ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والمَعْنى: أخَذتُهُم أخْذًا عَجيبًا؛ كيف تَرَونَ أُعْجوبَتَه[5]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه مَزيدُ تَشْديدٍ وتَهْويلٍ[١]. والنَّكيرُ: اسمٌ لشِدَّةِ الإنْكارِ، وهو هنا كِنايةٌ عن شِدَّةِ العِقابِ؛ لأنَّ الإنكارَ يَستلزِمُ الجَزاءَ على الفِعلِ المُنكَرِ بالعِقابِ، وحُذِفتْ ياءُ المُتكلِّمِ -فأصله: (نَكيري)- تَخْفيفًا؛ ولرِعايةِ الفَواصِلِ في الوَقفِ؛ لأنَّ الفَواصِلَ يُعتبَرُ فيها الوَقْفُ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

الآيتان (٢٧-٢٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿جُدَدٌ﴾: أي: خُطوطٌ وطَرائِقُ تكونُ في الجِبالِ، واحِدُها: جُدَّةٌ، وهي: الطريقةُ الظَّاهِرةُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على القَطعِ[1].

﴿وَغَرَابِيبُ﴾: جمْعُ غِربيبٍ، وهو: الشَّديدُ السَّوادِ، والعَرَبُ تقولُ للشَّديدِ السَّوادِ الذي لونُه كلَونِ الغُرابِ: أسوَدُ غِربيبٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالَى أدلَّةً أُخرى على عَظيمِ قُدرتِه، فيقولُ: ألم ترَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا به ثَمراتٍ مُختلِفةَ الألوانِ مع أنَّها جميعًا تُسقَى بماءٍ واحدٍ، وجعَلْنا بقُدرتِنا مِنَ الجبالِ خُطوطًا وقِطَعًا ذاتَ ألوانٍ مُختَلِفةٍ؛ فمنها الأبيضُ، ومنها الأحمرُ، ومنها ما هو شَديدُ السَّوادِ؛ ومِنَ النَّاسِ والدوابِّ والأنعامِ أصنافٌ وأنواعٌ مختَلِفٌ ألوانُها اختِلافًا كذلك الاختِلافِ الكائِنِ في الجِبالِ وفي أنواعِ الثِّمارِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

ثُمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه مَن هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بخَشيتِه، فيقولُ: إنَّما يَخشَى اللهَ تعالَى العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وشَرائعِه، إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقْصٍ، غَفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ تعالَى وَحدانيَّتَه بأدِلَّةٍ قرَّبَها، وأمْثالٍ ضَرَبها؛ أتْبَعَها بأدلَّةٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ أنزلَ من السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا بهذا الماءِ الواحِدِ ثَمراتٍ مُختَلِفةَ الألوانِ[2]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢-٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

أي: وجَعَل سُبحانَه مِن[1] الجِبالِ خُطوطًا وطَرائِقَ بيضاءَ وحَمراءَ، مُختَلِفةَ الألوانِ، وخُطوطًا وطَرائِقَ شَديدةَ السَّوادِ[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها استِدلالٌ آخَرُ على قُدرةِ اللهِ تعالَى وإرادتِه[3].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾.

أي: وكما جعَلَ اللهُ ألوانَ الثَّمَراتِ والجِبالِ مُختَلِفةً، كذلك جعَلَ النَّاسَ والدَّوابَّ[4] والأنعامَ من الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ مُختَلِفةَ الألوانِ، كالحُمرةِ، والبَياضِ، والسَّوادِ، والصُّفرةِ، وغيرِها مِن الألوانِ[5].

(١) قال ابن عاشور: (﴿مِنۡ﴾ تبعيضيةٌ على معنَى: وبعضُ تُرابِ الجبالِ جُدَدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٢-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٦).

(٤) قال ابنُ كَثير: (وهو: كُلُّ ما دبَّ على قوائِمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بها ما عدا النَّاسَ والأنعامَ، فتَشمَلُ كُلَّ ما دَبَّ على الأرضِ إلَّا النَّاسَ والأنعامَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن الكلام الأوَّلِ، فيجيء الوَقفُ عليه حسَنًا، وإلى هذا ذهب كثيرٌ من المفسِّرين. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ من الكلامِ الثَّاني يخرُجُ مَخرجَ =

كما قال تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قال تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وعَدَّدَ آياتِه وأعلامَ قُدرَتِه، وآثارَ صَنعَتِه، وما خَلَقَ مِنَ الفِطَرِ المُختَلِفةِ الأجناسِ، وما يُستَدَلُّ به عليه وعلى صِفاتِه؛ أتْبَعَ ذلك قولَه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، كأنَّه قال: إنَّما يَخشاهُ مِثلُكَ ومَن على صِفَتِكَ مِمَّن عَرَفَه حَقَّ مَعرِفَتِه[1].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

أي: إنَّما يَخافُ اللهَ تعالَى ويُعظِّمُه، فيتَّقي عِقابَه بطاعتِه وتَرْكِ مَعصيتِه مِن خلقِه: العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وقُدْرتِه على كُلِّ شيءٍ، والعالِمونَ بشَرائعِه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٩].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ

= السَّبَبِ، كأنَّه قال: كما جاءت القُدرةُ في هذا كُلِّه إنَّما يَخشَى اللهَ من عِبادِه العُلماءُ. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن جُزي)) (٢/ ١٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

إنِّي لأَرْجو أنْ أكونَ أخشاكم لِلهِ، وأعْلَمَكم بما أتَّقي))[(١)].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يا أمَّةَ مُحمَّدٍ، واللهِ لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ، لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا))[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ مُنتقِمٌ ممَّن كفَرَ به وعصاه، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ التَّنبيهُ على أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفكَّرَ في خَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ هذا تقريرٌ، والتَّقريرُ لا يكونُ إلَّا بعدَ أنْ يَنظُرَ المُقرَّرُ فيما قُرِّرَ به؛ حتى يُقِرَّ به ويَعترِفَ[(٤)].

٧- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ الخَشيةُ بقَدْرِ مَعرفةِ المَخشيِّ؛ والعالِمُ يَعرِفُ اللهَ فيَخافُه ويَرجوه، وهذا دَليلٌ على أنَّ العالِمَ أعْلَى دَرجةً مِن العابِدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فبَيَّن أنَّ الكرامةَ بقَدرِ التَّقوى. والتَّقوى بقَدرِ العِلمِ؛ فالكرامةُ بقَدرِ العِلمِ لا بقَدرِ العَمَلِ، نَعَم، العالِمُ إذا ترَكَ العَمَلَ قَدَح ذلك في عِلمِه[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (١١١٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٠٤٤) واللفظ له، ومُسلِمٌ (٩٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧-٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٦).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فَضيلةُ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لا يَتَّصِفُ بها إلَّا العُلَماءُ[١].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ المرادُ بالعُلَماءِ هم الذين عَلِموه بصِفاته وتَوحيدِه، وما يجوزُ عليه وما يجِبُ له، وما يَستحيلُ عليه؛ فعَظَّموه وقدَّروه حَقَّ قَدرِه، وخَشُوه حَقَّ خَشيتِه، ومَن ازدادَ به عِلمًا ازدادَ منه خوفًا، ومَن كان عِلمُه به أقَلَّ كان آمَنَ[٢].

١٠- مَن عرَفَ اللهَ لم يكُنْ شَيءٌ أحَبَّ إليه منه، ولم تَبقَ له رغبةٌ فيما سِواه إلَّا فيما يقَرِّبُه إليه، ويُعينُه على سَفَرِه إليه، ومن عَلاماتِ المعرفةِ الهَيبةُ؛ فكلَّما ازدادتْ معرِفةُ العبدِ برَبِّه ازدادتْ هيبتُه له وخَشيتُه إيَّاه، كما قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: العُلَماءُ به، ومَن عرَفَ اللهَ صفَا له العَيشُ، وطابَتْ له الحياةُ، وهابه كُلُّ شَيءٍ، وذهَب عنه خوفُ المخلوقينَ، وأنِسَ باللهِ، واستوحشَ مِن النَّاسِ، وأورثَتْه المعرفةُ الحياءَ مِن اللهِ، والتعظيمَ له والإجلالَ، والمراقبةَ والمحبَّةَ، والتوكُّلَ عليه، والإنابةَ إليه، والرِّضا به، والتَّسليمَ لأمرِه[٣].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيه أنَّ العِلمَ التامَّ يَستلزِمُ الخَشيةَ؛ فمَن كان باللهِ وبأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه وأحكامِه أعلَمَ، كان له أخشَى وأتْقَى[٤]، والعلماءُ باللهِ العارِفونَ به هُمُ الذين يَخْشَونه حَقَّ خَشيتِه؛ لأنَّه كلَّما كانتِ المعرفةُ للعظيمِ القَديرِ العليمِ الموصوفِ بصِفاتِ الكمالِ، المنعوتِ بالأسماءِ الحُسنَى-كلَّما كانتِ المعرفةُ به أتمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانتِ الخشيةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيِّم (ص: ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٨١).

له أعظمَ وأكثرَ[١]، وهذه الخَشيةُ توجِبُ له الانكِفافَ عن المعاصي، والاستِعدادَ لِلقاءِ مَن يخشاه، وهذا دَليلٌ على فَضيلةِ العِلمِ؛ فإنَّه داعٍ إلى خَشيةِ اللهِ، وأهلُ خَشيتِه هم أهلُ كرامتِه، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨][٢]؛ فخَوفُ العَبدِ مِن اللهِ لا يحصُلُ إلَّا إذا عَلِمَ كَونَه تعالى عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ، قادرًا على كُلِّ المقدوراتِ، غيرَ راضٍ بالمُنكَراتِ والمحَرَّماتِ؛ فإذَن الخَوفُ مِن لوازمِ العِلمِ باللهِ، وبهذا يُعرَفُ نباهةُ قَدرِ العِلمِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الخَشيةَ لا تَثبُتُ لأهلِها إلَّا بالعِلمِ، وأنَّ العِلمَ لا يَتكاملُ لأهله إلَّا بالفِكرِ في خَلقِ اللهِ، والإيمانِ بجميلِ صُنعِه وقُدرتِه المحيطةِ بخَلقِه؛ لأنَّه جلَّ وعلا ابتدأ الآيةَ، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾، وذَكَرَ الجبالَ والنَّاسَ والأنعامَ واختِلافَ ألوانِها، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ فدلَّ على أنَّ العُلَماءَ لهم فيما ذَكَره مُعتبَرٌ وفِكرٌ، وتَولُّدُ خَشيةٍ مِن قادرٍ هذا فِعلُه وصُنعُه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ ذَكَرَ هذا الدَّليلَ على طريقةِ الاستِخبارِ، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، وذكَرَ الدَّليلَ المتقَدِّمَ على طريقةِ الإخبارِ، وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وفي ذلك وجهانِ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (١/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٠).

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ إنزالَ الماءِ أقرَبُ إلى النَّفعِ، والمنفعةُ فيه أظهَرُ؛ فإنَّه لا يَخفَى على أحدٍ في الرُّؤيةِ أنَّ الماءَ منه حياةُ الأرضِ؛ فعظَّم دَلالتَه بالاستِفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ الذي للتَّقريرِ لا يُقالُ إلَّا في الشَّيءِ الظَّاهِرِ جدًّا، كما أنَّ مَن أبصَرَ الهِلالَ وهو خفيٌّ جدًّا، فقال له غيرُه: أين هو؟ فإنَّه يقولُ له: في الموضِعِ الفُلانيِّ، فإذا لم يَرَه يقولُ له: الحَقُّ معك؛ إنَّه خَفيٌّ وأنت معذورٌ، وإذا كان بارزًا يقولُ له: أمَا تراه؟ هذا هو ظاهِرٌ!

الوجهُ الثَّاني: وهو أنَّه ذكَرَه بعدَما قرَّر المسألةَ بدَليلٍ آخَرَ، وظهَرَ بما تقدَّم للمَدعوِّ بَصارةٌ بوجوهِ الدَّلالاتِ، فقال له: أنت صِرتَ بصيرًا بما ذكَرْناه، ولم يبقَ لك عذرٌ، ألا ترَى هذه الآيةَ[(١)]؟!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ فإنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ، ففي الآيةِ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قدْ قَرَنَ الأشياءَ بأسبابِها، وهذا مِن تمامِ حكمتِه؛ أنْ تكونَ الأسبابُ والمُسَبَّباتُ مُتلازِماتٍ؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُخْرِجَ هذه الثمراتِ بدون ماءٍ! ولكنْ قد جَعَلَ لكلِّ شيءٍ سببًا[(٢)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بإخراجِ هذه الثَّمَراتِ المختَلِفةِ الألوانِ مع أنَّها في أرضٍ واحدةٍ، وتُسقَى بماءٍ واحدٍ، ويَظهَرُ ذلك لك جَلِيًّا إذا نظرتَ إلى الزهورِ كيف تَجِدُ هذا الاختلافَ العجيبَ بينها مع أنَّها تُسقَى بماءٍ واحدٍ[(٣)]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٦).

١٦- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ ذكَرَ (الجِبالَ) ولم يذكُرِ (الأرضَ)، كما قال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرعد: ٤]، مع أنَّ هذا الدَّليلَ مِثلُ ذلك؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لَمَّا ذكرَ في الأوَّلِ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ﴾ [فاطر: ٢٧]، كان نفْسُ إخراجِ الثِّمارِ دَليلًا على القُدرةِ، ثمَّ زاد عليه بيانًا، وقال: ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾، كذلك في الجِبالِ في نَفسِها دَليلٌ للقُدرةِ والإرادةِ؛ لأنَّ كونَ الجِبالِ في بَعضِ نواحي الأرضِ دونَ بَعضِها، والاختِلافَ الذي في هيئة الجبلِ -فإنَّ بَعضَها يكونُ أخفَضَ، وبَعضُها أرفَعَ-: دليلُ القُدرةِ والاختيارِ، ثمَّ زاده بيانًا وقال: ﴿جُدَدُۢ بِيضٞ﴾، أي: مع دَلالتِها بنَفسِها هي دالَّةٌ باختلافِ ألوانِها، كما أنَّ إخراجَ الثَّمراتِ في نَفسِها دلائِلُ، واختلافَ ألوانِها دليلٌ[1].

١٧- قال تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ لَمَّا ذَكَر الغَرابيبَ -وهو الشَّديدُ السَّوادِ- لم يَذكُرْ فيه ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾؛ لأنَّه مِن حيثُ جَعَلَه شَديدَ السَّوادِ -وهو المُبالِغُ في غايةِ السَّوادِ- لم يكُنْ له ألوانٌ، بل هذا لَونٌ واحِدٌ، بخِلافِ البِيضِ والحُمْرِ؛ فإنَّها مُختَلِفةٌ[2].

١٨- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ اختِلافُ الألوانِ المذكورةِ: مِن غرائِبِ صُنعِه تعالَى وعَجائبِه، ومِن البراهينِ القاطِعةِ على أنَّه هو المؤثِّرُ جَلَّ وعلا، وأنَّ إسنادَ التأثيرِ للطَّبيعةِ مِن أعظَمِ الكُفرِ والضَّلالِ[3].

١٩- قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٣).

[البينة: ٧] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، فأخبَرَ أنَّ خيرَ البريَّةِ مَن خَشِيَ ربَّه، وأخبَرَ في الآيةِ هنا أنَّ العُلَماءَ باللهِ هم الذين يَخشَونَه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ فحَصَل بمجموعِ الآيتَينِ أنَّ أهلَ العِلمِ باللهِ هم خيرُ البَريَّةِ وإنْ كانوا على طَبَقاتٍ في ذلك[١].

٢٠- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يَقتضي الحَصرَ مِن الطَّرفينِ: ألَّا يخشاه إلَّا العُلماءُ، ولا يكونَ عالِمًا إلَّا مَن يخشاه؛ فلا يخشاه إلَّا عالِمٌ، وما مِن عالِمٍ إلَّا وهو يخشاه، فإذا انتفَى العِلمُ انتفتِ الخشيةُ، وإذا انتفتِ الخشيةُ دلَّت على انتِفاءِ العِلمِ[٢].

٢١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الخشيةَ هي: الخوفُ الناتجُ عن عِلْمٍ[٣].

٢٢- الخَشيةُ أخَصُّ مِن الخَوفِ؛ فإنَّ الخَشيةَ للعُلَماءِ باللهِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمَعرفةٍ؛ فالخَوفُ حَركةٌ، والخَشيةُ انجماعٌ وانقِباضٌ وسكونٌ؛ فإنَّ الذي يرَى العدوَّ والسَّيلَ ونحوَ ذلك، له حالتانِ:

إحداهما: حركةٌ للهَرَبِ منه، وهي حالةُ الخَوفِ.

والثانيةُ: سُكونُه وقرارُه في مكانٍ لا يَصِلُ إليه فيه، وهي الخَشيةُ؛ فالخوفُ لعامَّةِ المؤمِنينَ، والخشيةُ للعُلَماءِ العارفينَ، وعلى قَدرِ العِلمِ والمعرفةِ يكونُ الخَوفُ والخشيةُ، فصاحِبُ الخوفِ يلتَجئُ إلى الهرَبِ والإمساكِ، وصاحِبُ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).

الخَشيةِ يلتجئُ إلى الاعتِصامِ بالعِلمِ، ومَثَلُهما مَثَلُ مَن لا عِلمَ له بالطِّبِّ، ومَثَلُ الطَّبيبِ الحاذِقِ؛ فالأوَّلُ يَلتجئُ إلى الحِمْيةِ والهرَبِ، والطَّبيبُ يَلتجئُ إلى مَعرفتِه بالأدويةِ والأدواءِ[1].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يدُلُّ بالالْتزامِ على أنَّ غيرَ العُلَماءِ لا تَتأتَّى منهم خَشيةُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ البَشَرَ في أحوالِ قُلوبِهم ومَدارِكِهم مختَلِفونَ، وهذا مِثلُ قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[2] [فاطر: ١٨].

٢٤- العُلَماءُ في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ هم العُلَماءُ باللهِ؛ العُلَماءُ بأسمائِه وصِفاتِه وآياتِه، وليس المرادُ بهم عُلَماءَ الصِّناعةِ والتكنولوجيا وما أشبهَ ذلك؛ فإنَّ هؤلاء عُلَماءُ في الدُّنيا، يَعلمونَ ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا؛ وذلك أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ بحالِ المَخْشيِّ، ومَعلومٌ أنَّ العِلمَ بهذه الصَّنائعِ لا تَعَلُّقَ له بعَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو مادِّيٌّ مَحضٌ، بخِلافِ المعرفةِ باللهِ وعظَمتِه؛ فأهلُ المعرفةِ به هم أهلُ خَشيتِه[3].

٢٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ مَن خَشِيَ اللهَ وأطاعه، وامتثَلَ أوامِرَه واجتنَبَ نواهيَه: فهو عالمٌ؛ لأنَّه لا يَخشاه إلَّا عالمٌ، وعلى نفْيِ الخَشيةِ عن غيرِ العُلَماءِ، ونَفيِ العِلمِ عن غيرِ أُولي الخشيةِ أيضًا، وأنَّ مَن لم يخشَ اللهَ فليس بعالمٍ، وبذلك فسَّرها السَّلَفُ.

وممَّا يُبيِّنُ أنَّ العِلمَ يُوجِبُ الخَشيةَ، وأنَّ فَقدَه يَستلزِمُ فَقْدَ الخَشيةِ؛ وُجوهٌ:

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (١/ ٥٠٩،٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٢٦).

أحدُها: أنَّ العِلمَ باللهِ تعالَى وما له مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالكِبرياءِ والعَظَمةِ، والجَبَروتِ والعِزَّةِ.. وغيرِ ذلك: يُوجِبُ خَشيتَه؛ وعدمَ ذلك يستلزِمُ فَقْدَ هذه الخَشيةِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ العِلمَ بتفاصيلِ أمرِ اللهِ ونَهيِه، والتَّصديقَ الجازِمَ بذلك وبما يترتَّبُ عليه مِن الوَعدِ والوَعيدِ، والثَّوابِ والعِقابِ، مع تيقُّنِ مُراقبةِ اللهِ واطِّلاعِه ومُشاهدتِه، ومَقتِه لعاصيه، وحُضورِ الكِرامِ الكاتِبينَ: كُلُّ هذا يُوجِبُ الخَشيةَ، وفِعلَ المأمورِ، وتَرْكَ المحظورِ، وإنَّما يَمنَعُ الخَشيةَ ويُوجِبُ الوقوعَ في المحظوراتِ: الغَفلةُ عن استِحضارِ هذه الأمورِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ تصوُّرَ حَقيقةِ المَخُوفِ يُوجِبُ الهربَ منه، وتصوُّرَ حقيقةِ المحبوبِ يُوجِبُ طَلَبه، فإذا لم يَهرُبْ مِن هذا، ولم يَطلُبْ هذا؛ دلَّ على أنَّ تصوُّرَه لذلك ليس تامًّا، وإنْ كان قد تصوَّرَ الخبَرَ عنه. وتصوُّرُ الخبرِ وتصديقُه وحِفظُ حُروفِه: غيرُ تصوُّرِ المخبرِ به؛ فإذا أُخبِرَ بما هو محبوبٌ أو مكروهٌ له، ولم يُكذِّبِ الخبَرَ، بل عرَفَ صِدقَه، لكنْ قَلبُه مَشغولٌ بأمورٍ أُخرى عن تصوُّرِ ما أُخبِرَ به: فهذا لا يَتحرَّكُ للهَرَبِ ولا للطَّلبِ.

الوجهُ الرَّابِعُ: أنَّ كثيرًا من الذُّنوبِ قد يكونُ سَببُ وُقوعِه جَهْلَ فاعِلِه بحَقيقةِ قُبحِه وبُغضِ اللهِ له، وتفاصيلِ الوَعيدِ عليه، وإن كان عالِمًا بأصلِ تحريمِه وقُبحِه، لكِنَّه يكونُ جاهلًا بما وردَ فيه من التَّغليظِ والتَّشديدِ ونهايةِ القُبحِ؛ فجَهلُه بذلك هو الذي جرَّأه عليه وأوقعَه فيه، ولو كان عالِمًا بحَقيقةِ قُبحِه لأوجبَ ذلك العِلمُ تَرْكَه؛ خَشيةً من عقابِه.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ كُلَّ مَن عَلِمَ عِلمًا تامًّا جازِمًا بأنَّ فِعلَ شَيءٍ يَضُرُّه ضَررًا راجِحًا، ولم يفعَلْه؛ فإنَّ هذا خاصَّةُ العاقِلِ، فإنَّ نفسَه تنصَرِفُ عمَّا يُعلَمُ رُجحانُ

ضَرَرِه بالطَّبعِ؛ فإنَّ اللهَ جعَل في النَّفْسِ حُبًّا لِمَا ينفَعُها، وبُغضًا لِما يضُرُّها، فلا يفعَلُ ما يَجزِمُ بأنَّه يَضُرُّها ضررًا راجِحًا، ولا يقعُ ذلك إلَّا مع ضَعيفِ العَقلِ.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ لذَّاتِ الذُّنوبِ لا نِسبةَ لها إلى ما فيها مِن الآلامِ والمفاسِدِ البتَّةَ؛ فإنَّ لذَّاتِها سَريعةُ الانقضاءِ، وعُقوباتِها وآلامَها أضعافُ ذلك، ومن هاهنا يُعلَمُ أنَّه لا يُؤثِرُ لذَّاتِ الذُّنوبِ إلَّا من هو جاهِلٌ بحَقيقةِ عواقِبِها.

الوجهُ السَّابعُ: أنَّ المُقدِمَ على مُوافَقةِ المحظورِ إنَّما أوْجبَ إقدامَه عليه ما فيه مِن اللَّذَّةِ الحاصِلةِ له به، فظَنَّ أنَّه تحصُلُ له لذَّتُه العاجلةُ، ورجَا أنْ يَتخَلَّصَ مِن تَبِعتِه بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ولو بالعَفوِ المجرَّدِ، فيَنالَ به لذَّةً، ولا يَلحَقَه به مَضرَّةٌ! وهذا من أعظَمِ الجَهلِ، والأمرُ بعَكسِ باطِنِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ يَتبَعُها -ولا بُدَّ- مِن الهُمومِ والآلامِ، وضِيقِ الصَّدرِ، والنَّكدِ، وظُلمةِ القَلبِ وقَسوتِه: أضعافُ أضعافِ ما فيها مِن اللَّذَّةِ، ويفوتُ بها مِن حلاوةِ الطَّاعاتِ، وأنوارِ الإيمانِ، وسُرورِ القَلبِ ببَهجةِ الحَقائِقِ والمعارِفِ: ما لا يُوازي الذَّرَّةَ منه جميعُ لذَّاتِ الدُّنيا! فيَحصُلُ لصاحِبِ المعصيةِ العِيشةُ الضَّنكُ، وتفوتُه الحياةُ الطيِّبةُ؛ فينعكِسُ قَصدُه بارتكابِ المعصيةِ[1].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استِئنافٌ في إيضاحُ ما سبقَه مِنَ اختِلافِ أحوالِ الناسِ في قَبولِ الهُدى ورَفضِه؛ بسَبَبِ ما تهَيَّأتْ خِلْقةُ النُّفوسِ إليه؛ لِيَظهَرَ به أنَّ الاختِلافَ بيْنَ أفرادِ الأصْنافِ والأنواعِ ناموسٌ جِبِلِّيٌّ فَطَرَ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٨٦- ٨٠٧).

اللهُ عليه مَخلوقاتِ هذا العالَمِ الأرضيِّ. والخِطابُ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَدفَعَ عنه اغتِمامَه مِن مُشاهَدةِ عَدَمِ انتِفاعِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ(١).

- وضُرِبَ اختِلافُ الظَّواهِرِ في أفرادِ الصِّنفِ الواحِدِ مَثَلًا لاختِلافِ البواطِنِ؛ تَقريبًا للأفهامِ، فكان هذا الاستِئنافُ مِن الاستئنافِ البَيانيِّ؛ لأنَّ مِثلَ هذا التَّقريبِ ممَّا تَشرئِبُّ إليه الأفهامُ عندَ سَماعِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾(٢) [فاطر: ٢٢].

- وهذا الاستِفهامُ ﴿أَلَمۡ تَرَ ...﴾ تَقريريٌّ، وجاء التَّقريرُ على نَفْيِ الرُّؤيةِ؛ لأنَّ نفْيَ الرُّؤيةِ هو غيرُ الواقعِ مِن حالِهم في نفْسِ الأمرِ، ولكنَّ حالَهم يُشبِهُ حالَ مَن لا يَرَون هذا، فوقَعَ الاستِفهامُ عنه لعلَّهم لم يَرَوا ذلك؛ مُبالَغةً(٣).

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ ذِكرُ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ إدْماجٌ(٤) في الغَرَضِ؛ لِلاعتِبارِ بقُدرةِ اللهِ مع ما فيه مِنَ اتِّحادِ أصْلِ نَشْأةِ الأصنافِ والأنواعِ، كَقَولِه تَعالَى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وذلك أرْعَى لِلاعتبارِ. وجيءَ بالجُملتَيْنِ الفِعليَّتَيْنِ في ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ لِأنَّ إنزالَ الماءِ وإخراجَ الثَّمَراتِ مُتجَدِّدٌ آنًا فآنًا(٥).

- والالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ ﴿أَنزَلَ﴾ إلى التَّكَلُّمِ في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ لإظْهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بالفِعلِ؛ لِمَا فيه مِنَ الصُّنعِ البَديعِ المُنْبِئِ عن كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠)، (٢٢/ ٣٠٠).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١).

ولأنَّ الاسمَ الظاهِرَ ﴿ٱللَّهَ﴾ أنسَبُ بمَقامِ الاستِدلالِ على ذلك؛ لأنَّه الاسمُ الجامِعُ لِمَعاني الصِّفاتِ. وضَميرُ التَّكلُّمِ في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أنسَبُ بما فيه مِنَ امتِنانٍ؛ لِمَا في ذلك مِنَ الفَخامةِ؛ إذْ هو مُسنَدٌ للمُعظِّمِ نَفسَه المُتكلِّمِ، ولأنَّ نِعمةَ الإخراجِ أتَمُّ مِن نِعمةِ الإنزالِ؛ لِفائدةِ الإخراجِ، فأسنَدَ الأتَمَّ إلى ذاتِه بضَميرِ المُتَكلِّمِ، وما دُونَه بضَميرِ الغائِبِ(١).

وقيل: لأنَّه إنْ كان جاهِلًا يَقولُ: نُزولُ الماءِ بالطَّبعِ؛ لِثقلِه! فيُقالُ له: فالإخراجُ لا يُمكِنُك أنْ تقولَ فيه: إنَّه بالطَّبعِ؛ فهو بإرادةِ اللهِ، فلمَّا كان ذلك أظهَرَ، أسنَدَه إلى المتكلِّمِ. وقيل: لأنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ عُلِمَ اللهُ بدليلٍ، وقَرُب المتفكِّرُ فيه إلى اللهِ تعالى؛ فصار من الحاضِرينَ، فقال له: (أَخْرَجْنَا)؛ لِقُربِه(٢).

- وقَدَّمَ الاعتِبارَ باختِلافِ أحوالِ الثَّمَراتِ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾؛ لأنَّ في اختِلافِها سَعةً تُشبِهُ سَعةَ اختِلافِ الناسِ في المَنافِعِ والمَدارِكِ والعَقائِدِ(٣).

- وفي قَولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ قاله بتأنيثِ الضَّميرِ في ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾؛ لِعَودِه إلى الثَّمَراتِ، وقال ثانيًا: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ بتأنيثِه أيضًا؛ لِعَودِه إلى الجِبالِ، وقال ثالثًا: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ بتَذكيرِه؛ لِعَودِه إلى بَعضِ المَفهومِ من لَفظِ ﴿مِنَ﴾ في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾(٤). وأيضًا جُرِّدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨- ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز في =

قولُه: ﴿مُخْتَلِفًا﴾ مِن عَلامةِ التَّأنيثِ، معَ أنَّ فاعلَه جمْعٌ -وشَأنُ النَّعتِ السَّببيِّ أنْ يُوافِقَ مَرفوعَه في التَّذكيرِ وضِدِّه، والإفرادِ وضِدِّه، ولا يُوافِقُ في ذلك مَنعوتَه-؛ لأنَّه لَمَّا كان الفاعِلُ جمْعًا لِمَا لا يَعقِلُ -وهو الألوانُ- كان حَذفُ التَّاءِ في مِثلِه جائزًا في الاستِعمالِ، وآثَرَه القرآنُ إيثارًا للإيجازِ[1].

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ فيه تَقديمُ الخَبَرِ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ولِلتَّشويقِ لِذِكرِ المُبتَدأِ؛ حَثًّا على التأمُّلِ والنَّظَرِ[2].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّدبيجِ -وهو أنْ يَذكُرَ المُتكَلِّمُ ألوانًا يَقصِدُ الكِنايةَ بها والتَّوريةَ بذِكرِها عن أشياءَ؛ مِن وَصْفٍ أو مَدْحٍ، أو هِجاءٍ أو نَسيبٍ، أو غيرِ ذلك مِنَ الفُنونِ- وقد أرادَ اللهُ تَعالَى بذلك الكِنايةَ عنِ المُشتَبِهِ مِنَ الطُّرُقِ؛ لِأنَّ الجادَّةَ البَيضاءَ هي أوضَحُ الطُّرُقِ وأبيَنُها، ودُونَها الحَمراءُ، ودُونَ الحَمراءِ السَّوداءُ، كأنَّها في خَفائِها والْتِباسِ مَعالِمِها ضِدُّ البَيضاءِ في الظُّهورِ والوُضوحِ، ولَمَّا كانتْ هذه الألوانُ الثلاثةُ في الظُّهورِ لِلعَينِ طَرَفَيْنِ وواسطةً بيْنَهما؛ فالطَّرَفُ الأعْلَى في الظُّهورِ البَياضُ، والطَّرَفُ الأدْنَى في الخَفاءِ السَّوادُ، والأحمَرُ بيْنَهما على وَضَحِ الألوانِ والتَّراكيبِ، وكانتْ ألوانُ الجِبالِ لا تَخرُجُ -في الأغلَبِ- عن هذه الألوانِ الثَّلاثةِ، والهِدايةُ بكُلِّ عَلَمٍ نُصِبَ لِلهِدايةِ مُنقَسِمةٌ هذه القِسمةَ؛ أتَتِ الآيةُ الكَريمةُ على هذا

= لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٨-٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٢).

التَّقسيمِ، فحَصَلَ فيها التَّدبيجُ مع صِحَّةِ التَّقسيم، وهي مَسرودةٌ على نَمَطٍ مُتَعارَفٍ، مَسوقةٌ لِلاعتِدادِ بالنِّعَمِ على ما هَدَتْ إليه مِنَ السَّعيِ في طَلَبِ المَصالِحِ والمَنافِعِ، وتجَنُّبِ المَعاطِبِ والمَهالِكِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (غَرابيبُ) جمْع غِربيبٍ، والغِربيبُ: اسمٌ للشَّيءِ الأسودِ الحالِكِ سوادُه، ولعلَّه مأخوذٌ من الغُرابِ لشُهرةِ الغُرابِ بالسَّوادِ. و﴿سُودٌ﴾ جمْع أَسودَ، فالغِربيبُ يَدُلُّ على أشَدَّ مِن مَعنى أسوَدَ؛ فكانَ مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ (غَرابيبُ) مُتَأخِّرًا عن ﴿سُودٌ﴾؛ لِأنَّ الغِربيبَ تأكيدٌ للأسودِ، ولأنَّ الأغلَبَ أنَّهم يَقولونَ: أسوَدُ غِربيبٌ، كما يَقولونَ: أبيَضُ يَقَقٌ، وأصفَرُ فاقِعٌ، وأحمَرُ قانٍ، ولا يَقولونَ: غِربيبٌ أسوَدُ، وإنَّما خُولِفَ ذلك؛ لِلرِّعايةِ على الفَواصِلِ المَبنيَّةِ على الواوِ والياءِ السَّاكنتينِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ولِزيادةِ التَّوكيدِ؛ حيثُ يَدُلُّ على المَعنى الواحِدِ مِن طَريقَيِ الإظهارِ والإضمارِ جَميعًا(٢).

٢- قَولُه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

- إيرادُ الجُملتَيْنِ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ [فاطر: ٢٧] و﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ اسميَّتَيْنِ مع مُشارَكتِهما لِمَا قَبلَهُما مِنَ الجُملَةِ الفِعليَّةِ في الاستِشهادِ بمَضمونِهما على تَبايُنِ النَّاسِ في الأحوالِ الباطِنةِ؛ لِمَا أنَّ اختِلافَ الجِبالِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ فيما ذُكِرَ مِنَ الألوانِ أمْرٌ مُستَمِرٌّ،

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٩- ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣).

فعَبَّرَ عنه بما يَدُلُّ على الاستمرارِ، وأمَّا إخراجُ الثَّمراتِ المُختَلِفةِ فحيثُ كان أمرًا حادِثًا عبَّرَ عنه بما يَدُلُّ على الحُدوثِ[١].

- ولَمَّا كان إخراجُ الثَّمَراتِ المُختَلِفةِ فيه نوعُ خَفاءٍ علَّقَ به الرُّؤيةَ بطَريقِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ المُنبِئِ عنِ الحَملِ عليها، والتَّرغيبِ فيها، بخِلافِ أحوالِ الجِبالِ والنَّاسِ وغيرِهما؛ فإنَّها مُشاهَدةٌ غَنيَّةٌ عنِ التأمُّلِ؛ فلذلك جُرِّدتْ عنِ التَّعليقِ بالرُّؤيةِ[٢].

- وَ(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تَبعيضيَّةٌ، والمَعنى: أنَّ المُختَلِفَ ألوانُه بَعضٌ مِنَ الناسِ، ومَجموعُ المُختَلِفاتِ كُلُّه هو الناسُ كُلُّهم، وكذلك الدَّوابُّ والأنعامُ، وهو نَظمٌ دَقيقٌ دَعا إليه الإيجازُ[٣].

- ولَمَّا كانتِ الدابَّةُ في الأصلِ اسمًا لِما دَبَّ على الأرضِ، ثمَّ غَلَبَ إطلاقُه على ما يُركَبُ، قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لِيَعمَّ الكُلَّ صريحًا[٤].

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ابتداءُ كَلامٍ يتنَزَّلُ مَنزِلةَ الإخبارِ بالنَّتيجةِ عَقِبَ ذِكرِ الدَّليلِ، والمَعنى -على قَولٍ-: كذلك أمْرُ الاختِلافِ في ظَواهِرِ الأشياءِ، المُشاهَدِ في اختِلافِ ألوانِها، وهو تَوطِئةٌ لِمَا يَرِدُ بَعدَه مِن تَفصيلِ الاستِنتاجِ بقَولِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: إنَّما يَخشَى اللهَ مِنَ البَشَرِ المُختَلِفةِ ألوانُهمُ العُلماءُ منهم؛ فجُملةُ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ مُستأنَفةٌ عن جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٥).

وإذا عُلِمَ ذلك دلَّ بالالتزامِ على أنَّ غيرَ العلماءِ لا تتأتَّى منهم خَشيةُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ البشرَ في أحوالِ قُلوبِهم ومَداركِهم مُختلِفونَ. وأُوثِرَ هذا الأُسلوبُ في الدَّلالةِ؛ تخلُّصًا لِلتَّنويهِ بأهلِ العِلمِ والإيمانِ؛ لِيَنتقِلَ إلى تَفصيلِ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[1] [فاطر: ٢٩].

- وأيضًا قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ تكمِلةٌ لِقَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]، بتَعيينِ مَن يَخشاهُ عزَّ وجلَّ مِنَ النَّاسِ بعْدَ بَيانِ اختلافِ طَبَقاتِهم، وتَبايُنِ مَراتِبِهم، أمَّا في الأوصافِ المَعنويَّةِ فبِطَريقِ التَّمثيلِ، وأمَّا في الأوصافِ الصُّوريةِ فبِطَريقِ التَّصريحِ؛ تَوفيةً لِكُلٍّ واحدةٍ منهما حَقَّها اللَّائقَ بها مِنَ البَيانِ، أيْ: إنَّما يَخشاهُ تَعالى بالغَيبِ العالِمونَ به عزَّ وجلَّ وبما يَليقُ به مِن صِفاتِهِ الجَليلةِ، وأفعالِه الجَميلةِ[2].

- والقَصْرُ المُستَفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ[3]، أي: إنَّما يَخشاهُ تَعالى بالغَيبِ العالِمونَ به عزَّ وجلَّ وبما يَليقُ به مِن صِفاتِهِ الجَليلةِ، ولا يَخشاهُ الجُهَّالُ، وهم أهلُ الشِّركِ؛ فإنَّ مِن أخَصِّ أوصافِهم أنَّهم أهلُ الجاهليةِ وعَدَمِ العِلْمِ. وتَقديمُ مَفعولِ ﴿يَخْشَى﴾ على فاعِلِه -أي: تَقديمُ اسمِ اللهِ تعالَى، وتأخيرُ العُلماءِ-؛ لِأنَّ المَحصورَ فيهم خَشيةُ اللهِ هم العُلَماءُ، ومعناه: أنَّ الذين يَخْشَونَ اللهَ مِن عِبادِه العُلماءُ دُونَ غيرِهم؛ فوَجَبَ تأخيرُه على سُنَّةِ تأخيرِ المَحصورِ فيه، ولو أُخِّرَ، انعَكَس الأمْرُ؛ فكان المعنَى: أنَّهم لا يَخْشَونَ إلَّا اللهَ، كقولِه: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وبيْنَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) سبَق تعريفُه (ص: ٣٤٨).

تغايُرٌ؛ ففي الأوَّلِ بيانُ أنَّ الخاشِينَ هم العُلماءُ، وفي الثاني بيانُ أنَّ المَخشيَّ منه هو اللهُ تعالَى[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تَعليلٌ لِوجوبِ الخَشيةِ؛ لدَلالَتِه على أنَّه مُعاقِبٌ لِلمُصِرِّ على طُغيانِه، غَفورٌ لِلتَّائِبِ عن عِصيانِه[٢]. وهو أيضًا تَكميلٌ؛ للدَّلالةِ على استِغناءِ اللهِ تَعالى عنْ إيمانِ المُشرِكينَ، ولكنَّه يُريدُ لهم الخَيرَ، ولَمَّا كان في هذا الوَصفِ ضَرْبٌ مِنَ الإعراضِ عنهم ممَّا قد يُحدِثُ يأسًا في نُفوسِ المُقارِبينَ منهم، أُلِّفَتْ قُلوبُهم بإتْباعِ وَصفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ بوَصفِ ﴿غَفُورٌ﴾، أي: فهو يَقبَلُ التوبةَ منهم إنْ تابوا إلى ما دَعاهم اللهُ إليه، على أنَّ في صِفةِ ﴿غَفُورٌ﴾ حَظًّا عَظيمًا لِأحَدِ طَرَفَي القَصْرِ، وهم العُلماءُ، أي: غَفورٌ لهم[٣].

وقيل: مُناسَبةُ ذِكرِ العِزَّةِ والمغفرةِ هنا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ بعدَ ذِكرِ الخَشيةِ: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أهلٌ لأنْ يُخشَى؛ لأنَّه عزيزٌ، وأنَّه إذا نقَصَ شَيءٌ مِن الخَشيةِ فإنَّه يُقابِلُ بالمغفرةِ، فهو عزيزٌ؛ فلذلك كان أهلًا للخَشيةِ؛ وهو غفورٌ إذا نقَصَ شَيءٌ مما يجِبُ له من خَشيتِه عزَّ وجَلَّ[٤]، ولأنَّ العِزَّةَ دالَّةٌ على كَمالِ القُدرةِ على الانتقامِ، ولا يُوصَفُ بالمَغْفرةِ والرَّحمةِ إلَّا القادِرُ على العُقوبةِ[٥]، كما حكَى تعالَى عن عِيسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٦٤).

وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

- وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في موضِعٍ آخَرَ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] فخُولِفَ بيْنَ المَقطعَيْنِ؛ وذلك لأنَّ ما نحن فيه في سُورةِ (فاطِر) أبسَطُ وأجمَعُ مِن تلك الآيةِ التي في سُورةِ (الرَّعدِ)؛ لأنَّ فيها ذِكرَ الثِّمارِ والجِبالِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ واختِلافِها، وهي مُختَصَّةٌ بالثَّمَراتِ(١).

- وصُدِّرتْ هذه الآيةُ بهَمزةِ الاستِفهامِ، وحَرفِ النَّفْيِ (لَمْ)؛ لإفادةِ مَزيدِ التَّقريرِ، وبالخِطابِ العامِّ؛ لِئلَّا تُختَصَّ الرُّؤيةُ براءٍ دُونَ راءٍ؛ لفَخامةِ الأمْرِ، ثم قَرَّرَ هذا المَعنى في أثنائِهما بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: الأمْرُ كما ذَكرتُ، كأنَّه تَعالى يَقولُ: هذه الأشياءُ كُلُّها مُتساويةٌ في الجِسميَّةِ، واختِلافِ أنواعِها، ثم اختِلافِ كُلٍّ منها بما خُصَّ به مِنَ الأصنافِ، لا بُدَّ له من قادرٍ مُختارٍ قاهرٍ يتصَرَّفُ في مُلكِه كيف يَشاءُ، وهذا ظاهِرٌ جَلِيٌّ عنْدَ كُلِّ ذي عقْلٍ(٢).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَبُورَ﴾: أي: تَبطُلَ وتَخسَرَ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[1].

﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: أي: غيرُ المُبالِغِ في طاعةِ ربِّه، بل يكونُ عمَلُه قَصْدًا، وهو المستوي الحالِ بيْنَ الحالَينِ؛ فهو فوقَ الظَّالِمِ لنفْسِه، ودونَ السَّابقِ بالخَيراتِ، وأصلُ (القصد): استقامةُ الطَّريقِ[2].

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَنَ بالمكانِ، يَعْدِنُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ١٠٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١٠).

عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[(١)].

﴿يُحَلَّوْنَ﴾: أي: يُلْبَسون ويُزَيَّنون بالحُلِيِّ[(٢)].

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أَسْوِرةٍ، وأَسْوِرةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الَّذي يُلبَسُ في المِعصَمِ مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ[(٣)].

﴿أَحَلَّنَا﴾: أي: أنزَلَنا وأدخَلَنا، وحَللْتُ: نزلْتُ، أصلُه مِن حَلِّ الأحمالِ عندَ النُّزولِ، ثمَّ جُرِّد استِعمالُه للنُّزولِ، فقيل: حَلَّ حُلُولًا، وأحَلَّه غيرُه[(٤)].

﴿الْمُقَامَةِ﴾: أي: الإقامةِ والخُلودِ، وأصلُ (قوم) هنا: يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[(٥)].

﴿نَصَبٌ﴾: أي: تعَبٌ وعَناءٌ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[(٦)].

﴿لُغُوبٌ﴾: أي: ضَعفٌ وإعياءٌ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢). =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾

قَولُه: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ، وفيه أوجُهٌ؛ أوَّلُها: أنَّه مَعطوفٌ على مَوضِعِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ لأنَّ مَوضِعَهما نصبٌ. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه الأوَّلُ، أي: ويُحَلَّونَ لُؤلؤًا. الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَسَاوِرَ﴾ و(مِنْ) زائِدةٌ فيه عندَ الأخفَشِ، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقُرِئَ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ[١] عَطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾. وقيل: مَجرورٌ عَطفًا على لَفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، وأقاموا الصَّلواتِ، وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم في السِّرِّ والعَلَنِ: يَرجُونَ تجارةً رابحةً لن تَخسَرَ؛ لِيُوَفِّيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم تامَّةً غيرَ مَنقوصةٍ، ويزَيدَهم مِن فَضلِه، إنَّ اللهَ غَفورٌ شَكورٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مثبِّتًا قلْبَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ومُسَلِّيًا له عمَّا أصابه:

= قال الزمخشري: (فإن قلتَ: ما الفرقُ بيْنَ النَّصَبِ واللُّغوبِ؟ قلتُ: النَّصَبُ: التَّعبُ والمَشَقَّةُ الَّتي تُصيبُ المنتصبَ للأمرِ المزاوِلَ له. وأمَّا اللُّغوبُ فما يَلحَقُه مِن الفُتورِ بسببِ النَّصَبِ؛ فالنَّصَبُ: نفْسُ المشَقَّةِ والكُلْفةِ، واللُّغوبُ: نتيجتُه وما يَحدُثُ منه من الكَلالِ والفَترةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٤).

(١) سيأتي بيانُ هذه القراءةِ ومَن قرَأ بها في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٣).

والَّذي أوحَينا إليك -يا محمَّدُ- مِن كِتابِ اللهِ تعالى هو الحَقُّ مُصَدِّقًا لِما بيْن يَدَيه مِن كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ؛ إنَّ اللهَ بعبادِه خَبيرٌ بَصيرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أقسامَ هذه الأُمَّةِ، فيقولُ: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أمَّةَ مُحمَّدٍ الَّتي اختَرْناها؛ فمنهم ظالمٌ لنَفْسِه يُقَصِّرُ في أداءِ بعضِ الواجباتِ، ويقعُ في بعضِ المحرَّماتِ، ومنهم المتوسِّطُ الَّذي يؤدِّي الواجباتِ ويَترُكُ المحرَّماتِ، ومنهم مُسارِعٌ في الخَيراتِ بإذنِ اللهِ تعالى؛ يَفعلُ الواجباتِ والمُستحَبَّاتِ ويَترُكُ المُحرَّماتِ والمَكروهاتِ، ذلك العَطاءُ الَّذي فَضَّلهم اللهُ به هو الفَضلُ الكبيرُ.

ثمَّ يَذكُرُ جزاءَ الَّذين أورَثهم كتابَه، فيقولُ: جنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، يُلبَسونَ فيها أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤًا، ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ.

ثمَّ يحكي اللهُ تعالى ما يَقولونَه بعدَ الفوزِ بالجنَّةِ: وقالوا: الحَمدُ لله الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، إنَّ ربَّنا لَغفورٌ شَكورٌ؛ الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ لا يُصيبُنا فيها تَعَبٌ ولا ضَعفٌ أو فُتورٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وَصْفَهم بالخَشيةِ: وهي عمَلُ القَلبِ؛ ذكَرَ أنَّهم يَتلُون كِتابَ اللهِ: وهو عمَلُ اللِّسانِ، وأقاموا الصَّلاةَ: وهو عَمَلُ الجوارحِ، ويُنفِقونَ: وهو العَمَلُ الماليُّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١).

وأيضًا لَمَّا تقرَّر هذا تشَوَّفَ السَّامعُ إلى مَعرفةِ العُلماءِ، فكان كأنَّه قيل: هم الَّذين يُحافِظونَ على كتابِ اللهِ عِلمًا وعَمَلًا[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين يُداوِمونَ على تِلاوةِ القُرآنِ، فيَتتبَّعونَ ألفاظَه بدراستِها، ومعانيَه باستخراجِها، ويتَّبِعونَه بالعَمَلِ بأحكامِه، والتَّصديقِ بأخبارِه[٢].

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: وداوَموا على أداءِ الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ كما أمَرَ اللهُ تعالى[٣].

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

أي: وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم مِن الأموالِ -طَلَبًا لِمَرضاةِ اللهِ تعالى- في الخَفاءِ حيثُ لا يَراهم أحدٌ، وفي العَلَنِ بمَرْأى مِنَ النَّاسِ[٤].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا حسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجُلٌ آتاه اللهُ القُرآنَ، فهو يقومُ به آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجُلٌ آتاه اللهُ مالًا، فهو يُنفِقُه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥) واللفظ له.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾.

أي: يَرجُونَ بتِلاوتِهم كتابَ اللهِ، وإقامتِهم الصَّلاةَ، وإنفاقِهم في السِّرِّ والعَلانيةِ: تجارةً رائجةً رابحةً باقيةً، لن تَخسَرَ، ولن تَكسُدَ وتَهلِكَ[١].

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المرادُ بعدَمِ هلاكِ هذه التِّجارةِ حِفْظَها وبقاءَها إلى يومِ لقائِه؛ علَّلَه بقَولِه[٢]:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: لِيُؤتيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا؛ مِن تلاوةِ القُرآنِ، والصَّلاةِ، والنَّفَقةِ: على وجْهٍ تامٍّ لا نَقْصَ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧).

قال السمعاني: (والمرادُ مِن التِّجارةِ ما وعَدَه اللهُ مِن الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

قال البقاعي: (في الدُّنيا إن أراد، أو في الآخِرةِ، أو فيهما). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥١).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ هذه اللَّامُ للعاقبةِ، وقيل: للتَّعليلِ؛ فعلى القَولِ بأنَّها للعاقبةِ تكونُ مُتعَلِّقةً بـ ﴿يَرْجُونَ﴾؛ فـ ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ عاقِبتُهم أن يوفِّيَهم اللهُ أجورَهم. وعلى أنَّها للتَّعليلِ مُتعَلِّقةٌ بـ ﴿يَتْلُونَ﴾ ﴿وَأَقَامُوا﴾ ﴿وَأَنفَقُوا﴾ يعني: يَتلونَها ليُوفِّيَهم أجورَهم، وأقاموا الصَّلاةَ ليُوفِّيَهم أجورَهم، وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم ليوفِّيَهم أجورَهم؛ يعني: قصَدوا ما رتَّب اللهُ على هذه الأعمالِ مِن الأجورِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٢).

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

أي: ويَزيدَهم اللهُ مِن كَرمِه فوقَ ما يَستحِقُّونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٧، ٣٨].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت أعمالُهم لا تَنفَكُّ عن شائبةٍ ما وإن خلَصَت؛ فلم يكُنْ ثوابُها -لأنَّها مِنْ مَنِّه سُبحانَه- مُستَحَقًّا؛ علَّل توفيتَهم لها بقَولِه مؤكِّدًا؛ إعلامًا بأنَّه لا يَسَعُ النَّاسَ إلَّا عَفوُه؛ لأنَّه لن يَقدُرَ اللهَ أحَدٌ حَقَّ قَدْرِه وإن اجتهَدَ، ولو آخَذَ أعْبَدَ العُبَّادِ بما يقَعُ مِن تقصيرِه أهلَكَه[٢].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو شَكورٌ فيَتقبَّلُ منهم أعمالَهم وإن قَلَّت، ويُثيبُهم عليها الثَّوابَ الكثيرَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الأصلَ الأوَّلَ، وهو وُجودُ اللهِ الواحدِ، بأنواعِ الدَّلائلِ؛ مِن قَولِه: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩]، وقَولِه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ [فاطر: ١١]، وقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ [فاطر: ٢٧]؛ ذكَرَ الأصلَ الثَّانيَ، وهو الرِّسالةُ، فقال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾.

وأيضًا كأنَّه قد ذَكَر أنَّ الَّذين يَتلُون كِتابَ اللهِ يُوفِّيهم اللهُ، فقال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ تقريرًا لِما بيَّن مِن الأجرِ والثَّوابِ في تلاوةِ كِتابِ اللهِ؛ فإنَّه حَقٌّ وصِدقٌ فتاليه مُحِقٌّ ومُحَقِّقٌ[(١)].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: والَّذي أوحَيْناه إليك -يا محمَّدُ- مِن كتابِ اللهِ تعالى هو الحَقُّ الكامِلُ، التَّامُّ الثَّابتُ الَّذي يجِبُ اتِّباعُه؛ مُصَدِّقًا لِما بيْنَ يديه من كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ[(٢)].

= (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٧-٢٢٠).

قال السعدي: (﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكُتبِ والرُّسلِ؛ لأنَّها أخبرَتْ به، فلمَّا وُجِد وظهَرَ، ظهَر به صِدقُها، فهي بَشَّرَتْ به وأخبَرَتْ، وهو صَدَّقَها؛ ولهذا لا يُمكِنُ أحدٌ أن يؤمنَ بالكُتبِ السَّابقةِ وهو كافرٌ بالقرآنِ أبدًا؛ لأنَّ كُفْرَه به يَنقُضُ إيمانَه بها؛ لأنَّ مِن جملةِ أخبارِها الخبرَ عن القرآنِ، ولأنَّ أخبارَها مُطابِقةٌ لأخبارِ القرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خَبيرٌ بعبادِه؛ فهو عالمٌ بدقائقِ أُمورِهم وأحوالِهم وخفاياها، بصيرٌ بهم وبأعمالِهم[١].

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾.

أي: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أُمَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّتي اختَرْناها مِنْ عِبادِنا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤، ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١١).

قال الرسعني: (اختلف العُلَماءُ في المرادِ بالكتابِ؛ على قولَين:

أحدُهما: أنَّه اسمُ جنسٍ، فعلى هذا فالمرادُ بالمُصطَفَينَ قولان؛ أحدُهما: أنَّهم الأنبياءُ وأتْباعُهم، قاله الحسَنُ. فيكونُ التَّقديرُ: والَّذي أوحَيْنا إليك مِن الكتابِ هو الحقُّ، ثمَّ كُنَّا أورَثْنا الكتابَ الأنبياءَ قَبْلَك... فعلى هذا يكونُ المعنى: فمِن أُمَمِهم ظالمٌ لنَفْسه... الآيةَ. الثَّاني: أنَّهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، على معنى: أورَثْناهم الإيمانَ بالكُتُبِ كُلِّها، قال ابنُ عبَّاسٍ: «أورَثَ اللهُ تعالى أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم كُلَّ كتابٍ أنزله الله تعالى». فعلى هذا تقديرُ الآيةِ: أنزَلْنا الكُتُبَ المتقدِّمةَ، ثمَّ أورَثْنا أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم الإيمانَ بها. ويؤيِّدُ هذا القولَ: أنَّ حقيقةَ الإرثِ: [انتِقالُ الشَّيءِ] مِن قَومٍ إلى قومٍ.

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالكتابِ: القرآنُ. والمعنى: ثمَّ نقَلْنا العلمَ والحُكمَ إلى الَّذين اصطَفينا مِن عبادِنا، وهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم. وهو قَولُ جمهورِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩١).

وقال ابنُ جُزَي: (قال عُمَرُ وابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ وكعبٌ وعائشةُ وأكثرُ المفسِّرينَ: هذه الأصنافُ الثَّلاثةُ في أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٥).

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾.

أي: فمِنهم مَن هو ظالمٌ لنَفْسِه بالتَّقصيرِ والتَّفريطِ؛ يُفرِّطُ في بعضِ الواجباتِ، ويَفعلُ بعضَ المحرَّماتِ، ويُصِرُّ عليها(١).

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾.

أي: ومنهم مَن عمَلُه قَصْدٌ؛ يُؤدِّي الواجباتِ، ويَترُكُ المحرَّماتِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٣، ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٢).

قال السعدي: (فكُلُّهم اصطفاه اللهُ تعالى لوِراثةِ هذا الكتابِ وإن تفاوتَت مراتبُهم، وتميَّزَت أحوالُهم؛ فلكُلٍّ منهم قِسطٌ مِن وِراثته، حتَّى الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فإنَّ ما معه مِن أصلِ الإيمانِ، وعلومِ الإيمانِ، وأعمالِ الإيمانِ: مِن وِراثةِ الكتابِ؛ لأنَّ المرادَ بوِراثةِ الكتابِ وِراثةُ عِلمِه وعَمَلِه، ودِراسةُ ألفاظِه، واستخراجُ معانيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

وفي المرادِ بالظَّالمِ لنفْسِه هاهنا أقوالٌ؛ منها: أنَّهم أهلُ الصَّغائرِ مِن هذه الأمَّةِ. ومنها: أنَّهم أهلُ الكبائرِ وأصحابُ المَشْأمةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٣).

قال الشنقيطي: (الظَّالمُ لنفْسِه وهو الَّذي يُطيعُ اللهَ، ولكنَّه يَعصيه أيضًا، فهو الَّذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]... وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

واختُلِف في المرادِ بالمقتصِدِ؛ فقيل: هم أصحابُ المَيْمَنة. وقيل: المقتصِدَ هو الَّذي يُعطي الدُّنيا حقَّها، والآخِرةَ حَقَّها. وقيل: هو الَّذي استوَتْ حَسَناتُه وسَيِّئاتُه. وقيل: الَّذي لم يُصِبْ كبيرةً. وقيل: هو المؤمنُ العاصي. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠١). =

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومِنهم المؤدِّي للفرائضِ والنَّوافلِ، التَّارِكُ للمُحرَّماتِ والمكروهاتِ، فسَبَق غَيْرَه بإذنِ اللهِ تعالى[1].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

أي: ذلك[2] العَطاءُ الَّذي فضَّلَهم اللهُ به على غَيرِهم: هو الفَضلُ الكَبيرُ[3].

= قال الشنقيطي: (المقتصِدُ وهو الَّذي يُطيعُ اللهَ ولا يَعصيه، ولكنَّه لا يَتقرَّبُ بالنَّوافلِ مِن الطَّاعاتِ... وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

واختُلِف في السَّابقِ؛ فقيل: السَّابقُ: التَّقيُّ على الإطلاقِ. وقيل: مَن رَجَحَتْ حَسَناتُه على سَيِّئاتِه. وقيل: الَّذي سبَقَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠١).

وقال الشنقيطي: (السَّابقُ بالخَيراتِ: هو الَّذي يأتي بالواجباتِ، ويَجتنِبُ المُحرَّماتِ، ويَتقرَّبُ إلى الله بالطَّاعاتِ والقُرُباتِ الَّتي هي غيرُ واجبةٍ. وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾: سَبْقُ السَّابقينَ بالخَيراتِ؛ فهو الفَضلُ الكبيرُ الَّذي فضَّلهم به على مَن دُونَهم مِن المقتَصِدينَ والظَّالِمينَ لأنفُسِهم: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: إيراثُهم الكتابَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩٦)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن =

﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أحوالَهم؛ بيَّن جزاءَهم ومآلَهم[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ على معنى أنَّ غيرَهم يُدخِلُهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ على معنى أنَّ الدُّخولَ مِن فِعلِهم[٣].

﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾.

أي: جناتُ إقامةٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، فلا يَخرُجونَ منها أبدًا[٤].

= عطية)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٨).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٦).
قال ابنُ عثيمين: (هم إذا أُدخِلوا فقد دخَلوا، فكأنَّ القِراءتينِ واحِدٌ، ولكِنْ يُستفادُ منها مِن كلمةِ ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بيانُ أنَّهم يُعطَونَها كرامةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).
ممَّن اختار أنَّ هذا بيانٌ لثَوابِ الَّذين أورَثَهم الكتابَ، وهم الأصنافُ الثَّلاثةُ: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا[١].

٢- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ، قيل على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لؤلُؤٍ، أو على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا[٢].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

أي: يُلبَسونَ فيها -رِجالًا ونِساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحَلَّونَ فيها لؤلؤًا؛ زينةً لهم[٣].

= (٦/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧) (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٦- ٥٧، ٨٤-٨٥) و (٢/ ٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: أبو قِلابةَ الجَرْميُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٩).

وقيل: هذا بيانٌ لثوابِ السَّابِقينَ بالخيراتِ بإذنِ الله. وممَّن قال بهذا القول: الزمخشري، ورجَّحه الرازي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(١) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٨). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

أي: ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ[١].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾.

أي: وقالوا: الحَمدُ للهِ[٢] الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، فلا يكونُ لنا حَزَنٌ أبدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّنا لَغَفورٌ للذُّنوبِ، فيَستُرُها ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها؛ شَكورٌ يُثيبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

وقال ابن عطية: (خصَّص المفَسِّرون في هذا الموضِعِ؛ فقال أبو الدَّرْداء: حَزَنُ أهوالِ القيامة وما يُصيبُ هناك مَن ظَلَم نفْسَه مِن الغَمِّ والحَزَنِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: حَزَنُ جهنَّمَ. وقال عطيَّةُ: حَزَنُ الموتِ. وقال شِمْرٌ: حَزَنُ معيشةِ الدُّنيا: الخُبزِ ونحوِه. وقال قَتادةُ: حَزَنُ الدُّنيا في الخَوفِ ألَّا تُتقَبَّلَ أعمالُهم. وقيل غيرُ هذا ممَّا هو جزءٌ مِن الحَزَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ في معنى الحَزَنِ دونَ تخصيصٍ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

على الأعمالِ الصَّالحةِ -وإن قَلَّتْ- بالكثيرِ مِن الثَّوابِ مِن فَضلِه[١].

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى سُرورَهم وكرامتَهم بتَحليتِهم وإدخالِهم الجنَّاتِ؛ بيَّن سُرورَهم ببقائِهم فيها، وأعلَمَهم بدوامِها[٢].

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ وأسكَنَنا فيها، فلا نَنتَقِلُ منها أبدًا، وذلك مِن فَضلِه علينا، لا بأعمالِنا[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾.

أي: لا يُصيبُنا في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ، ولا يُصيبُنا فيها أيُّ ضَعفٍ أو فُتورٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٦، ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (المسُّ: الإصابةُ في ابتِداءِ أمرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ في الآيةِ ما يَشملُ ثوابَ قرَّاءِ القُرآنِ؛ فإنَّهم يَصدُقُ عليهم أنَّهم مِن الَّذين يَتلونَ كِتابَ اللهِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ولو لم يُصاحِبْهم التَّدَبُّرُ في القُرآنِ؛ فإنَّ للتِّلاوةِ حَظَّها مِن الثَّوابِ والتَّنَوُّرِ بأنوارِ كلامِ اللهِ[١]، وكان مُطَرِّفٌ يقولُ في هذه الآيةِ: (هذه آيةُ القُرَّاءِ)[٢]. يُشيرُ بذلك إلى دَلالتِها على فَضلِهم، وتنويهِها بذِكرِهم[٣]، وتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لَفْظِه ومعناه، وتِلاوةُ لَفظِه وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخبرِه، وائْتِمارًا بأمرِه، وانتِهاءً عن نَهْيِه، وائْتِمامًا به، حيثُ ما قادَك انقدْتَ معه، فتلاوةُ المعنَى أشرفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللَّفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآنِ الَّذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهم أهلُ مُتابَعةٍ وتلاوةٍ حقًّا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أنَّ المُنفِقَ ليس مانًّا على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إنَّما يُنْفِقُ ممَّا رَزَقه اللهُ، فمهما بَلَغَتْ بك نفْسُك مِن الإعجابِ والكبرياءِ على إنفاقِك فاذْكُرْ قولَه تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، كلُّ

= قال ابن كثير: (كأنَّ المرادَ بنفْيِ هذا وهذا عنهم [أي: النَّصَبِ واللُّغوبِ] أنَّهم لا تعَبَ على أبدانِهم ولا أرواحِهم، واللهُ أعلَمُ. فمِن ذلك أنَّهم كانوا يُدْئِبون أنفُسَهم في العبادةِ في الدُّنيا، فسقَطَ عنهم التَّكليفُ بدُخولِها [أي: الجنَّةِ]، وصاروا في راحةٍ دائمةٍ مُستمِرَّةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٥١١٩)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٩/ ٣٦٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٠٣)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢).

شيءٍ تُنْفِقُه فليس لك فيه مِنَّةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، بل للهِ المِنَّةُ عليك به في إيجادِه؛ لأنَّه لولا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رَزَقكَ ما حصَلَ لك، وله المِنَّةُ عليك في إنفاقِه؛ لأنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ يَبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضْلِه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فمِن نعمةِ اللهِ عليك أنْ يَمُنَّ عليك بالإنفاقِ بعدَ أنْ مَنَّ عليك بالرزقِ والعطاءِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حَثٌّ على الإنفاقِ كيفما يتهيَّأُ؛ فإنْ تهيَّأ سرًّا فذاك ونِعْمَ، وإلَّا فعلانيةً، ولا يَمنَعْه ظَنُّه أن يكونَ رياءً[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أنَّ الرَّجاءَ ينبغي أن يكونَ في مَحَلِّه؛ بحيث يكونُ الإنسانُ قد عَمِلَ عَملًا يَرجو الثَّوابَ عليه، أمَّا الرَّجاءُ بدونِ عَمَلٍ فهو مِن التَّمَنِّي الَّذي لا يَنفَعُ العبدَ؛ فلا رجاءَ إلَّا بعَمَلٍ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ فيه إشارةٌ إلى الإخلاصِ، أي: يُنفِقون لا ليُقالَ: إنَّه كَريمٌ، ولا لشَيءٍ مِن الأشياءِ غيرِ وجهِ الله؛ فإنَّ غيرَ اللهِ بائرٌ، والتَّاجِرَ فيه تجارتُه بائِرةٌ[٤]، أمَّا الَّذي يَرجو ثوابَ اللهِ ويُحْسِنُ النِّيَّةَ والقَصْدَ فهذا تجارتُه لن تَبُورَ؛ ففيه: التَّنبيهُ على الإخلاصِ، وأنَّه ينبغي على الإنسانِ أنْ يكونَ مُخْلِصًا للهِ تعالى في عَمَلِه القاصِرِ والمتعدِّي؛ فالقاصرُ كالصَّلاةِ، والمتعدِّي كالصَّدقةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٠).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾. قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ راجعٌ إلى السَّابقِ إلى الخَيراتِ؛ لِئَلَّا يَغترَّ بعَمَلِه، بل ما سبَقَ إلى الخَيراتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى ومَعونتِه؛ فيَنبغي له أن يَشتَغِلَ بشُكرِ اللهِ تعالى على ما أنعَمَ به عليه[١]، ويَكْبَحَ نفْسَه عن الاستعلاءِ والفَخْرِ بالطَّاعةِ[٢].

٧- قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فيه أنَّ أجَلَّ النِّعَمِ على الإطلاقِ، وأكبَرَ الفَضلِ: وِراثةُ هذا الكِتابِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- كان الحَسَنُ يقولُ: (إنَّ المؤمِنينَ قَومٌ ذلَّت -واللهِ- منهم الأسماعُ والأبصارُ والأبدانُ، حتَّى حَسِبَهم الجاهِلُ مرضَى، وهم -واللهِ- أصِحَّاءُ القُلوبِ؛ ألَا تراه يقولُ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾، واللهِ لقد كابَدوا في الدُّنيا حَزَنًا شَديدًا، وجرَى عليهم ما جرَى على مَن كان قَبْلَهم، واللهِ ما أحزَنَهم ما أحزَنَ النَّاسَ، ولكِنْ أبكاهم وأحزَنَهم الخَوفُ مِن النَّارِ)[٤]!

٩- عن إبراهيمَ التَّيميِّ، قال: (ينبغي لِمَن لم يَحزَنْ أن يخافَ أن يكونَ من أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ قالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٣١).
والأثر أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (٣٩٧) -ومن طريقه ابن جرير في ((التفسير)) (١٧/ ٤٩٣) و(١٩/ ٣٧٨)- بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الهم والحزن)) (٢٤)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢١٥) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٧٣).

١٠- في قَولِ الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الدُّنيا منزلةٌ يَنزلُها المكلَّفُ، ويَرتحِلُ عنها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ السَّابِقةِ لها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] حِكمةٌ بالِغةٌ؛ فقَولُه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ القَلبِ، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ اللِّسانِ، وقَولُه: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ الجوارحِ، ثمَّ إنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ مُتعَلِّقةٌ بجانبِ تعظيمِ اللهِ والشَّفَقةِ على خَلقِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ تضَمَّن هذا أنَّهم يَكتَسِبونَ مِن العِلمِ الشَّرعيِّ مِن العقائِدِ والأخلاقِ والتَّكاليفِ؛ فقد أشعَرَ الفِعلُ المضارِعُ بتجَدُّدِ تِلاوتِهم؛ فإنَّ نزولَ القُرآنِ مُتجَدِّدٌ، فكُلَّما نزَل منه مِقدارٌ، تلَقَّوه وتدارَسوه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أنَّ الثَّوابَ في الآخرةِ لا يَنقطِعُ، بل رُبَّما نقولُ: إنَّ هذا أعَمُّ؛ بحيث يُثابُ الإنسانُ في الدُّنيا ثوابًا مُستمِرًّا إلى الآخِرة؛ لأنَّ الحَسَناتِ قد يرى الإنسانُ ثوابَها في الدُّنيا، ويَستمِرُّ إلى الثَّوابِ في الآخرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أنَّ طَلَبَ الإنسانِ للثَّوابِ غايةٌ عظيمةٌ -بِناءً على أنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ- فعَمَلُ الإنسانِ مِن أجْلِ الأجرِ لا يُعَدُّ نقصًا، خِلافًا للصُّوفيَّةِ الَّذين يقولونَ: (لا تَعبُدِ اللهَ لثَوابِ اللهِ، ولكِنِ اعبُدِ اللهَ للهِ)! فنَقولُ لهم: هذا خطأٌ؛ فاللهُ تعالى وَصَفَ أشرَفَ هذه الأُمَّةِ وخيْرَ هذه الأمَّةِ بأنَّهم يُريدونَ فَضلًا مِن اللهِ ورِضوانًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ومع ذلك لا نقولُ: «لا تَعْبُدِ اللهَ للهِ»، بل اعْبُدِ اللهَ للهِ ولثَوابِ اللهِ؛ فإنَّك لن تَصِلَ إلى اللهِ إلَّا بعدَ وُصولِك إلى ثوابِ اللهِ؛ فإنَّ لِقاءَ اللهِ اللِّقاءَ الَّذي هو الرِّضا التامُّ: إنَّما يَحصُلُ في الجنةِ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ ضمانُ الثوابِ، فالثَّوابُ مَضمونٌ للعامِلِ الَّذي يَتعامَلُ مع اللهِ عزَّ وجلَّ -بِناءً على أنَّ اللَّامَ هنا للعاقِبةِ-، أي: أنَّ هذا العمَلَ سوف يُوَفَّى، وفيه أيضًا وجهٌ آخَرُ لِضَمانِ الثَّوابِ: أنَّ اللهَ سَمَّاه أجرًا، والأجرُ لا بُدَّ أنْ يُدفَعَ لِمَن قام بالعَمَلِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَزيدُ كلَّ عاملٍ على أجرِه؛ لأنَّه ذو فَضلٍ، فالعاملُ فائزٌ بفَضلَينِ؛ **أحدُهما**: الفَضلُ الأولُ، وهو جَعْلُ الحَسَنةِ عَشَرةً، و**الفَضلُ الثَّاني**: ما يَزيدُ على العَشَرةِ، ولا يجوزُ أنْ تكونَ الزِّيادةُ مَصروفةً إلى التِّسعةِ؛ لأنَّ ذلك إنجازُ وَعدٍ في قَولِه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فعَشْرُ أمثالِ العَمَلِ أجرُه، والزِّيادةُ تكونُ بعدَ الأجرِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ دَليلٌ على ثُبوتِ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله عزَّ وجلَّ، وهذا مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ: أنَّهم يُثبِتونَ للهِ تعالى الأفعالَ الاختياريَّةَ -أي: الَّتي تقَعُ بمشيئتِه-؛ فإنَّه تعالى فَعَّالٌ لِمَا يريدُ[١].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فهو سُبحانَه يَغفِرُ الكثيرَ مِن الزَّلَلِ، ويَشكُرُ القليلَ مِن العَمَلِ؛ فجَمَع لهم سُبحانَه بيْنَ الأمْرَينِ: أنْ شكَرَ سَعْيَهم، وأثابَهم عليه، واللهُ تعالى يَشكُرُ عبْدَه إذا أحسَنَ طاعتَه، ويَغفِرُ له إذا تاب إليه، فيَجمَعُ للعبدِ بيْن شُكرِه لإحسانِه، ومَغفرتِه لإساءتِه ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحَقَّ لزِمَ أنَّ كلَّ ما دلَّ عليه من المسائِلِ الإلهيَّةِ والغَيبيَّةِ وغَيرِها مطابِقٌ لِما في الواقِعِ، فلا يجوزُ أن يُرادَ به ما يخالِفُ ظاهِرَه وما دَلَّ عليه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ اشتِمالُ القرآنِ الكريمِ على الحقِّ في أخبارِه وفي أحكامِه؛ فأخبارُه كلُّها صِدقٌ، وأحكامُه كلُّها عَدلٌ، وما خالفَ القرآنَ فهو باطلٌ؛ فقد حَصَر الحقَّ فيه[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ في قَولِه: ﴿مُصَدِّقٗا﴾ تقريرٌ لِكَونِه وَحيًا؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم لَمَّا لم يكُنْ قارِئًا كاتِبًا، وأتَى ببيانِ ما في كتُبِ اللهِ؛ لا يكونُ ذلك إلَّا مِن اللهِ عالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨٠، ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٨).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فيه لطيفةٌ، وهي أنَّه تعالَى جعَل القرآنَ مُصدِّقًا لِمَا مضَى -مع أنَّ ما مضَى أيضًا مصدِّقٌ له؛ لأنَّ الوحيَ إذا نَزَل على واحدٍ جازَ أنْ يَنزِلَ على غيرِه، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم-، ولم يَجعَلْ ما تَقدَّم مصدِّقًا للقرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ كونُه معجزةً يَكفي في تصديقِه بأنَّه وحيٌ، وأمَّا ما تَقدَّم فلا بُدَّ معه مِن معجزةٍ تُصَدِّقُه(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ رَحمةُ اللهِ تعالى بعبادِه؛ حيثُ لم يَدَعْهم هَمَلًا، بل أنزلَ إليهم الكُتُبَ الَّتي يَستنيرونَ بها في سَيرِهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ فيه فَضْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث أوْرَثَها هذا الكتابَ العظيمَ، وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أنَّ هذه الأُمَّةَ أفضَلُ الأُممِ، ودلَّ لذلك أيضًا قولُه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾(٣) [آل عمران: ١١٠].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ بِشارةٌ كبيرةٌ لهذه الأُمَّةِ؛ إذ قد وُعِدوا على اختلافِ أحوالِهم، مِن الظُّلمِ والقَصْدِ والمُسابقةِ معًا: بالجنَّةِ، وفيه حُجَّةٌ على المعتزلةِ في بابِ الوعيدِ؛ لإدخالِ الظَّالمِ نفْسَه الجنَّةَ مع المقتَصِدِ والسَّابقِ بالخَيراتِ بإذنِ اللهِ. وأيضًا فيه حُجَّةٌ على الشُّراةِ -الخوارجِ-؛ فإنَّهم يَعُدُّونَ صغيرَ الذَّنْبِ وكبيرَه كُفرًا، فلو كان المصطفى لَمَّا ظَلَمَ نفْسَه كفَرَ، لَمَا دخَل الجنَّةَ أبدًا -تابَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

أو لم يَتُبْ-؛ لأنَّهم لا يَرونَ التَّوبةَ ولا يقولونَ بها[١]!! وقد يقولُ قائِلٌ: يمكِنُ أنْ يُعَارِضَ الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الاستِدلالَ بأنْ يقولوا بأنَّ المرادَ بالإثمِ هنا ما دونَ الكبائرِ. فيقالُ: إنَّ ما دونَ الكبائرِ يَقَعُ مَغفورًا بفعلِ الطَّاعاتِ؛ كالصَّلواتِ الخَمْسِ، والجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ، وحينَئذٍ يَنتفي الظُّلْمُ بمُجرَّدِ فِعلِ هذه الطَّاعاتِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أنَّه قد يُرادُ بالظُّلمِ ما لا يَنقُلُ عنِ المِلَّةِ[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تفاضُلُ النَّاسِ في العَمَلِ، ويَتفرَّعُ عليه: تفاضُلُهم في الإيمانِ، والدَّليلُ على تفاضُلِهم في العمَلِ تَقسيمُهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ويَلزَمُ مِن تفاضُلِهم في العَمَلِ أنْ يتفاضَلوا في الإيمانِ، فيكونُ في ذلك دليلٌ لِمَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائلينَ بزيادةِ الإيمانِ ونَقصِ الإيمانِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه؛ يقولُ ويَفعلُ ويَترُكُ بغيرِ إذنِ اللهِ[٥]!

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أنَّ أكبرَ فَضْلٍ يَتفضَّلُ اللهُ به على عبْدِه أنْ يُوَفِّقَه للقيامِ بطاعتِه، فمَن ورِثَ هذا الكتابَ عِلْمًا وعمَلًا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٥، ٧٠٧، ٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

ودعوةً، فهو الَّذي حاز الفضلَ الكبيرَ، وفي قولِه تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] إشارةٌ إلى هذا المعنى[١].

٢٠- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ هذا التَّقسيمُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والظَّالِمُ لنفسِه المرادُ به: أصحابُ الذُّنوبِ المُصِرُّونَ عليها، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ فيه دَلالةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على أنَّه لا يُخلَّدُ في النَّارِ أحدٌ مِن أهلِ التَّوحيدِ[٢].

٢١- قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾، وجنَّاتُ عَدْنٍ هي وَصفٌ لجملةِ الجِنانِ -وكلُّها جنَّاتُ عَدْنٍ-، فليست اسمَ جَنَّةٍ مِن جملةِ الجنَّاتِ، والاشتِقاقُ يدُلُّ على أنَّ جميعَها جنَّاتُ عَدْنٍ؛ فإنَّه مِن الإقامةِ والدَّوامِ[٣].

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الواوُ في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ شامِلةٌ للظَّالمِ والمُقتصِدِ والسَّابقِ على التَّحقيقِ؛ ولذا قال بعضُ أهلِ العِلمِ: (حُقَّ لهذه الواوِ أن تُكتَبَ بماءِ العينَينِ)، فوعْدُه الصَّادقُ بجنَّاتِ عَدْنٍ لجميعِ أقسامِ هذه الأمَّةِ -وأوَّلُهم الظَّالمُ لنفْسِه- يدُلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مِن أرجى آياتِ القرآنِ، ولم يَبْقَ مِن المُسلمينَ أحدٌ خارجٌ عن الأقسامِ الثَّلاثةِ، فالوعدُ الصَّادقُ بالجنَّةِ في الآيةِ شاملٌ لجميعِ المُسلمينَ؛ ولذا قال بعدَها مُتَّصلًا بها: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۞ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨).

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[(١)] [فاطر: ٣٦، ٣٧].

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ فيه إشارةٌ إلى سُرعةِ الدُّخولِ؛ فإنَّ التَّحليةَ لو وقعَتْ خارِجًا لَكان فيه تأخيرُ الدُّخولِ؛ فقال: يَدخُلونَها وفيها تقَعُ تَحليتُهم[(٢)].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ أنَّ الجنَّةَ ليست دارَ تكليفٍ؛ يُمنَعُ منها العبدُ ممَّا يَتنعَّمُ به، بل يَتنعَّمُ بكلِّ ما شاء؛ لأنَّنا نَعلمُ جميعًا أنَّ تَحلِّيَ الرِّجالِ في الدُّنيا بالذَّهَبِ مَمنوعٌ وحرامٌ، لكنَّه في الجنَّةِ مُباحٌ وممنوحٌ، وليس بمَمنوعٍ؛ لأنَّ الجنَّةَ لهم فيها ما يَشاؤونَ، بل أكثرُ ممَّا يَشاؤونَ ويُريدونَ[(٣)].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ ذِكرُ الأساورِ من بينِ سائرِ الحُليِّ في مواضِعَ كثيرةٍ -كقَولِه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١]- يدُلُّ على كَونِ المتحَلِّي غيرَ مُبتَذَلٍ في الأشغالِ؛ لأنَّ كَثرةَ الأعمالِ باليدِ، فإذا حُلِّيَت بالأساورِ دَلَّ ذلك على الفراغِ مِن الأعمالِ[(٤)].

٢٦- قال اللهُ تعالى حِكايةً عن أهلِ الجنَّةِ قولَهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، فلمَّا صاروا إلى كرامتِه بمَغفرتِه ذُنوبَهم، وشُكرِه إحسانَهم؛ قالوا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾، وفي هذا معنى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٦) و(٢/ ٧٢) و(٤/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

التَّعليلِ، أي: بمَغفرتِه وشُكرِه وصَلْنا إلى دارِ كرامتِه؛ فإنَّه غَفَر لنا السَّيِّئاتِ، وشكَرَ لنا الحَسَناتِ[1].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ كمالُ الفرحِ والسُّرورِ لأهلِ الجنَّةِ؛ فإنَّ هذه الصِّفةَ السَّلبيَّةَ تدُلُّ على كمالِ ضِدِّها، فإذا كان الحَزَنُ مَنفيًّا عنهم؛ كان ذلك دليلًا على كمالِ سرورِهم، وأنَّه سرورٌ لا يُشابُ بحَزَنٍ أبدًا، بخِلافِ سرورِ الدُّنيا؛ فإنَّ سرورَ الدُّنيا مهما عَظُمَ مَشوبٌ بالكَدَرِ[2].

٢٨- مِن أسماءِ الجنَّةِ: دارُ المُقامةِ؛ قال تعالى حكايةً عن أهلِها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾[3].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ تأبيدُ الجنَّةِ؛ لإطلاقِ قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾، ولم تُقيَّدْ بزمنٍ[4].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يجعَلُ أبدانَهم في نشأةٍ كاملةٍ، ويُهيِّئُ لهم مِن أسبابِ الرَّاحةِ على الدَّوامِ ما يَكونون بهذه الصِّفةِ؛ بحيث لا يَمَسُّهم نَصَبٌ ولا لُغوبٌ، ولا هَمٌّ ولا حَزَنٌ. ويدُلُّ على أنَّهم لا يَنامونَ في الجنَّةِ؛ لأنَّ النَّومَ فائدتُه زَوالُ التَّعَبِ، وحُصولُ الرَّاحةِ به، وأهلُ الجنَّةِ بخِلافِ ذلك، ولأنَّه مَوتٌ أصغرُ، وأهلُ الجنَّةِ لا يموتونَ[5].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَدْخُلُ الجنةَ بعَمَلِه[1].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ كمالُ الرَّاحةِ في الجنَّةِ، وكمالُ القُوَّةِ والنَّشاطِ؛ لأنَّ التَّعَبَ إنمَّا يَلحَقُ البدنَ الضَّعيفَ، فإذا قال قائلٌ: من أين عرَفْنا الكمالَ؟ فالجوابُ: مِن النَّفْيِ؛ لأنَّ نَفْيَ النَّقصِ إثباتٌ لكمالِ ضِدِّه[2].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ أنَّ أهلَ الجنَّةِ لا يَتعَبونَ في مُزاوَلةِ الأعمالِ، ولا يَلحَقُهم إعياءٌ بعدَ ذلك، فلا يَتعَبون قَطعًا كما في الآيةِ، لكِنَّهم يَعمَلون كما في قَولِه تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٦]، يَعمَلونَ في نعيمهم؛ يُفَجِّرونَ الأنهارَ، ويَجنونَ الثِّمارَ؛ إلَّا أنَّه بدونِ كُلْفةٍ أو مَشقَّةٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾[3] [الحاقة: ٢٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ استِئنافٌ لبيانِ جُملَةِ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فالَّذين يَتْلونَ كِتابَ اللهِ همُ المُرادُ بالعُلماءِ، وقد تخَلَّصَ إلى بَيانِ فَوزِ المُؤمنينَ الَّذين اتَّبَعوا الذِّكرَ، وخَشُوا الرَّحمنَ بالغَيبِ؛ فإنَّ حالَهم مُضادٌّ لِحالِ الَّذين لم يَسمَعوا القُرآنَ، وكانوا عنْدَ تَذكيرِهم به كحالِ أهلِ القُبورِ لا يَسمَعونَ شيئًا؛ فبَعْدَ أنْ أثْنى عليهم ثَناءً إجماليًّا بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأجمَلَ حُسْنَ جزائِهم بذِكرِ صِفةِ ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] -ولذلك خُتِمَتْ هذه الآيةُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾- فُصِّلَ ذلك الثَّناءُ، وذُكِرَتْ آثارُه ومَنافِعُه[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ فيه ثَناءٌ مِنَ اللهِ على التَّالينَ لِكتابِه العامِلينَ بشَرائِعِه من بيْنِ المُكَذِّبينَ بها من سائِرِ الأُمَمِ، وفيه كِنايةٌ عن إيمانِ التَّالينَ له؛ لأنَّه لا يَتلو الكِتابَ إلَّا مَن صَدَّقَ به، وتَلَقَّاه باعتِناءٍ. و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هو القُرآنُ، وعَدَلَ عن اسمِه العَلَمِ إلى اسمِ الجِنسِ المُضافِ لاسمِ الجَلالةِ؛ لِما في إضافَتِه إليه مِن تَعظيمِ شَأنِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أشعَرَ الفِعلُ المُضارِعُ ﴿يَتۡلُونَ﴾ بتَجَدُّدِ تِلاوَتِهم؛ فإنَّ نُزولَ القُرآنِ مُتجَدِّدٌ، فكُلَّما نَزَلَ منه مِقدارٌ تَلَقَّوْه وتَدارَسوه. وجِيءَ في جانِبِ إقامةِ الصَّلاةِ والإنفاقِ بفِعلِ المُضِيِّ؛ لأنَّ فَرْضَ الصَّلاةِ والصَّدَقةِ قد تقرَّرَ وعَمِلوا به، فلا تَجَدُّدَ فيه، وامتِثالُ الَّذي كُلِّفوا به يَقتَضي أنَّهم مُداوِمونَ عليه[٣]؛ فعَبَّرَ في الأوَّلِ بالمُضارِعِ؛ لِأنَّ إنزالَها كان قبْلَ التَّمامِ، وتَصريحًا بتَكرارِ التِّلاوةِ تَعبُّدًا ودِراسةً؛ لِأنَّ القُرآنَ كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها[٤]))[٥]، وفي الثَّاني والثَّالثِ بالماضي؛ حَثًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٤) العُقُلُ جمْعُ عِقالٍ، وهو الحَبلُ الَّذي يُشَدُّ به ذِراعُ البعيرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) مطولًا، واللفظ له، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

على المُبادَرةِ إلى الفِعلِ، وقد تحَصَّلَ مِن هذا أنَّه جَعَل لِفِعلِ القَلبِ -الَّذي هو الخَشيةُ- دليلًا باللِّسانِ، وآخَرَ بالأركانِ، وثالِثًا بالأموالِ(١). وقيل: عَبَّرَ في الأوَّلِ بالمُضارِعِ؛ إشارةً إلى سُهولةِ مَصدَرِه، وفي الثَّاني بالماضي؛ إشارةً إلى أنَّه مُحَقَّقٌ وُقوعُه، مع عَدَمِ سُهولَتِه(٢).

- وفي قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إدماجٌ(٣) لِلامتنانِ، وإيماءٌ إلى أنَّه إنفاقُ شُكرٍ على نِعمةِ اللهِ عليهم بالرِّزقِ؛ فهم يُعطُونَ منه أهلَ الحاجةِ، ووَقَع الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّه المُناسِبُ لِلامتِنانِ(٤).

- وفي تقديمِ السِّرِّ على العَلانيةِ في قَولِه: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارةٌ إلى أنَّه أفضَلُ؛ لِانقِطاعِ شائبةِ الرِّياءِ منه، وذِكرِ العَلانيةِ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّهم لا يَصُدُّهم مَرأى المُشرِكينَ عنِ الإنفاقِ؛ فهم قد أعلَنوا بالإيمانِ وشرائِعِه حبَّ مَن حبَّ، أو كَرِهَ مَن كَرِهَ(٥).

- قَولُه: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ قيل: خَبَرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّبشيرِ، كأنَّه قيلَ: لِيَرجوا تِجارةً، وزادَه التَّعليلُ بقَولِه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ قَرينةً على إرادةِ التَّبشيرِ، والمعنى: لِيَرجوا أن تكونَ أعمالُهم -مِن تلاوةٍ وصلاةٍ وإنفاقٍ- كتجارةٍ رابحةٍ(٦).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٣٤).
(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

- قَولُه: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿تِجَٰرَةً﴾، وجيءَ بهذه الجُملةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّها ليستْ كسائرِ التِّجاراتِ الدَّائرةِ بيْنَ الرِّبحِ والخُسرانِ؛ لِأنَّه اشتِراءُ باقٍ بفانٍ، والإخبارُ برَجائِهم مِن أكرَمِ الأكرَمينَ عِدَةٌ قَطعيَّةٌ بحُصولِ مَرجُوِّه[1].

٢- قَولُه تَعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- قولُه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لِمَدلولِه، أي: يَنتَفي عنها الكَسادُ، وتَنفُقُ عنْدَ اللهِ؛ لِيُوفِّيَهم بنَفاقِها أُجورَ أعمالِهم، أو لِمَدلولِ ما عُدَّ مِن امتِثالِهم، نَحوَ: فَعَلوا ذلك لِيُوفِّيَهم، أو عاقِبةً لـ ﴿يَرْجُونَ﴾[2].

- ووَقَعَ التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ﴿وَيَزِيدَهُم﴾؛ رُجوعًا إلى سِياقِ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، أي: لِيُوفِّيَ اللهُ الَّذين يَتلونَ كِتابَه[3].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ وعِلَّةٌ لِقَولِه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ وذلك أنَّ الغُفرانَ والشُّكرانَ من شأنِ اللهِ سُبحانَه، فإنَّ من صِفاتِه الغَفورَ الشَّكورَ، أي: الكَثيرَ المَغفِرةِ، والشَّديدَ الشُّكرِ؛ فالغَفورُ والشَّكورُ مِن أبنِيةِ المُبالَغةِ[4].

- وأكَّدَ هذا الخَبَرَ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ زيادةً في تَحقيقِه، ولِما في التَّأكيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

مِنَ الإيذانِ بكَونِ ذلك عِلَّةً لِتَوفيةِ الأُجورِ، والزِّيادةِ فيها[(١)].

٣- قَولُه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ ...﴾ لَمَّا كان المُبدَأُ به مِن أسبابِ ثَوابِ المؤمنينَ هو تِلاوتَهم كِتابَ اللهِ، أُعقِبَ التَّنويهُ بهم بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، ولِأنَّ في التَّذكيرِ بجَلالِ القُرآنِ وشَرَفِه إيماءً إلى عِلَّةِ استِحقاقِ الَّذين يَتلونَه ما استَحَقُّوا. وابتُدِئَ التَّنويهُ به بأنَّه وَحيٌ مِنَ اللهِ إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وناهيك بهذه الصِّلةِ تَنويهًا بالكِتابِ، وهو يَتضَمَّنُ تَنويهًا بشَأنِ الَّذي أُنزِلَ عليه مِن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ ففي هذا مَسَرَّةٌ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبِشارةٌ له بأنَّه أفضَلُ الرُّسُلِ، وأنَّ كِتابَه أفضَلُ الكُتُبِ، وهذه نُكتةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليه باسمِ المَوصولِ (الَّذي) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإشارةِ إلى وَجْهِ كَونِه الحَقَّ الكامِلَ، دُونَ الإضمارِ الَّذي هو مُقتَضى الظَّاهِرِ بأنْ يُقالَ: (وهو الكِتابُ الحَقُّ)؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَعريفُ العَهدِ، و﴿مِنَ﴾ بَيانيَّةٌ لِمَا في المَوصولِ مِنَ الإبهامِ، والتَّقديرُ: والكِتابُ الَّذي أوحَيْنا إليك هو الحَقُّ. فقُدِّمَ المَوصولُ الَّذي حَقُّه أنْ يَقَعَ صِفةً لِلكِتابِ تَقديمًا؛ لِلتَّشويقِ بالإبهامِ؛ لِيَقَعَ بعْدَه التَّفصيلُ، فيَتمَكَّنَ مِنَ الذِّهنِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ؛ فجُملةُ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، فهي مِثلُها في حُكمِ الاستئنافِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٠٨، ٣٠٩).

- وضَميرُ (هو) في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ضَميرُ فَصلٍ، وهو تأكيدٌ لِما أفادَه تعريفُ المُسنَدِ مِنَ القَصرِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وأفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ قَصْرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، أي: قَصْرَ جِنسِ الحَقِّ على (الَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[١] لِلمُبالَغةِ؛ لِعَدَمِ الاعتِدادِ بحَقِّيَّةِ ما عَداهُ مِنَ الكُتُبِ[٢].

- وانتَصَبَ قَولُه: ﴿مُصَدِّقٗا﴾ على الحالِ مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والعاملُ في الحالِ فِعلُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّه مع كَونِه حَقًّا بالغًا في الحَقِّيَّةِ فهو مُصَدِّقٌ لِلكُتُبِ الحَقَّة، ومُقرِّرٌ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِنَ الحَقِّ[٣].

- وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ تَذييلٌ جامِعٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الآياتُ قبْلَه مِن تَفضيلِ بَعضِ عِبادِ اللهِ على بعضٍ، ومِن انطواءِ ضَمائرِهم على الخَشيةِ وعَدَمِها، وإقبالِ بَعضِهم على الطَّاعاتِ وإعراضِ بعضٍ، ومن تَفضيلِ بعضِ كُتُبِ اللهِ على بعضٍ، المُقتَضي أيضًا تَفضيلَ بعضِ المُرسَلينَ بها على بعضٍ، كما أنَّ مَوقِعَ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ مَوقِعُ إقناعِ السَّامِعينَ بأنَّ اللهَ عَليمٌ بعِبادِه، وهو يُعامِلُهم بحَسَبِ ما يَعلَمُ منهم، ويَصطَفي منهم مَن عَلِمَ أنَّه خَلَقَه كُفْئًا لِاصطِفائِه، فألْقَمَ بهذا الَّذين قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] حَجَرًا، وكأولئك أيضًا الَّذين يُنكِرونَ القُرآنَ مِن أهلِ الكِتابِ بعِلَّةِ أنَّه جاءَ مُبطِلًا لِكتابِهم[٤].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ تَقديمُ (الخَبيرِ) على (البَصيرِ)؛

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

لِأنَّه أشمَلُ، وذَكَر (البَصيرَ) عَقِبَه؛ لِلعِنايةِ بالأعمالِ الَّتي هي مِنَ المُبصَراتِ، وهي غالبُ شَرائعِ الإسلامِ. وقيل: تقديمُ (الخبيرِ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العُمدةَ هي الأمورُ الرُّوحانيَّةُ(١).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) و(اللَّامِ)؛ لِلاهتِمامِ بالمَقصودِ مِن هذا الخَبَرِ(٢).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بلَفظِ الجَلالةِ الصَّريحِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وبزيادةِ اللَّامِ في ﴿لَخَبِيرُۢ﴾؛ لِعَدَمِ تَقَدُّمِ ذِكرِ لَفظِ الجلالةِ؛ لِأنَّ الآيةَ المُتقدِّمةَ في هذه السُّورةِ لم يَكُنْ فيها ذِكرُ اللهِ، فصَرَّحَ باسمِه سُبحانَه. وبزيادةِ اللَّامِ؛ مُوافَقةً لِقولِه بعْدُ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وقالَه في (الشُّورى): ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧] بالضَّميرِ؛ لِتقَدُّمِ لَفظِ (الله)، وبحَذفِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ ما يَقتَضي ذِكرَها؛ فهو مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ﴾ [الشورى: ٢٧]، فخُصَّ بالكِنايةِ(٣).

٤- قَولُه تَعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ كما هو شأنُها في عَطفِها الجُمَلَ، فهي هنا لِعَطفِ الجُمَلِ عَطفًا ذِكريًّا، فالمُتعاطفاتُ بها بمَنزلةِ المُستأنَفاتِ؛ فهذه الجُملةُ كالمستأنَفةِ، و(ثُمَّ) لِلتَّرَقِّي في الاستِئنافِ، وهذا ارتِقاءٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ المُتضَمِّنِ التَّنويهَ بالرَّسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعُروجٌ في مَسَرَّتِه وتَبشيرِه؛ فبَعْدَ أنْ ذُكِّر بفَضيلةِ كِتابِه -وهو أمْرٌ قد تقَرَّرَ لَدَيْه- زِيدَ تَبشيرًا بدَوامِ كِتابِه، وإيتائِه أُمَّةً هم المُصطَفَوْنَ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وتبشيره بأنَّهم يَعمَلونَ به، ولا يَترُكونَه كما تَرَك أُمَمٌ مَنْ قَبْلَه كُتُبَهم ورُسُلَهم؛ لِقَولِه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآيةَ، فهذه البِشارةُ أهَمُّ عِنْدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الإخبارِ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يَدَيْه؛ لِأنَّ هذه البِشارةَ لم تكُنْ مَعلومةً عِندَه، فوَقْعُها أهَمُّ(١).

وقيل: في «ثُمَّ» -الدَّالَّةِ على التَّراخي- إشارةٌ إلى الفَترةِ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

- قَولُه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا تقتضي التَّرَاخيَ في الزَّمانِ، وأنْ يُقالَ: ثمَّ نورثُه بعدَك المُصْطَفيْن، فمجيءُ ﴿أَوْرَثْنَا﴾ ماضيًا: معناه: حَكَمْنا بتَوريثِه منك، أو نُورِثُه، فعَبَّرَ عنه بالماضي؛ لِتحَقُّقِه وتَقَرُّرِه، أو: أوْرَثْناه مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، أو وَضَع الماضيَ مَوضِعَ المُستَقبَلِ؛ تَنزيلًا لِمَا هو الكائنُ بمَنزِلةِ الكائنِ، أو لِأنَّ هذه الآيةَ مُتَّصِلةٌ بما سبَقَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، أي: قَدَّم اللهُ على إرسالِه -صَلَواتُ اللهِ عليه- إرسالَ الرُّسُلِ في كُلِّ أُمَّةٍ، وعَقَّبَه بما يُنبِئُ أنَّ تلك الأُمَمَ تفرَّقَتْ حِزبَيْنِ: حِزْبًا كَذَّبوا الرُّسُلَ وما أُنْزِلَ معهم، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٥]، وحِزْبًا صَدَّقوهم وآمَنوا وتَلَوْا كِتابَ اللهِ وعَمِلوا بمُقتضاه، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ [فاطر: ٢٩]، وعلى

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠، ٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣١).

هذا الوَجْهِ يَكونُ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ ماضيًا يَجْري على ظاهِرِه، والعَطفُ على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ اعتِراضٌ؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ التَّوريثِ[١].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ في الإيراثِ مَعنى الإعطاءِ؛ فيَكونُ فِعلُ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ حَقيقًا بأنْ يَنصِبَ مَفعولَيْنِ، وكان مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ أحَدُ المَفعولَيْنِ -الَّذي هو الآخِذُ في المَعنى- هو المَفعولَ الأوَّلَ، والآخَرُ ثانيًا، وإنَّما خُولِفَ هنا فقُدِّمَ المفعولُ الثَّاني؛ لِأمْنِ اللَّبسِ؛ قَصدًا لِلاهتِمامِ بالكِتابِ المُعطَى، وأمَّا التَّنويهُ بآخِذي الكِتابِ فقدْ حَصَل مِنَ الصِّلةِ[٢].

- ولَمَّا أُريدَ تَعميمُ البِشارةِ مع بَيانِ أنَّهم مَراتِبُ فيما بُشِّروا به، جيءَ بالتَّفريعِ في قَولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فهو تَفصيلٌ لمَراتِبِ المُصطفَينَ؛ لِتَشملَ البِشارةُ جميعَ أصنافِهم، ولا يُظَنَّ أنَّ الظَّالِمَ لنَفْسِه مَحرومٌ منها؛ فمَناطُ الاصْطِفاءِ هو الإيمانُ والإسلامُ[٣].

- وقُدِّمَ في التَّفْصيلِ ذِكرُ الظَّالِمِ لِنَفْسِه؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ حِرْمانِه من الجَنَّةِ، وتَعْجيلًا لِمَسَرَّتِه[٤]؛ فهذا المقامُ أظهرَ اللهُ فيه كرَمَه وشِدَّةَ رحمتِه ولُطفِه بعبادِه، وتعظيمَ هذا القرآنِ العظيمِ، وقوَّةَ آثارِه على مَن أوْرَثهم إيَّاه بدخولِ الجنَّةِ؛ فلذا قدَّم الظَّالمَ لئلَّا ييئسَ مِن رحمةِ اللهِ، وأُخِّر السَّابقُ لئلَّا يُعجَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١١، ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٢).

بعملِه فيَحبَطَ[١]. وقال بعضُ العلماءِ: أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمونَ لأنفُسِهم؛ لأنَّ الَّذين لم تقَعْ منهم معصيةٌ أقَلُّ مِن غيرِهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ولَمَّا كان أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بدَأ بهم؛ لأكثريَّتِهم[٢].

- وأيضًا قُدِّمَ الظَّالِمُ، ثمَّ المُقتَصِدُ، ثمَّ السَّابِقُ؛ للإيذانِ بكَثرةِ الفاسِقينَ وغَلَبَتِهم، وأنَّ المُقتَصِدينَ قَليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابِقونَ أقَلُّ مِن القَليلِ، ولأنَّ الظُّلمَ بمَعنى الجَهلِ والرُّكونِ إلى الهَوى مُقتَضى الجِبلَّةِ، والاقتِصادُ والسَّبْقُ عارِضانِ[٣]. وقيل: خَتَم بالسَّابقينَ؛ لأنَّهم الخُلاصةُ، ولِيَكونوا أقرَبَ إلى الجنَّاتِ، فهو سُبحانَه تارةً يبدأُ بالأدنى، وتارةً بالأعلى؛ بحسَبِ ما يقتَضيه الحالُ[٤].

- وفي ذِكرِ الخَيْراتِ في قولِه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّها مُرادةٌ في القِسْمَينِ الأوَّلَينِ، فيَؤولُ إلى مَعْنى ظالِمٍ لنَفْسِه في الخَيراتِ، ومُقتَصِدٍ في الخَيراتِ أيضًا، ولك أنْ تَجعَلَ مَعْنى ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أنَّه ناقِصُها مِن الخَيراتِ، وفي اختِصاصِ السَّابِقينَ بعدَ التَّقْسيمِ بذِكرِ ثَوابِهم -وذلك على قولٍ في التفسيرِ- والسُّكوتِ عن الآخَرينَ ما فيه مِن وُجوبِ الحَذَرِ. وفي قَولِه: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تَنويهٌ بالسَّابِقينَ بأنَّ سَبْقَهم

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٧) و(٢/ ٧٣) و(٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٧) و(٢/ ٧٣) و(٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦).

كان بعَونٍ مِن اللهِ وتَيْسيرٍ منه، وتَنْبيةٌ على عِزَّةِ مَنالِ هذه الرُّتْبةِ، وصُعوبةِ مَأْخَذِها(١).

- وفي هذه الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ما يُعرَفُ بالجَمْعِ مع التَّقْسيمِ؛ وهو أنْ يَجمَعَ المُتكلِّمُ بيْنَ شَيْئَينِ أو أكثَرَ في حُكمٍ ثمَّ يَقسِمَ ما جَمعَه، أو يَقسِمَ أوَّلًا ثمَّ يَجمَعَ(٢).

- قولُه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى السَّبْقِ بالخَيْراتِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعْدِ مع قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشْعارِ بعُلُوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرَفِ(٣).

- وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾؛ لتَأكيدِ القَصْرِ الحاصِلِ مِن تَعْريفِ الجُزأَينِ، وهو حَقيقيٌّ؛ لأنَّ الفَضْلَ الكَبيرَ مُنحَصِرٌ في المُشارِ إليه بذلك؛ لأنَّ كُلَّ فَضلٍ هو غَيرُ كَبيرٍ إلَّا ذلك الفَضْلَ(٤).

٥- قَولُه تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بَدَلُ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فإنَّ ممَّا يَشتمِلُ عليه الفضْلُ دُخولَهم الجنَّةَ، وتَخصيصُ هذا الفضلِ مِن بيْنِ أصنافِه؛ لأنَّه أعظَمُ الفَضلِ؛ لأنَّه أمارةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٤).

على رِضوانِ اللهِ عنهم حينَ إدْخالِهِمُ الجَنَّةَ، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ الفضْلِ الكبيرِ، وقد بُيِّن بأعظَمِ أصنافِه. والمعنى واحدٌ. وضميرُ الجماعةِ في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ راجعٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: ٣٢] المقسَّمِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: ظالمٍ، ومُقتَصِدٍ، وسابقٍ(١).

- وفي الإخبارِ بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عن المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إفادةُ تَقَوِّي الحُكم. وصَوغُ الفِعلِ (يدخُل) بصيغةِ المُضارِعِ؛ لأنَّه مُستَقبَلٌ، وكذلك صَوغُ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾(٢).

وقدَّمَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ على الفِعلِ؛ حتَّى لا يَبقَى مُتعَلِّقَ القَلبِ بأنَّه في أيِّ المداخِلِ يكونُ، فإذا قيل له: دارُ زَيدٍ تَدخُلُها، فبذِكْرِ الدَّارِ يَعلَمُ مَدخَلَه، وبما عندَه مِن العِلمِ السَّابقِ بأنَّ له دُخولًا يَعلَمُ الدُّخولَ؛ فلا يَبقى له توقُّفٌ، ولا سيَّما الجنَّةِ والنَّارِ؛ فإنَّ بيْنَ الـمَدخَلَينِ بَوْنًا بعيدًا(٣).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- لَفظُ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: يَقولونَ، ولكنْ عُبِّرَ بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ(٤).

- وقيل: جُملةُ ﴿وَقَالُوا۟﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ [فاطر:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٦).

٣٣]؛ لئلَّا يَلزَمَ تَأويلُ الماضي بتَحقيقِ الوُقوعِ، مع أنَّه لم يُقصَدُ في قولِه: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣]. وتلك المَقالةُ مُقارِنةٌ للتَّحْليةِ واللِّباسِ، وهو كَلامٌ يَجْري بيْنَهم ساعَتَئذٍ؛ لإنْشاءِ الثَّناءِ على اللهِ على ما خوَّلَهم مِن دُخولِ الجَنَّةِ، ولِمَا فيه مِن الكَرامةِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ استِئْنافُ ثَناءٍ على اللهِ؛ شَكَروا به نِعْمةَ السَّلامةِ، وأثْنَوْا عليه بالمَغْفِرةِ؛ لِمَا تَجاوَزَ عمَّا اقتَرَفوهُ بالنِّسْبةِ للمُقتَصِدينَ والسَّابِقينَ، ولِمَا تَجاوَزَ عنه مِن تَطْويلِ العَذابِ، وقَبولِ الشَّفاعةِ بالنِّسْبةِ لمُختَلِفِ أحْوالِ الظَّالِمينَ أنفُسَهم. وأثْنَوْا على اللهِ بأنَّه شَكورٌ؛ لِمَا رَأَوْا مِن إفاضَتِه الخَيْراتِ عليهم، ومُضاعَفةِ الحَسَناتِ ممَّا هو أكثَرُ مِن صالِحاتِ أعْمالِهم(٢).

- وقيلَ: (غَفُورٌ) فيه إشارةٌ إلى دُخولِ الظَّالِمِ لِنَفْسِه الجَنَّةَ، و(شَكورٌ) فيه إشارةٌ إلى السَّابِقِ، وأنَّه كَثيرُ الحَسَناتِ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾

- التَّصريحُ بنَفيِ الثَّاني ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، مع استِلْزامِ نَفْيِ الأوَّلِ له ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾، وتَكْريرُ الفِعلِ المَنْفيِّ؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ انتِفاءِ كُلٍّ منهما(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٥، ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾

قَولُه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ في (ما) هنا وجهانِ؛ **أحدُهما**: أنَّها نَكِرةٌ مَوصوفةٌ في محلِّ نَصبِ مَفعولٌ مُطلَقٌ، أي: أوَلم نُعَمِّرْكم تَعميرًا يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ أو في محلِّ نصبٍ على الظَّرفيَّةِ، أي: أوَلم نُعمِّرْكم زَمانًا يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ **والثَّاني**: أن تكونَ (ما) موصولةً في محلِّ نَصبٍ نائبًا عن المصدرِ صِفةً لِمفعولٍ مُطلقٍ مَحذوفٍ، أي: أوَلم نُعمِّرْكم التَّعميرَ الَّذي يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ ولا يجوزُ في (ما) أن تكونَ مَصدريَّةً ظرفيَّةً؛ لأنَّ الضَّميرَ في (فيه) يمنَعُ مِن ذلك؛ لِعَودِه على (ما)، و (ما) المصدريَّةُ حَرفٌ لا يعودُ عليها ضميرٌ، وكذلك لا يَصِحُّ جَعْلُ (ما) نافيةً لا لفظًا ولا مَعنًى[1].

المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ أهلِ الجنَّةِ ونعيمَهم، يَذكُرُ حالَ الكافرينَ وما هم

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٧٦)، ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ٢٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٧٣).

فيه مِن عذابٍ، فيقولُ: والَّذين كفروا لهم نارُ جَهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم فيَموتُوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم مِن عذابِ جَهنَّمَ فيَستَريحوا، مِثلَ هذا الجَزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كلَّ كَفورٍ، وأولئك الكُفَّارُ يَصرُخونَ في نارِ جهنَّمَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ قائِلينَ: رَبَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ نَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا غيرَ الَّذي كُنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِنَ الشِّركِ والمعاصي!

ثمَّ يأتيهم مِن اللهِ الرَّدُّ الَّذي يُخزيهم، فيقولُ سبحانه لهم: أوَلَم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يَتذَكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ، وجاءكم رَسولٌ يُنذِرُكم عذابَ اللهِ؟! فذوقوا عذابَ جَهنَّمَ؛ فما للكافِرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم مِن نَصيرٍ يَنصُرُهم من عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن حالَ المؤمِنينَ ومَقَرَّهم وما هم فيه مِنَ النِّعمةِ؛ بيَّنَ حالَ أعدائِهم مِن الكافِرينَ وما لهم مِن النِّقمةِ؛ زيادةً في سُرورِ المُؤمنينَ بما قاسَوْه في الدُّنيا مِن تكَبُّرِهم عليهم وفُجورِهم[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا لهم نارُ جهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم[(٢)] فيَموتوا ويَستريحوا من

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦١).

(٢) قال الواحدي: (أي: لا يُهلَكُون فيَستريحوا ممَّا هم فيه مِن العذابِ، وهو كقولِه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥]). ((الوسيط)) (٣/ ٥٠٦).

عذابِها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وعن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذين هم أهْلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحيَونَ))[٢].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾.

أي: ولا يُخفِّفُ اللهُ عنهم مِن عَذابِ جهنَّمَ شَيئًا؛ فهو دائِمٌ ومُستمِرٌّ عليهم في جميعِ الأوقاتِ واللَّحظاتِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالكُفرِ، فلهم في الآخِرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

نارُ جهنَّمَ؛ جَزاءً على كُفرِهم[١].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: والَّذين كفَروا يَصرُخونَ بشِدَّةٍ وهم في نارِ جَهنَّمَ، ويَصيحونَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ: ربَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ؛ فنَعمَلَ بطاعتِك غيرَ الَّذي كنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِن الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

أي: فيقولُ اللهُ لهم: أوَلم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ مِن ذوي الألبابِ؟ فلو كُنتُم ممَّن يَنتفِعُ بالحَقِّ لانتفعتُم به في مُدَّةِ عُمُرِكم الَّذي اتَّسَع للتَّذكُّرِ[٣]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أَعْذَرَ[٤]

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٤) أعذَرَ: الهمزةُ للإزالةِ والسَّلبِ، يعني: أزال اللهُ عُذرَ مَن بلغ في العُمُرِ إلى ستِّينَ سنةً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٣٠١).

اللهُ إلى امرئٍ أخَّر أجَلَه حتَّى بلَّغَه سِتِّين سَنَةً))[١].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

أي: ويُقالُ لهم: وجاءَكم رَسولٌ مِنَ اللهِ يُنذِرُكم عذابَه[٢]، وقامَتْ عليكم الحُجَّةُ؛ فلا عُذرَ لكم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩].

﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

أي: فذوقوا عذابَ جهنَّمَ، فما للكافرينَ -الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

قال القرطبي: (المعنى: أنَّ مَن عَمَّره اللهُ ستِّينَ سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ السِّتِّينَ قريبٌ مِن مُعترَكِ المَنايا، وهو سِنُّ الإنابةِ والخُشوعِ، وترقُّبِ المَنيَّةِ ولقاءِ اللهِ تعالى؛ ففيه إعذارٌ بعدَ إعذارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٣).

(٢) قال ابن عطيَّة: (النَّذيرُ -في قول الجُمهورِ- الأنبياءُ، وكُلُّ نبيٍّ نذيرُ أمَّتِه ومُعاصِرِه، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نذيرُ العالَمِ في غابِرِ الزَّمانِ. وقال الطَّبَريُّ: وقيل: النَّذيرُ: الشَّيبُ. وهذا قَولٌ حَسَنٌ، إلَّا أنَّ الحُجَّةَ إنَّما تقومُ بالنِّذارةِ الشَّرعيَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٤).

بالكُفرِ باللهِ، ومَعصيتِه- مِن نصيرٍ يَنصُرُهم فيُنقِذُهم ممَّا هم فيه مِنَ العذابِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

إنَّما حَسُن طولُ العُمُرِ ونَفَع؛ لِيَحصُلَ التَّذكُّرُ والاستِدراكُ، واغتِنامُ الفُرَصِ، والتَّوبةُ النَّصوحُ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ فمَن لم يُورِثْه التَّعميرُ وطولُ البقاءِ إصلاحَ مَعايبِه، وتَدارُكَ فارِطِه[٢]، واغتنامَ بقيَّةِ أنفاسِه، فيَعمَلُ على حياةِ قَلبِه، وحصولِ النَّعيمِ المُقيمِ، وإلَّا فلا خيرَ له في حياتِه؛ فإنَّ العبدَ على جَناحِ سَفَرٍ؛ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ، فإذا طال عُمُرُه وحَسُن عَمَلُه كان طولُ سَفَرِه زيادةً له في حُصولِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ، فإنَّه كُلَّما طال السَّفرُ إليها كانت الصَّبابةُ أجَلَّ وأفضَلَ، وإذا طال عُمُرُه وساء عمَلُه كان طولُ سفَرِه زيادةً في ألَمِه وعذابِه، ونزولًا له إلى أسفَلَ؛ فالمسافِرُ إمَّا صاعِدٌ وإمَّا نازِلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أنَّ النَّارَ أبديَّةٌ لا تفنى[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ مُقابَلةُ الأقسامِ الثَّلاثةِ للَّذين أُورِثوا الكِتابَ بذِكرِ الكافِرينَ: يدُلُّ على أنَّ تلك الأقسامَ أقسامُ المؤمِنينَ، ومُقابَلةُ جزاءِ الكافِرينَ بنارِ جهنَّمَ يُوضِّحُ أنَّ الجنَّةَ دارٌ للأقسامِ الثَّلاثةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

(٢) فارِطِه: أي: ما سَبَق وتقَدَّم منه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٦).

تفاوُتٍ في الزَّمانِ والمكانِ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ حُسْنُ بلاغةِ القرآنِ؛ فإذا ذَكَر شيئًا ذَكَر ما يُقابِلُه حتَّى تكونَ النَّفْسُ بيْنَ هذا وهذا؛ فإذا ذَكَر ثناءً على أهلِ الخَيرِ ذَكَر ذمًّا لأهلِ الشَّرِّ، وإذا ذَكَر جزاءَ أهلِ الخَيرِ ذَكَر جزاءَ أهلِ الشَّرِّ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾: أنَّ أهلَ النَّارِ تَتفاوَتُ منازِلُهم وعذابُهم؛ ووَجْهُه: أنَّ كلَّ مُعَلَّقٍ على وَصفٍ فإنَّه يَزدادُ بزيادةِ ذلك الوصفِ، ويَنقُصُ بنُقصانِه[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يَتألَّمون منها ومِن عذابِها وعِقابِها؛ لأنَّهم لو ماتوا لاستراحوا، فيكونُ في هذا رَدٌّ على قَولِ مَن يقولُ مِن المعتزلةِ وغيرِهم: إنَّ أهلَ النَّارِ تكونُ النَّارُ فيهم طبيعةً، فلا يَحترِقون فيها ولا يَتألَّمون منها! وهذا خِلافُ ما دلَّ عليه القُرآنُ، وخلافُ ما دلَّ عليه العَقلُ؛ أمَّا القرآنُ فاللهُ تعالى يقولُ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، أي: ذوقوا العذابَ الَّذي يُحرِقُكم، ويقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجلودَ تحترِقُ، ولكنْ تُبَدَّلُ لأجْلِ أنْ يَذوقوا العذابَ؛ ففيها دليلٌ على أنَّها لو احترَقَت وبَقِيتْ مُحترِقةً، فإنَّها لا تُحِسُّ بالعذابِ، فيُفرَّقُ بيْنَها وبينَ ما إذا بُدِّلَتْ، فالصَّوابُ -بلا شَكٍّ- أنَّ أهلَ النَّارِ يَتألَّمون مِن عذابِها، وأنَّه لا تكونُ النَّارُ طبيعةً لهم[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ نارَ عِقابِ المؤمِنينَ خفيفةٌ عن نارِ المُشركينَ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ ضَميرُ ﴿عَذَابِهَا﴾ عائدٌ إلى جهنَّمَ؛ لِيَشملَ ما وردَ مِن أنَّ المعذَّبينَ يُعذَّبونَ بالنَّارِ، ويُعَذَّبونَ بالزَّمهريرِ، وهو شِدَّةُ البَردِ، وكُلُّ ذلك مِن عذابِ جهنَّمَ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ تركوا الترقُّقَ والعَمَلَ على حسَبِه في وَقتِ نَفعِه، واستَعمَلوه عندَ فواتِه، فلم يَنفَعْهم[٣]!

٩- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فيه الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين يَحتجُّونَ بالقَدَرِ على المعاصي، ويقولونَ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وجهُ الرَّدِّ مِن الآيةِ: أنَّه لو كان القَدَرُ حُجَّةً لم يَكْفِ ما ذُكِر في الاحتِجاجِ عليهم[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ لَمَّا كان التَّفكُّرُ بعدَ البَعثِ غيرَ نافعٍ؛ لأنَّه بعدَ كَشفِ الغِطاءِ، عبَّرَ بالماضي فقال: ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾؛ إعلامًا بأنَّه قد خُتِم على ديوانِ المتذكِّرينَ، فلا يُزادُ فيهم أحدٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ إثباتُ رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإعذارِه لخَلقِه؛ حيث أرسَلَ إليهم الرُّسُلَ، فإنَّ إرسالَ الرُّسُلِ فيه رَحمةٌ، وفيه أيضًا إعذارٌ وإقامةُ حُجَّةٍ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ بيانُ أنَّ الكفرَ ظُلْمٌ[(٢)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تعميمُ (الظَّالمين) وتعميمُ (النَّصير) يقتضي أنَّ نَصرَ الظَّالمِ تجاوُزٌ للحَقِّ؛ لأنَّ الحَقَّ ألَّا يكونَ للظَّالمِ نَصيرٌ؛ إذ واجِبُ الحِكمةِ والحَقِّ أن يأخُذَ المقتدِرُ على يدِ كُلِّ ظالمٍ؛ لأنَّ الأُمَّةَ مُكلَّفةٌ بدفعِ الفَسادِ عن جماعتِها، وفي هذا إبطالٌ لخُلُقِ أهلِ الجاهليَّةِ القائلينَ في أمثالِهم: (انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا)، وقد ألقى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أصحابِه إبطالَ ذلك، فساقَ لهم هذا المثَلَ حتَّى سألوا عنه، ثمَّ أصلَحَ معناه مع بقاءِ لَفظِه، حينَما سأله رجُلٌ فقال: ((يا رسولَ الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالمًا كيفَ أنصرُه؟! قال: تَحجُزُه، أو تَمنَعُه مِن الظُّلم، فإنَّ ذلك نصْرُه))[(٣)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ لا تَنفَعُ فيهم الشَّفاعةُ -وهذا عامٌّ-؛ فلا أحدَ يُدافِعُ عنهم، ولا يَشفَعُ لهم[(٤)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٨).

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وقَع فيه الإخبارُ عن نارِ جهنَّمَ بأنَّها لهم بلامِ الاستِحْقاقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّها أُعِدَّتْ لِجَزاءِ أعْمالِهم. وقُدِّمَ المَجْرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المُسندِ إليه ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾؛ للتَّشْويقِ إلى ذِكرِ المُسنَدِ إليه، حتَّى إذا سَمِعَه السَّامِعونَ تمكَّنَ مِن نُفوسِهم تَمامَ التَّمكُّنِ[1].

- وجُمْلةُ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ تَذْييلٌ، والكَفورُ المُبالِغُ في الكُفرِ أو الكُفْرانِ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ مُبالَغةٌ في (يَصْرُخونَ)؛ لأنَّه افتِعالٌ مِن الصُّراخ، وهو الصِّياحُ بشِدَّةٍ وجُهدٍ؛ فالاصْطِراخُ مُبالَغةٌ فيه، أي: يَصيحونَ من شِدَّةِ ما نابَهم. وجُمْلةُ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ بيانٌ لجُمْلةِ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾، يَحسَبونَ أنَّ رَفْعَ الأصْواتِ أقربُ إلى عِلمِ اللهِ بنِدائِهم، ولإظْهارِ عَدَمِ إطاقةِ ما هُمْ فيه[3].

- وتَقْييدُ العَمَلِ الصَّالحِ بقَولِهم: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ يُؤذِنُ أنَّهم كانوا يَعمَلون صالِحًا آخَرَ غيرَ الصَّالِحِ المَطْلوبِ عندَ اللهِ، وفائِدةُ هذا القَولِ زِيادة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

التَّحسُّرِ والنَّدَمِ على ما عَمِلوهُ مِن غَيرِ الصَّالِحِ مع الاعترافِ به، وزوالُ وَهْمِهم؛ لظُهورِ حالِهم في الكُفرِ، ورُكوبِ المَعاصي، ولأنَّهم كانوا يَحسَبونَ أنَّهم على سِيرةٍ صالِحةٍ، وفي هذا القَولِ وَعدٌ منهم وهُم في النَّارِ بتَدارُكِ ما فاتَهم مِن الأعْمالِ الصَّالِحةِ، ولكنَّها إنابةٌ بعدَ وَقتِها[١].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ الواوُ عاطفةٌ فِعلَ قولٍ مَحذوفًا؛ لِعِلمِه مِن السِّياقِ بحَسَبِ الضَّميرِ في ﴿نُعَمِّرْكُم﴾، مَعطوفًا على جُملةِ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ فإنَّ صُراخَهم كَلامٌ منهم، والتَّقديرُ: يَقولون: ربَّنا أخرِجْنا، ونقولُ: ألَمْ نُعمِّرْكم...[٢].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ استِفهامُ تَقْريعٍ وتَوْبيخٍ وإنْكارٍ، وعَطفُ ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ على مَعْنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ للتَّقْريرِ[٣]. وجُعِلَ التَّقريرُ على النَّفيِ تَوطئةً لِيُنكِرَه المقرَّرُ، حتَّى إذا قال: بلى، عَلِمَ أنَّه لم يَسَعْه الإنكارُ حتَّى مع تَمهيدِ وِطاءِ الإنكارِ إليه[٤].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ النَّذيرِ؛ لأنَّ الأهمَّ مِن شأنِه بالنِّسبةِ إليهم هو النِّذارةُ[٥].

- والفاءُ في ﴿فَذُوقُوا﴾ هي الفَصيحةُ؛ لِترتيبِ الأمرِ بالذَّوقِ على ما قَبْلَها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

مِن التَّعْمير، ومَجيءِ النَّذير[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ذُوقوا)؛ لِدَلالةِ المقامِ عليه، أي: ذُوقوا العذابَ. وهذا الأمْرُ ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستعمَلٌ في مَعْنى الدَّوامِ، وهو كِنايةٌ عن عَدَمِ الخَلاصِ مِن العَذابِ[٢]. وقيل: الأمرُ هنا للإهانةِ؛ فيُهانون -والعياذُ باللهِ- بالعذابِ والتَّوبيخِ وغيرِها مِن أنواعِ الإهاناتِ[٣].

- وقَولُه: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تَفريعٌ على ما سَبَقَ مِن الحِكايةِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ مِن جُمْلةِ الكَلامِ الَّذي وبَّخَهم اللهُ به؛ فهو تَذْييلٌ له، وتَفْريعٌ عليه؛ لتَأْييسِهم مِن الخَلاصِ، يعني: فأينَ الَّذين زَعَمتُم أنَّهم أوْلياؤُكم ونُصَراؤُكم؟! فما لَكمْ مِن نَصيرٍ، وعُدِلَ عن ضَميرِ الخِطابِ أنْ يُقالَ: فما لَكم مِن نَصيرٍ، إلى الاسْمِ الظَّاهِرِ بوَصْفِ (الظَّالِمينَ)؛ لإفادةِ سَببِ انتِفاءِ النَّصيرِ عنهم؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ، أي: لأنَّكم ظالِمونَ، وما للظَّالِمينَ مِن نَصيرٍ؛ فالمَقْصودُ ابتِداءُ نَفيِ النَّصيرِ عنهم، ويَتبَعُه التَّعْميمُ بنَفيِ النَّصيرِ عن كُلِّ مَن كان مِثلَهُم مِن المُشرِكينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُستقِلًّا مُفرَّعًا على القِصَّةِ، ذُيِّلَت به للسَّامِعينَ مِن قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦]، فليس فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لأنَّ المقصودَ إفادةُ شُمولِ هذا الحُكمِ لكلِّ ظالمٍ، فيَدخُلُ الَّذين كَفَروا المُتحدَّثُ عنهم في العُمومِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

الآيات (٣٨-٤١)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةٌ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ[1].

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: أي: خُلَفاءَ، والخَلَفُ هو التَّالي للمُتقَدِّمِ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و (٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلة أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ من خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ من خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥).

﴿مَقْتًا﴾: أي: بُغضًا وغَضَبًا، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[١].

﴿شِرْكٌ﴾: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارنةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن سَعةِ عِلمِه: إنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، إنَّه سُبحانَه عَليمٌ بالنِّيَّاتِ وبما أسَرَّتْه الضَّمائرُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه كمالَ حكمتِه ورحمتِه بعبادِه، فيقولُ: هو الَّذي جعَلَكم -أيُّها النَّاسُ- خُلَفاءَ في الأرضِ لِمَن قَبْلَكم، فمَن كفَرَ فضرَرُ كُفرِه على نَفْسِه، ولا يَزيدُ الكافِرينَ كُفرُهم إلَّا بُغضًا مِنَ اللهِ، ولا يَزيدُ الكافِرينَ كُفرُهم إلَّا خَسارةً في الدُّنيا والآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانه عجْزَ آلهةِ المشركين، ونقْصَها، وبُطْلانَ الشِّركِ مِن جميعِ الوُجوهِ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: أرَأَيْتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى أَرُوني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ حتَّى تَعبُدوهم؟! أمْ لهم شِركٌ مع اللهِ في مُلكِ السَّمَواتِ وخَلقِها؟! أمْ آتَيْناهم كِتابًا فيه مِصْداقُ هذه الشَّرِكةِ مع اللهِ، فهم على بُرهانٍ من صِحَّتِها؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الأسبابَ الَّتي حمَلَتْهم على الشِّركِ، فيقولُ: بل الحَقُّ أنَّ الظَّالمينَ يَخدَعُ بعضُهم بعضًا، ويَعِدُ بعضُهم بعضًا بالوُعودِ الباطِلةِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩).

ثُمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى جانبًا مِن عظيمِ قدرتِه، وتمامِ رحمتِه، وسَعةِ حِلمِه ومغفرتِه، فيقولُ: إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ والأرضَ؛ لِئلَّا تَزولا، ولَئِنْ زالت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ، إنَّ اللهَ كان حليمًا لا يُعاجِلُكم بالعُقوبةِ، غفورًا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم بالذُّنوبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ مَجيءِ قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ عَقِيبَ ما قبْلَه مِن قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ هو أنَّه تعالى ذَكَرَ أنَّ الكافِرينَ يُعذَّبونَ دائمًا، ومُدَّةُ كُفرِهم كانتْ مُدَّةً يَسيرةً مُنقَطِعةً؛ فأخبَرَ أنَّه تعالى عالِمُ غَيبِ السَّمَواتِ والأرْضِ، فلا يَخْفَى عليه ما تَنْطوي عليه الصُّدورُ مِن المُضمَراتِ، وكان يَعلَمُ مِن الكافِرِ أنَّه تَمكَّنَ الكُفرُ في قَلبِه، بحيث لو دامَ إلى الأبَدِ ما آمَنَ باللهِ ولا عَبَدَه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جزاءَ أهلِ الدَّارَينِ، وذكَرَ أعمالَ الفَريقَينِ؛ أخبَرَ تعالى عن سَعةِ عِلمِه تعالى، واطِّلاعِه على غَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ الَّتي غابت عن أبصارِ الخَلقِ وعن عِلمِهم، وأنَّه عالِمٌ بالسَّرائِرِ، وما تَنطوي عليه الصُّدورُ مِن الخيرِ والشَّرِّ، والزَّكاءِ وغَيرِه، فيُعطي كلًّا ما يَستحِقُّه، ويُنزِلُ كُلَّ أحدٍ مَنزِلَتَه[٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

أي: إنَّ اللهَ عالمٌ بما غاب في السَّمواتِ والأرضِ عن الخَلقِ(١).

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها(٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تقريرٌ لقَطعِ حُجَّةِ الكافِرينَ؛ فإنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ إشارةً إلى أنَّ التَّمكينَ والإمهالَ مُدَّةً يمكِنُ فيها المعرفةُ: قد حصَلَ وما آمنتُم، وزاد عليه بقَولِه: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ زاد على ذلك بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، أي: نبَّهكم بمَن مضَى وحالِ مَن انقضَى؛ فإنَّكم لو لم يحصُلْ لكم عِلمٌ بأنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ أُهلِك، لَكان عنادُكم أخفَى، وفسادُكم أخَفَّ، لكِنْ أُمهِلتُم وعُمِّرتُم، وأُمِرتُم على لسانِ الرُّسُلِ بما أُمِرتُم، وجُعِلتُم خلائِفَ في الأرضِ؛ فمَن كفَرَ بعدَ هذا كُلِّه، فعليه كُفرُه(٣).

وأيضًا فهذا بيانٌ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٤).

أي: هو الَّذي أوجَدَكم في الأرضِ، فكيف لا يَعلَمُ ما غاب في قُلوبِكم[١]؟!

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ الَّذي جعَلَكم -أيُّها النَّاسُ- خَلَفًا للأُمَمِ مِن قَبلِكم[٢].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت أنَّ ذلك نِعمةٌ منه؛ عَمَرَهم فيه مُدَّةً يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؛ تَسَبَّب عنه قَولُه[٣]:

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

أي: فمَن كفَرَ فعلى نَفْسِه ضَرَرُ كُفرِه، وهو المعاقَبُ عليه دونَ غَيرِه[٤].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الخلائِفُ: جمعُ خَليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غَيرَه في أمرٍ كان لذلك الغيرِ... ويجوزُ أن يكونَ المعنى: هو الَّذي جعَلَكم مُتصَرِّفينَ في الأرضِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فيكونَ الكلامُ بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الله قدَّر أن يكونَ المُسلمونَ أهلَ سُلطانٍ في الأرضِ بعدَ أُمَمٍ تداولَتْ سيادةَ العالَمِ، ويَظهَرُ بذلك دينُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا بُغضًا شديدًا لهم مِن رَبِّهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا خَسارةً وهَلاكًا في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ المُشرِكينَ وتَعنُّتِهم وحِسبانِ أنَّهم مَقَتوا المُسلِمينَ، عاد إلى الاحتِجاجِ عليهم في بُطلانِ إلهيَّةِ آلهتِهم، بحُجَّةِ أنَّه لا يُوجَدُ في الأرضِ شَيءٌ يُدَّعى أنَّها خَلَقَتْه، ولا في السَّمَواتِ شَيءٌ لها فيه شِركٌ مع اللهِ؛ فأمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُحاجَّهم، ويُوجِّهَ الخِطابَ إليهم بانتِفاءِ صِفةِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم، وذلك بعدَ أنْ نفَى استِحقاقَها لعِبادتِهم بأنَّها لا تَرزُقُهم -كما في أوَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٣).

السُّورةِ-، وبعدَ أنْ أثبَت اللهُ التصَرُّفَ في مظاهِرِ الأحداثِ الجوِّيَّةِ والأرضيَّةِ واختلافِ أحوالِها، مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وذكَّرَهم بَخلقِهم وخَلقِ أصلِهم، وقال عَقِبَ ذلك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الآيةَ [فاطر: ١٣] - عاد إلى بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنام[١].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى فتَدْعونَهم مِن دونِه، أَرُوني ما الَّذي خلَقُوه مِن الأرضِ حتَّى استحَقُّوا عبادتَكم لهم[٢]؟!

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

أي: أم لِشُركائِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ؛ في خَلقِها، أو مُلكِها، أو تَدبيرِها[٣]؟!

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قضَى حَقَّ البُرهانِ العَقليِّ على انتِفاءِ إلهيَّةِ الَّذين يَدْعُونَ مِن دونِ اللهِ؛ انتقَلَ هنا إلى انتِفاءِ الحُجَّةِ السَّمعيَّةِ مِن اللهِ تعالى، المُثبِتةِ آلهةً دُونَه؛ لأنَّ اللهَ أعلَمُ بشُركائِه وأندادِه لو كانوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾.

أي: أم آتَيْناهم[1] كتابًا فيه ثُبوتُ الشَّرِكةِ مع اللهِ؛ فالمُشرِكونَ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ مِن صِحَّةِ ذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

أي: كُلُّ ذلك مُنتَفٍ؛ فلا باعِثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطِلةِ إلَّا خِداعُ بَعضِهم بعضًا بالأمانيِّ الكاذِبةِ والآراءِ الباطِلةِ، فاتَّبَعوا أهواءَهم بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[3].

(١) قال البقاعي: (﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: الشُّركاءَ أو المُشرِكينَ بهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٦٩).
ومِمَّن قال بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ على المُشرِكينَ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٤).
قال الرسعني: (وجمهورُ المفسِّرينَ على أنَّ الضميرَ في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركينَ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥]). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٠٤).
ومِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ عائدٌ على الشُّركاءِ: البيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّ آلِهتَهم لا تقدِرُ على خَلقِ شَيءٍ مِن السَّموات والأرض؛ بيَّن أنَّ خالِقَهما ومُمسِكَهما هو اللهُ، فلا يُوجَدُ حادِثٌ إلَّا بإيجادِه، ولا يبقَى إلَّا ببَقائِه[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تَعالى فَسادَ أمرِ الأصْنامِ، ووَقَف على الحُجَّةِ على بُطلانِها؛ عقَّبَه بذِكرِ عَظَمَتِه وقُدرَتِه؛ لِيتبيَّنَ الشَّيءُ بضِدِّه، وتَتأكَّدَ حَقارةُ الأصْنامِ بذِكرِ عَظَمةِ اللهِ[2].

وأيضًا لَمَّا بيَّن شِركَهم قال: مُقتضى شِركِهم زوالُ السَّمَواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، ويدُلُّ على هذا قولُه تعالى في آخِرِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]؛ كان حليمًا ما ترَكَ تَعذيبَهم إلَّا حِلمًا منه، وإلَّا كانوا يَستحِقُّونَ إسقاطَ السَّماءِ، وانطِباقَ الأرضِ عليهم، وإنَّما أخَّرَ إزالةَ السَّمَواتِ إلى قيامِ السَّاعةِ حِلمًا[3].

= قال القرطبي: (وهو قَولُ السَّادةِ للسَّفِلة: إنَّ هذه الآلهةَ تَنفعُكم وتُقرِّبُكم. وقيل: إنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ المشركينَ ذلك. وقيل: وعدهم بأنَّهم يُنصَرونَ عليهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦).
وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالَّذين يَعِدونَهم: رؤساءُ المشركين وقادتُهم، وبالموعودينَ: عامَّتُهم ودَهماؤُهم. أو أُريدَ أنَّ كِلا الفريقين واعدٌ وموعودٌ؛ فالرُّؤساءُ وأئمَّةُ الكُفرِ يَعِدونَ العامَّةَ نَفْعَ الأصنامِ وشفاعتَها، وتقريبَها إلى اللهِ ونَصْرَها؛ غرورًا بالعامَّةِ. والعامَّةُ تَعِدُ رُؤساءَها التَّصميمَ على الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمَواتِ والأرضَ بقُدرتِه إمساكًا مانِعًا مِن زوالِهما[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾.

أي: ولو زالَت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ كائنًا مَن كان؛ فلا يَقدِرُ على إبقائِهما إلَّا اللهُ وَحْدَه[٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا لا يُعاجِلُ عِبادَه بالعُقوبةِ والعذابِ مع قُدرتِه التَّامَّةِ عليهم، بل يُؤخِّرُهم ويُمهِلُهم؛ غفورًا ساتِرًا لذُنوبِ عبادِه، مُتجاوِزًا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).
قال أبو السعود: (أي: يُمسِكُهما كراهةَ زوالِهما، أو يَمنَعُهما أنْ تَزولَا؛ لأنَّ الإمساكَ مَنْعٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦).
وذكر ابنُ عاشور أنَّ المرادَ بالزَّوالِ العَدَمُ، وأيضًا التَّحَوُّلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، فالمعنى على ذلك أنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمواتِ والأرضَ من أن يُعْدَما، ويُمسِكُهما من أن يتحوَّلَ نِظامُ حَركتِهما. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٨).
قال ابن الجوزي: (﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ تحتَمِلُ وَجهَين؛ أحدُهما: زوالُهما يومَ القيامةِ. والثَّاني: أن يقالَ تقديرًا وإن لم تَزولا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٤، ٥١٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

مُؤاخَذتِهم بها(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التَّحذيرُ مِن أن يُضمِرَ الإنسانُ في قَلبِه ما لا يَرضاه اللهُ، ثمَّ تُحَدِّثُه نَفْسُه بأنَّ هذا لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا اللهُ، فيَغتَرَّ بإمهالِ اللهِ له(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِشارةٌ للمؤمنينَ، وإنذارٌ للكافرين؛ لأنَّ مِن جملةِ الخلافةِ أنْ يَخْلُفَ المؤمنونَ الكافرينَ في أرضِهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، وكذا قولُه تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ففي هذا بِشارةٌ للمؤمنِ فلا يَيْأَسْ مِن أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَجعلُ له الخلافةَ في الأرضِ؛ وإنذارٌ للكافرِ بأنْ تُجتاحَ أرضُه على أيدي المؤمنينَ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فاللهُ مُريدٌ استِمرارَ انتِظامِ حَرَكةِ الكواكِبِ والأرضِ على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٣).

النِّظامِ المُشاهَدِ المُسمَّى بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وكذلك نظامُ الكواكِبِ الأُخرى الخارجةِ عنه إلى فَلَكِ الثَّوابِتِ، أي: إذا أراد اللهُ انقراضَ تلك العوالِمِ أو بَعضِها قَيَّض فيها طوارئَ الخلَلِ والفَسادِ، والخَرْقِ بعدَ الالتِئامِ؛ فتفكَّكَت وانتَشَرت إلى ما لا يَعلَمُ مَصيرَه إلَّا اللهُ تعالى، وحينَئذٍ لا يَستطيعُ غَيرُه مُدافعةَ ذلك ولا إرجاعَها إلى نظامِها السَّابقِ؛ فرُبَّما اضمحلَّت أو اضمَحلَّ بَعضُها، ورُبَّما أخذتْ مَسالِكَ جديدةً مِن البقاءِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلمًا إجماليًّا، وتتدبَّرَ في اتِساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ الحَذَرُ مِن أن يَتمنَّى الإنسانُ على اللهِ الأمانيَّ، بل يجِبُ أنْ يكونَ الإنسانُ فَطِنًا كَيِّسًا حازِمًا؛ فالوُعودُ الَّتي يُوعَدُ بها الإنسانُ مِن قِبَلِ الظَّالمينَ أو مِن قِبَلِ نفْسِه إذا كانت مخالِفةً للشَّرعِ، فما هي إلَّا غُرورٌ وباطِلٌ؛ فلْيَحذَرِ الإنسانُ منها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ المَدارَ على ما في القَلبِ، وذاتُ الصُّدورِ هي القُلوبُ؛ لأنَّها السَّاكِنةُ فيها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٣] [الحج: ٤٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في تَوارُثِ الأُممِ بعضِها بعضًا، فإنَّه لولا ذلك لَضاقتِ الأرضُ بأهلِها، وشقَّ عليهم تحصيلُ الأرزاقِ -وإنْ كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد يَجعلُ لهم مِن الرِّزقِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

لا يَخطُرُ بالبالِ-؛ لكنْ لا شكَّ مِن أنَّ جَعْلَ النَّاسِ يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا -هذا يموتُ وهذا يحيا- هو الحكمةُ والرَّحمةُ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗا﴾ أنَّه كُلَّما ازداد الإنسانُ كُفرًا ازداد عندَ اللهِ مَقْتًا؛ وجهُ ذلك: القاعدةُ: «أنَّ الحُكمَ المُعلَّقَ على وَصفٍ، يَزدادُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه»، وهنا الحُكْمُ مُعَلَّقٌ على الكُفرِ؛ فإذَنْ يَزدادُ مَقْتُ اللهِ عزَّ وجلَّ على الكافرِ بزيادةِ كُفرِه، ويَنقُصُ بنُقصانِ كُفرِه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَقۡتٗا﴾ إثباتُ صفةٍ مِن صِفاتِ الله، وهي المَقْتُ الَّذي هو أشَدُّ البُغضِ[3]، وهي صِفةٌ فِعليَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهي عندَ أهلِ الحقِّ كسائرِ صِفاتِ الأفعالِ: صِفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ، على ما يَليقُ به، ولا تُشبِهُ ما يَتَّصِفُ به المخلوقُ مِن ذلك، ولا يَلزَمُ منها ما يَلزَمُ في المخلوقِ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾ قوَّةُ القُرآنِ في أسلوبِ المُناظَرةِ، وذلك بالسَّبرِ والتَّقسيمِ[5]؛ وَجْهُه: أنَّ اللهَ تَحدَّاهم بثلاثةِ أمورٍ: هل خَلَقوا شيئًا مِن الأرضِ؟ هل شارَكوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٣٢١، ٣٢٢).

(٥) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قَبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

اللهَ في السَّماءِ؟ هل عندَهم كتابٌ مِن اللهِ أنَّ هذه الأصنامَ تَنفَعُهم، وإنْ لم تَكُنْ شَريكةً للهِ في السَّمواتِ، ولم تَخْلُقْ شَيئًا مِن الأرضِ؟ والجوابُ: لا، ولو خَلَقَتْ شيئًا مِن الأرضِ لَكان لها الحَقُّ؛ لأنَّها تَخْلُقُ، ولو شاركتِ اللهَ في مُلْكِه في السَّماءِ لَكان لها الحقُّ؛ لأنَّها شريكةٌ للهِ عزَّ وجلَّ في مُلْكِه، ولو كان اللهُ أنزَلَ كتابًا يقولُ بأنَّ هذه الأصنامَ لها الحقُّ أنْ تُعبَدَ وتُدْعَى مِن دونِ اللهِ لَكان لهم شُبهةٌ أو حُجَّةٌ، فلمَّا انتفتِ الأمورُ الثلاثةُ تَبيَّنَ أنَّه لا حُجَّةَ لهم، فينبغي في المناظَرةِ أنْ تُذْكَرَ جميعُ الأقسامِ الَّتي يمكنُ أنْ تَرِدَ في الذِّهنِ ثمَّ تُبْطَلَ؛ احترازًا ممَّا لو ذُكِر شَيءٌ واحدٌ ثمَّ بُيِّنَ بُطلانُه، فقد يُوْرَدُ عليه شَيءٌ آخَرُ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لعلَّ استِفهامَهم عن رؤيةِ شُركائِهم تنبيهٌ على أنَّهم مِن الامتِهانِ والحَقارةِ بحيثُ يَراهم كُلُّ مَن يَقصِدُ رُؤيتَهم، ويَعلَمُ أنَّه لا خَلْقَ لهم، واللهُ تعالى بخِلافِ ذلك في كُلٍّ مِن الأمْرينِ، مُتَرَدٍّ بِرداءِ الكِبْرِ، مُحتَجِبٌ بحِجابِ الجَلالِ والعِزِّ، وكُلُّ أحدٍ يَعلَمُ أنَّه خالِقٌ لكُلِّ مَخلوقٍ، فكيف يكونُ مَن لا يَخلُقُ كمَن يَخلُقُ[٢]؟!

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ اتِّصافُه بالحِلمِ والغُفرانِ في هذه الآيةِ إنَّما هو إشارةٌ إلى أنَّ السَّماءَ كادت تَزولُ، والأرضُ كذلك؛ لإشراكِ الكَفَرةِ، فيُمسِكُها حِلمًا منه عن المُشرِكينَ، وتَرَبُّصًا لِيَغفِرَ لِمَنْ آمَنَ منهم[٣]، فلولا حِلمُه ومَغفرتُه لَزُلْزِلَتِ السَّمواتُ والأرضُ مِن معاصي العِبادِ، وتأمَّلْ خَتْمَ هذه الآيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠).

باسْمَينِ مِن أسمائِه، وهما: «الحليمُ» و«الغفورُ» كيف تَجِدُ تحتَ ذلك أنَّه لولا حِلمُه عن الجُناةِ ومَغفرتُه للعُصاةِ لَمَا استقرَّت السَّمواتُ والأرضُ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إثباتُ الحِكمةِ؛ لأنَّه عَلَّلَ إمساكَ السَّمَواتِ والأرضِ بكَونِ ذلك مُقتضَى حِلْمِه ومَغفرتِه[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استِئْنافٌ واصِلٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١] وجُملةِ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ [فاطر: ٤٠]؛ فتَسَلْسَلتْ مَعانيه فعادَ إلى فَذْلَكةِ[(٣)] الغَرضِ السَّالفِ المُنتقَلِ عنه من قولِه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٥ - ٣١]؛ فكانتْ جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كالتَّذييلِ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ يُجازي كُلَّ ذي نِيَّةٍ على حَسَبِ ما أضْمَره؛ لِيَزدادَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقينًا بأنَّ اللهَ عالِمٌ بما يُكِنُّه المُشركونَ[(٤)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مُسْتأنَفةٌ، وهي كالنَّتيجةِ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ ما في الصُّدورِ مِن الأُمورِ المُغيَّبةِ، فيَلزَمُ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٢).

(٣) تقدم تعريفها (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

مِن عِلمِ اللهِ بغَيبِ السَّمَواتِ والأرْضِ عِلمُهُ بما في صُدورِ النَّاسِ. أو هي تَعْليلٌ لِمَا قَبْلَها؛ لأنَّه إذا عَلِمَ ما في الصُّدورِ -وهو أخْفَى ما يَكونُ- فقد عَلِمَ كُلَّ غيبٍ في العالَمِ(١).

- وجِيءَ في الإخْبارِ بعِلمِ اللهِ بالغَيبِ بصِيغةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي الإخْبارِ بعِلمِه بذاتِ الصُّدورِ بصِيغةِ المُبالَغةِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأنَّ المَقْصودَ مِن إخْبارِ المُخاطَبينَ تَنْبيهُهم على أنَّه كِنايةٌ عن انتِفاءِ أنْ يَفوتَ عِلمَه تعالى شَيءٌ، وذلك كِنايةٌ عن الجَزاءِ عليه؛ فهي كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ، وجُملةِ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ كَلامًا مُسْتأنَفًا مَسوقًا لِبَيانِ أحْوالِ الكافِرينَ الَّذين غَمِطوا نِعْمةَ اللهِ عليهم بعدَ أنْ استَخْلَفَهم في الأرضِ(٣).

- والخلائفُ: جمْعُ خليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غيرَه في أمْرٍ كان لذلك الغيرِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ بعْدَ أُمَمٍ مَضَت، فيكونَ هذا بَيانًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: هو الَّذي أوجَدَكم في الأرضِ، فكيف لا يَعلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٤).

ما غاب في قُلوبِكم؟! ويَكونَ ما صَدَق[١] ضميرِ جماعةِ المخاطَبينَ شاملًا للمؤمنينَ وغيرِهم مِن النَّاسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: هو الَّذي جعَلَكم مُتصرِّفينَ في الأرضِ، فيَكونَ الكلامُ بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ يكونَ المُسلِمونَ أهْلَ سُلْطانٍ في الأرْضِ بعدَ أُمَمٍ تَداوَلَتْ سِيادةَ العالَمِ، ويَظهَرُ بذلك دِينُ الإسْلامِ على الدِّينِ كُلِّه، والجُمْلةُ الاسميَّةُ تُفيدُ تَقَوِّيَ الحُكمِ الَّذي هو جَعْلُ اللهِ المُخاطَبينَ خَلائِفَ في الأرضِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ شَرْطٌ مُسْتعمَلٌ للدَّلالةِ على عَدَمِ الاهتِمامِ بأمْرِ دوامِهم على الكُفرِ[٣].

- وجُمْلةُ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بيانٌ لِجُمْلةِ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، وكان مُقتَضى ظاهِرِ هذا المَعْنى ألَّا تُعطَفَ عليها؛ لأنَّ البَيانَ لا يُعطَفُ على المُبيَّنِ، وإنَّما خُولِفَ ذلك؛ للدَّلالةِ على الاهتِمامِ بهذا البَيانِ، فجُعِلَ مُستقِلًّا بالقَصدِ إلى الإخْبارِ به، فعُطِفَتْ على الجُمْلةِ المُبيَّنةِ بمَضْمونِها تَنْبيهًا على ذلك الاستِقْلالِ، وهذا مَقصدٌ يَفوتُ لو تُرِكَ العَطفُ، أمَّا ما تُفيدُه مِن البَيانِ فهو أمْرٌ لا يَفوتُ؛ لأنَّه تَقتضيهِ نِسْبةُ مَعْنى الجُمْلةِ الثَّانيةِ مِن مَعْنى الجُمْلةِ الأُولى[٤].

(١) الماصَدَق -عندَ المَناطِقةِ-: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويُقابِلُه: (المفهوم)، وهو مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. وهو اسمٌ مركَّبٌ تركيبًا مَزجيًّا مِن (ما) و(صَدَقَ) الفعلِ الماضي، جُعِلَ اسمًا لأفرادِ الكُلِّيِّ، فـ (ماصَدَق الإنسانِ): أفرادُه، مِن زَيدٍ وعَمرٍو وغيرِهما؛ فهو اسمٌ معربٌ. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٥٦)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتَركيبُ جُمْلةِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ تَركيبٌ عَجيبٌ؛ لأنَّ ظاهِرَه يَقتَضي أنَّ الكافِرينَ كانوا قبْلَ الكُفرِ مَمْقوتينَ عندَ اللهِ لكُفْرِهم، فلمَّا كَفَروا بعدَ ظُهورِ الحَقِّ زادَهُم كُفرُهم مَقتًا عِندَه، وقد كان المُشرِكونَ يَتَكبَّرونَ على المُسلِمينَ ويُشاقُّونَهم، ويُؤيِّسونَهم مِن الطَّماعيةِ في أنْ يَقبَلوا الإسلامَ بأنَّهم أعظَمُ مِن أنْ يَتَّبِعوهم، وأنَّهم لا يُفارِقون دِينَ آبائِهم، ويَحسَبونَ ذلك مَقتًا منهم للمُسلِمينَ، فجازاهُمُ اللهُ بزِيادةِ المَقْتِ على استِمرارِ الكُفرِ. وكذلك القولُ في معنى قولِه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

- وقولُه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ تَكْريرُ جُمْلةِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّنبيهِ على أنَّ اقتِضاءَ الكُفرِ لكُلِّ واحِدٍ مِن الأمْرَينِ مُستقِلٌّ باقتِضاءِ قُبحِه، ووُجوبِ التَّجنُّبِ عنه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال في آخِرِ سُورةِ (الأنعامِ): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ لأنَّ في سورةِ (الأنعامِ) تكرَّر ذِكرُ المخاطَبينَ مرَّاتٍ، فعرَّفهم بالإضافةِ؛ وقد جاءَ هنا على الأصلِ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٠٠، ٣٨٨).

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ...﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ، وهو تَمهيدٌ لأنْ يُطلَبَ منهم الإخْبارُ عن شَيءٍ خَلَقَه شُرَكاؤُهم، فصار المرادُ مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾: انْظُروا ما تُخْبرونني به مِن أحوالِ خَلْقِهم شيئًا مِن الأرضِ؛ فحصَلَ في قولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ إجمالٌ فصَّلَه قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فتكونُ جُملةُ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ﴾ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ بدَلَ اشتمالٍ، أو بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ[(١)].

- قولُه: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ أُضِيفَ الشُّركاءُ إلى ضَميرِ المخاطَبينَ؛ لأنَّ المرادَ بالشُّركاءِ مَن زَعَموهم شُركاءَ اللهِ في الإلهيَّةِ، أي: الشرُّكاءُ عِندَكم؛ لِظُهورِ أنْ ليس المرادُ أنَّ الأصنامَ شُركاءُ مع المخاطَبينَ بشَيءٍ، فتَمحَّضَت الإضافةُ لمعنى: مُدَّعَيْكُم شُركاءَ للهِ[(٢)]. وقيل: أضافهم إليهم؛ لأنَّهم -وإن كانوا جعلوهم شُرَكاءَه- لم يَنالوا شيئًا مِن شَرِكتِه؛ لأنَّهم ما نَقَصوه شيئًا مِن مُلكِه، وإنَّما شارَكوا العابِدينَ في أموالِهم بالسَّوائبِ وغَيرِها، وفي أعمالِهم؛ فهم شركاؤُهم بالحقيقةِ لا شُرَكاؤه[(٣)].

- والموصولُ والصِّلةُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ على الخَطَأِ في تلك الدَّعْوةِ، وقَرينةُ التَّخْطِئةِ تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنَّه أمْرٌ للتَّعجيزِ؛ إذ لا يَستَطيعونَ أنْ يُرُوهُ شيئًا خَلَقَتْه الأصْنامُ؛ فيكونُ الأمْرُ التَّعْجيزيُّ في قُوَّةِ نَفيِ أنْ خَلَقوا شيئًا ما[(٤)].

- قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان مَقَرُّ الأصنامِ في الأرضِ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

مِن الرَّاجِحِ أنْ تتخيَّلَ لهم الأوْهامُ تَصرُّفًا كامِلًا في الأرضِ، فكأنَّهم آلِهةٌ أرضيَّةٌ؛ فلذلك قِيل لهم: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: فكان تَصرُّفُهم في ذلك تَصرُّفَ الخالقيَّة[١].

- قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (أم) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ، وهي تُؤذِنُ باستِفهامٍ بعْدَها، والمعنى: بلْ ألهمْ شِركٌ في السَّمواتِ؟ والسَّمواتُ قَلَّما يَخطُرُ ببالِ المشركينَ أنَّ للأصنامِ تَصرُّفًا في شُؤونِها، ولعلَّهم لم يَدَّعوا ذلك، ولكنْ جاء قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَجِيءَ تَكْمِلةِ دَليلِ نَفيِ أُلُوهيَّةِ أصنامِ الكُفَّارِ، وذلك على سَبيلِ الفَرْضِ والاحتِمالِ، وقد كانوا يَنسُبونَ للأصنامِ بُنوَّةً للهِ تعالى؛ فمِن أجْلِ ذلك جِيءَ في جانبِ الاستدلالِ على انتفاءِ تأْثيرِ الأصنامِ في العوالِمِ السَّماويَّةِ بإبطالِ أنْ يكونَ لها شِركٌ في السَّمواتِ؛ لأنَّهم لا يَدَّعون لها في مَزاعِمِهم أكثَرَ مِن ذلك[٢].

- قولُه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ فيه انتِفاءُ الحُجَّةِ السَّمعيَّةِ من اللهِ تعالى المُثبِتةِ آلهةً دونَه، بعدَ إقامةِ البُرهانِ العقليِّ على انتفاءِ إلهيَّةِ الَّذين يَدْعون مِن دونِ اللهِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الشِّركَ خَطيرٌ لا بُدَّ في إثباتِه من تَعاضُدِ الدَّلائِلِ[٣].

- والضَّميرُ في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: إنَّه عائِدٌ على الشُّرَكاءِ؛ لِتَناسُبِ الضَّمائِرِ، أي: هلْ مع ما جُعِلَ شُرَكاءَ للهِ كِتابٌ من اللهِ فيه أنَّ لهم شَفاعةً عندَه؟ فإنَّه لا يُشفَعُ عندَه إلَّا بإذْنِه. وقيلَ: عائِدٌ على المُشرِكينَ، ويكونُ الْتِفاتًا خَرَج من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيْبةِ؛ إعْراضًا عنهم، وتَنزيلًا لهم مَنزِلةَ الغائِبِ الَّذي لا يَصلُحُ للخِطابِ، ومَعْناه: أنَّ عِبادةَ هؤلاء إمَّا بالعَقلِ، ولا عَقْلَ لِمَن يَعبُدُ ما لا يَخلُقُ مِن الأرْضِ جُزْءًا مِن الأجْزاءِ، ولا له شِركٌ في السَّماءِ، وإمَّا بالنَّقلِ، ولم نُؤتِ المُشرِكينَ كِتابًا فيه أمْرٌ بِعبادةِ هؤلاء؛ فهذه عِبادةٌ لا عَقليَّةٌ ولا نَقليَّةٌ[١].

- ووَصَفَ (البيِّنة) بـ﴿مِّنۡهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ كَونُ الكِتابِ المَفْروضِ إيتاؤُه إيَّاهم مُشتَمِلًا على حُجَّةٍ لهم تُثبِتُ إلهيَّةَ الأصْنامِ، وليس مُطلَقَ كِتابٍ يُؤْتَوْنَه أمارةً مِن اللهِ على أنَّه راضٍ منهم بما همْ عليه كدَلالةِ المعجزاتِ على صِدقِ الرَّسولِ، وليست الخوارقُ ناطقةً بأنَّه صادقٌ، فأُريدَ: آتيناهمْ كِتابًا ناطقًا مِثلَ ما آتَيْنا المسلمينَ القرآنَ[٢]؟

- قولُه: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (بل) للإضرابِ الإبطاليِّ؛ كرَّ على ما سبَقَ الإبطالَ بواسطةِ (بل)، بأنَّ ذلك كلَّه مُنتَفٍ، وأنَّهم لا باعثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطلةِ إلَّا وَعدُ بعضِهم بعضًا مواعيدَ كاذبةً يَغُرُّ بعضُهم بها بعضًا[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ استِئْنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ غايةِ قُبحِ الشِّركِ، وهو انتِقالٌ مِن نَفيِ أنْ يكونَ لشُرَكائِهم خَلْقٌ أو شِرْكةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨، ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

تَصرُّفٍ في الكائناتِ الَّتي في السَّماءِ والأرضِ، إلى إثْباتِ أنَّه تعالى هو القَيُّومُ على السَّمواتِ والأرْضِ؛ لِتَبْقَيَا مَوْجودَتَينِ؛ فهو الحافِظُ بقُدرَتِه نِظامَ بَقائِهما. وأكَّدَ هذا الخَبَرَ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لِتَحْقيقِ مَعْناه، وأنَّه لا تَسامُحَ فيه، ولا مُبالَغةَ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ الزَّوالُ يُطلَقُ على العَدَمِ، ويُطلَقُ على التَّحوُّلِ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومنه زَوالُ الشَّمسِ عن كَبِدِ السَّماءِ، وقد اختِيرَ هذا الفِعلُ (تزول) هنا دُونَ غَيرِه؛ لأنَّ المَقْصودَ مَعْناهُ المُشترَكُ؛ فإنَّ اللهَ يُمسِكُهُما مِن أنْ يُعْدَما، ويُمسِكُهُما مِن أنْ يَتَحوَّلَ نِظامُ حَرَكَتِهما؛ فاللهُ مُريدٌ استِمْرارَ انتِظامِ حَرَكةِ الكَواكِبِ والأرْضِ على هذا النِّظامِ المُشاهَدِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلمًا إجْماليًّا، وتَتَدبَّرَ في اتِّساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ أُسنِدَ فِعلُ ﴿زَالَتَآ﴾ إلى السَّمَواتِ والأرْضِ، على تَأويلِ السَّمواتِ بسَماءٍ واحِدةٍ. وأُسنِدَ الزَّوالُ إليهما؛ للعِلْمِ بأنَّ اللهَ هو الذي يُزيلُهُما؛ لقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾. وجِيءَ في نَفيِ إمْساكِ أحَدٍ بحَرفِ (مِن) المُؤكِّدةِ للنَّفيِ؛ تَنْصيصًا على عُمومِ النَّكِرةِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا يَستطيعُ أحَدٌ كائنًا مَن كان إمْساكَهما وإرْجاعَهما[3].

- وفي ذِكرِ إمْساكِ السَّمَواتِ عن الزَّوالِ بعدَ الإطْنابِ في مُحاجَّةِ المُشركينَ وتَفظيعِ غُرورِهم: تَعْريضٌ بأنَّ ما يَدْعُونَ إليه مِن الفَظاعةِ مِن شَأنِه أنْ يُزَلزِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨، ٣٢٩).

الأَرَضينَ، ويُسقِطَ السَّماءَ كِسَفًا؛ لولا أنَّ اللهَ أرادَ بَقاءَهما لِحِكْمةٍ، وهذه دَلالةٌ مِن مُستَتبَعاتِ التَّراكيبِ باعتِبارِ مَثارِ مَقاماتِ التَّكلُّمِ بها. وهو أيضًا تَعريضٌ بالتَّهديدِ؛ ولذلك أُتبِعَ بالتَّذييلِ بوَصْفِ اللهِ تعالى بالحِلمِ والمَغفِرةِ؛ لِمَا يَشملُه صِفةُ الحَليمِ مِن حِلمِه على المُؤمنينَ ألَّا يُزعِجَهم بفَجائعَ عَظيمةٍ، وعلى المُشرِكينَ بتأْخيرِ مُؤاخَذَتِهم؛ فإنَّ التَّأْخيرَ مِن أثَرِ الحِلمِ، وما تَقْتضيهِ صِفةُ الغَفورِ مِن أنَّ في الإمهالِ إعْذارًا للظَّالِمينَ لعلَّهم يَرجِعونَ[1].

- وفِعلُ (كان) المُخبَرُ به عن ضَميرِ الجلالةِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ مُفيدٌ لِتقرُّرِ الاتِّصافِ بالصِّفتَينِ الحُسْنَيينِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونهايةِ قُوَّته؛ لِما بيْنَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ. والأيْمانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، قيل: أصلُه مِن اليُمْن، أي: البَركة؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّه يكونُ بأَخذِ اليَمينِ، أو لأنَّهم كانوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئٍ مِنْهم يَمينَه على يَمينِ صاحِبِه[١].

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾: أي: المكرَ السَّيِّئَ، وهو مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، وأصلُ (مكر): الاحتيالُ والخِداعُ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على قُبْحٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) و(٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨، ٨٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣) و(٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

﴿يَحِيقُ﴾: أي: يُحيطُ ويَنزِلُ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ[(١)].

﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: العَذابَ الَّذي نزَلَ بالكُفَّارِ، والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ شَيءٍ واطِّرادِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأقسَمَ مُشرِكو العَرَبِ باللهِ مُجتَهِدينَ في أيْمانِهم أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ لَيَكونُنَّ أعظَمَ هُدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ، فلمَّا جاءهم مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَذيرًا ما زادَهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِنَ الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضَلالِهم، تكبُّرًا وعُتوًّا في الأرضِ، ومكرًا سيِّئًا بالنَّاسِ، فزَيَّنوا لهم الباطِلَ، وصَدُّوهم عن الحَقِّ، ولا يَنزِلُ المَكرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهلِه. فهل يَنتَظِرونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في إهلاكِ مَن قَبْلَهم مِن المكَذِّبينَ؟! فلن تجدَ -يا مُحمَّدُ- لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا.

ثُمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يؤكِّدُ عدَمَ تغييرِ سُنَّتِه في خَلْقِه، ويَحُضُّ على السَّيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بأحوالِ المُهلَكينَ السَّابِقينَ، فيقولُ: أوَلم يَسِرْ هؤلاء المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ مَن قَبْلَهم مِن الكُفَّارِ، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِنَ العَذابِ، وكان هؤلاء الكُفَّارُ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً؟!

وما كان مِن شأنِ اللهِ تعالى أن يُعجِزَه شَيءٌ مِن الأشياءِ، سواءٌ أكانَ في السَّمواتِ أم في الأرضِ؛ لِكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه.

ثُمَّ يختِمُ سبحانَه السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ جانبٍ مِن رحمتِه، وكمالِ حِلمِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠).

فيقولُ: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ بما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ لَأهلَكَ جميعَ ما على ظَهرِ الأرضِ، ولكِنْ يُمهِلُهم سُبحانَه إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، فإذا جاء هذا الوَقتُ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أحوالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى إنكارَ المُشرِكينَ للتَّوحيدِ؛ ذكَرَ تكذيبَهم للرَّسولِ ومُبالَغتَهم فيه[1].

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾.

أي: وأقسَمَ مُشرِكو العَرَبِ باللهِ بأبلَغِ الأيْمانَ وأغلَظِها -مِن قَبْلِ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ، لَيَكونُنَّ أعظَمَ هدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

قال ابن عثيمين: (إمَّا أن نَلتزِمَ بالعُموم ونقولَ: إنَّهم يقولون: أهدى من إحدى الأمَمِ من أيِّ أمَّةٍ كانت... فكأنَّهم يقولون: أهدى من كلِّ الأمَمِ، لكِنْ لم يُعَيِّنوا؛ لأنَّهم لم يَدرُوا مَن هو الَّذي على حَقٍّ. وإمَّا أن يُقالَ: خُصَّ هذا الجانِبُ بأُمَّتينِ فقط؛ لأنَّ المعروفَ أنَّهم على دينٍ هم اليهودُ والنَّصارى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أهدَى مِن جميعِ الأُمَمِ الَّذين أُرسِلَ إليهم الرُّسُلُ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

أي: فلمَّا جاءهم محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على شِركِهم وكُفرِهم، ما زادهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِن الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضلالِهم، ولم يَصيروا أهدى مِن إحدى الأُمَمِ كما أقسَموا مِن قَبْلُ[1]!

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: اليهودُ والنَّصارى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ بهم أهلُ الكتابِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٦).

وقال البِقاعي: (﴿مِنْ إِحْدَى﴾ أي: واحدةٍ مِن ﴿ٱلْأُمَمِ﴾ أي: السَّالفةِ، أو مِن الأمَّةِ الَّتي لم يكُنْ في الأُمَمِ الَّتي جاءتها النُّذُرُ أهدى منها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

قال السعدي: (ليس إقسامُهم المذكورُ لِقَصدٍ حَسَنٍ، وطلَبٍ للحَقِّ، وإلَّا لَوُفِّقُوا له، ولكنَّه صادِرٌ عن استِكبارٍ في الأرضِ على الخَلقِ، وعلى الحَقِّ، وبَهرجةٍ في كلامِهم هذا، يُريدونَ به المكرَ والخِداعَ، وأنَّهم أهلُ الحَقِّ، الحَريصونَ على طلَبِه، فيَغتَرُّ به المغترُّون، ويمشي خَلْفَهم المُقتَدون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

أي: عُتوًّا على الله، وتَكبُّرًا في الأرض عن الإيمانِ به، ومَكرًا سَيِّئًا بالنَّاسِ، فقد خَدعوهم، وزيَّنوا لهم الباطِلَ؛ لِيَصُدُّوهم عن الحَقِّ[1].

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩).

قال الرازي: (﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ونصْبُه يحتمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنْ يكونَ حالًا، أي: مستكبرينَ في الأرضِ. وثانيها: أنْ يكونَ مفعولًا له، أي: للاستكبارِ. وثالثُها: أنْ يكونَ بدَلًا عن النُّفورِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦).

ممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٨).

قال ابن عاشور: (لِأنَّ النُّفورَ في معنَى الفعلِ، فصَحَّ إعمالُه في المفعولِ له. والتَّقديرُ: نَفَروا لأجْلِ الاستِكبارِ في الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّالثَ -أنَّها بدَلٌ من كَلمةِ ﴿نُفُورًا﴾: الأخفَشُ -كما في ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١)-، والعُلَيميُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٧٧).

قال البِقاعي: (﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: ولأجلِ مكرِهم المكرَ الَّذي مِن شأنِه أن يَسوءَ صاحِبَه وغَيرَه، وهو إرادتُهم لإيهانِ أمرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وإطفاءِ نورِ الله. وقراءةُ عبدِ اللهِ «ومكرًا سيئًا» يدُلُّ على أنَّه مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى صفتِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٥).

وقال السمعاني: (في المكرِ السَّيِّئِ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه الشِّركُ، والآخرُ: أنَّه المكرُ برسولِ الله). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٤).

وقال الواحدي: (والمفسِّرونَ فسَّروا المكرَ السَّيِّئَ هاهنا بالشِّركِ. والتَّقديرُ: ومكروا مكرًا سَيِّئًا، والمكرُ السَّيِّئُ: هو عمَلُهم القبيحُ مِن الشِّركِ، والمكرُ هو العملُ القبيحِ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٤٣).

أي: ولا يَنزِلُ سُوءُ المَكرِ السَّيِّئِ إلَّا بأهلِه الَّذين يَمكُرونَه، فيَحُلُّ عليهم، ويُحيطُ بهم[(١)].

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾.

أي: فهل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في الأُمَمِ السَّابقةِ في إهلاكِهم في الدُّنيا على كُفرِهم بالحَقِّ[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

أي: فلن تَجِدَ -يا محمَّدُ- لطريقةِ اللهِ الَّتي قضاها وحَكَم بها تبديلًا لها، بل هي سُنَّةٌ ماضيةٌ، وعادةٌ جاريةٌ، فلا بُدَّ أن يُعذِّبَ هؤلاء المُشرِكونَ إن استمَرُّوا على باطِلِهم؛ ولن تجِدَ لهذه العادةِ تحويلًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٦).

قيل: معنى ﴿تَحۡوِيلًا﴾: أي: تحويلَ العذابِ عنهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٥).

وقيل: المعنى: تحويلُه مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخفَى منها. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٦).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ للأوَّلينَ سُنَّةً، وهي: الإهلاكُ؛ نبَّهَهم بتذكيرِ حالِ الأوَّلينَ؛ فإنَّهم كانوا مارِّينَ على ديارِهم، رائينَ لآثارِهم[1].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشرِكونَ في الأرضِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ كُفَّارِ الأُمَمِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِن العذابِ؛ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فيَخافوا ويَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[2]؟

﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: وكان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً، فعذَّبَهم اللهُ بسَبَبِ ذُنوبِهم؛ فلن يَتعذَّرَ على اللهِ إهلاكُ كُفَّارِ قُرَيشٍ كما عذَّب أولئك[3].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨).

ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

أي: وإذا أراد اللهُ إهلاكَ المُشرِكينَ أو فِعلَ أيِّ شَيءٍ في السَّمَواتِ أو في الأرضِ، فلن يُعجِزَه ذلك؛ لكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَتعذَّرُ عليه أمرٌ(١).

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُشرِكونَ يَستَعجِلونَ بالوَعيدِ استِهزاءً؛ بيَّنَ أنَّه لا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ما كَسَبوا؛ لعلَّهم يُنيبون أو يُنيبُ بَعضُهم إلى رَبِّه، ويَثوبُ إلى رُشدِه، فقال(٢):

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾.

أي: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ على جَميعِ ما عَمِلوه مِنَ الذُّنوبِ ولم يُمهِلْهم، لأهلَكَ جميعَ النَّاسِ والدَّوابِّ على ظَهرِ الأرضِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ يُمهِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، ثمَّ يُحِلُّ بهم عِقابَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: ٥٨].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي(٢) للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))(٣).

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾.

أي: فإذا جاء وَقتُ أخْذِهم فإنَّ اللهَ بعِبادِه(٤) ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) لَيُمْلي: أي: يُمهِلُ. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٧/ ١٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) قيل: المرادُ بعِبادِه: المؤمنون، فهو تسليةٌ لهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ، وقال: (فإذا جاء الهلاكُ فالله بالعبادِ بصيرٌ؛ إمَّا أن يُنجيَهم، أو يكونَ تَوَفِّيهم تقريبًا مِن الله لا تعذيبًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٩).

وقيل: هذا توعُّدٌ للمُكَذِّبينَ ولِمَن يَستحِقُّ العِقابَ، أي: فيُجازيهم بأعمالِهم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣). =

بَصيرٌ، لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ يَحُضُّ على السَّيرِ في الأرضِ بالقُلوبِ والأبدانِ؛ للاعتبارِ لا لمجَرَّدِ النَّظَرِ والغَفلَةِ، وأن يَنظُروا إلى عاقبةِ الَّذين مِن قَبْلِهم ممَّن كَذَّبوا الرُّسُلَ، وكانوا أكثَرَ منهم أموالًا وأولادًا، وأشَدَّ قُوَّةً، وعَمَروا الأرضَ أكثَرَ مِمَّا عَمَرَها هؤلاء، فلمَّا جاءهم العذابُ لم تَنفَعْهم قُوَّتُهم، ولم تُغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن اللهِ شَيئًا، ونَفَذَت فيهم قُدرةُ اللهِ ومَشيئتُه(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ أي: فيَتسَبَّبَ لهم عن ذلك السَّيرِ أنَّه يَتجَدَّدُ لهم نظَرٌ واعتِبارٌ يومًا مِن الأيَّامِ؛ فإنَّ العاقِلَ مَن إذا رأى شيئًا تفكَّرَ فيه؛ حتَّى يعرِفَ ما يَنطِقُ به لِسانُ حالِه إنْ خفِيَ عنه ما جرَى مِن مقالِه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أنَّنا ينبغي أنْ نَنظُرَ إلى عاقبةِ السَّابِقينَ نَظَرَ اعتبارٍ بمآلِهم حينَ كَذَّبوا رُسُلَهم، وليس اعتبارًا بقوَّتِهم وصِناعتِهم وطِرازِهم، وما أشْبَهَ ذلك(٤)!

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا

= وقيل: المرادُ بهم جميعُ العبادِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ فيُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: ابنُ جرير، ومكِّي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٩٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٧).

مِن دَآبَّةٍ﴾ فيه تذكيرٌ لهم عن أن يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجزًا أو رِضًا مِن اللهِ بما هم فيه! فعَلَّمَهم أنَّ لعِذابِ اللهِ آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرينَ، أو استِبقاءُ أجيالٍ آتينَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ هذه الآيةُ وغَيرُها وما يُؤْثَرُ مِن تنَصُّرِ بعضِ العَرَبِ، ومِن اتِّساعِ بَعضِهم في التَّحَنُّفِ: يدُلُّ على أنَّ العرَبَ كانوا يَعلَمونَ رِسالةَ الرُّسُلِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإشارةُ إلى أنَّه لا ينبغي للإنسانِ النَّذرُ -أي: أن يَنذِرَ الطَّاعةَ؛ لأنَّه قد لا يُوَفَّقُ في القيامِ بها؛ فهؤلاء أقسَموا، ولَمَّا وُجِدَ مُوجِبُ الطَّاعةِ لم يقوموا بالطَّاعةِ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ جوابُ (لَمَّا): ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾، وفيه دليلٌ واضِحٌ على حرفيَّةِ (لَمَّا)، لا ظَرفيَّتِها؛ إذ لو كانت ظَرفًا لم يَجُزْ أن يتقدَّمَ على عامِلِها المنفيِّ بـ (ما)[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يُنبئُ عن الإحاطةِ الَّتي هي فَوقَ اللُّحوقِ، وفيه مِنَ التَّحذيرِ ما ليس في قَولِه: (ولا يَلحَقُ) أو (ولا يَصِلُ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦، ٢٤٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ المَكْرَ يكونُ سَيِّئًا ويكونُ حَسنًا، وهو كذلك؛ فإنَّ مَكْرَ اللهِ تعالى بأعدائِه الَّذين يَمكُرونَ به: مَكرٌ حَسَنٌ يُثنى عليه به، ومَكْرُ أولئك سَيِّئٌ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أنَّ مَن أرادَ السُّوءَ حاقَ به السُّوءُ، وفي المثلِ المشهورِ[2]: «مَن حَفَرَ لأخيه حفرةً وَقَعَ فيها»؛ فالإنسانُ إذا أرادَ المَكْرَ -والعياذُ باللهِ- فإنَّ مَكرَه يَحيقُ به[3]. عن محمَّدِ بنِ كعبٍ قال: (ثلاثٌ مَن فعَلَهُنَّ لم يَنْجُ حتَّى يُنزَلَ به: مَن مَكَر، أو بغَى، أو نَكَث)، ثمَّ قرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[4] [الفتح: ١٠].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فيه سُؤالٌ: كثيرًا ما نرى أنَّ الماكِرَ يَمكُرُ، ويُفيدُه المَكرُ، ويَغلِبُ الخَصمَ بالمَكرِ، والآيةُ تدُلُّ على عدَمِ ذلك؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المكرَ المذكورَ في الآيةِ: هو المكرُ الَّذي مَكَروه مع النَّبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٧).

قال ابن القيِّم: (المكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمُخادَعةُ، ولكنَّه نَوعانِ: قبيحٌ، وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستحِقُّه. وحَسَنٌ، وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عُقوبةً له؛ فالأوَّلُ مذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عدلًا منه وحِكمةً). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((الأمثال)) لابن سلَّام (ص: ٢٧٠)، ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (٢/ ٢٨٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/ ٢٩٧)، ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٧).

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٦).

صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مِن العزمِ على القَتلِ والإخراجِ، ولم يَحِقْ إلَّا بهم؛ حيثُ قُتِلوا يومَ بَدرٍ وغَيرِه، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ الأمورَ بعواقِبِها، ومَن مَكَر به غَيرُه، ونَفَذَ فيه المكرُ عاجِلًا في الظَّاهِرِ؛ ففي الحقيقةِ هو الفائزُ، والماكِرُ هو الهالِكُ، وذلك مِثلُ راحةِ الكافِرِ ومَشقَّةِ المسلمِ في الدُّنيا، ويُبيِّنُ هذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، يعني: إذا كان لمَكرِهم في الحالِ رَواجٌ، فالعاقِبةُ للتَّقْوى، والأمورُ بخواتيمِها، فيَهلِكونَ كما هلَكَ الأوَّلونَ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ دليلٌ على أنَّ هذا مِن مُقتضَى حِكمتِه سُبحانَه، وأنَّه يَقضي في الأمورِ المُتماثِلةِ بقَضاءٍ مُتماثِلٍ لا بقَضاءٍ مُخالِفٍ؛ فإذا كان قد نَصَرَ المؤمِنينَ لأنَّهم مُؤمِنون، كان هذا مُوجِبًا لنَصرِهم حيث وُجِدَ هذا الوصفُ، بخِلافِ ما إذا عَصَوا ونَقَضُوا إيمانَهم، ولهذا قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، فعَمَّ كلَّ سُنَّةٍ له، وهو يَعُمُّ سُنَّتَه في خَلْقِه وأمْرِه في الطبيعيَّاتِ والدِّينيَّاتِ(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ رَدٌّ على مَن يَجعَلُ اللهَ يَفعَلُ بمجرَّدِ إرادةٍ تُرَجِّحُ أحدَ المتماثلَينِ بلا مُرَجِّحٍ! فإنَّ هؤلاء ليس عندَهم له سُنَّةٌ لا تَتَبَدَّلُ، ولا حِكمةٌ تُقصَدُ! وهذا خلافُ النُّصوصِ والعُقولِ؛ فإنَّ السُّنَّةَ تقتضي تماثُلَ الآحادِ، وأنَّ حُكمَ الشَّيءِ حُكمُ نَظيرِه؛ فيقتضي التَّسويةَ بينَ المُتماثِلاتِ، وهذا خِلافُ قَولِهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((الرَّد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٩١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ كمالُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحِكمتِه؛ حيثُ إنَّ سُنَّتَه لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ؛ وجْهُ كونِها من كَمالِ القُدرةِ: أنَّ العاجزَ لا يَستطيعُ أنْ يَجعَلَ أفعالَه على وتيرةٍ واحدةٍ، بل قد تَتخلَّفُ وتَتغيَّرُ؛ لعَجْزِه عن الاطِّرادِ، وأمَّا كَونُه من تمامِ الحِكمةِ فلأنَّ مُعاقَبةَ السَّابِقينَ كانت لسبَبٍ، وهذا السَّبَبُ إذا وُجِدَ في الآخِرينَ فإنَّه يَعمَلُ عمَلَه؛ لأنَّ مُقتضَى الحِكمةِ أنَّ الأسبابَ لا تَتخلَّفُ عنها مُسبَّباتُها[1].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾، وسُنَّةُ اللهِ في الأوَّلينَ، الَّتي لا تُبدَّلُ ولا تُغيَّرُ: أنَّ كُلَّ مَن سار في الظُّلمِ والعِنادِ، والاستِكبارِ على العِبادِ: أنْ يُحِلَّ به نِقمَتَه، وتُسلَبَ عنه نِعمتُه؛ فلْيَترقَّبْ هؤلاء ما فُعِلَ بأولئك[2].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استِعمالُ القياسِ؛ فيَقيسُ حالَ هؤلاءِ بحالِ الأوَّلينَ الَّذين كذَّبوا فعُوقِبوا[3].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنَّ في التاريخِ عِبَرًا يَعتَبِرُ بها العاقلُ[4].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ استِعمالُ قياسِ الأَولى؛ فإذا كان اللهُ تعالى أهلَكَهم مع كَونِهم أشدَّ منهم قُوَّةً، فإنَّ إهلاكَ هؤلاءِ من بابِ أَولى[5].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ مِن صفاتِ اللهِ تعالى ما يكونُ سلبيًّا -أي: منفيًّا عن اللهِ-، والقاعدةُ العامَّةُ: «أنَّ كلَّ صفةِ نقصٍ؛ فهي منفيَّةٌ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، كما أنَّ كلَّ صفةِ كمالٍ فهي ثابتةٌ له»(١).

١٦- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنفي شيئًا عن نَفْسِه إلَّا لثُبوتِ كَمالِ ضِدِّه؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾، فيُستفادُ من ذلك: أنَّ كُلَّ صفةٍ مَنفيَّةٍ عن اللهِ لا يُرادُ منها مجرَّدُ النَّفْيِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ النَّفيِ المَحْضِ ليس فيه فائدةٌ؛ إذ إنَّ النَّفيَ المَحْضَ عدمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ليس بشَيءٍ، فضلًا عن أنْ يكونَ كَمالًا، ولأنَّ النَّفيَ قد يكونُ سَبَبُه العجزَ، كما قال الشَّاعِرُ(٢):

قُبَيِّلَةٌ لا يَغدِرونَ بذِمَّةٍ ... ولا يَظلِمونَ النَّاسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

فهذا ذَمٌّ؛ لأنَّهم -لِعَجزِهم- لا يَستطيعونَ، فلا يَظلِمونَ النَّاسَ، ولا يَغدِرون بالذِّمَم، وقد يكونُ سببُه عدمَ القابليَّةِ، لا للكَمالِ، ولكنْ لأنَّه غيرُ قابلٍ لهذه الصِّفةِ، كما لو قُلتَ: «إنَّ جدارَ بيتِنا لا يَظلِمُ»، فهو صَحيحٌ أنَّه لا يَظلِمُ أحدًا، لكنْ لا لأنَّه كامِلُ العَدْلِ، ولكِنْ لأنَّه لا يَقبَلُ صِفةَ الظُّلْمِ، فنَفْيُها عنه كثُبوتِها له، حتَّى لو قلتَ: «جدارُنا يَظلِمُ» فلا أحدَ يُصَدِّقُك؛ إذَنْ: فصفاتُ اللهِ المَنفيَّةُ الَّتي يُسمِّيها العُلَماءُ -رَحِمَهم اللهُ- السَّلبيَّةَ: تَتضَمَّنُ كمالَ الضِّدِّ، يعني: لِكَمالِ عِلمِه وقُدرَتِه فلا يُعجِزُه شَيءٌ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ(٣).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ فأثبتَ سُبحانَه للعبدِ كَسْبًا، والجَبريَّةُ يقولون: «إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على العَمَلِ لا يستطيعُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٩).

(٢) هو النجاشي، واسمُه: قيسُ بنُ عَمرِو بنِ مالكٍ، مِن بني الحارثِ بنِ كعبٍ. يُنظر: ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (١/ ٣١٧، ٣١٩)، ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٩).

يَكتسِبَ، بل يُجبَرُ على أنْ يَعمَلَ خَيرًا أو شَرًّا»[(١)]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تمامُ قدرةِ اللهِ تعالى؛ حيث يَقْدِرُ على إهلاكِ العالَمِ بلحظةٍ[(٢)]!

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُشيرُ إلى كَمالِ حِلمِه تعالى، وشِدَّةِ إمهالِه وإنظارِه أربابَ الجرائمِ والذُّنوبِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جَهْدُ الأيْمانِ هنا كِنايةٌ عن تَأْكيدِها[(٤)].

- وفي قَولِه: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ عبَّرَ عن الرَّسولِ بالنَّذيرِ؛ لأنَّ مُجادَلةَ أهْلِ الكِتابِ للمُشرِكينَ كانتْ مُشتَمِلةً على تَخويفٍ وإنْذارٍ؛ ولذلك لم يَقتصِرْ على وَصْفِ النَّذيرِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[(٥)] [المائدة: ١٩].

- قولُه: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ إحْدَى الأُممِ هي أُمَّةٌ غيرُ مُعيَّنةٍ من الأُممِ ذاتِ الدِّينِ: إمَّا الأُمَّةُ النَّصرانيَّةُ، وإمَّا الأُمَّةُ اليَهوديَّةُ، أو الصَّابئةُ، وكان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٢).

التَّعبيرُ عنها بـ ﴿إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ إبهامًا لها يَحتمِلُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ المُقْسِمينَ؛ تَجنُّبًا لمُجابَهةِ تلك الأُمَّةِ بصَريحِ التَّفضيلِ عليها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ القُرآنِ على عادةِ القُرآنِ في التَّرفُّعِ عمَّا لا فائدةَ في تَعْيينِه؛ إذِ المَقصودُ أنَّهم أشهَدوا اللهَ على أنَّهم إنْ جاءَهم رسولٌ يَكونوا أسبَقَ مِن غَيرِهم اهتِداءً، فإذا هُم لم يَشَمُّوا رائحةَ الاهتداءِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ فريقٌ مِن المُشركينَ نَظَروا في قَسَمِهم بهَدي اليهودِ، وفريقٌ نَظَروا بهَدي النَّصارَى، وفريقٌ بهَدْيِ الصَّابئةِ؛ فجمَعَتْ عِبارةُ القُرآنِ ذلك بقَولِه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾؛ لِيأتيَ على مَقالةِ كُلِّ فريقٍ مع الإيجازِ[1].

- في قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بائتِلافِ اللَّفظِ مع المَعْنى، أي: أنْ تكونَ أَلْفاظُ المَعْنى المرادِ يُلائِمُ بعضُها بعضًا، ليس فيها لَفظةٌ نافِرةٌ عن إخْوانِها، غَيرُ لائِقةٍ بمَكانِها، أو مَوْصوفةٌ بحُسنِ الجِوارِ بحيثُ إذا كان المَعْنى غَريبًا قُحًّا، كانتْ أَلْفاظُه غَريبةً مَحْضةً، وبالعَكسِ، ولَمَّا كانت جَميعُ الأَلْفاظِ المُجاورةِ للقَسَمِ في هذه الآيةِ كُلِّها مِن المُسْتعمَلِ المُتداوَلِ، لم تَأْتِ فيها لَفْظةٌ غَريبةٌ تَفتقِرُ إلى مُجاوَرةِ ما يُشاكِلُها في الغَرابةِ[2].

- والاستِثْناءُ في قولِه: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ مُفرَّغٌ مِن مَفعولِ ﴿زَادَهُمۡ﴾ المحذوفِ، أي: ما أفادَهم صلاحًا وحالًا أو نَحوَ ذلك إلَّا نُفورًا؛ فيكونُ الاستثناءُ مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّهم لم يَكونوا نافِرينَ مِن قبْلُ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٣).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

- قولُه: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستكبارُ: شِدَّةُ التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتاءُ فيه للمُبالَغةِ، مِثلُ استَجابَ[1].

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ تَذييلٌ أو مَوعِظةٌ، وفيه حَذفُ مُضافٍ تَقديرُه: ضُرُّ المكرِ السَّيِّئِ، أو سُوءُ المكْرِ السَّيِّئِ، كما دلَّ عليه فِعلُ ﴿يَحِيقُ﴾، فإنْ كان التَّعريفُ في المَكْرِ للجِنْسِ كان المرادُ بـ (أهْلِهِ) كُلَّ ماكِرٍ، وهذا هو الأنسَبُ بمَوقِعِ الجُمْلةِ ومَحملِها على التَّذييلِ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَكرٍ وكلَّ ماكرٍ، فيَدخُلُ فيه الماكِرون بالمُسلِمينَ مِن المُشرِكينَ؛ فيَكونُ القَصرُ الَّذي في الجُمْلةِ قَصرًا ادِّعائيًّا[2] مَبنيًّا على عَدَمِ الاعتِدادِ بالضُّرِّ القليلِ الَّذي يَحيقُ بالمَمْكورِ به بالنِّسبةِ لِمَا أعدَّه اللهُ للماكِرِ في قَدَرِه مِن مُلاقاةِ جَزائِه على مَكْرِه[3].

- وإذا كان تَعريفُ المَكْرِ تَعريفَ العَهدِ، كان المَعْنى: ولا يَحيقُ هذا المَكرُ إلَّا بأهْلِه، أي: الَّذين جاءَهم النَّذيرُ فازْدادوا نُفورًا؛ فيَكونُ مَوقِعُ قَولِه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ مَوقعَ الوعيدِ بأنَّ اللهَ يَدفَعُ عن رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَكْرَهم، ويَحيقُ ضُرُّ مَكْرِهم بهم بأنْ يُسلِّطَ عليهم رَسولَه على غَفلةٍ منهم، فالقَصرُ حَقيقيٌّ؛ ففي الجُمْلةِ إيجازٌ[4].

- وفي قَولِه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بإرْسالِ المَثَلِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٨). =

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ تفريعٌ على جُمْلةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الآية. ويجوزُ أنْ يكونَ تفريعًا على جُمْلةِ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، على أنَّ تعريفَ المكرِ للعهدِ، والخِطابُ في ﴿تَجِدَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، فيَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، وبذلك يَتسنَّى أنْ يَسيرَ هذا الخَبَرُ مَسيرَ الأمثالِ، وفي هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتهديدٌ للمُشرِكينَ(١).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فاءٌ فَصيحةٌ؛ لأنَّ ما قبْلَها لَمَّا ذكَّرَ النَّاسَ بسُنَّةِ اللهِ في المكذِّبينَ، أفصَحَ عن اطِّرادِ سُنَنِ اللهِ تعالى في خلْقِه، والتَّقديرُ: إذا عَلِموا ذلك فلنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا. و(لن) لتأكيدِ النَّفيِ(٢).

- قَولُه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ التَّبديلُ: تَغييرُ الشَّيءِ عمَّا كان عليه مع بَقاءِ مادَّتِه، والتَّحويلُ: نقْلُه من مكانٍ إلى آخَرَ، وقال ذلك مع أنَّ سُنَّةَ اللهِ لا تُبدَّلُ ولا تُحوَّلُ؛ لأنَّه أرادَ بالأوَّلِ أنَّ العذابَ لا يُبدَّلُ بغَيرِه، وبالثَّاني أنَّه لا يُحوَّلُ عن مُستحِقِّه إلى غيرِه، وجُمِعَ بيْنَهما هنا تَتميمًا لتهديدِ المُسيءِ لقُبحِ مَكْرِه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(٣).

- و(سُنَّةُ الأوَّلينَ) أُضيفتْ أوَّلًا إليهم؛ لأنَّها سُنَّتْ بهم، ثم أُضيفتْ (السُّنَّةُ) ثانيًا إلى اللهِ؛ لأنَّه هو الَّذي سنَّها، وبيَّنَ تَعالى أنَّ الانتِقامَ مِن مُكَذِّبي الرُّسُلِ

= وإرسالُ المثَلِ: عِبارةٌ عن أن يأتيَ المُتكلِّمُ في بعضِ كلامِه بما يَجري مجرى المَثَلِ السَّائرِ؛ من حِكمةٍ، أو نَعتٍ، أو غيرِ ذلك. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٢٧) و(٤/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٠).

عادةٌ لا يُبدِّلُها بغَيرِها، ولا يُحوِّلُها إلى غيرِ أهْلِها، وأنَّ ذلك كائن لا مَحالةَ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ هذا استِشهادٌ على ما قبْلَه مِن جَرَيانِ سُنَّتِه تعالى على تَعذيبِ المُكذِّبينَ بما يُشاهِدونَه، واستِدلالٌ على أنَّ مُساواتَهم للأوَّلينَ تُنذِرُ بأنْ سيَحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك مِن نَوعِ ما يُشاهِدونَه مِن آثارِ استِئْصالِهم في دِيارِهم[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ للإنكارِ والنَّفيِ[3].

- وقولُه: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في (الرُّوم): ﴿كَانُوا أَشَدَّ﴾ [الروم: ٩] مِن غَيرِ واوٍ، وهنا بزيادةِ الواوِ؛ قيل: وجْهُ ذلك أنَّ الجُملةَ في سُورةِ (الرُّوم) استِئنافُ إخبارٍ عمَّا كانوا عليه، وهنا: ﴿وَكَانُوا﴾ أي: وقد كانوا؛ فالجُملةُ حالٌ، فهُما مَقصدانِ[4].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لَمَّا عَرَض وصْفَ الأُمَمِ السَّابقةِ بأنَّهم أشدُّ قُوَّةً مِن قُريشٍ في مَعرِضِ التَّمثيلِ بالأوَّلينَ تَهديدًا واستِعدادًا لِتلَقِّي مِثلِ عذابِهم؛ أتْبَعَ ذلك باحتِراسٍ عن الطَّماعيةِ في النَّجاةِ مِن مِثلِ عَذابِهم بعِلَّةِ أنَّ لهم مِن المنجِّياتِ ما لم يكُنْ للأُمَمِ الخاليةِ، كزَعْمِهم: أنَّ لهم آلهةً تَمنَعُهم من عَذابِ اللهِ بشَفاعتِها أو دِفاعِها؛ فقيل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وجِيءَ بلامِ الجُحودِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣).

قَولِه: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ مع (كان) المَنفيَّةِ؛ لإفادةِ تأْكيدِ نَفْيِ كُلِّ شَيءٍ يَحولُ دونَ قُدرةِ اللهِ وإرادتِه، فهذه الجُملةُ كالاحتِراسِ[(١)].

- وقولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا يُفهَمُ مَّما قبْلَه من استِئصالِ الأُممِ السَّالفةِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ تَعليلٌ لانتفاءِ شَيءٍ يُغالِبُ مُرادَ اللهِ بأنَّ اللهَ شديدُ العِلمِ واسِعُه، لا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبأنَّه شديدُ القُدرةِ. وقد حصَرَ هذانِ الوَصفانِ انتفاءَ أنْ يكونَ شَيءٌ يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ عَجْزَ المُريدِ عن تَحقيقِ إرادتِه: إمَّا أنْ يكونَ سببُه خَفاءَ مَوضِعِ تَحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العِلمِ، أو عدَمَ استِطاعةِ التَّمكُّنِ منه، وهذا يُنافي عُمومَ القُدْرةِ[(٣)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾

- قولُه: ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ كنايةٌ عن الأرضِ، وعُلِمَ ذلك ممَّا تقدَّمَ وممَّا تأخَّرَ؛ فقد تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٤]؛ فهو أقرَبُ المذكوراتِ الصَّالحةِ لِعَودِ الهاءِ إليها، وأمَّا ما تأخَّرَ فقَولُه: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾؛ لأنَّ الدَّوابَّ على ظهرِ الأرضِ[(٤)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ: قال هنا ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨، ٣٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٩).

وفي سُورةِ (النَّحلِ) قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]؛ فقال في هذه الآيةِ: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿بِظُلْمِهِم﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ (مَا كَسَبُوا) يَعُمُّ الظُّلمَ وغيرَه. وأُوثِرَ في سُورةِ (النَّحلِ) ﴿بِظُلْمِهِم﴾؛ لأنَّها جاءت عَقِبَ تَشنيعِ ظُلمٍ عَظيمٍ مِن ظُلْمِهم، وهو: ظُلْمُ بَناتِهم المَوْءوداتِ، وهنالك قال: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ [النحل:٦١]، وهنا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾، وهو تَفنُّنٌ[1].

- وفيه أيضًا مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾، وقال هنالك في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]؛ فما هنا إيماءٌ إلى الحِكمةِ في تأخيرِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى، والتَّقديرُ: فإذا جاء أجَلُهم أخَذَهم بما كَسَبوا، ولهذا فقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ دليلُ جَوابِ (إذا) وليس هو جوابَها، ولذلك كان حَقيقًا بقَرْنِه بفَاءِ التَّسبُّبِ. وأمَّا ما في سُورةِ (النَّحلِ) فهو الجَوابُ، وهو تَهديدٌ بأنَّهم إذا جاء أجَلُهم وقَعَ بهم العذابُ دون إمهالٍ[2].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ هو أيضًا جوابٌ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ أنْ يُقالَ: ماذا جَنَتِ الدَّوابُّ حتَّى يَستأصِلَها اللهُ بسببِ ما كَسَبَ النَّاسُ، وكيف يُهلَكُ كُلُّ مَن على الأرضِ، وفيهم المُؤمِنونَ والصَّالِحونَ؟ فأُفيدَ أنَّ اللهَ أعلَمُ بعَدلِه؛ فأمَّا الدَّوابُّ فإنَّها مَخلوقةٌ لأجْلِ الإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]؛ فإهلاكُها قد يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٤٠).

إنذارًا للنَّاسِ لعلَّهم يُقلِعون عن إجْرامِهم، وأمَّا حالُ المُؤمِنينَ في حينِ إهلاكِ الكُفَّارِ، فاللهُ أعلَمُ بهم، فلعلَّ اللهَ أنْ يَجعَلَ لهم طريقًا إلى النَّجاةِ كما نجَّى هودًا ومَن معه، ولعلَّه إنْ أهلَكَهم أنْ يُعوِّضَ لهم حُسنَ الدَّارِ(١).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ تَوعُّدٌ للمُكذِّبينَ، أي: فيُجازيهم بأعْمالِهم(٢).



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السَّادسُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ السَّابعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣).



الفهرس







الفهرس



تـم الـصـف والإخـــراج فــي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠